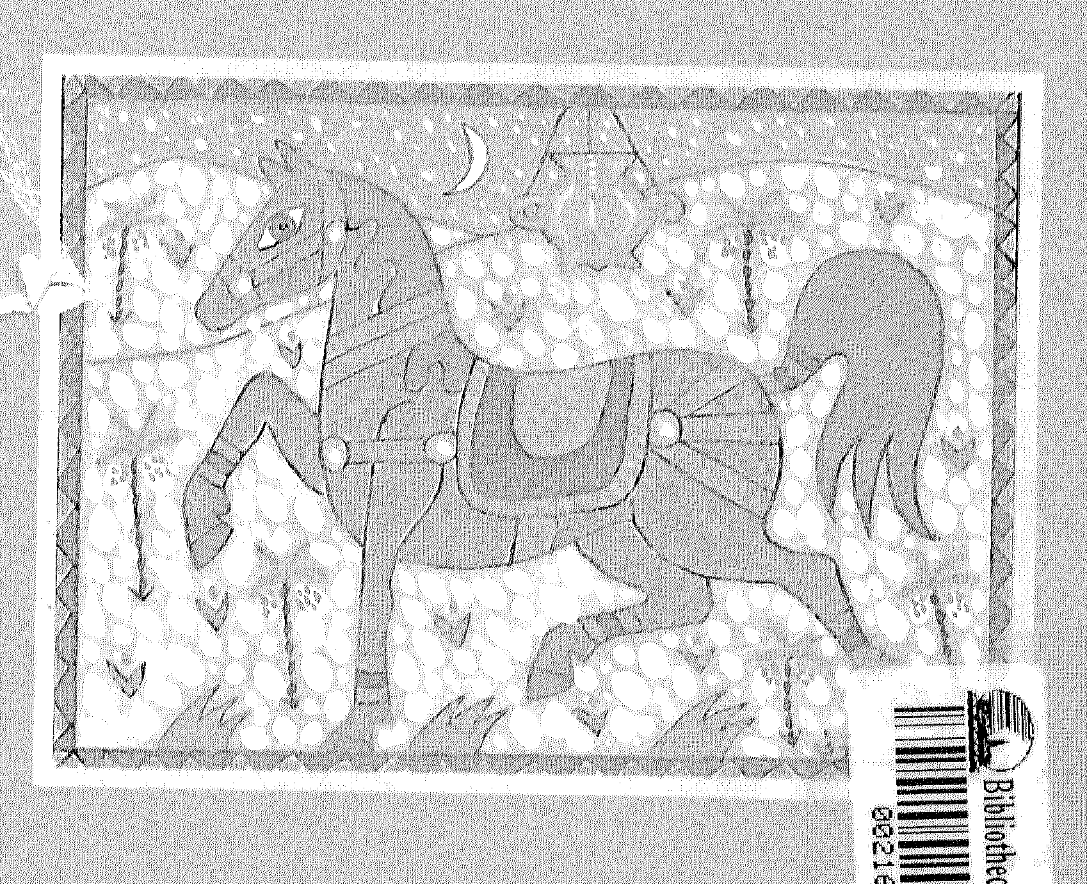
دكتور سليمان حزين

أرض العروبة

رؤية حضارية في المكان والزمان



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤٠ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

سليمان حزين

أرض العروبة

رؤية حضارية في المكان والزمان

دار الشروق



إهداء

إليك أيها العربي

حباك الله بوطن كان منبت حضارات الإنسان منذ كانت

وأنزل فوق أرضك رسالات السماء مبشرة بعقيدة الحق والتوحيد

وأقامك على موقع جغرافي ربط بين شعوب الأرض وسلالات البشر

وأفاء عليك من السجايا ما جعل منك رسول الخير والسلام في العالمين.

هذا الكتاب منك وإليك.

سليمان أحمد حزين



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحتوى

الصفحة



« ١ »

هــذا الكتــاب
والظـروف الذى ينـشر فيــه



هـــذا الكتـــاب
والظـروف الذى ينـشر فيـها

حديث الوحدة العربية والقومية العربية حديث قديم متجدد ، وهو جزء من أحاديث أصحاب ما نسميه « بالجغرافيا السياسية » منذ بدأ الناس فى عصرنا الحديث يذكرون شئون « الوحدة والقومية » بين مجموعات من شعوب العالم ، يقطنون جهات أو أوطانًا معينة من العالم ، وترتبط جماعاتهم بالأرض والبيئة ، وبالتاريخ البشري ارتباطًا جعل منهم وحدة بشرية لها مكانها فى التاريخ ، ولها دورها الخاص فى بناء الحياة والحضارة ، وصياغة مجرى الأحداث فى العصر الذى تعيش فيه . ولقد تزايد الحديث عن وحدات معينة كثيرة أطلق على بعضها فى التاريخ السياسى اسم «الأمم» كما أطلق عليها فى التاريخ الاجتماعى اسم «الجماعات» . ويهمنا فى هذا المقام حديث أمتنا العربية التى تفردت بحضارة معينة هى حضارة العرب أو حضارة الأمة العربية الإسلامية ، بعد أن جاء الإسلام وفتح عصرًا جديدًا فى حياة هذه الأمة التى اتسع تعريفها ليشمل جماعات إسلامية قريبة منها ولو لم تكن عربية النشأة ، لكن الإسلام جمع بينها كما جمعت معالم لغة القرآن الكريم ، تؤلف بينها على نحو اتسع وزاد عمقـًا وتجليـًا على مر الزمن ، حتى تداخلت الحضارة العربية والحضارة الإسلامية ، تداخلاً جعل من الصعب أن نفرق بينهما ، أو حتى أن نفهم إحدى الحضارتين دون فهم كاف للحضارة الأخرى ، حتى اختلط الحديث عن الأمة العربية بالحديث عن الأمة الإسلامية ، منذ تطرق بعض الناس إلى الحديث عن « الأمة الوسط » التى قد تكون هى التى جعلها الله « خير أمة أخرجت للناس » .

ذلك كان حديث أمتنا الأولى ، التى قامت فى قلب العالم القديم ، وتوسطت

الشرق والغرب ، بل الشمال والجنوب . ولكن هذا الحديث اتخذ صفة جديدة فى عصرنا الحديث والمعاصر حين جاءت فكرة « الأمة » وفكرة « القومية » بصورة جديدة من أوربا المعاصرة التى عرفت هاتين التسميتين عندما ظهرت فى أوربا أمم أو قوميات ذات « أوطان » استقلت عن كيانات سياسية سابقة انقسمت إلى دول أو دويلات لكل منها كيانه السياسى المستقل ، وسعت كل منها لأن تضع نفسها على الخريطة ، وتلتمس بعض أصولها القديمة فى التاريخ ، فكانت لكل منها لغتها وثقافتها وأصولها القَبَلية أو العنصرية فى بعض الأحيان . فلما جاء القرن التاسع عشر والقرن العشرون وامتدت ظلال الاستعمار من أوربا إلى المشرق وما وراءه ، جاءت فكرة القومية ومعها مفهوم التبعية ، فلما دخلت إلى مشرقنا القريب بدأت الفكرة أولاً منسوبة إلى تركيا العثمانية ، التى كانت لا تزال تسيطر على أغلب بلدان المشرق العربى ، ومنها مصر بالذات . وأخذ الناس يتحدثون عن قوميات جديدة. ولكن فكرة القومية العربية بالذات لم تظهر على السطح إلا متأخرًا ، وإنما اتجه المفكرون السياسيون فى المشرق العربى إلى الحديث عن القومية العثمانية أو التركية المتوارثة عن امبراطورية آل عثمان ، لدرجة أن بعض أولئك المفكرين والقادة فى مصر ذاتها فضلوا أن ينسبوا أنفسهم إلى تلك القومية العثمانية ، لأنها كانت أقرب إلى سلطان المسلمين ، ولم يجد بعض أولئك الزعماء ـ ومنهم مصطفى كامل الرائد المصرى المسلم ـ بدًا من أن يستمسكوا بركب الأمة العثمانية ، التى كانت تقوم على الإسلام وشئونه ، وتتحكم فى العروبة وأبنائها فى مختلف « الولايات » فى مصر وما جاورها إلى الشرق وإلى الغرب فى آسيا وإفريقية . واستمرت الحال على ذلك حتى قويت شوكة العروبة واشتد ساعدها ، وتجلت ثقافتها « العربية » ، وبرزت شخصية بعض الأقطار العربية ذات الحضارة القديمة التى تجددت فى العصر العربى ، ومنها مصر وسورية ولبنان وغيرها من أقطار المشرق العربى والمغرب العربى ، فظهرت فكرة « القومية العربية » واضحة متميزة وكان ظهورها على شكل « وحدات » عربية أول الأمر ، برزت فكرة « الوطنية » لارتباطها بأوطان صغيرة محددة ، ثم تطورت الفكرة فجمعت بين أوطان عربية متجاورة ، وجاءت آخر الأمر فكرة « القومية العربية » التى تشمل أكثر من قطر واحد ، وأصبحت هذه « القومية » هى ما بدأ المفكرون العرب يعربون عنه بأن القومية هى فى

الواقع « عقيدة وحركة » ، أى إنها ظهرت أول الأمر على أنها عقيدة تتصل بماضى الأمة العربية والإيمان به والاستمساك بذاته وأصوله القديمة . . . ثم إنها فوق ذلك «عمل» أو « حركة » ، لأن العقيدة ان وقفت عند حد الإيمان بها ، فإنها لا تنتقل إلى مرحلة «العمل السياسى » الذى يؤدى إلى السعى الحثيث إلى تحويل العقيدة الفكرية إلى عمل سياسى ملموس ، هو الذى اضطربت به حياة العرب ووطنياتهم وقومياتهم التى ميزت تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر .

وأول اتصال لصاحبكم بمفهوم « الوحدة العربية » ثم « القومية العربية » يرجع إلى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن ، حين ذهب صاحبكم إلى أوربا فى بعثة علمية والتمس طريقه إلى اختيار موضوع يتصل بماضى الأمة العربية من جهة ، ثم بمستقبلها المأمول من جهة أخرى . وكنا قد نشأنا فى عهد « الوطنية » المصرية ثم بدأت بشائر « القومية العربية » عن طريق ما كنا نسعى إليه من إقامة « الوحدة العربية » ، لتحل محل ما سبق إليه مفكرونا فى أوائل هذا القرن العشرين ، وعلى أيام زعيمنا مصطفى كامل ، الذى كان يسعى على طريق الوحدة العثمانية ثم تدرج إلى الوحدة الإسلامية (على أيام الزعيم الإسلامي جمال الدين الأفغاني والمفكر الأزهرى محمد عبده) ، حتى جاءت الوحدة المصرية على أيام زعيمنا الوطنى اللاحق سعد زغلول . ولكن مصر لم تلبث أن لمست طريقها إلى العروبة والوحدة العربية . . . ثم القومية العربية التى تزعمها بعض المفكرين من العرب ، فى المشرق العربى (ونذكر منهم عبد الرحمن البزاز فى العراق) ، وهكذا بدأ الحديث عن الوحدة العربية يتسع إلى خارج نطاق الوحدة والوطنية المصرية . . . وكان عهد صاحبكم بحركة التطور والتغيير هذه أن سعى فى أول عهده بأوربا (أول الثلاثينيات من هذا القرن) حين بدأ يوجه دراساته إلى أرض العرب بعامة (وأرض مصر منها بخاصة) فوجد نفسه فى مواجهة الفكر الأوربى الداعى إلى نوع ضيق من « الوطنية » الأوربية ، ما لبث بعضه أن اتجه إلى نوع خطير من التوسع الاستعمارى ، فأنشأ لكل أمة من أممه الصغيرة إمبراطورية استعمارية كبيرة خارج أوربا فيما وراء البحار ، أو (فى حالة الروسيا) فيما وراء جبال الاورال من أرض آسيا وسيبريا . . وكنا قد استشعرنا لمس اتساع بعض أفكار وطنيات أوربا وقومياتها الصغيرة إلى بلاد المشرق العربى وما حوله ، فاستشعرنا

الظلم فيما نَحَت إليه أوربا ووطنياتها وقومياتها من طغيان ينافى قواعد الوحدة الإنسانية التى عرفناها فى بلادنا التى قامت على التآخى والتكامل الحضارى . ولنا أن نتصور ما استشعره صاحبكم من خروج صارخ عن الخط الإنسانى الذى اعتاده فى بلاد العقائد السماوية السمحة، لاسيما عقيدة الإسلام ، التى لم تكد تعرف ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، والتى جمعت بين الناس جميعًا تحت مظلة إنسانية وروحية واحدة ، وعرفت المساواة والإنصاف بما لم تعرفه حضارة الغرب الحديث . وهكذا أصيب صاحبكم فيما نشأ عليه من قيم الحق والخير والتكافل بين الناس . . . . بل هكذا تجسدت أمامه فى أوربا فلسفة الأنانية التى أثارت مشاعر التنافس غير العادل ولا المتكافئ بين الأمم والشعوب ، وكان من آثار ذلك كله أن أعرض صاحبكم عن أن تبهره مظاهر الوطنية أو القومية الأوربية ، والتى تكاد تخلو من قيم الإنسانية التى اعتاد أن يراها فى بلاده . . . مصر ، التى كانت تباهى فى ثورتها الوطنية الأولى بأن تنادى بشعار «أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » وهو شعار كاد أن يؤدى بنا إلى أن نفضل أن نعطى الأجنبى من خيرات بلادنا بعض ما كان من الأولى أن نحتفظ به لأنفسنا . وما أبشع الصورة التى لم تلبث أن تكشفت لصاحبكم حين رأى أهل أوربا المعاصرة يتنعمون بخيرات بلاد غيرهم من أهل المستعمرات ولا يكادون يتركون من هذا الخير فضلة لأهله الأصليين .

وهكذا بدأت نزعة الخير التى توارثناها عن ثقافتنا وعقيدتنا تتجه بأمثالى ممن سافروا فى سبيل العلم الحديث . نحو الاستمساك بتراثنا الحضارى فى وجه المدنية والقومية الزائفة فى بلاد الغرب . وعند ذلك نقول إن الخير والأصالة إنما قاما فى المشرق وبقيا فى ربوعه ، وإن القومية التى عرفتها أوربا إنما هى قومية استعمارية قد تكون جذورها الروحية فى بلاد المشرق ولكن تطبيقاتها فى الغرب خرجت بها عن أصول الخير والإيثار والمساواة بين الناس ، حتى عرفت الظلم الإنسانى فى أبشع صوره ، وهو ما لا يجوز لشباب المشرق الخارج إلى بلاد العلم فى أوربا أن ينبهر به إلى حد النقل والمحاكاة فى مسيرته السياسية المعاصرة .

ثم عاد أمثالى من شباب المشرق الساعى إلى العلم فى المغرب . . . عادوا إلى موطن حضارتهم فى المشرق فى أواسط الثلاثينيات من القرن ، فوجدوا حركات القومية

العربية (بعد القومية الإسلامية) وقد نزعت بأبنائها فى طريق آخر هو طريق المواريث القومية العريقة التى تمتد جذورها فى التاريخ ، والتى تحاول أن تستعيد أمجادها ، فوجدتا الوحدة التى تربطنا بالأرض ، والعقيدة التى تربطنا بالسماء ، والأمجاد الوطنية التى تشدنا إلى أصلاب الحضارة والتاريخ . وبدأنا نشعر بالتالى أن حضارة الغرب إنما هى حضارة مغتربة عن أصولها ، سطحية فى ارتباطها بالأرض ، غير عميقة الإيمان فى اتصالها بالسماء ، وغير منصفة ولا مخلصة فى استمساكها بنواميس الحق أو العدل أو حتى بأواصر المساواة أو الرحمة والمعروف بين الناس أو بين الشعوب ، لاسيما إذا خرجنا عن حدود القارة الأوربية التى تعرف « القوة » ولا تكاد تعرف « الحق » . وكان طبيعيًا أن ينتهى هذا الموقف إلى متناقضات نفسية انتهت بشباب المشرق إلى أنه بدأ يبحث عن فكر وطنى وقومى يناسب بلاده ، ويختلف عن فكر أوربا الحديثة كل الاختلاف .

فى هذا الموقف عاد كثيرون من أبناء العروبة من أوربا إلى بلادهم ، فوجدوا حركة الوطنية العربية والقومية العربية تصعد نحو أوجها . وكان الحديث أول الأمر عن «الوحدة » العربية ، ولكنه ما لبث أن اتخذ صورة « القومية » العربية ، وهى التى تجمع بين عدة « وحدات » وطنية ، بعد أن شعر العرب أن الوحدات الصغيرة لا مستقبل لها فى خضم التجمعات القوية بمساحتها أو بعدد سكانها أو بقدراتها المادية والاقتصادية ، أو بأدوارها السياسية والعسكرية التى تساندها التحالفات التى بدأت تظهر إلى الوجود . وكان صاحبكم قد عاد فى أواسط الثلاثينيات من بعثته فى الخارج، ودخل إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة بعيد منتصف العقد ، وكان تلاميذه مجموعة كبيرة من الطلاب المصريين والعرب من مختلف البلاد العربية ، وكان عليه أن يدرّس لهم مادة الجغرافيا ، ولكنه توسع فى مفهوم هذه المادة التى تطورت كثيرًا فى تلك السنوات ، ودرسها هو على مفهوم جديد فى كل من انجلترا وفرنسا والنمسا وألمانيا ودخل من دراساته إلى أن الجغرافيا لم تعد علم « المعلومات » المتصلة بالطبيعة والبيئة أو بالإنسان والحياة البشرية ، بقدر ما أصبحت علم « التأمل » فى صلة الإنسان بالطبيعة ، وصلة التاريخ بالجغرافيا ، وصلة الجغرافيا بالسياسة . وقد طبق صاحبكم ما تعلم فى الخارج على ما يعلمه لتلاميذه فى كليةالآداب ، والحق إنه قامت

زوبعة طارئة فى الكلية والجامعة حين أفصح لتلاميذه عن آرائه ، حتى انتهى الأمر إلى السفارة البريطانية التى كانت تتابع ما يدرّس مما يمس السياسةالعربية ، ولكن عميد كلية الآداب إذ ذاك ـ وكان أستاذنا طه حسين ـ حسم الأمر حين وقف إلى جانب الحرية الأكاديمية وحق عضو هيئة التدريس فى أن يعلم ما يشاء على مسئوليته. وكان ذلك اختبارًا لكل من المدرس الناشئ والكلية العتيدة . وما أجدر مادة الجغرافيا بمفهومها الجديد أن تكون ميدانًا لمثل هذا الاختبار . والحق أن هذه السبيل الجديدة لعلم الجغرافيا هى التى سار عليها صاحبكم لنصف قرن كامل ، حتى جاء وقت إخراج كتابه الأخير عن « حضارة مصر أرض الكنانة » وهو صنو هذا الكتاب عن « أرض العروبة » ، وكلاهما كتاب فكر « وتأمل » قبل أن يكون كتاب بيان «معلومات » . والأمل كبير فى أن يجد قارؤهما بغيته من المادة الجغرافية وتأملاتها الجارية فى دراسات كثيرة سبقت إلى بعضها كتب « دراسية » أخرى عن جغرافيا العالم العربى .

الواقع أن هذا الكتاب كسابقه ، ليس من كتب الجغرافيا المألوفة ، وإنما هو مجموعة من التأملات عن منطقة هامة من العالم القديم ، تختلف بدورها عن بقية مناطق العالم ، ولعلها أن تكون فريدة بينها ، فليس كمثلها منطقة أخرى ، لا من حيث اتساع نطاقها بين هضاب آسيا الغربية فى إيران وبين المحيط الأطلنطى ، ولا من حيث تنوع مواردها الطبيعية والبشرية ، ولا من حيث توسط موقعها الفريد بين أهل المشرق وأهل المغرب وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، ولا من حيث اتصالاتها العريقة بين حضارات العالم القديم فى العهود السابقة ، وحضارات العالم الحديث فى عهدنا المعاصر ، ولا من حيث الدور التاريخى الذى كان لها ، حين كانت أقرب مناطق العالم إلى بدايات الحياة البشرية وظهور سلالات البشر المختلفة ، التى امتدت منها السلالات الصفراء والمغولية إلى مشرق آسيا ، والسلالات الشقراء إلى أوربا فى الشمال ، وسلالات البحر المتوسط إلى مغارب العالم القديم ، والسلالات السمراء والسوداء إلى جنوب المشرق العربى وإلى أطراف الهند وما وراءها حتى أستراليا من جهة ، ثم إلى داخلية القارة الإفريقية من جهة أخرى . كذلك فإن « وسطية » هذه المنطقة الفريدة جعلتها همزة وصل بين الشعوب والحضارات القديمة ، فهناك إلى

الشرق البعيد حضارة الصين المميزة ، وإلى الشمال من منطقتنا حضارة اليونان والبيزنطيين ومن سبقوهم فى تلك الاصقاع ، وفى داخليتها حضارة البادية والساميين والحاميين القدماء ، ثم هناك حضارة مصر الراسخة على جنبات نهر النيل ، وإلى الجنوب منها حضارات شرق إفريقية وداخلية القارة ، ثم إلى الغرب والشمال الغربى حضارات البحر المتوسط التى امتد نشاط أهلها مع السواحل إلى غرب أوربا وإلى شواطئ الأطلنطى ، ثم أخيرًا هناك إلى أقصى الغرب والجنوب الغربى حضارات إفريقية الصحراوية والسودانية وامتداداتها إلى المناطق المدارية والاستوائية . . . وهكذا تفردت تلك « المنطقة الوسيطة » فى آسيا وافريقية بأنها كانت بحق قلب العالم القديم كله . . . أرضًا وسكانًا وحضارة وتاريخًا . . . فكانت ميراثًا إنسانيًا خالدًا «للعروبة»، التى ظهرت قبل العهد الإسلامى ، واستمرت على الزمن كله ، حين أصبحت بحق همزة الوصل فى تبادل السلع والأفكار بين أهل العالم القديم جميعًا ، وتناوبت تلك الاتصالات بين الاتصال السلمى والحضارى الإنسانى حينًا ، وبين النزاع والتشاحن والحروب المحلية أو العالمية حينًا أو أحيانًا أخرى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث تجددت تلك الاتصالات والاحتكاكات فى منطقة كان مصيرها أن يختارها الله مهبطًا للأديان السماوية الكبرى جميعًا ، فيها انزلت ، ومنها انتشرت ، وأن تكون فوق ذلك وفى عهدنا الحديث محك الحضارات الحديثة التى تشابكت فيها المصالح والأهداف ، وامتد ذلك التشابك حتى اجتذب العالم الأمريكى الحديث من وراء المحيط ، وانفرد الشرق الأوسط بمعناه الأوسع الأعم ليجعل من « الأرض الوسط» نقطة التقاء العالم كله ، سلمًا وتجارة أو حربًا وشحناء . وهذه هى الصورة التى ورثها أبناء العروبة فى زمننا هذا العصيب ! .

ولنعد الآن إلى موضوع « الوحدة » العربية أو « القومية » العربية الذى اخترناه لهذا الكتاب عن « أرض العروبة » ، والذى اخترنا أن نعالجه وفق منهج ما أسميناه «بالجغرافيا الحضارية » . وهو منهج يختلف عن المنهج الجغرافى المعتاد والذى تسلكه كتب الجغرافيا بصفة عامة ، حين تسير وفق منهج المعلومات والبيانات الجغرافية التى تتناول البيئة الطبيعية ، من أرض ومناخ ونبات وموارد طبيعية متنوعة ، ثم تتناول الإنسان وحياته وعمله واستخدامه للأرض والموقع الجغرافى ونحو ذلك . أما منهج

الجغرافيا الحضارية فهو امتداد لمنهج ما نسميه أحيانًا «بالجغرافيا التاريخية » ، والذى يدرس النشاط البشرى على نحو ما تدرسه الجغرافيا البشرية العامة ، مع فارق بسيط وهو أن الجغرافيا البشرية تدرس العلاقة بين الإنسان والبيئة فى ظرف وزمن واحد معين ، وتكون الصورة التى تخرج بها عن تلك العلاقة صورة « ثابتة » أو « جامدة » تشبه الصورة الفوتوغرافية غير المتحركة . أما الجغرافيا التاريخية فإنها تدرس «العلاقة المتطورة » بين الإنسان والبيئة . وبذلك فإنها تشبه « الفيلم » المتحرك المكون من مجموعة من الصور المتلاحقة فى سرعة زمنية معينة ، تجعلها تشبه صور الخيالة المتحركة (السينما) ، ويكون تتابع الأحداث فيها هو فى حقيقته تتابعًا يصور العلاقة بين الإنسان وبيئته . ولعل الجغرافيا الحضارية أن تكون لونًا خاصًا من ألوان الجغرافيا التاريخية . . تختص بتصوير حضارة الإنسان فى تتابعها الزمنى ، وتشمل الحضارة بما فيها من جانب « المدنية » ، وهو الجانب « المادى » من مظاهر النشاط البشرى وابداع الإنسان المادى فى استغلال موارد الطبيعة ، كما تشمل جانب « الثقافة » الذى يمثل الابداع الفكرى والثقافى والأدبى والفنى الخالص للقريحة البشرية . ومن مجموع العملين « المدنى » « والثقافى » يأتلف العمل الحضارى العام .

على هذا النحو سندرس « أرض العروبة » فى هذا الكتاب ، فنتابع المكونات الإقليمية لهذه الأرض المميزة من هضاب إيران إلى شواطئ المحيط الأطلنطى ، بكل امتداداتها إلى شواطئ البحر المتوسط من جهة وإلى داخلية إفريقية السودانية والشرقية من جهة أخرى ، وقد نشير من وقت لآخر إلى امتـدادات تلك الأرض وحضـارتها (أو ثقافتها على الأقل) إلى بعض المهاجر وراء المحيطات الشمالية والجنوبية .

وسنرى فى فصول هذا الكتاب أن لكل بقعة من هذه الأرض الطيبة دورها الخاص فى بناء القومية العربية والثقافة العربية والتاريخ العربى . فالصحراء والبادية مثلاً كانت « ضمير » الأمة العربية خلال التاريخ . ففى البادية تشكلت السجايا العربية بين الأعراب والبدو وظهرت الشيم والشمائل التى امتاز بها العرب على مر العصور ، كالشهامة والنخوة والكرم والتضحية من أجل المجموع ، وغير ذلك مما عُرف عن العرب منذ قديم . والمناطق الجبلية مثلا أضفت على أهلها صفاتهم وطبائعهم التى ورثوها عن البيئة الجبلية القاسية . . . وأهل السهول والأراضى المنبسطة كانت لهم

صفة الاستقرار والمدنية والنزوع إلى طلب الرفاه والعافية . . . . وأهل السواحل كانت لهم صفة الجمع بين نشاط البر ونشاط البحر ، وكانت ثغورهم مطلاً على العالم الخارجى وراء البحار . . . . ومناطق الحدود كانت مناطق دفاع فى مواجهة حضارات أخرى وثقافات وانتماءات سياسية مختلطة . ومع ذلك فإن تنوع مصادر الثروة فى الأمة العربية كان مصدر خير وقوة . وقد عرفت الأمة العربية دائماً أن تنتقل من « التنوع » إلى « الوحدة » ، وكانت اللغة والثقافة والتعارف والتكامل والتراحم سبيل هذه الأمة إلى تلك الوحدة . وينفعنا فى هذا المقام أن نحاول دائماً أن نتعرف على « من هو العربى » ؟ « وماذا نقصد بالعروبة » ؟ والجواب على ذلك بسيط بساطة الكيان العربى التاريخى نفسه ، فالعربى لا تكتمل له عروبته إلا إذا كانت « اللغة العربية » وعاء فكره وثقافته ، وكانت « العروبة » محط « انتمائه » الوطنى والقومى . وإن « اللغة والثقافة والانتماء القومى » لهى منارات القومية العربية التى يزجى إليها هذا الكتاب ! .

ولكن مداخل الناس إلى تلمس الطريق إلى « القومية العربية » قد اختلفت وتشعبت من حين إلى حين . . . ولا تزال الطرق تختلف وتتشعب بنا خلال تاريخنا المعاصر وحتى أيامنا الحاضرة ، مما هز الثقة فى مفهومنا الأصيل والعتيد للوحدة العربية والقومية العربية . ونلاحظ فى هذا الشأن أن مدخلنا إلى مفهوم القومية منذ العقود الأولى من هذا القرن كان هو المدخل السياسى . فكان الزعماء يسعون إلى تحديد مفهوم القومية العربية بل ومفهوم الوطنية أيضًا ـ على أساس سياسى ، هو الذى صاحب استقلال بعض الأقطار العربية وانحسار ظل الاستعمار عنها . . ومن هنا فقد كان الاعتزاز باستقلال الوطن ثم ترابط الأوطان المتجاورة بعضها مع بعض فى صورة وطنيات تناظر تلك التى عرفتها أوربا الحديثة والمعاصرة ، ثم انتشار تلك الأفكار السياسية نتيجة للاحتكاكات والمشاحنات العالمية التى بدأت تعم العالم (بما فيه عالمنا العربى) . . . كل ذلك جعل فكرة الوطنية والقومية تتبلور فى العالم العربى إقليمياً بعد إقليم ، وبدأت الحركات السياسية وما يأتى فى أثرها أو يدفع إليها من ثورات محلية أو إقليمية . . . بدأت كلها تصب فى تيار القوميات الناهضة . وهذا دفع إلى ظهور فكرة الأحزاب السياسية التى يضع كل منها برنامجه للعمل الوطنى

وبناء القوميات ، ثم التصدى للدفاع عنها ، حتى ولو انتهى الأمر إلى قيام المنازعات السياسية بين الإخوة والجيران . وفى خضم هذا التسابق إلى بناء القوميات ظهر اتجاه إلى أن القومية لا يمكن أن يكتفى فى إقامتها بالحوار السياسى ، وإنما ينبغى لأن يساندها جدل مادى اقتصادى أو حتى عسكرى . وهنا انتقلنا من فكرة « الزعامة السياسية » إلى فكرة « القيادة العسكرية » ، وقامت مشاحنات انقلب بعضها ، كما رأينا أخيرًا فى حدودنا الشرقية ، وعلى أعتاب مشرقنا العربى ، من محاولة فرض «الوحدة » على رأس الخليج العربى ، منطلقة من أرض العراق التى لم تكن فى تاريخها تمثل نقطة انبعاث « للوحدة » العربية بمفهومها فى العهد الوسيط أو العهد الحديث أو المعاصر ، بقدر ما كانت تمثل « أرض الاحتكاك » ، بل تمثل « طرف » العروبة أو «كتفها » حيث تصطك العروبة مع جيرانها ، بل وغرمائها التاريخيين فى أرض إيران ، وحيث تناوب التاريخ بين النجاح فى صد العدوان أو الانهيار أمامه ، مما أدى إلى طغيان الفرس الأقدمين على أرض العراق ورضوخ هذا الركن من الأرض العربية إلى طغيان الأشوريين وأخلافهم . . . ثم تكرر ذلك فى عهد التتر والمغول ، وعهد تحريق بغداد فى القرن الثالث عشر الميلادى (عام ١٢٥٨) حتى شاء الله لمشرق عالمنا العربى آنذاك أن ينقذه خير أجناد الأرض من مصر ، وهزيمة التتر عند عين جالوت وانقاذ يوم الإسلام كله . . ومع ذلك فقد استبدت فكرة الزعامة والقيادة العسكرية ببعض قادة العراق المحدثين ، فأرادوا أن يفرضوا الوحدة من جانبهم على أرض الكويت ورأس الخليج . . ومن هناك إلى مشرق السعودية وأرض البترول ! .

هذه هى الصورة التى تواجهنا فى أيامنا الجارية . . . وهى صورة ترتبت على اعتماد مفهوم « الزعامة » « والقيادة » فى توجيه مسيرة الوحدة والقومية العربية ، حتى ولو تم ذلك عن طريق القوة والقسر . . . وهو مفهوم خطير لا يمكن أن يأخذ به أهل «الفكر » السليم وأهل « الانتماء » الصادق للقومية العربية فى عهدنا المعاصر . وما ذلك إلا لسببين أساسيين وحاكمين : أولهما أن العربى بصفة عامة، والبدوى من أبنائه بصفة خاصة، لم يعرف فى تاريخه الفكرى والثقافى الممتد على القرون غير «الحرية» «والفردية » . فابن البادية بطبيعته يعرف الانتماء للقبيلة ولكنه لا يحب أن «يقاد » ولا يقبل أن « ينقاد » . وواقع الأمر أن كل بدوى فى باديته « سلطان زمانه »

وهو مستعد كل الاستعداد أن يضحى بحياته وبكل ما يملك من نفس وولد ومال من أجل «قبيلته» ، ولكنه لا يكاد يعرف « سلطان الحكومة وسلطانها » وسلطتها إلا فى أضيق الحدود، بل ولا يكاد يعترف « بالحكومة » بمفهومها المدنى الحديث ، وأمثلة ذلك كثيرة فى أرجاء دولنا العربية ، وحتى فى بعض البلاد التى قد تغلب عليها فكرة «الحضرية » (كما هى الحال فى مصر) فإن الشعب يحب دائمًا أن يحتفظ بحريته الفردية ولو اضطر إلى أن ينزع فى نقده للسلطان إلى « النكتة » يطلقها على الحاكمين ، لاسيما إذا كانوا من غير أبناء جلدته (كما حدث فى العهد التركى) .

أما العامل الثانى ـ وهو ما لم يدركه دعاة القوة فى فرض الوحدة من بعض الزعماء المعاصرين . هذا العامل الثانى هو أن العرب بحكم موقعهم الجغرافى ، لا ينفردون بأمور مشرقهم العربى أو موقعهم الجغرافى أو حتى مواردهم البترولية الحاكمة فى اقتصاديات العالم . وإنما شاء قدرنا أن يسعى إلينا الطامعون من أدنى الأرض أو من أقصاها ليشاركونا فى تصريف أمورنا . حتى وإن كرهنا ذلك . ومن هنا فإن الخطر لم يلبث أن تفاقم عندما طمع العراق فى أرض الكويت وما وراءها ، حيث أدى ذلك إلى تدخل أجنبى اتخذ صورة تحالف دولى ضد العدوان ، حتى انتهى أمر ذلك كله إلى حرب خاطفة ، لعلنا نكون قد وعينا درسها التاريخي، مما لا داعى لأن نستطرد فيه .

ولكن الدرس الكبير لا يقتصر على ما انتهى إليه العدوان من خسارة وهزيمة . . . وإنما هو درس ينبغى أن نعيه ، فنصحح مسارنا على طريق الوحدة والقومية العربية الحق ، فندرك أن طريق الوحدة السياسية المفروضة بالضغط هو ذاته سبيل « القوة » التى يرفضها الرأى العام العربى ، وتأباها الطبيعة العربية التى تقدس الحرية الفردية . . . بل كذلك لا يقبلها الرأى العام الدولى والعالمى . . . وذلك الرأى هو الذى ينزع بحكم مقتضيات التضامن الدولى واحترام الشرعية الدولية فى علاقات الدول بعضها ببعض التماسًا للسلامة والسلام العالمى قبل أى اعتبار آخر . . . وهو أسلم الطرق للحفاظ على توازن القوى فى العالم ، خصوصًا بعد انقضاء عهد الحرب الباردة ، وهبوب رياح التغيير والمهادنة بين شعوب القوى الكبرى فى العالم . ومع ذلك ينبغى أن نذكر أن تجربة عدوان العراق غير المبرر قد مست إيمان بعض المتهيبين

بين ظهرانينا ، فخشوا أن يفقد العرب ثقتهم بأنفسهم، وبأنهم ورثة أخطر موقع جغرافى فى العالم بين قوى الشرق والغرب ، وبذلك يهن الضعفاء منهم فتغلبهم «مظاهر » الضعف فى حياتهم ، فينسوا أن أرض العروبة فيها رغم الظرف الطارئ «مكامن » للقوة هى التى تحدد مصير الأمة العربية ، بل هى التى ترسم طريقها إلى المستقبل . ولعل هذا أن يكون وراء ما استشعره صاحبكم من أن هذا الوقت ، وهذا الظرف بالذات ، قد يكون أنسب الأوقات وأدعى الظروف إلى أن نكشف الطريق ونحذر من هذا الخطر الذى يثير «أزمة الثقة» بالنفس العربية ، خصوصًا بعد أن تخاذلت بعض العناصر العربية ، ودعت إلى تلمس العافية ومحاولة تسوية هذه الأزمة التاريخية الخطيرة عن طريق ما اسمى «بالحلول العربية ـ العربية » التى لم تخرج فى أهدافها المستورة عن أن تكون تسوية على حساب « المجنى عليه » لصالح « الجانى» . وهو أمر لا يتفق وتقاليد العروبة منذ يومها القديم الأول ، وخلال تاريخها الطويل المستمر ، والتى تجعل نصرة الحق على الباطل مبدأ أساسيًا من مبادئ التقليد العربى والعرف الإسلامى فى آن واحد ! .

لعل هذا الظرف هو الذى حفز صاحبكم على أن ينشر هذا الكتاب فى هذا الوقت بالذات . فقد سبق له أن نشر بعض جوانبه فى صورة بحوث عربية تتناول بعض المسائل فى اتصالها بالقومية العربية والوحدة العربية الإقليمية أو الشاملة . ولكنه وقد أحس خطورة الأزمة التى أثارها العراق عند رأس الخليج العربى . . . وخطورتها على الرأى العام المستنير فى عالمنا العربى بصفة خاصة . . . سعى إلى أن ينشر على الناس قصة أرض العروبة كاملة فى صورة هذا الكتاب الشامل ، لعله بذلك أن يقوم ببعض ما يوجبه عليه علمه بنبأ هذه الأرض خلال التاريخ ، وانقطاعه لدراسة هذا النبأ وكشف بعض أسراره وخوافيه خلال نصف قرن كامل من الزمان أو ما يزيد . أن يقضى بعض ما يفرضه عليه هذا العلم من زكاة واجبة فى وقتها ، وذلك بأن يعرض هذا النبأ وملابساته والتزاماته بالنسبة لكل من انتهى إليه علمه . . وبذلك وحده يمكن أن يبرئ ذمته ، وأن يقول كلمة الحق خالصة لوجه الله ووجه العلم ووجه الوطن .

وقد تكون صفوة القول فى هذا المقام وفى سبيل بناء « الوحدة العربية » التى دعونا

إليها بصدق منذ أوائل الثلاثينيات من هذا القرن العشرين . . . والتى نادى بها بعض أسلافنا من أهل الفكر والوطنية قبل ذلك . . . إنما هو بالتواضع على أن تكون سبيلنا إلى ذلك هى سبيل تلمس « الريادة » الفكرية ، فيكون كل عارف منا بأسرار القوة العربية فى أرض العرب ، وكل قادر على أن يلتمس ريادة فكر الناس وينير السبيل إلى بعث الروح العربية فى أرض العرب وبين جماهير المتعلمين منهم بصفة خاصة . . . على هؤلاء جميعًا أن يسعوا على طريق « الريادة » بدلاً من السعى على طريق ما تعارف عليه غيرنا من أن « الوحدة » إنما تقام بالدعوة السياسية الدائبة والدائمة ، أو عن طريق « القوة » التى تفرض الوحدة والقومية على الناس ، حتى ولو كان ذلك بحد السيف ! فتلك طريق عفى عليها الزمن ، وجربناها وكانت نتيجتها أن جرتنا إلى حافة الهاوية ، أو كادت أن تنتهى بنا إلى ذلك . وقد انتهى عهد الإغراء بالسياسة والإثارة السياسية ، وعهد القسر والدفع بالقوة والسلطان. . . . ولم يبق أمامنا إلا أن ننبذ أسلوب « الزعامة » وأسلوب « القيادة » وأسلوب « العسكرية » وأن نعود إلى الطريق الحقة . . . . طريق « ريادة » الناس إلى الوحدة وإلى القومية وإلى النور .

« وعلى الله قصد السبيل »

سليمان أحمد حزّين



« ٢ »

المناطق الحضارية فى العالم القديم

(قبل العهد العربى)



المناطق الحضارية فى العالم القديم
(قبل العهد العربى)

كان بطليموس الجغرافى المصرى فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى ، أول من قسم العالم القديم إلى أقاليم جغرافية تمتد من الغرب إلى الشرق . بادئًا من الإقليم الاستوائى فى الجنوب وهو الإقليم الأول ومتجهًا إلى الأقاليم الثانى والثالث وما بعدهما إلى الشمال . كما أن بطليموس قد قسم هذه الأقاليم إلى مناطق متتابعة من الغرب إلى الشرق ، فجعل العالم الذى يعرفه فى ذلك الوقت منقسماً إلى ما يشبه المربعات التى يفصل بعضها عن بعض خطوط العرض والطول . وهو تقسيم هندسى استطاع به ذلك الجغرافى القديم أن يبسط خريطة العالم وأقاليمه إلى مناطق فى صورة سمحت للجغرافيين الذين جاءوا بعده باتباع منهجه الهندسى الذى قام فى أساسه على قياس مبسط من حيث الاتجاه من خط الاستواء جنوبًا (وهو الذى اعتبره بطليموس الحافة الجنوبية « للأراضى المعروفة » ، وعلى أساس مكانى بحسب تتابع المناطق من المحيط فى الغرب متجهين إلى أقصى الأراضى والبحار المعروفة فى أقصى المشرق .

ولقد تطور هذا النظام فى تقسيم العالم إلى أقاليمه ومناطقه حتى جاءت الجغرافيا الحديثة ، فى القرن الماضى وهذا القرن العشرين ، فلجأت إلى تحديد الأقاليم والمناطق على أساس يستند إلى عناصر أصبحنا نسميها بالجغرافيا الطبيعية التى تشمل التضاريس والمناخ وتوزيع اليابس والماء ، وتوزيع الغطاء النباتى والغطاء الحيوانى على سطح الأرض . وأصبحت بذلك حدود الأقاليم والمناطق متداخلة وبعيدة عن النظام الهندسى الذى وضعه بطليموس ، بل إن الحدود بين الأقاليم

والمناطق أصبحت معقدة أشد التعقيد ، وتكاد تختلف فى تفاصيلها من جغرافى إلى آخر ، بل وتكاد لا يربط بينها التوزيع القائم بين ما أصبحنا نعرفه بالمناطق الجغرافية الكبرى ، مثل المنطقة الاستوائية والمنطقة المدارية والمنطقة شبه المدارية والمنطقة المعتدلة والمنطقة المعتدلة الباردة والمنطقة الباردة والمنطقة القطبية . كذلك ظهرت الأقاليم الجغرافية الكبرى أو الصغرى ، بحسب ما يستهدفه الجغرافى من العناية بالتفاصيل الجغرافية .

ولكننا فى هذا البحث سننحى منحى جغرافيًا خاصًا ، أو هو فى الحقيقة يجمع بين الأصول الجغرافية الطبيعية والبشرية معًا ، بل وننحى أحيانًا إلى الربط بين قواعد الجغرافيا ومقتضيات التاريخ وأصدائه ، أو هو يستند بصفة أساسية إلى ما يمكن أن نسميه بالمنحى الحضارى لحياة الإنسان على الأرض .

وبذلك فإننا سنقسم العالم القديم إلى مناطق « حضارية » امتازت كل منها بلون معين من حضارة الإنسان ، استمر فى تلك المنطقة خلال مجموعة كبيرة وطويلة من القرون ، تبلورت فيها حياة الإنسان فى تلك المنطقة حتى اتخذت طابعها الحضارى المميز ، وإن كان هذا الطابع قد تنوعت مظاهره تنوعًا شديداً بحسب ما حققه الإنسان من ألوان الفكر والتطبيق العملى بمرور الزمن ، كما تنوعت أيضًا تنوعًا متشابكًا من منطقة صغيرة إلى منطقة صغيرة مجاورة داخل المنطقة الحضارية الكبرى . ومعنى هذا بعبارة أخرى أننا سنحاول فى هذا البحث أن نسير على درب ما أصبحنا نسميه بالجغرافيا التاريخية من الدراسات الجغرافية المعاصرة . وسنحاول بصفة خاصة أن نبرز مكانة هذه الجغرافيا التاريخية بين علوم الجغرافيا ، بعد أن أصبحت الجغرافيا علماً مركبًا غاية التركيب ، فهو يجمع فى أصوله بين علوم وأساليب علمية مختلفة ، يتصل بعضها بعلوم دراسة البيئة الطبيعية ، من جيولوجيا وجيومرفولوجيا وعلم المناخ وعلوم النبات والحيوان بل وعلم البيئة الجديد وبغيرها مما يتصل بدراسة المكان الذئ هو مسرح الحياة البشرية . كما تتصل الجغرافيا الحديثة من ناحية أخرى بالعلوم التى تدرس الإنسان من حيث إنه كائن حى (مثل علم الانثروبولوجيا وعلم السلالات البشرية وعلم الاجتماع والمجتمعات البشرية وغيرها) أو من حيث إنه إنسان يمتاز على كل ما سواه من

سائر الحيوان فى أن له حياة فكرية وروحية ودينيـة وسلوكية عالية . وحياة أخلاقية واجتماعية (هى أعلى من حيـاته المجتمعية الفطريـة) ، وحياة اقتصادية وسيـاسية عـالمية وانسـانيـة عـامة ، إلى غير ذلك مما جعل الله بـه الإنسـان سيد الخليقـة على الأرض فى هذه الحيـاة الدنيا ، والمسئـول الأول عن أمانـة هذه الحياة يـوم أن يقوم الحساب .

وإذن فإننا نأمل أن يكون هـذا التوزيع الجديد للمناطق الحضاريـة للعالم القديم مختلفـًا بعض الشىء عما درج عليـه الجغـرافيـون المحـدثـون من تقسيمات طبيعيـة للمنـاطق والأقـاليم كما وضع أسسهـا الأولى الجغـرافى المصرى الأول بطليمـوس القديم . وإننـا لنأمل أيضًا أن يجد الجغـرافيون المحدثـون فى مصر والمشرق فى هذا الأسلوب الجديد لتقسيم المنـاطق الحضارية فى العالم ما يتفق ومنحـانا الحضارى فى فهم تاريخنا ، بل وتاريخ مناطقنا الكبيرة ، ومـا يحكم صلاتها الإنسانية من عوامل بشرية وإنسانية ، فهما يجعلنا ندرك الـرباط الإنسانى بين بنى البشر فى عالمنا المعاصر الذى اتسعت فيه الاتصالات وتمكنت أسبابها ، بحيث لم يعد ممكنًا لكائن من البشر أن يعيش منعزلاً فى موطنه الصغير المحدد ، أو فى منطقتـه الجغرافية القريبة ، أو فى منطقته الجغـرافية الـواسعة ، أو حتى فى إقليمـه الجغرافى الكبير الممتـد ، وإنما هو مضطر إلى أن يعيش بعـض حياته كمـواطن عالمى تفـرض عليه ظـروف المعيشة أن يعايش العالم كله ، وأن ترتبط حيـاته ، بقدر صغير أو كبير ، بحياة سائر الخلق من البشر على سطح هذا الكوكب .

ولنعد الآن إلى ما نتصور نحن أنـه يمثل المناطق الحضارية على سطح الأرض ، وذلك بصورة مبسطـة تجعلنا ندمج التفـاصيل بعضها فى بعض ، ونخـرج بالشكل العام لكل منطقة من تلك المناطق ، وما يميزها من معالم حضارية كبرى ، يتميز بها تاريخها خلال حقبة ممتدة من الزمان .

وبيان هذه المناطق الكبرى فى العالم القديم كما يأتى بادئين بقلب العالم القديم :

١ ـ منطقة حوض النيل وشرق إفريقية .

٢ ـ منطقة شمال غرب إفريقية .

٣ ـ منطقة اليونان وجنوب شرق أوربا .

٤ ـ منطقة أرض العروبة فى جنوب غرب آسيا .

٥ ـ منطقة الهضبة الإيرانية .

٦ ـ منطقة آسيا الداخلية الوسطى والشمالية .

٧ ـ منطقة شبه القارة الهندية .

٨ ـ منطقة الصين الكبرى .

٩ ـ منطقة الملايو وجنوب شرق آسيا .

١٠ ـ منطقة جزر المحيط الهندى .

١١ ـ منطقة جزر المحيط الهادى .

١٢ ـ منطقة أستراليا البعيدة .

وظاهر أن هذه المناطق الحضارية لا تغطى سطح الكرة فى نصفها الشرقى القديم كله ، وظاهر أيضًا أن العالم الجديد فى الأمريكتين له مناطقه الحضارية التى شملت أجزاء واسعة من أمريكا الوسطى ثم أمريكا الجنوبية . ولكننا لم نقصد فى هذا المبحث أن نغطى العالم كله ، وإنما هى مناطق مختارة تركزت فيها بعض الحضارات القديمة ، والتى امتد بعضها خلال فترات طويلة من التاريخ البشرى ، وعرف بعضها الحضارة منذ بدأ استقرار الإنسان العاقل الأول الذى اختلف علماء ما قبل التاريخ وعلم الآثار القديمة الأولى فى تحديد عصر بداية « استقراره » أو حياته فى جماعات « مستقرة » فى «أوطان » محددة من سطح البسيطة ، ولكننا فى دراسات لنا حددنا هذا التاريخ بأنه يعادل العصر الذى يعرف اصطلاحًا بأنه « العصر الحجرى القديم الأعلى » ، وهو العصر الذى عثرنا فيه على « مواطن » استقرار للجماعات البشرية الأولى من بنى الإنسان العاقل أو « البشر » ، وهم إن كانوا لم يعرفوا «الزراعة » أو استنبات النبات ، كما لم يعرفوا « الرعى » أو استئناس الحيوان ، إلا أنهم عاشوا فى جماعات كبيرة نسبيًا من بنى البشر وحذقوا صناعة الآلات الحجرية الشظوية وطوروها ، وتجمعت لهم منها مجموعات مع الآلات المخصصة من الأسلحة الصوانية المصنوعة من الصوان أو من العظام المهذبة مما يدل على معرفتهم لبعض الصناعات من تهذيب العيدان والعظام وصناعة الكساء من الجلود وصيد الأسماك (كذلك بالطبع صيد الحيوان وقنصه) وذلك إلى جانب الالتقاط وجمع

النبات والثمار ، إلى غير ذلك من مظاهر حياة « الحضارة » البدائية الأولى . كذلك فإن بعض تلك الجماعات القديمة اهتدت فيما بعد إلى التدرج فى الإلمام بحرفتى الزراعة والرعى ، خلال ما يعرفه علماء آثار ما قبل التاريخ بالعصر « الحجرى الحديث » ، حتى بلغ بعضها قمة الاستقرار فى مطالع العصر التاريخى .

ولقد كانت هناك محاولات سابقة منذ النصف الأول من هذا القرن العشرين لتحديد ما أسماه الجغرافيون الألمان بالدائرة أو النظام أو المنطقة الثقافية Kulturk-reiss . ولكن تلك المحاولات تأثرت بالمعنى الضيق « للثقافة » (التى هى جزء من الحضارة بمفهومها الأوسع) ، فى حين أننا فى تقسيمنا الجديد لما نسميه الآن «بالمناطق الحضارية الكبرى » إنما نرجع إلى مفاهيمنا فى اللغة العربية لثلاثة مصطلحات تعكس ثراء لغتنا بالمفاهيم والألفاظ المعبرة عنها . ولدينا فى لغتنا ثلاثة مصطلحات هى « المدنية » « والثقافة » « والحضارة » . ونرى أن من الخير أن نتفق (ولو على سبيل الاصطلاح فى ألفاظ الحضارة) على أن مفهوم « المدنية » إنما يقصد به الجانب «المادى» من بناء الحضارة البشرية ، أى جانب الماديات من « العمران » (وهذا الأخير هو المصطلح الذى توارثناه عن ابن خلدون) . أما « الثقافة » فيقصد بها الجانب المعنوى مما يتصل بالتعبير اللغوى أو الفكرى أو الروحى أو الفنى أو الوجدانى أو السلوكى أو نحو ذلك من معنويات الحضارة الإنسانية . وأما لفظ «الحضارة » فهو رباط ذلك كله وهو اللفظ الأعم الأشمل من مظاهر الحياة البشرية والإنسانية فى هذه الحياة الدنيا .

وبهذا المفهوم الاصطلاحى فى لغتنا العربية وهذا التطبيق الجغرافى والتاريخى الخاص فقد قسمنا العالم القديم إلى مناطق حضارية كبرى اخترنا منها المجموعة التى سبق ذكرها لتناولها فى هذا المبحث الذى نعرضه على الناس . وسنعنى فى استعراض المناطق الحضارية المشار إليها عناية تتفاوت من منطقة إلى أخرى ، بحسب أهميتها فى التاريخ الحضارى بعامة ، وفى علاقتها بموضوع هذا المبحث بصفة خاصة .

أولاً ـ منطقة حوض النيل وشرق افريقية :

وقد اخترنا حوض النيل وما جاوره ليمثل المنطقة الحضارية الأولى لسببين :

أولهما جغرافى ، وهو أن هـذا الحوض يقع فى قلب العالم القديم ، فى ركن خطير من القارة الافريقيـة ، ويطل على جنوب غرب آسيا ويتصل به عن طـريق باب المندب وبرزخ السويس من جهة ، كما يطل على شرق البحـر المتوسط وما وراءه من القارة الأوربية من جهـة أخرى . ومعنى هـذا أن حوض النيل ، وطـرفه الشمالى فى مصر بصفة خـاصة ، يمثل « أرض الزاويـة » ، حيث « مفرق » العـالم القديم ، وحيث «مفـرق » بحـار ذلك العـالم ، فى اتجاه الجنـوب عن طـريق البحـر الأحمر والمحيط الهنـدى ومـا وراءه ، وفى اتجاه الشمال فى البحر المتـوسط ومـا وراءه . بل إن ذلك الحوض يكاد أن يقع فى المركـز الهندسى للعالم القـديم بين المناطق الدفيئـة والمدارية الممتـدة إلى الجنوب ، والمنـاطق المعتـدلة والبـاردة إلى الشمال منـه . فهو فى منطقـة تقارب المناطق المناخية وتداخلهـا . والسبب الثانى هو أن هذا الحوض وما جاوره إلى الشرق والغرب والجنوب ربما كـان مركز نشأة الجماعات البشريـة الأولى ومركز استقرار الكثير منها فى عهد الحضارات القديمة والسـابقة للتاريخ بآماد بعيدة . بل إننـا إذا نظرنـا إلى التوزيع المبسط للسـلالات البشرية الحاليـة نجد أنها تتقـارب فى أطرافهـا جميعًا مـن هذا المركـز الذى يتـوسط العـالم القديـم ، فالسـلالات البيضاء (وهى سـلالة البحـر المتوسـط والسلالات القـوقازيـة والسلالات الشماليـة شديـدة البيـاض والاحمرار وغيرهـا) تقترب أطـرافهـا جميعًا مـن جنـوب غـرب آسيـا . والسلالات التركيـة ذات الرأس العريـض فى داخلية آسيـا وما وراءها مـن السلالات المغوليـة والصينية تمتـد أيضًا على طول داخليـة آسيا حتـى تعمر بـلاد الصين كلها ، وحتـى تنتشر منهـا فـروع عبر المحيـط الهادى وتعمـر الأمـريكتين بسـلالات الهنـود الحمـر التى تفـرعـت عن المغـوليـة ، أو تنتشر جنوبـًا نحـو عالم أشبـاه الجزر والجزر الأرخبيليـة فى جنـوب شرق القارة الآسيـويـة . فـإذا مـا عـدنا إلى وسـط العـالم مـرة أخرى وجـدنا السلالات السـوداء والزنجية تنتشر من هنـاك بل ومن أطـراف الجزيرة العربيـة إلى إفريقية الـداخلية كلها حتـى أطرافهـا الجنوبية ، كما تنتشر على شـواطئ المحيـط الهندى والطـرف الجنوبـى من شبـه جـزيرة الهنـد وتدور مـع أطراف ذلـك المحيط إلى بعض الجزر القصـوى فى جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى ، حتـى تصل إلى قـارة استراليـا ، حيـث استقـرت عنـاصر زنجيـة بعيـدة القـدم . هـم القبـائل

الأسترالية الأولى ، وهم الـذين احتفظوا بمعـالمهم السلاليـة الزنجيـة وحضارتهم الأولى التى تـوقف تطـورها عنـدمـا يعادل العصر الحجـرى القـديم الأعلى ، فلم يعرفـوا استئناس الحيـوان ولا استنبات النبـات ، اللذين جـاء بهما العصر الحجرى الحديث ، ولقـد بقوا على تلك الحال من الحضـارة حتى وصل إليهم المستعمـرون البيض فى القرون الحديثة .

فإذا ما نحن استرجعنـا خريطـة توزيع السلالات التى استمـر إنشاؤهـا عهودًا طويلة قـديمة ، فإننا نستنتج منها أنـه إذا ما نحن حاولنا أن نتصور مـركزًا مشتركًا انتشرت منـه سلالات الإنسـان الحالية (وهـى جميعًا من أصل آدمى واحـد إذ أنها تستطيع أن تتزاوج وتنجب سلالات مختلطة من بنى آدم الجد الواحد للجميع) . . . فإننا نستطيع أن نتصور أن المنطقة التى نحن بصددهـا (وما جاورها) ربما ، كانت أقرب موطن لنشأة بنى آدم على الأرض .

ولكن الشيء الطريف هو أننا إذا ما انتقلنا إلى نشأة الحضارات فإننا نجد منطقتنا هذه قد امتازت حضارتها بالقـدم والاستمرار . فأما عن القدم فإن أول استقرار فى الحياة البشرية المتمدينة وذات المدنية الماديـة والمستقرة فى الأرض ، والثقافة الفكرية وما صاحبها من فن أو فنون تمثل طفولـة الفن الإنسانى فى صناعة الآلات الحجرية الدقيقة المصقولة . كان ذلك الاستقرار فيما نسميه العصر الحجرى القديم الأعلى ، أى فى عصر حضارة سميناها فى مصر بالحضارة « السبيلية » نسبة إلى قرية « السبيل» فى حـوض(كـوم امبو فى مصر العليـا) التى يقـدر البعض أنها بلغت ذروتها منـذ حوالى ١٢,٠٠٠ سنة) والتى نشأت فى بقـاع مختلفة من وادى النيل الأدنى تمتد من حوض كوم أمبو جنـوبًا إلى أطراف الدلتا وبعض مشارف صحـراء سيناء من جهة أخرى . وقـد عادت مظاهر الاستقـرار إلى وادى النيل الأدنى مع العصر الحجرى الحديث الذى ظهـرت فيه الزراعة المستقرة ومـا صاحبها من تربيـة الحيوان . ومن المعـروف أن أقـدم مـواقع الاستقـرار الـزراعى فى أرض مصر تـرجع إلى منتصف الألف السـادسة قبل الميـلاد . ولكن تلك الحضـارة كما نعرفهـا فى أطـراف الدلتـا والفيوم وبعض مواقع الصحراء حيث استقر الناس حول بعض البحيرات الضحلة التى تتجمع فيهـا مياه أمطار فترة تميـزت بالمنـاخ الممطر (المعتـدل المطر) فى العصر

الحجرى الحديث . . . تلك الحضارات كانت مكتملة النمو من حيث الاقتصاد الزراعى الذى يجمع بين الزراعة والرعى وشىء من صيد الأسماك (حول بحيرة الفيوم القديمة والتى كانت أعلا من مستواها الحالى (ـ ٤٤ مترًا تحت سطح البحر) بنحو ستين مترًا أو أكثر . ومن هنا فإننا نستنتج أن تلك الحضارات الحجرية الحديثة لابد أن تكون قد سبقتها فترة طويلة من التطور (ربما تكون قد بلغت بضعة آلاف قليلة من السنين) . ولقد كانت البيئة والظروف الطبيعية فى شمال شرق إفريقية بعامة ، وفى وادى النيل الأدنى بخاصة ، صالحة كل الصلاحية لنشأة مثل تلك الزراعة الأولى . ففى هذا الإقليم هناك مناطق لا يزال ينمو بها نبات الشعير البرى ، ومنها بعض منحدرات الجبال الإثيوبية ، ومنها كذلك بعض الأودية الصغيرة على ساحل مريوط وليبيا وتلك أدلة على أن نبات الشعير المزروع يرجح كل الترجيح أن يكون موطنه الأصلى فى شمال شرق إفريقية . كذلك فإن حبوب الشعير التى عثر عليها فى مواقع الاستقرار من العصر الحجرى الحديث وأواخر عصر ما قبل التاريخ فى الفيوم قد تبين من فحصها أنه لابد وأن تكون قد انقضت على استنباتها وانتقالها من مرحلة « البرية » إلى مرحلة « الزراعة » فترة طويلة تطورت فيها حبوب الشعير تحت ظروف « الزراعة » التى يعتنى بها الزارع ولايتركها لظروف الطبيعة البرية . والواقع أن كل الأدلة تشير إلى انتشار زراعة الشعير فى العالم القديم إنما جاء من هذه المنطقة الحضارية الأولى .

وأما عن استئناس الحيوان فإن منطقتنا هذه كانت المقر الذى تم فيه استئناس البقر ذى القرون الكبيرة والعنق الذى يعلوه سنام صغيرة . كذلك ففى هذه المنطقة تم استئناس « الحمار » الذى أصبح فى العهد التاريخى القديم حيوان النقل الذى ينقل الإنسان وسلع التجارة ، والذى امتاز على طول الزمن بأنه لم يكن فى يوم من الأيام حيوانًا للفروسية أو الحرب ، كما كانت الحال بالنسبة للحصان الذى هو حيوان آسيوى النشأة وأصبح فيما بعد حيوانًا من حيوانات الغزو والفتح وحروب الطغيان . والحقيقة أن منطقتنا القديمة فى شمال شرق إفريقية وحوض النيل قامت منها مبادئ الحضارات الأولى وتطورت فى العهد التاريخى على أنها حضارات عرفت بالسلم والعلاقات الإنسانية المسالمة . وهى حضارات عرفت عهد الاتصال

بالعالم الآسيوى فى مرحلة لاحقة من التاريخ القديم ، حين انتقلت إلى منطقتنا حرفة الغزو والفتح (ومعها الحصان) ، مما سنعود إلى تفصيله عندما نستعرض المراحل التالية للاتصالات الإنسانية والتاريخية فيما بعد من هذا المبحث . ويكفينا الآن أن نذكر أن مصر الفرعونية فى العالم القديم (خلال عصر الأهرام كله) كانت دولة إفريقية المدينة والحضارة والأسلوب فى الحياة ، فكانت صورة منعكسة من طبيعة هذه القارة المسالمة تقوم مدنيتها المادية على أساس الزراعة الحبوبية (زراعة الشعير الافريقى والقمح الذى أدخل إلينا من جنوب غرب آسيا) ، وحيوانها الأصيل هو الحمار الذى يصلح للنقل والانتقال ولا يكاد يصلح للغزو (خلال الدولة الفرعونية القديمة كلها على الأقل) وتلك ثقافة إفريقية تذكرنا بما لا يزال يسود القارة الإفريقية التى يقال عنها إنها القارة « الراقصة المغنية » والتى عرف أهلها «رقصة الحرب » قبل أن يعرفوا الحرب التى تعلموها فيما بعد نقلاً عن الوافدين . . . بل القارة التى لم يعرف التاريخ عنها أنها قد خرجت منها أية غزوة كبرى لتكتسح العالم المجاور كتلك الغزوات التى خرج بها الرعاة الفرسان (راكبو الخيل) من داخلية آسيا خلال عدة موجات من التاريخ القديم . . . بل إن افريقية كذلك لم تخرج منها أية « غزوة بحرية » لفتح السواحل فيما وراء البحار ، كالغزوات التى خرجت فيما بعد من قارة صغيرة كأوربا ، حيث خرج المستعمرون بالبحر إلى كل بلاد الدنيا ، وأقام بعضهم الامبراطوريات التى لا تغيب عنها الشمس . بل إن أبناء القارة الإفريقية المسالمين من الزنوج لم تعرف عنهم روح الغزو والفتح وإنما هم قد أكرهوا إكراهًا على النزوح إلى أمريكا وغيرها كعبيد مأسورين . وإذا عدنا إلى مصر الفرعونية فى دولتها القديمة فإننا نجد أن أهلها القدامى قد فضلوا أن ينفقوا طاقاتهم الفائضة فى بناء الأهرام بدلاً من حشد الجيوش للغزو والفتح فيما وراء الحدود . ولقد بقيت الدولة المصرية القديمة أقوى بلاد العالم كله خلال ثمانية قرون لم تخرج خلالها جيوش غازية إلى البلاد المجاورة . وقد بقيت الحال كذلك حتى جاءت الدولة الحديثة التى سبقتها غزوة الهكسوس (حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد) فأدخلوا الحصان الآسيوى إلى مصر ، وعلموا أهلها فنون الفروسية ، حتى غلبهم المصريون آخر الأمر بسلاحهم الذى أدخلوه وابتكر

المصريون عجلة رمسيس ذات الخيل العاتية ، وخرجوا إلى آسيا التى فرضت عليهم أن يتعلموا الحرب على عكس سجيتهم الإفريقية .

ولكن قصة العلاقات الخارجية لهذه المنطقة الجغرافية الكبرى فى وادى النيل وشمال شرق أفريقية لم تنتهى فصولها بالعصر التاريخى القديم ، وإنما لها فصول لاحقة فى العهد الإغريقى الرومانى ثم فى العهد العربى ، وهى فصول جديدة لها قصتها الخاصة .

ثانيًا ـ منطقة شمال غرب افريقية :

وهذه منطقة ثانية كان لها دورها فى بناء الحضارة المستقرة الأولى ، وإن كان هذا الدور أقل بروزًا وأثرًا من دور المنطقة الأولى . بل إنها يمكن أن تعتبر من بعض النواحى امتدادًا للمنطقة الأولى ، سواء من الناحية البشرية أم من الناحية التاريخية ، كما أنها تشترك مع المنطقة الأولى فى أنها تقع على حافة الصحراء الافريقية الكبرى ، وهى الصحراء التى اعتراها تغير كبير وبعيد الأثر من الناحية المناخية خلال ما نسميه بالعصر المطير وما جاء فى أعقابه . وقد شغل هذا العصر المطير معظم الزمن الجيولوجى الرابع (أو ما نسميه بالبلايستوسين) ونهاية الزمن الذى سبقه . ذلك أن أوربا الواقعة إلى الشمال كان قد اعتراها فى ذلك الزمن الرابع (وما قبله) ما نسميه بالعصر الجليدى ، فكان شمالها وجانب كبير من قطاعها الجبلى الأوسط (جبال الألب) يغطيها الجليد فيما يطلق عليه أحيانًا (لاسيما فى الشمال) اسم « الغطاء الجليدى » . ويبدو أن هذا الغطاء قد أدى إلى ارتفاع كبير فى الضغط الجوى بسبب وجود كتلة متسعة النطاق من الهواء البارد الثقيل . وبذلك فقد انحرفت الرياح الغربية القادمة من المحيط الأطلنطى واتجهت نحو الجنوب إلى حوض البحر المتوسط وشمال افريقية وداخل الصحراء الكبرى ، فتسببت عنها زيادة كبيرة فى الأمطار الساقطة على شمال إفريقية برمته . وليس هذا مجال الدخول فى تفصيلات العصر الجليدى ، وصنوه العصر المطير ، ولا فيما حدث خلالهما من أدوار جليدية وفترات غير جليدية أو من أدوار مطيرة اكتنفتها فترة أو فترات غير مطيرة . ولكن يكفينا فيما نحن بسبيله من تتبع أدوار الحضارة البشرية وتعمير

الإنسان للصحراء الكبرى أن نـذكر أن هذه الصحراء الفسيحة كانت بمثـابة قطعة الأسفنج ، ففى الأدوار المطيرة كانت هذه القطعة تتشرب المياه وتزدهر فيها الحياة النباتيـة والحيوانية وتعمـرها الجماعات البشريـة المتكاثـرة خلال ما يعـرف بالعصر الحجـرى القديم ، وفى فترات الجفـاف كانـت الصحراء تقصر ميـاهها ، وكـانت الجماعات البشريـة تخرج منها لتستقـر فى الأراضى المجاورة ، ومنهـا وادى النيل ، حيث المياه الجارية من المصادر الاستوائية أو الحبشية ، أو إلى المنطقة الجبلية المرتفعة من شمال غرب إفـريقية حيث يسمح الارتفـاع باجتذاب السحب والمطـر وتساقط المياه وتكاثفها فوق القمم ، وحيث كانت بعض البحيرات الصغيرة « والشطوط » تجمع الميـاه مما يسمح بقيـام الحياة على شـواطئها . وكـانت مجموعـات صغيرة من سكـان الصحراء تلجأ إلى مـا فيهـا من الـواحات ، حيث اليـنـابيع ، أو تهاجـر إلى سهول السـودان وأطراف المنطقـة الاستوائية . ولكن الـذى يعنينا الآن هـو منطقة شمال غرب افريقية المرتفعة حيث كان الاستقرار البشرى الواضح لأول مرة خلال فترة العصر الحجـرى القديم الأعلى وهـو العصر الـذى امتـاز بحضارة عـرفت فى وسطها وأواخرهـا باسم الحضارة « الجفصية » نسبـة إلى « جفصة » فى أرض تونس الـوسطى . وهذه الحضـارة تـذكـرنا فى بعض مظـاهـرهـا بما حدث فى مصر أيـام الحضارة « السبيلية » التى عرضنا لها من قبل . وقـد كانت حضارة متخصصة فيها شىء كثير من التخصص (فى صناعة الآلات الحجريـة) وهو الذى استمر فى نهايته إلى أن جاءت بوادر العصر الحجرى الحديث (الألف السادس قبل الميلاد أو قبلها) ممـا يذكـرنـا بما حدث فى منطقـة وادى النيل الأدنى . وعلى الـرغم من قلة الأدلـة المباشرة ، فإننـا نستطيع أن نتصور أنه لابـد وإن كانت هنـاك فى ذلك الوقت بعض الاتصالات عبر ساحل البحر المتوسط أو حتـى عبر بعض المناطق شبه الصحراوية على طول ساحل افريقية الغـربية أو عبر النطاق الجبلى فى هضبة « تبستى » إلى بعض مـواقع الـواحـات المستقرة داخل الصحـراء ، أو حتى إلى سهـول السـودان وعلى أطراف المنطقة المداريـة والاستوائية الافريقية . . . ولابـد أن تكون تلك الهجرات والاتصالات القـديمة قبل أن يبـدأ التاريخ قـد استمرت وأثمرت شيئًـا من التأثير المتبادل بين الجماعات القديمة وحضاراتها .

ونحن نعرف أنه إلى جانب هجرات عناصر من سلالة البحر المتوسط على طول شواطئ شمال إفريقية (وفى الاتجاهين من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق) كانت هناك هجرة من « الحاميين » (أصحاب اللغة « الحامية ») الذين جاءوا في الأصل من جنوب غرب الجزيرة العربية ، وسارت عناصر منها إلى أرض مصر ووادى النيل الأدنى (بدليل أن اللغة المصرية القديمة متأثرة أشد التأثر باللغة الحامية) . وسارت عناصر أخرى على طول مرتفعات تبستى التى أشرنا إليها حتى بلغت جبال الأطلس فى شمال غرب القارة ، وهناك استقرت عناصر « البربر » ذات اللغة الحامية وبقيت قبائلها هناك حتى الآن .

وإلى جانب هذه الأدلة « السلالية » هناك أدلة أخرى كثيرة ذات صفة « ثقافية » تدل على أن التبادل الفكرى والثقافى كان ولا يزال مستمرًا بين المنطقتين اللتين عالجناهما حتى الآن ، مما قد نعود إليه فى مرحلة لاحقة من هذا البحث الحضارى . وقد ينفعنا أن نشير إلى ظاهرة المؤثرات الثقافية المتبادلة بين مصر الفرعونية القديمة وبين شمال افريقية بصفة عامة مما سار بعضه على طريق البحر وسار بعضه على سطح مياه الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط أيام الفينيقيين الذين أثروا فى « قرطاجة» بتونس . وهو التأثير الذى عاد فى العهد الإسلامى فارتد مع الفاطميين من تونس إلى أرض مصر ، حيث أقاموا الأزهر الشريف .

وما نريد من هذا الاستطراد المبكر فى العلاقات الثقافية إلا أن نلمّح إلى أن هذه الدراسات القديمة والتى ترجع بنا إلى عصر ما قبل التاريخ ليست بعيدة الشبه عن بعض ما سيليها فى عهود التاريخ المتأخر نسبيًا من اتصال متبادل بين المناطق الحضارية الكبرى التى نحن بسبيل تتبع جذورها الأولى قبل أن يبدأ التاريخ .

ثالثًا ـ منطقة اليونان وجنوب شرق أوربا :

وهذه منطقة صغيرة نسبيًا على قدر خاص من الأهمية بالنسبة لما قامت به من دور فريد يختلف عن المنطقتين السابقتين . وتعتبر أرض اليونان مركزًا لهذه المنطقةالتى قامت فيها بالدور الأساسى . وتمتد من حول اليونان جنوبًا إلى جزر شرق البحر المتوسط وبحر ايجه بالذات . واتجاه الانتشار فى هذا الجزء الجنوبى كان

من محور شمالى جنوبى . وقد ساعد عليه شكل السواحل وأصابعها الممتدة فى الاتجاه ذاته ، ثم جريان الرياح المعتدل فيما عدا فترات قصيرة من الأعاصير الخفيفة التى تنشأ عن مرور المنخفضات الجوية التى تدور حولها الرياح التى قد تعتدل فتساعد الملاحة الشراعية فى كل الاتجاهات تقريبًا . أما إلى الشمال من أرض اليونان فإن أرض البلقان تمتد حتى سهول الدانوب الوسطى . وقد جاءت الهجرات الأولى من هذا الاتجاه حتى عمرت اليونان القديمة وأمدتها بعناصر سكانية ذات خلفية حضارية ترجع فى أرض الدانوب إلى العصر الحجرى الحديث ، وإن كانت لا تمتد كثيرًا قبل ذلك . ثم إن وجود سهول الدانوب إلى الشمال من البلقان قد حمت اليونان بعد ذلك حين امتصت غزوات البلقان وقبائل المجيار والصقالبة فحمت الطابع الحضارى والثقافى (بل الاجتماعى والسياسى) لليونان ذاتها .

فأما عن المحور الشرقى الغربى فإن اليونان انتشرت بحضارتها فى العهد التاريخى القديم (وخلال الألف الأخيرة قبل الميلاد بصفة خاصة) فى هذا الاتجاه ، حين انتقل الأفارقة فوق بحر ايجه وجزره إلى الأطراف الغربية لآسيا الصغرى وهى التى كان توجيهها الجغرافى يمتد فى هذا الاتجاه ذاته ، فاستقبلت أهل اليونان وفكرهم وحضارتهم واتجاههم السياسى بل والعسكرى حتى اختلط فكر أوربا الجنوبية والبحر المتوسط بفكر أهل شبه جزيرة آسيا الصغرى من خلفاء الحيثيين اختلاطًا مهد السبيل بعد ذلك ، وحين جاء الإسكندر الأكبر فحمل العسكرية اليونانية ليواجه أهل المنطقةالحضارية الرابعة (وهى منطقة إيران القديمة) ، فقابل الفرس وغلبهم ، وانتقل من هناك جنوبًا إلى بعض أطراف أرض سورية القديمة فى فلسطين ، ثم اتجه إلى أرض منطقة النيل وشمال إفريقية . وهكذا كان وصول اليونان إلى مصر فى عهد الإسكندر وحملاته عن طريق البر ، دورانًا حول مياه البحر المتوسط الشرقى ، بخلاف ما كانت عليه الحال خلال العهد اليونانى القديم حين كان الاتصال عن طريق محور الشمال والجنوب راكبًا البحر الذى أشرنا إليه من قبل . بل هكذا جمعت اليونان بين « المحورين » فى التوسع والانتشار الحضارى . وهذا أمر له قيمته الخاصة فى « تكامل » العوامل الجغرافية فى تحديد مجرى الجغرافيا التاريخية فى الاتصال والانتشار الحضارى .

ولكننا قبل أن ننهى هـذه العجالة من منطقة اليـونان فى اتصالها وتوسعهـا نحو الجنوب ونحـو الشرق يجمل بنا أن نؤكد كـذلك المكانة الخاصة لأرض اليـونان فى تاريخ التوسع والانتشار الفكرى نحو الغرب إلى بقية جنوب القارة الأوربية ، وهو التوسع الـذى جاء متأخـرًا بعد ذلك حين أخـذت الحضارة تأفل فى أرض اليـونان ذاتها ، ولكن الفكر انتقل إلى أرض الرومـان ، وكان انتقاله مبـاشرة من اليونان أو بطريقة غير مبـاشرة عن طريق الإسكندرية والبحـر المتوسط الشرقى . وقد أصبح الفكر اليونانى آخر الأمر أساسًا للفكر الحضارى الأوربى ، وبقيت آثار ذلك حتى جـاء عصر النهضة الأوربيـة ، فاكتشف الأوربيـون جذورهم وأصـولهم فى أرض اليونان ، وإن كان قـد فاتهم أن الفكر اليونانى ذاته قد تأثر أشـد التأثر بفكر المنطقة الحضارية الأولى فى وادى النيل وبفكر المنطقةالسامية والعربية القديمة فى شمال شبه جزيرة العرب .

رابعًا ـ منطقةالجزيرة العربية فى جنوب غرب آسيا :

ولهذه المنطقة الرابعة أهميتها الخاصة فى هذه الدراسة ، كما أن لها صفاتها الطبيعية التى تميـزها عن غيرهـا من المناطق . فهـى أولاً المنطقة التى تتـوسط العالم القـديم بحق ، فتتصل بـالبر مع القـارات الثـلاث اتصالاً مبـاشرًا أو شبـه مبـاشر ، وتطل شواطئها على كل من بحار الجنوب وبحار الشمال ، ويتوغل إليها البحر المتوسط فى الشمال كما يمتـد نحـو داخلهـا خليـج عمان والخليج العـربى فى الشرق والجنـوب الشرقى وخليج عـدن والبحر الأحمر فى الجنوب وعلى طـول الساحل الغـربى حتى أصبح يطلق على شبه الجزيـرة العربية اسم « جزيرة العـرب » فى شىء من التساهل أو التسليم بنتيجة الواقع ، ولكن المهم بالنسبة للموقع الجغرافى أنه لم يكن مستطاعًا بالنسبة لأهل الجنـوب البعيد أو أهل الشمال البعيد أن يدوروا بالبحر دورانًـا كاملاً بسفنهم أو جواريهم البحرية متجاهلين مراسى شواطئ بلاد العرب ، وإنما كان من الملائم بالنسبة للملاح أو التاجر البحرى القادم من الجنوب أن يتوقف عند الساحل وأن يعهد إلى وسيط عـربى بنقل ما يحمل من بضـائع الجنوب على ظهـر بعير عربى يحدوه حاد عربى من أبناء الجزيرة حتى يبلغ شواطئ الشمال . فيعود ليسلم ما حمل

إلى مـلاح آخر هنـاك . وبهذا أوجدت طبيعـة الجزيرة العـربية ومـوقعها الجغـرافى لأهلها مهمة تاريخية هى حمل أمانة التجارة والنقل والوساطة بين شواطئ الشمال ، ولحسن الحظ أن الحيوان الأصيل فى البيئة العربية القـديمة كان هو « الجمل » الذى خلقـه الله ليحمل الأثقـال وليقطع الفيـافى فى أشهـر الشتـاء القـارص أو فى أشهـر الصيف القائظ . فكأن الطبيعة فى بـلاد العرب قد تكاملت فى عنـاصرها من البيئة الطبيعية أو من الحيـوان ، بل كذلك مـن البشر الذى جعل الله منهم الأمـة الوسط بين الناس ، فكانـوا وسطاء اتصال مادى تجارى ، وحملة أمانـة تعدلت فيما بعد إلى رسالة فى الفكر والثقافة والدين . ومن هنـا فقد تكاملت أسباب الاتصال وعوامله ومظاهره فوق أرض العروبة التى هى أرض الوسط وأرض زاوية الاتصال بالمعنى الواسع العريض .

وفوق ذلك فإن هناك نوعًا آخر من أنـواع تكامل البيئات فى بلاد العرب كان له الأثر الكبير فى تكـوين تلك البلاد وإعدادها لحمـل الرسالة التـاريخية الكبرى التى كانت مـن نصيب العرب ، لاسيما فى عهد الإسـلام . فإذا بدأنـا بالجنـوب الغربى نجد أنـه مكون من هضبة بـركانيـة فى أصلها وذات ارتفاع يصل فى منطقـة صنعاء الوسطى من اليمن إلى أكثـر من ألفى متر فوق البحـر ، ويبلغ فى بعض القمم نحو ثـلاثة آلاف متر ، والأرض فى معظم بقـاعهـا بـركانيـة الأصل ، تـزيـد أمطارهـا الموسميـة الصيفية على نصف متر ، وتغطيهـا المزروعـات المتنوعـة من المحـاصيل والأشجـار التى أضفت على البلاد اسم « اليمن السعيـد » ، فإذا ما تـوجهنا نحـو وادى حضرموت الداخلى الذى تنصرف إليه بعض مياه الهضاب الغربية ويسير على السطح حينـًا ويختفى متسربـًا تحت الحصباء فى قاعـه حينًا آخر . وقـد كانـت له فى العهود الغـابرة بعض امتـدادات الحضارات اليمنية مـن سبأ وحمير التى ورثـت مملكة معين فى داخلية اليمـن ، كما كانت أرض حضرموت تغـل بعض البخور الـذى كان تجار اليونان وروما يشترونه للاستخدام فى معابد البحر المتوسط وكنائسه المسيحية . ثم إذا اتجهنـا إلى سـواحـل ظفـار وعمان إلى الشرق تجددت المرتفعـات الـداخليـة وشـواطىء المنطقـة ومـوانيها والملاحـة البحـرية إلى شرق إفـريقيـة وإلى الهند . ومـن الطريف أن نلحـظ أهمية الرياح الموسميـة فى هذه المنطقة فهى التـى سهلت الانتقال

البحرى بل هى التى كـانت تدفع بسفن العرب القدماء وغيرهـم من سواحل بلاد العـرب إلى سواحل شرق إفـريقيـة والهند القـديمة . ولقـد قـامت نتيجة لـذلك ـ وبسبب الظروف الطبيعية ـ تجارة مزدهرة وتبادل للبيع وكذلك ـ بل أهم من ذلك ـ للأفكار والحضـارة واللغة والدين مما أبرز دور العـرب الجنوبيين على أنهم « فينيقيو الجنوب » . ومن الطـريف بصفة خاصـة أن يلحظ على الخرائط القديمـة التى كان يـرسمها العـرب (ومنهم الادريسى فى القرن الثـانى عشر الميلادى) أن شـواطئ شرق إفريقية كـانت ترسم فى مقابلة شاطئ بلاد العـرب الجنوبية ، ولعل السبب فى ذلك أن يكون ما يذكره بعض كتـاب العرب القدامى من أن الملاح إذا أراد أن يتجه من بلاد العرب الجنوبية إلى شرق إفريقية فـإنه يحدد طريق مركبه وسكانها (دفتها) نحو الجنوب فإذا بالـرياح الموسمية الجنوبية الشرقية والشرقيـة تدفع به إلى شواطئ زنجبار وشرق إفريقية مباشرة . ومن هنا كان الأمـر الظاهرى هو أن بلاد الزنج فى شرق إفريقية لابد وأنها تقع فى مواجهة بلاد العرب إلى الجنوب مباشرة .

فإذا مـا انتقلنا مع الشـاطئ إلى الشرق أيضًـا دخلنـا إلى مياه الخليج العـربى بين أرض العروبـة وأرض فارس القديمة . وقـد امتازت الشواطئ العـربية بأنها ذات الكثير من الجزر والشواطئ الصالحة لحياة البدو ، فضلاً عن بعضها تكثر به الينابيع والمياه التى تأتى مياهها الجوفية المتسربـة فى الأصل من داخلية الجزيرة العربية ، بل ومن مرتفعـات نجد . تمر تحت السطح فى أرض الاحسـاء ذات المراعى حتى تعود لتبق فى منطقة السـاحل بل وفى بعض جزره لاسيما فى « البحـرين » التى جمعت بين خيرات المياه المالحة (صيـد اللؤلؤ) وبين خيرات المياه العـذبة فى عيونها وآبـارها (وهى التى تمر فى الطبقات تحت البحـر آتية من نـاحية البر العربى لتعـود فتظهر على السطح فى البحـرين) . وهكـذا يستمـر الجمع بين خيرات البحـر والبر على طـول السـاحل الغـربى للخليج مـارًا بقطـر الكـويت ، وقـد أضيف إلى هـذا الجمع بين الخيرات مـا ظهر فى العهـد الحديث من بترول الخليج وشـواطئـه فجمع فى الجانب العـربى من الخليج بين حسنـات البحـر وحسنـات البر وحسنـات بـاطن القشرة الأرضية . ومع ذلك فإن دور هـذا الجانب العربى لم يكن فى أصـوله القديمـة قائمًا على الموارد المحليـة فحسب وإنما نجـد أن البحث الأثـرى قـد أثبت قيـام مـواقع

للاستقرار الساحلى القديم فى هيئة حضارات يعود بعضها إلى ما قبل العهد الحجرى الحديث ، وتستمر إلى عهد المعدن وبدايات العهد التاريخى ، بل أن بعض الباحثين يرون أن هذه المنطقة هى الوطن الأصلى للفينيقيين الذين تعلموا حياة البحر فى شواطئ الخليج ثم عادوا فألفوا حياة الانتقال البرى إلى شواطئ البحر المتوسط حيث استقرت بهم الحياة فى المنطقة الساحلية وأقاموا الحضارةالفينيقية التى تأثرت بالحضارةالمصرية القديمة ، ثم عاد أصحابها فركبوا البحر المتوسط إلى تونس الخضراء ، حيث أقاموا حضارة قرطاجة القديمة .

تلك صورة عامة من حياة أهل الجزيرة العربية القدماء التى تعلم فيها أهل الصحراء الربط بين حياة البحر وحياة البر . . . بل بين حضارة البحر وحضارة البر، وأضافوا إلى ذلك حياة « الوساطة » بين الناس ، فنقلوا « السلع » ونقلوا «الفكر والحضارة » على محور يمتد من شواطئ الخليج العربى إلى شواطئ تونس الخضراء ، وهم فى ذلك قد نقلوا عناصر طيبة عن حضارة أرض الكنانة القديمة فى مصر ، لعل أبرزها أن يكون هو فن « الكتابة » وأصول الأبجدية التى تطورت من كتابات مصر القديمة . . . بل تلك كلها صورة وضاءة ينفعنا أن نذكرها فيما بعد عندما نعود إلى دور العروبة التى جعلها الله الأمة الوسط بين الناس ، بل الأمة الوسط فى كل شىء . . . فى الموقع والتجارة والفكر والسلوك والحضارة والدين . . . « وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا » .

ولنعد الآن مرة أخرى إلى شواطئ العرب على الخليج العربى وسنجد أن نشاطها الحضارى لم يقتصر على توجيهها نحو البر العربى ، وإنما هو قد انتشر مع الشاطئ إلى أرض العراق الأدنى حيث استقر الملاحون العرب الأقدمون مع التجار اليونانيين النازحين من بعيد ، فيما أصبح يطلق عليه ميناء « المحمرة » (شاراكس سبازينو القديمة) . وكان العرب أقدر من اليونانيين الغرباء النازحين، فلم يلبث الأمر أن استقر بهم فيما أصبح يعرف بعد ذلك باسم « عربستان » . ومن الطريف أن نذكر أنه فيما يتصل بالتسابق بين العرب والفرس الأقدمين كان العرب أسبق كثيرًا من الفرس فى الاستقرار بمنطقة شط الفرس عربستان إلى الشرق من

الشاطئ . وفوق ذلك فقد استقر بعض الملاحين العرب فى نقاط مختلفة على شاطئ فارس من الخليج . ومن أهم مواقع استقرارهم ميناء « سيراف » على ذلك الشاطىء وقد كان له دوره الكبير فى التجارة القديمة ، لاسيما فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وكان نقطة ارتكاز للتجارة العربية مع شواطىء الهند بعيدًا فيما وراء الخليج ، ولعلنا نستطيع أن نتابع دور العرب فى تجارة الخليج ونشر الثقافة العربية والإسلام فيه وفيما وراءه حين نصل إلى دراسة الاتصالات الحضارية وانتشار الإسلام على يد العرب فى غرب آسيا وأواسطها فيما وراء هضبة إيران ، ثم على طول السواحل الآسيوية الجنوبية إلى الهند وما وراءها إلى أقاصى جنوب شرق القارة الآسيوية .

ولنعد إلى الجزيرة العربية فى حدودها الشرقية واتصالاتها بالعراق وأواسط إيران (إلى الشمال من مقاطعة فارس القديمة فى القسم الجنوبى من أراضى الهضبة الإيرانية) . وكان العراق منذ أقدم العصور يمثل منطقة استقرار حضارى ترجع فى أصولها (التى استمرت حتى الآن) إلى مرحلة الانتقال من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث ، وكانت تجرى على أراضيه مياه نهرين من أعظم أنهار المنطقة ، وهما دجلة والفرات ، وكانت مياههما تأتى من ذوبان الثلوج على جبال زاجروس فى إيران الغربية ، وجبال آسيا الصغرى الشرقية فى فصلى الربيع والصيف . ولكننا نلاحظ أن الرياح الدائمة وشبه الدائمة فى هذه المنطقة كانت تأتى كذلك من الاتجاه ذاته أى من الشمال بصفة عامة . ولذلك فإن الظروف هنا كانت تختلف عنها فى أرض مصر ووادى النيل الأدنى ، حيث كان النهر يجرى من الجنوب إلى الشمال والرياح الدائمة وشبه الدائمة تجرى من الشمال إلى الجنوب . وبذلك فإن أرض الكنانة امتازت « بالتكامل » بين اتجاه جريان النهر من الجنوب واتجاه جريان الرياح من الشمال ، فتعلم المصريون منذ أقدم العصور ومنذ فجر التاريخ المكتوب (وربما قبله) استخدام مجرى النهر الواحد طريقًا للانتقال والنقل النهرى من الاتجاهين ، مستعينين بدفع التيار المائى من الصعيد إلى الدلتا وبدفع الرياح للشراع فى الانتقال بين الدلتا والصعيد . ومن هنا كانت تلك « الوحدة » العتيقة فى أرض الكنانة ، وكان نشوء « الدولة الواحدة » ذات الحضارة المتكاملة

التى تشمل مصر الموحدة ، بل كان قيام العاصمة الواحدة فى الإدارة والاقتصاد والفكر والدين والسياسة ، وهى كلها أمور امتازت بها أرض مصر من القدم وعلى الدوام فيما عدا بدء فترات الانقطاع بل هى ميزة كانت أقل وضوحًا فى العراق صاحب الحضارات القديمة المتعددة من سومرية وبابلية وآشورية ، وهى حضارات جعلت من أرض الرافدين أرض الملامح الحضارية المتعددة ، وحتى عندما جاء العهد الإسلامى بلغته ودينه الواحد لم تبلغ الوحدة الدينية ذلك المبلغ الذى تمتعت به مصر فى أزهرها الذى أنشأه أهل الشيعة ولكنه لم يلبث أن أصبح (ومنذ أيامه الأولى) للإسلام كله ، بل ولكل العالم الإسلامى فى جامعته العتيدة ، التى يروق لنا دائمًا أن نسميها «بالجامعة الأمة » أو «الجامعة الإمام » للعالم الإسلامى كله .

من هنا فإنه لم يكن مستغربًا أن نجد فى العراق عدة مراكز حضارية تاريخية ازدادت خلال عصور متلاحقة ، بدأت فى الجنوب ثم انتقل مقرها نحو الشمال بصفة عامة . ففى الجنوب الأقصى قامت « أور » القديمة غرب شط العرب والفرات الأدنى ثم تلتها « سومر » القديمة ثم ظهرت « أكاو » ثم « بابل » فى وسط العراق ، ثم جاءت « أشور » عند حافة زاجروس فى شمال وسط العراق ، ثم عاد المركز فانتقل نحوالجنوب إلى موقع « المدائن » جنوب بغداد (وهى عاصمة بدأت على أيدى أصحاب مستعمرة من أصل يونانى ثم انتقلت إلىأيدى كسرى وأهله قبل أن تنتقل العاصمة فى العهد العربى إلى بغداد) .

أما مراكز الكوفة والبصرة بين كربلاء (وكلها على الحافة الغربية لأرض «السواد») فهى مراكز من العهد الإسلامى . . . وحتى هذه أمست تعكس النوع الفقهي الذى قاسى منه العراق حتى جاء عهد بغداد كعاصمة واحدة . . على خلاف أرض مصر التى كانت لها كلها عاصمة أساسية فى الصعيد (طينه ثم طيبة) وعاصمة أساسية وسطها هى منف ثم القاهرة ثم عاصمة غربية ساحلية واحدة فى الإسكندرية ، ولكن كلا منها كانت عاصمة للبلاد كلها ، وقد احتفظت البلاد بوحدة التراب المصرى كله .

وفى مجال الاتصال بين أرض السواد العراقى وما وراءه فى هضبة إيران نجد أن سلسلة جبال زاجروس فى غرب إيران تمتد من الجنوب إلى الشمال ، لا يخترقها إلا عدد محدود من الممرات ، استطاعت التجارة والثقافة والفكر والجيوش أن تنفذ خلالها من الغرب إلى الشرق فى أغلب الأحيان . . وكان هذا هو طريق نفاذ الحضارة العربية إلى المواقع الشمالية من الحضارة الإيرانية . . . بل إنه عن هذه الطرق والممرات استطاعت الحضارة الإسلامية فيما بعد أن تنفذ إلى قلب إيران وما وراءها من داخلية آسيا .

وإلى الشمال مباشرة من الجزيرة العربية نجد سلاسل جبال طوروس والأناضول، وهى سلاسل تسير كلها فى اتجاه شرقى غربى ، ولذلك فقد تعارض اتجاهها مع اتجاه توسع القبائل العربية إلى الجنوب منها ، وقد تسبب هذا الاتجاه المتعارض فى توقف توسع العرب نحو الشمال مباشرة ، بل إنه لم يستطع أن يخترق السلاسل الجبلية العالية غير أعداد محدودة من التجار أوالمغامرين بتجارتهم وأفكارهم ، ولم يظهر لهؤلاء جميعًا أثر حضارى ظاهر إلا فى نفاذ المسيحية الأرمنية التى تركزت كنيستها فى أرمنيا ذات الجبال والهضاب العالمية . ولم تلحق بها فى ذلك الاتجاه المتعامد مع السلاسل إلا بعض البعثات فى العهد الإسلامى (لاسيما فى القرن الحادى عشر) وهى التى بلغت بلاد البلقان على نهر الفلجا ، حيث احتك المسلمون بالروس الشقر وتجار البحر البلطى وبلاد اسكندناوه التى عثر بها على بعض العملات العزبية من ذلك العهد .

وكذلك نلاحظ أن اتجاه السلاسل من الشرق إلى الغرب فى هذا الجزء من آسيا الصغرى هو الذى أدى إلى أن الإسلام لم ينتشر هناك إلا على أيدى الأتراك السلاجقة ثم العثمانيين الذين أتوا وساروا فى ذلك الاتجاه خلال القرون اللاحقة .

ونصل الآن إلى شمال غرب الجزيرة العربية ، وهو الشق الشامى (أو السورى) مما يسميه بعض الجغرافيين « بالهلال الخصيب » . وهذه منطقة تشبه الهلال الذى ينفتح نحو الجنوب ، وله قرنان أحدهما هو أرض العراق التى عرضنا لها والثانى هو بلاد الشام التى تمتد فى اتساع مماثل للعراق ، ولكنها تتنوع عنها فى المظاهر الطبيعية ، فداخلها يتجه نحو بادية الشام ، ويصل فى أطرافه الجنوبية إلى شرق

الأردن وشمال الحجاز ، ووسطها سلسلة من الجبال هى فى حقيقتها تمثل حافة أخدود عميق يقع سهل البقاع والبحر الميت فى قاعه ويمتد إلى خليج العقبة . وتلك الجبال العالية شرقها فى سورية وغربها فى لبنان ويتجه ساحلها على البحر المتوسط فى هيئة سهل ساحلى ضيق به مجموعة كبيرة من الموانى التى ربطته بالبحر وما وراءه من حضارات قريبة أو بعيدة . وقد كان ذلك القرن الشامى من الهلال الخصيب موطنًا لحضارات قديمة سبقت العصر الحجرى الحديث وعاشت فيه ، حيث بدأت به - على الأرجح - أقدم زراعات القمح الذى لا يزال ينمو بريًا فى سفوح جبل حرمون أو جبل الشيخ الذى تغطى قمته الثلوج الدائمة . ولقد كان القرن الشامى من الهلال أرض اتصال ثقافى قديم ويتصل مع العراق من جهة ومع البحر المتوسط من جهة ثم مع مصر وأرض النيل الأدنى من جهة ثالثة . ومن الخير أن نذكر فى هذا المقام أن همزة الوصل بين أرض الشام وأرض مصر كانت عن طريق شبه جزيرة سيناء ، وهى فى ذاتها منطقة صغيرة قائمة بذاتها ، ولها سماتها الحضارية الأصيلة من ناحية أخرى . ولكن سيناء انقسمت من الناحية الطبيعية قسمين متميزين . القسم الأول هو الجنوب الجبلى المرتفع ، وتحده من الشمال صحراء التيه الجافة ، وهى التى تاه فيها موسى عليه السلام وبنو إسرائيل أربعين عامًا بقى أثرها معهم خلال أجيال طويلة ، حيث تميزت شخصيتهم عن غيرهم ، وحيث اعتادوا حياة العزلة ، وبحيث أصبحوا يتحدثون عن أنفسهم كشعب الله المختار . أما القسم الثانى من سيناء ، وهو القسم الأصغر ، فقد تمثل فى الشريط الساحلى ، وهو ذو طبيعة مختلفة تمامًا ، فهو فى عمومه يمتاز بالسطح المستوى ، وتسقط عليه الأمطار فى الشتاء ، كما تغطى سطحه تلال الكثبان الرملية التى تتشرب مياه المطر وتحتفظ بها ، لأن قسماً على الأقل من الساحل (لاسيما عند الطرف الغربى القريب من مصر ودلتا النيل البيلوزى القديم فى سهل « بالوظة » به طبقة سفلية طينية صماء لا تتسرب فيها مياه الكثبان ، وإنما تحفظها من الضياع ، حتى إذا ما جاء المسافر وحفر « الجب » أو البئر فيها وصل إلى الماء الجوفى القريب والذى يستمر العام كله . لذلك فإن الطبيعة رسمت هذا الشريط الشمالى ليكون طريقًا سهلة ذات ماء وعشب وكلأ للعابرين والمسافرين والمتنقلين بأنعامهم أو

إبلهم أو الغـزاة أو الجيوش (من الجانبين) بخيولهم أو وسـائل نقلهم أيًا كـانت . واستمرت هذه الظاهرة حتى عهدنـا الحديث والحالى . فمر طريق السكة الحديدية ثم الطريق المرصوف على طول هذا الشريط .

ولم يكن هـذا الشريط طـريقًا للتجـارة وحـدهـا . وإنما هـو كان أيضًـا طـريق الهجـرات القـديمـة بين أرض الشام وأرض مصر . وكـذلك كـان طـريق انتقـال الحضارة ومظاهـرها والربط بين المنطقتين الأسـاسيتين والكبيرتين فى الحضارة منذ كان العصر الحجرى القـديم الأعلى ثم العصر الحجرى الحديث ثم عصر المعادن ثم اكتمل العصر التاريخى بحضاراته الفرعونية وما يعادلها فى المشرق . . بل إننا نعرف أنه على الرغم من أن زراعة الشعير قـد بدأت كما أسلفنا فى شرق إفريقية وشمالها إلا أن زراعـة القمح إنما بدأت فى أرض الشـام وتـلاله ثم انتقلت إلى مصر عن طـريق شمال سينـاء فى العصر الحجـرى الحديث وما بعـده ، كما نعـرف أنـه قبل أن يطلع التاريـخ المكتوب كان أهـل الشام ينتقلون إلى مصر ومعهـم الزيوت المعصـورة من الـزيتـون والمحفـوظـة فى جرار فخـاريـة من نـوع معين (هـوالجرار ذات الأيـدى «المتموجة ») فى الألف الـ ابعة قبل الميلاد فيبيعونها لأهل وادى النيل كما تشهد آثار « المعادى » من ضواحى القاهرة ، حتى إذا ما جاء العصر التاريخى استمر الاتصال السلمى بين مصر وجـارتها الشرقيـة ، إلى أن جـاء الهكسـوس ، وهم الـرعـاة الآسيويـون الذين نشأوا فى سهـول آسيا واستأنسوا الحصـان وركبوه ثم دخلـوا به أرض مصر حـوالى ١٧٠٠ قبل الميـلاد ، فتعلم منهم المصريـون فنـون الحرب بهذا الحيـوان العـاتى ، وطـوروا « عجلـة رمسيس » وركبـوهـا ، ثم ردوا الغـزاة على أعقـابهم وطـاردوهم إلى أرض الشـام ، حيث أقـاموا أول امبراطـوريـة فى العهـد القديم . وبعـد ذلك استمر استخـدام طريق الشريط بين المنطقتين ، وجـاءت عنه رحلة يوسف وإخـوته ، ورحلة العذراء وطفلها المسيح عليـه السلام ، ثم جاءت بعد ذلك بستـة قرون أو أكثر رحـلات العرب القـادمين مع الفتح الإسلامى . ثم خرجت مـن هذا الطريق ذاتـه غزوات مصر أيـام التتر حيث صد المصريـون غزوة المغول وحفظوا للمسلمين يـومهم الخالد فى « عين جالوت » ، بعـد أن كان المغول قد خربوا بغداد قبيل ذلك .

وبعد ذلك جاءت العصور الحديثة ، فاستمر الشريط الساحلى طريقًا ، للانتقال والغزوات معًا ، فى الاتجاهين ، بل أصبح هذا الطريق مدخلاً إلى مصر ومنفذًا منها إلى المشرق العربى كله . فقد جاء الغزو التركى أيام العثمانيين الأوائل فى عام ١٥١٧ الميلادى عن هذا المدخل ، وعاد الأتراك فحاولوا العودة عن هذا الطريق بعد أربعمائة عام (١٩١٧) . وكان الأساس فى استخدام الطريق والعودة إليه أساسًا جغرافيا يكشف لنا كيف أن عوامل المسرح الطبيعى هى التى تحدد مجال حركة التاريخ بل وترسمه . وقد أثبتت هذه العوامل ذاتها مرة ومرات فى أيامنا الحديثة الجارية ، حين خرجت حملة « السلطة » البريطانية ففتحت أرض فلسطين برجال مصر وأبنائها ، أو حين تكررت حركة الجيوش مرة ومرة فى أيامنا المعاصرة فيما نسميه حروب فلسطين والكفاح ضد حركات الاستعمار الجديد على يد إسرائيل، ولننتقل الآن من الطرف الجنوبى فوق الهلال الخصيب فى الشمال إلى الأطراف الجنوبية لشرق الأردن وإلى شمال الحجاز فى الأرض التى يسميها المؤرخون أرض « النبط » أو أرض « الأنباط » . وقد كان ميناء العقبة وميناء «ايلات » القديم نهاية الطريق لخليج العقبة ، تمامًا كما كان ميناء « القلزم » نهاية لطريق خليج السويس وما وراءه . وقد بدأ استخدام خليج العقبة كمخرج لجنوب غرب الهلال الخصيب أيام الملك سليمان . وقد كان ذلك الميناء مخرجًا لكل ما يقع شماله وإلى الشرق بل والجنوب الشرقى منه . وهذه هى الأرض التى أصبحت قاعدة للحضارة النبطية التى وضعت أساس الكتابة « العربية » الأولى التى اتخذت بعض جذورها متأثرة بالكتابات العبرانية وشقيقاتها التى عرفها سكان تلك المنطقة الأقدمون . وقد تمركزت تلك الحضارة حول « البتراء » التى نحت أصحابها بيوتهم فى واجهات جبال الحجر الرملى الملون بأطراف وادى موسى . وقد بلغ من أهمية منطقة البتراء ، على صغرها بسبب موقعها الجغرافى الفريد والحصين . أن اهتم بها الرومان فاحتلوها مع سائر أرض الغساسنة وملوك العرب وأمرائهم ، وكان ذلك أيام تراجان فى أوائل القرن الأول بعد الميلاد .

وإلى الجنوب من أرض النبط تمتد جبال مدين التى كانت فى مواقعها تمثل النهاية الشمالية لطريق الحجاز ومنطقته الحضارية المستقلة على طول الساحل حتى جنوب

بلاد العرب عند نجران وبدايات هضبة اليمن فى أقصى الجنوب . وقد كان الحجاز منطقة انتقال للتجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، بل منطقة انتقال بين منطقتين حضاريتين عريقتين فى الجنوب والشمال ، وقد سارت على طولها تجارة «رحلة الشتاء والصيف » بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال ، بل بين بيئة اليمن شبه الموسمية وبيئة البحر المتوسط ذات الشتاء الممطر . وقد قام فى وسط الطرفين تقريبًا مركز دين إبراهيم الحنيف وما أورثه من مركز للإسلام فى مكة المكرمة ، أرض قريش صاحبة رحلة الشتاء والصيف ، ثم مركز المدينة المنورة ويثرب القديمة حتى أرض صالح فى أقصى شمال الطرفين . وقد جمع الطرفان بين تراث الدين وعراقته وبين ثروة التجارة وعزها ومجدها ، وكان الجمع فى ذلك كله بين الثقافة والتجارة كدعامتين أساسيتين فى بناء الحضارة على طريق هذه المنطقة الحضارية العتيدة .

ونصل فى أقصى الجنوب إلى أرض اليمن الذى يحتل هضبة تتدرج فى الارتفاع من ساحل تهامه على البحر الأحمر إلى القمة فى جبل النبى شعيب والهضاب والأودية العالية التى تحيط به فى شرقه وغربه ، حيث يزيد أعلى سطحها على ألفى متر فوق مستوى البحر ، ثم تنتهى بأودية تنحدر شرقًا إلى ما أصبح يعرف الآن بفيافى «الجوف» . ومعظم صخور هذه الهضبة من اللابا البركانية التى هى فى أصول تكوينها جزء متصل بهضبة الحبشة وجبالها ، ولكن هبوط البحر الأحمر وأخدوده قد فصل بينهما فى الزمن الجيولوجى الثالث ، وإن كان ظهور البراكين وانتشار اللابا البركانية قد استمر على جانبى الأخدودبعد ذلك ، وقد نتج عن الموقع الجغرافى وارتفاع الأرض هطول الأمطار بكميات كافية (تزيد على خمسين سنتيمترًا فى السنة فى كثير من الجهات) وخلال فصل الصيف ، وهى أمطار موسمية أو شبه موسمية آتية من المحيط الهندى . . . وقد تسببت فى تفكك الصخور البركانية وتكون تربة غنية تحتفظ بالرطوبة والمياه المتساقطة أو الجارية فى البقاع والوديان . وقد قامت على الهضاب والسفوح حياة نباتية مزدهرة حتى أطلقت على اليمن تسمية « اليمن السعيد » ، وقامت زراعات أشجار البن (فى ظلال أشجار أكبر منها) وفى الأودية ذات الضباب الذى يحجب ضوء الشمس

الساطعة ، كما قامت على « المدرجات » الصناعية (التى أقامها الإنسان) زراعات جيدة للحبوب والفاكهة كانت أساسها للحضارات التى تتابعت فوق السفوح . وأقدمها الحضارة « المعينية » ثم حضارة « سبأ » « وحمير » ، ثم الحضارات الإسلامية فى أعلى المناطق الجبلية . وظاهر أن الحضارة بدأت فى المناطق المنخفضة نسبيًا ثم أخذت تنتقل تدريجيًا نحو أعالى المناطق الجبلية ، وكان هذا دليلاً على الجفاف الذى حل بالبلاد تدريجيًا . وهذا أمر له دلالته المناخية والحضارية ، بل لعله كان السبب فى تيسر استمرار الحياة المستقرة فوق أرض اليمن إلى يومنا هذا .

كذلك فإنه يبدو أن هضبة اليمن كانت مهدًا قديماً من مهاد الحياة القبلية التى استمرت خلال فترة طويلة من التاريخ . وقد اضطر تغير الأحوال الخاصة بعض قبائل السكان إلى الهجرة ، إما شرقًا إلى قاع وادى حضرموت (حيث تجرى بعض المياه المنصرفة من الهضاب اليمنية) ، وإما بعيدًا عن اليمن كلها إلى أرض نجد ثم سواحل الخليج العربى وأرض العراق . وكان ذلك فيما يبدو من أسباب ما تقوله العرب من أن « اليمن مهد العرب والعراق لحدهم » . وفوق ذلك فإن هضبة اليمن كانت نقطة اتصال ثقافى وحضارى مع الجهات المجاورة . ففى الشمال امتدت اتصالاتها الثقافية والحضارية إلى واحة نجران حيث تركزت المسيحية القديمة ، كما امتدت إلى أرض هضبة عسير . وفى الشرق امتدت إلى أرض الأودية التى كانت تمتد إلى الشرق والجنوب الشرقى ، ومنها وادى سبأ القديمة وأرض سد مأرب وجنتيه الوارفتين عن يمين وعن شمال ، ثم كذلك إلى أعالى الأودية الممتدة إلى الأحقاف وأرض حضرموت . وفى الجنوب تمتد المؤشرات الحضارية من الهضبة إلى شواطئ خليج عدن وسواحل الكلأ والشجر ، بل وإلى جزيرة سومطره التى تكاد الآن أن تقع فى عزلة بحرية عما حولها ، مع أنها كانت فيما يبدو منطقة عبور بين أرض اليمن وأرض الصومال ، التى تغطى جزءًا من أرض بلاد « بُنت » القديمة ثم أخيرًا إلى الغرب كانت الاتصالات القديمة وثيقة بين شقى الأرض فى اليمن وفى أرض الأحباش ، حيث كانت بنُت القديمة والتى عرفها المصريون القدماء . ولقد عثر على بعض المؤشرات الفرعونية من أوائل الدولة الفرعونية الوسطى التى عرفت أرض اليمن القديمة ، ثم زاد الاتصال وتوسع فى الدولة

الفرعونية الحديثة (على أيام الملكة حتشبسوت) حين كانت الرحلات البحرية استمرارًا لنشاط الملاح المصرى القديم الذى تحطمت سفنه على الشطوط المرجانية القديمة على ساحل البحر الأحمر ، ولكن أغلبها وصل إلى أرض بُنت فى بلاد البهار والبخور الذى عرفته معابد مصر القديمة ، حيث استمر الاتصال متقطعًا حتى عهد العابد المسيحى « فروميوس » فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، حين انتقلت الكنيسة القبطية إلى أرض الأحباش . والواقع أن الاتصال الحضارى كان قديماً ومتصلاً (رغم بعض الانقطاع المؤقت من حين لحين) فى مثلث رأسه فى مصر القديمة وزاويتا قاعدته فى اليمن وبلاد الصومال والأحباش . وتلك أصول جغرافية لأحداث الاتصالات التاريخية فى هذا الإقليم الواحد

على هذا النحو درنا حول منطقة الجزيرة العربية كلها ، وتتبعنا مظاهر الاتصالات الثقافية والتوجيه الحضارى لبعض المناطق الصغرى داخل هذه المنطقة الحضارية الكبرى وعلى أطرافها . ولكن ينبغى لنا قبل أن ننتقل إلى منطقة حضارية أخرى ، أن ننظر إلى « قلب » هذه المنطقة العربية الكبرى ، وسنجد أنه كانت لها نواة ظاهرة هى أرض نجد وامتدادها إلى الشرق نحو شواطئ الخليج (أرض الاحساء والهفوف) . وهذه الهضبة محصورة بين « الربع الخالى » فى الجنوب وصحراء « النفوذ » فى الشمال . وكانت نجد تمثل منطقة أساسية من مناطق البادية فى الجزيرة العربية . ونحن نعرف أن البادية كانت دائماً أصلاً من أصول البيئة العربية ، بل أصلاً من أصول الحياة العربية كلها . ففى البادية نشأت السجايا الأصلية للعرب ، ذلك أن حياة أهل البادية قد تمثلت فيها طباع الكرم والضيافة والشهامة والنخوة والشجاعة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب والتضحية من أجل القبيلة ورعاية الشرف ، وغير ذلك مما امتازت به حياة العرب ، والبدو منهم بصفة خاصة . بل إن أصول الحياة العربية احتفظت بطابعها البدوى رغم كل مظاهر المدنية التى وجدت فى مواقع الاستقرار أو « القوى » التى استندت إلى الزراعة أو التجارة أو الوساطة بين المناطق الحضارية والمتجاورة أو المتباعدة ، أو استندت إلى مواطن التجمع فى بيوت العبادة أو أسواق الفكر والأدب فى قلب البادية مما امتازت به بعض المواقع التى ميزت حياة العرب الروحية والدينية والفكرية والأدبية الوجدانية ، بل المواقع التى انبعث منها نور الدين منذ أقدم

العصور يغطى أرض العروبة الأولى ثم أرض الدنيا كلها من حول الجزيرة العربية فى كل اتجاه .

ولقد كان أهل القرى المستقرة فى الجزيرة العربية منذ أقدم أيامهم يبعثون بصغارهم إلى البادية حتى ينشأوا نشأة بدوية ، وحتى يتشربوا روح البادية ولبانها قبل أن يعودوا إلى أهلهم فى « القرى » ذات المدنية وقد صقلت طفولتهم حياة البادية ذات الخشونة التى تبقى معهم ولا يغطيها طلاء الحياة المستقرة الناعمة ، وإن امتدت بهم الحياة .

وعلى هذا النحو كان لكل منطقة صغيرة فى الجزيرة العربية دورها الخاص فى حياة العرب وتطور حضارتهم منذ أقدم العصور ، وخلال العهد الجاهلى ثم الإسلامى بشكل خاص ، ولكن تلك الأدوار جميعًا كانت تتكامل أتم التكامل ، ومترابطة أحكم الترابط ، حتى خرج العرب مع تمام تاريخهم الحضارى القديم أمة وسطا بين الناس ، بل بين جيرانهم فى البر والبحر فيما وراء الحدود فى كل اتجاه .

خامسًا ـ منطقة الهضبة الايرانية :

وهذه منطقة خاصة لها دورها الحضارى الخاص فى التاريخ ، ولكنه فى حقيقته دور جاء متأخرًا عن غيره فى التاريخ الحضارى العام . وقد يكون من أسباب ذلك أن الجغرافيا قد حبت المنطقتين المجاورتين فى الهند إلى الشرق وأرض الرافدين إلى الغرب بوجود مجموعتين من الأنهار الكبرى التى كانت قاعدة لحضارة مستقرة ، ترجع أصولها إلى ما قبل العصر الحجرى الحديث ، وتمتد وتزدهر فى العصر الحجرى الحديث وما بعده . أما هضبة إيران فقد حرمت تقريبًا من الأنهار الكبرى ، وليس بها إلا غدران صغيرة نسبيًا أو روافد عليا تجرى إلى خارج المنطقة الإيرانية (لاسيما فى الغرب) . ولعل هذا أن يكون من بين الأسباب فى أن هضبة إيران لم تكن فيما بعد تعرف عادة إلى أى حد ظاهر بحضارات العصر القديم ، فضلاً عن أنها كانت تقع بين المنطقة الموسمية ذات الأمطار الصيفية الغزيرة فى الهند وأطراف امتداد مناخ البحر الأبيض المتوسط ذى الأمطار الشتوية والأنهار الجارية من الناحية الغربية . كذلك فإن قلب الهضبة الإيرانية كان يشمل قسماً كبيراً من

صحراء لوط التى يبدو أنها بقيت شبه جافة خلال معظم عصر ما قبل التاريخ . ومع ذلك فإن هضبة إيران التى نحن بصددها لم تكن هضبة مغلقة أو شبه مغلقة (كما كانت الحال فى هضبة التبت مثلاً) لأن سلاسل الجبال المحيطة بها لم تكن كلها تمتد فى اتجاه واحد متصل (شرقى ـ غربى بصفة عامة) ، وإنما كانت تتخللها الفتحات والممرات التى تسربت عنها الحضارة والمؤثرات الحضارية ، فعرفت هضبة إيران حضارات الهند وتأثرت بها ، كما عرفت حضارات المنطقة العربية بل والمنطقة اليونانية القريبة وتأثرت بهما إلى حد كبير . ومن هنا فإن أهل إيران الأقدمين لم يكونوا بمعزل من الفكر المجاور فى الشرق أو فى الغرب ، وإن كانت سواحلهم الجنوبية المطلة على المحيط الهندى شواطئ شبه مغلقة ، يسودها مناخ شديد القسوة ، يجعلها بعيدة عن أن تكون شواطئ صحية أو حتى قابلة لأن تسير بقربها قوافل الملاحة والتجارة ، وإنما كانت خطوط الملاحة هنا تبتعد من الشاطئ بقدر الإمكان حتى تستفيد من الرياح الموسمية بعيداً عن الشاطئ الذى تسوده الأخطار الطبيعية والمخاطر التى لا يتيسر معها العبور الآمن فى المياه الإقليمية الساحلية . وقد يبدو غريباً كيف أن مقاطعة « فارس » فى جنوب الهضبة الإيرانية والتى نشأت فيها حضارة فارس القديمة لا يعرف التاريخ بها أى مرفأ أو ميناء يقع على شاطئ المحيط فى الساحل الجنوبى الذى نحن بصدده .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى الشمال من الشاطئ فإننا نجد كما ذكرنا منطقة «فارس» إحدى المناطق الصغرى فى الهضبة الإيرانية الكبيرة . وهى منطقة ظهرت بها مواقع بعض المدن الإيرانية القديمة ، وقامت بها حضارة الفرس القدماء (بالمعنى الضيق للكلمة) . وبها موقع « برزوبوليس » التى نشأ بها الأكاسرة وقام مُلكهم ، وامتد نحو الغرب حتى طغى على أطراف هامة من أرض العراق ، وامتد إلى الغرب حتى بلغ مشارف البحر المتوسط ، ودخل مصر القديمة واحتلها فى أواخر أيامها الفرعونية ، كما احتك باليونان القديمة فى بعض الأطراف الغربية لآسيا الصغرى .

أما على الحافة الغربية لهضبة إيران فقد كانت هناك جبال « زاجروس » التى تتجه من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، والتى كانت الممرات تقطعها وتسهل

التوغل خلالها من كل من الجانبين الشرقى والغربى . ولذلك فإن الحافة الغربية لهضبة إيران الكبيرة كانت تمثل منطقة عبور نفذت منها معالم الحضارة من الجانبين، كما عبرتها الجيوش المتوغلة من كل من الاتجاهين . وقد أثمر ذلك الاتصال المتبادل كل ثماره فى العهد العربى الإسلامى حين اختلط الفكر الإسلامى بل والمسيحى من قبله ، ببقايا الفكر « الزاروastرى » والفارسى القديم . وحتى عندما جاء الإسلام وتوغل إلى داخلية الهضبة الإيرانية القديمة اتخذ صورة غير تلك التى عرفها المسلمون فى الأرض العربية وفى المدينة المنورة بصفة خاصة ، وتعصب الإيرانيون وأبناء الفرس الأقدمون للمذهب الشيعى أشد التعصب ، وبصورة لا تزال تميزه عن مذهب أهل السنة حتى يومنا هذا .

ثم إلى الشمال من منطقة العبور العربى ـ الفارسى (أو الفارسى ـ العربى) فى غرب إيران ووسطها ، نجد شواطئ بحر قزوين وجبالها التى تطل على ذلك البحر المغلق ، والتى انطبعت حياة أهلها بطابع « محلى » صرف كان التوجيه الجغرافى فيه نحو ذلك البحر وفى حدوده ، وإن كان قد سار مع شواطئه وأقام شيئًا من الاتصال الحضارى المحدود بها إلى الغرب والشمال أو إلى أقصى الشرق والشمال من ذلك البحر .

أما فى الركن الشمالى الغربى من هضبة إيران الكبرى فقد كانت هناك أيضًا منطقة حددت الجبال العالية ذات الممرات القليلة طبيعتها ، فقامت بها جماعة الأكراد أصحاب الثقافة واللغة التى ميزتها عن كل من الفرس والعرب فى آن واحد، ولا تزال هذه المنطقة الكردية الصغيرة قائمة بطبيعتها الخاصة حتى اليوم . ولها مشكلاتها الحضارية والسياسية التى تفرد لها مكانة مميزة ، خصوصًا بعد أن انتهت السياسة إلى تقسيمها ثلاثة أقسام بشرية بين إيران والعراق والأراضى التركية .

وأما عن الحافة الشمالية والشمالية الشرقية لهضبة إيران : فإننا نعود فنجد السلاسل الجبلية تتجه فى امتداد شرقى غربى ، ويقوم بها بعض مواقع الاستقرار الجبلى فى مدن قليلة ، منها مدينة مشهد ، ولكن الاتصال بسهول تركستان كان ، ولا يزال ، محدودًا نسبيًا ، بحيث أن المذهب الفارسى الشيعى لم ينتشر كثيرًا إلى

سهـول تركستـان التى استوطن فيهـا الأتـراك بلغتهم وثقافتهم . وحتى الإسـلام الذى انتشر إلى تركستان إنما جاء إنتشاره على أيدى العرب لا الفرس .

وكذلك فإن الفـرس فى انتشارهم نحـو الشرق على الحافة الشرقيـة لهضبتهم قد اصطدمـوا بعناصر أخرى غير فارسيـة فى أفغانستان ، وما أصبح يعـرف فى العهد المعاصر بباكستان وبلوخستان ، وهى عنـاصر صمدت أمام المؤثرات الفـارسية ، واحتفظت بطابعها الحضارى إلى يومنا هـذا . والحقيقة أن إيران وأهلها من الفرس والإيرانيين قد كفاهـا ما كانت تواجهه من لقاء حاد مع العـرب فى الجبهة الغربية ، فأصبح التـاريخ الحضـارى كله كفـاحًـا بين الفرس والعـرب أكثـر بكثير مما كـان مواجهة بين الفرس وأهل أفغانستان وباكستان وبلوخستان (والهند فى النهاية) على جبهتهم الشرقية .

سادسًا ـ منطقة آسيا الداخلية (الوسطى والشمالية) :

تمتـاز آسيـا بأنها أكبر القـارات وأوسعهـا ، وأن محورهـا يمتـد من الشرق إلى الغرب، وأن جنـوبها تعزلـه عن وسطهـا سلاسل طـويلـة من الجبال والهضبـات العـالية، تمتـد أيضًـا فى الاتجاه ذاته ، وتفصل محيطـاتها الجنـوبية والشرقيـة عن أن تتوغل بريـاحها ورطوبتها فى يسر إلى قلب القارة ، الذى يمتـاز بالجفاف واقتصار غطائه النباتى على الحشائش القصيرة نسبيًا . ولذلك فإن داخلية القارة الكبيرة تمثل منطقة أساسية من مناطق الاستبس التى تعمرهـا الحيوانات المناسبة لها ، وربما كان أهمها هـو الحصان الذى لا يـزال يوجد فى حـالة « بريـة » فى بعض المناطق ويعيش السكـان على لحمه ولبنـه . ولا يعـرف بـالضبط متى استؤنـس الحصان فى داخليـة آسيا ، ولكن الأرجح أن يكون ذلك قد تم حول منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد . ولابـد أن يكـون استنبـات بعض النبـاتـات (لاسيما القمـح) قـد تم قبل ذلك ، خصـوصًا على حـافات أشبـاه الصحارى المجـاورة لشمال الصين ، وفى الواحـات الكثيرة المنتشرة فى سهـــوب وسط آسيـــا التـى تتخللهـــا بعض الأنهار القصيرة والنهيرات التى تنصرف انصرافًا داخليًـا ، هو الذى يميز داخليـة القارة الكبرى ، حيث تنتهى الأنهار عادة فى بحـار أو بحيرات مغلقة (أمثال بحـر آرال الذى ينتهى

إليـه نهراً سيحون وجيحـون) . ولا ينتهى إلى البحر من داخليـة آسيا إلا عـدد من الأنهار تقع على أطـرافها الشرقيـة القصوى (فى شمال الصين) والشماليـة القصوى (فى سيبيريا) . وقد مكن انغلاق هذه المساحة الكبيرة والقارية من الأرض لسكانها وأصحـابها فى أواخـر العصر الحجـرى القـديـم من أن ينفـردوا بتطـور حضـارى خاص ، تمثل بصفة خاصة فى تـركيز حضارة تصنع آلاتها وأدواتها من العظام بصفة خاصة . وقد سادت العصر الحجرى القديم الأعلى الذى رأينا أنه كان أول عصور « التخصص » فى صنـاعـة الآلات ، والـذى يبـدو كـذلك أنـه امتـاز بشىء من الاستقرار النسبى ، ولا يعرف تاريخه بدقة ، ولكن يقال أنه معاصر كذلك للعصر الحجـرى القـديم الأعلى فى غـرب أوربا وفى إفـريقيـة وفى بعض جهـات من آسيـا الجنـوبيـة وربما فى استراليـا . وزامن هـذا التخصص الأول فى صنـاعـات الآلات الحجـرية والعظميـة وما شـاكلها حيـاة السكان فى « محلات » لها شىء بين الثبـات والاستقرار النسبى فى الحركة يرجعه بعض الباحثين فى آثار عصر ما قبل التاريخ فى بعض الجهـات إلى نحو خمسة عشر ألـف سنة خلت ، وإن كـانت بدايـة الاستقرار ونهايته تختلف من منطقة إلى أخرى . ولابد أن بعض مناطق استقرار الحياة النسبى وتخصص صناعـة الآلات لتلائم أغـراضًا معقدة من حيـاة السكان وحـاجاتهم فى المسكن والعمل وكسب العيش ومحاربة الحيوان أو العدو من الإنسان . . . لابد أن تكون بعض المناطق الحضارية فى العالم القديم قد سبق بعضها الآخر فى الزمن ، كما أن حلول حضـارة العصر الحجرى الحديث (الزراعـة وتربية الحيـوان) قد سبقت بعض المناطق قبل غيرها (ويبدو أن السبـق كان فى مناطق الشرق الأوسط القريب من قلب العالم القديم) ، إلا أنها قد تأخرت فى بعض المناطق المنعزلة نسبيًا . ومنها منطقة أواسط آسيـا التى نحن بصددها الآن . . . وازداد تأخرهـا فى بعض المناطق البعيدة المنعـزلة نسبيًـا ، مثل منطقة استراليـا التى سنعرف فيها بعـد أن المستعمرين الأوربيين قد وجدوا سكانها منذ ثلاثة قـرون أو أربعة لا يزالون يعيشون فيها يناظر ذلك العصر الحجرى القديم الأعلى .

كذلك فإن منطقة آسيـا الداخلية قد تبادلت المؤثرات الحضاريـة مع ما حولها . ففى الغرب كـان الامتداد الطبيعى للسهوب ومنـاطق الحشائش حافـزًا على انتشار

القبائل فيما بعد فى اتجاه أواسط القارة الأوروبيـة وكذلك انتشرت بعض القبائل التى نشأت فى الأصل فى مناطق السهوب ، ومنهم الآريون القـدماء ، إلى باقى آسيا بل وأطراف الهند . وأمـا فى شرق آسيا الداخلية فقد احتكت قبـائل الرحل مع سكان المنطقة الصينية من العنـاصر قديمة الاستقرار . . بل إنه يقال إن عنـاصر الرحل قد اختلطوا بـالسلالـة المغوليـة (أو المنغوليـة) وانتشرت فى عصر متقدم عبر المنطقـة الضيقة فى شمال المحيط الهادى (وربما أيضًا عبر مضيق بهرنج) إلى أمريكا الشمالية ، حيث بـدأ الهنـود الحمـر ، وهم « منغـوليون » عمـروا القـارة الشماليـة ثم انتقلـوا تدريجيًا إلى أمريكـا الوسطى ثم أمريكا الجنوبية وأنشـأوا حضارات هناك ، بعضها من أواخر العصر الحجرى القديم الأعلى ، وبعضها من العصر الحجرى الحديث ، حيث اهتدوا هناك ـ اهتداء مستقلاً وقائماً بذاته ـ إلى زراعة الذرة الأمريكية البيضاء وبعض محاصيل الأمـريكتين كـالبطاطـس والطماطم وغيرها . . . وهكـذا كـانت منطقـة آسيا الـداخليـة منطقـة لها امتدادهـا الخاص الـذى نشر الحضارة بـأسلوبـه الخاص، وتفرعت منه حضارة أو حضارات أخرى بعيدًا فى قارتى العالم الجديد .

وأما امتداد داخليـة آسيا نحو الغرب فـلابد من أن نذكر فضـل هذه المنطقة على استئناس حيـوان « الحصان » ومـا ترتب على هذا الاستئنـاس من عواقب بـالنسبة «لتحـرك » الإنســان حركـة سريعـة تمثلت بصفـة خـاصة فى حـالـة الحروب التى استخدم فيها هذا الحيوان . وقد أشرنا إلى أن استئناس الحصان قد تم على الأرجح حوالى منتصف الألف الثـالثة قبل الميلاد ، ونقله رعـاة الهكسوس معهم إلى الشرق الأوسط ثم إلى مصر حـوالى عام ١٧٠٠ ق . م . ويبـدو كذلك أن « العجلـة » التى تخفف الحركـة فى دورانها على سطـح الأرض قـد دخلت إلى مصر حيث طـورهـا المصريـون إلى « عجلـة رمسيس » المعـروفـة فى الحروب واستعملـوا معهـا الحراب والنصـال المعدنيـة ، فتعلم المصريـون فى وجود « الحصـان » مـا لم يقدروا عليـه فى وجود الحيوان الإفريقى البديل (وهـو « الحمار ») ، خصوصًا وأن ركوب الحصان والزحـف خلفه فى عربـة يعطى الراكـب نوعًا مـن « الاستعلاء » الذى أخـذه أهل مصر عن أهل آسيا . ولعل هذا أن يكون هـو السبب الخلفى فى أن مصر الفرعونية القديمة بقيت على سجيتها الإفريقيـة الأصيلة من عدم « الاستعلاء » ومن الانتقال

البطىء والرتيب على ظهر الحمار أو سيرًا خلفه إذا أثقلناه بالأحمال (كما يفعل فلاحو مصر حتى الآن) . ولقد فاخرت القارة الإفريقية وأبناؤها بحيوانهم المسالم والصبور حتى عرفوا القارة الآسيوية (أو عرفتهم) بحيوانها الجموح . بل إن علينا أن نذكر أن ما أضافته منطقة آسيا الداخلية إلى الثروة الحيوانية لجنوب غرب آسيا ومصر ، قد مر بأهل المنطقة العربية خلال مرحلة من «تطوير » الحيوان الجديد وترويضه . بل « وتربيته » بعد أن أدخله الملك سليمان حوالى القرن العاشر قبل الميلاد إلى قلب الجزيرة العربية ، وهى بيئة أشد جفافًا وأقل فى عطائها النباتى وحشائشها بل أقل فى مواردها المائية الجارية والراكدة وفى أمطارها وتساقطها عن منطقة داخلية آسيا ، ومن هنا فقد وجبت « تربية » الحيوان الضيف الذى دخل على « الجمل » حيوان بلاد العرب الأصيل ، فقام نوع من « التخصص» بين الحيوانين . فاقتصر الجمل على الحمل والنقل ـــ أو على الانتقال البشرى فى حالة الراحلة أو البعير الهجين ، واقتصر كذلك على أن يكون مصدرًا للطعام بلحمه ولبنه ، أما الحصان العربى « الضامر » فى بطنه والخفيف فى حركته ، فقد تخصص فى فن «الحرب » ، وأصبح أداة الحرب الأولى بالنسبة للفارس العربى الذى بدا من جانبه يضفى على الحياة العربية لونًا جديدًا لم يألفه العرب فى جاهليتهم البعيدة فى التاريخ (وقبل أن يبدأ التاريخ) فأصبح بين العرب سادة فرسان بل ومغامرون يجوبون الفيافى ، وجاءت ظاهرة « الغزو » بين القبائل ، بل وبلغت الحال أن سميت بعض الحروب بأسماء الخيل فكانت حرب « داحس والغبراء » (فى حرب البسوس) وظهر فوارس ومغامرون من أمثال امرئ القيس ؛ وتغيرت العلاقات بين القبائل البدوية ودخلت فى « الحركة السريعة » ، بما يكاد يذكرنا فى عهدنا الحديث والمعاصر بحركات « الحرب الخاطفة » ووسائل الغزو الآلى الحديث الذى غير وجه الحرب فى هذه الأيام . . . وتلك صورة قديمة ظهرت فى عهد الجاهلية فى بلاد العرب وأحدثت تطورًا بدأت أحداثه فى عهد سليمان الذى سبقها بنحو بضعة عشر قرنًا ، وهى فترة تطوير الحصان العربى ، الضيف الجديد الذى غزا الجزيرة العربية وغير بعض ملامح وجه الحياة فيها .

ولنعد الآن مرة أخرى إلى منطقة آسيا الداخلية وسكانها ودورهم الحضارى .

وسنجد أن المنطقة تنقسم بطبيعتها قسمين أساسيين ، هما ما نسميه على سبيل التبسيط تركستان الغربية وتركستان الشرقية وتفصلهما منطقة عالية من الجبال والهضاب فى بامير . فأما تركستان الغربية فموطن « الأتراك » بقبائلهم المتعاقبة من التركمان والسلجوق والعثمانيين وغيرهم . وقد انتشروا من هناك . وتركزت حركتهم أساسًا إلى الجنوب من بحر قزوين وعلى طول محور الجبال والأودية التى تجرى فى الاتجاه ذاته حتى تمر بشبه جزيرة الأناضول وآسيا الصغرى ، وقليلاً ما كانوا ينحدرون إلى سهول شمال الجزيرة العربية وفيافيها . وإنما هم قد استطاعوا أن يستقروا فى الأناضول وأن يمتد فريق منهم إلى الركن الجنوبى الشرقى من أوربا ، حيث توسع العثمانيون فى أرض بيزنطة القديمة وأقاموا إمبراطوريتهم وخلافتهم التى شملت البلقان وامتدت جنوبًا إلى أرض الشام وأرض مصر وأطراف من الجزيرة العربية حتى وصلت بعض طلائعها إلى أرض اليمن .

وقد دخل الأتراك فى الإسلام دخولاً شاملاً ، ودانت لهم خلافة المسلمين ، وتأثرت لغتهم التركية باللغة العربية إلى حد بعيد ، فأصبح ما يجاوز ثلث ألفاظها من أصل عربى ، وغلبت الثقافة الإسلامية على حياتهم فى كل شىء . وكذلك أصبح التشريع الإسلامى ونظام حكمه أساسًا لحياتهم كلها . ويبدو أن افتقار اللغة التركية إلى أصول ثقافية فى بلادها الأصلية قد جعل من الميسور على الإسلام ، وهو مغلوب من الناحية السياسية والعسكرية ، أن يغلب فاتحيه وأن يَسِمَهم بميسمه فيما يشمل كل شىء .

وأما القسم الثانى (تركستان الشرقية) فهو يمتد من غرب بامير وشمالها إلى أطراف الصين وأرض منشوريا فى أقصى الشرق . وهو يمتد من منطقة سور الصين العظيم (الذى أقيم لحماية الصين من أهل بادية المغول ومن وراءهم) إلى منطقة منغوليا الخارجية ، التى يفصلها عن منغوليا الداخلية صحراء جوبى القاحلة نسبيًا . ونظرًا لاتساع منطقة تركستان الشرقية فإنها تتخللها مناطق واسعة من الفيافى القاحلة ، ومنها صحراء تاريم التى تقع بين التبت وجبال تيان شان ، ومنها صحراء جوبى التى أشرنا إليها من قبل . وقد كان سكان السهوب فى هذه المنطقة يتشكلون من قبائل قديمة كان يطلق عليها اسم « الهونج نو » ، وهم أصل

قبائل « الهون » التى هاجمت أوربا والامبراطورية الـرومانية القديمة ، وأصل قبائل « الويجور » التى كـانت تهدد حدود الصين القديمـة وغيرها . وقد جـاءت بعدهم قبائل التتر التى توسعت فى ظروف خاصـة إلى شمال بحر قزوين وجنوب الأراضى الروسية الحاليـة ، وكذلك قبائل المغول الذين جـاءوا من شرق المنطقة وانتقلوا إلى شمال الصين من جهـة ، وإلى منطقة الشرق الأوسط وشمال بـلاد العرب من جهـة أخرى (بعد أن مـروا بأرض تركستان الغـربية) . ولقد حاولنـا أن ندرس أسباب الاضطراب الكبير فى حيـاة سكان تـركستان الشرقيـة وكثرة تنقلهم وانتشـارهم فى «موجـات » متعاقبـة انتهت بهم إلى غزو غيرهـم فى الشرق أو فى الغـرب على شكل هجرات واسعة النطاق كبيرة العدد كثيرة الأفـواج ، مما انتهى بأغلبها إلى تخريب ما فتحوه من البلاد ، لولا أن الإسلام قـد غلب آخر الأمر على معظمهم وفتح قلوب الكثيرين منهم ـ لاسيما من سار منهم نحـو الغرب ونحو موطن الإسـلام ـ فانتهى ذلك بأن أهدأ نفوسهـم ووسع قلوبهم وهذب سلـوكهم ، فذابوا آخر الأمر فى أهل البلاد التى فتحوها وأخذوا من حضـارتها واندمجوا فى سكانها ، على نحو ما حدث بصفة خاصة بالنسبة لمن وصل من جحافلهم إلى منطقة شمال الجزيرة العربية .

وفى رأينـا أن السبب الأسـاسى فى انتشـار الهجرات وجحـافل الغـزاة من هـذه المنطقة الهونية التترية المغولية إنما هو ذبذبة الأحوال المناخية فى تلك المنطقة التى تقع فيها وراء الجبـال والهضـاب وتتـوغل إليهـا الأمطـار الخفيفـة من ثـلاثـة مصـادر متباعدة، هـى مصدر المحيط الهادى فى أقصى الشرق ، ومصـدر المحيط الأطلسى وراء أوربا كلها (ويتبعه مصدر ثانوى هو مصدر البحر المتوسط) ، ثم هناك مصدر ثالث لا يكاد يضيف شيئًا يذكر إلى المصـدرين السابقين ، ولكننا نذكره هنا كاحتمال يمد ببعض الأمطار الشاردة والمتسربة ، وهو مصدر المحيط الهندى الذى يقتصر أثره على بعض ما يشرد مـن الرطوبة عبر بلاد التبـت وجبالها ثم يتساقـط على شكل ثلوج تذوب بعـض مياههـا وتنصرف شمالاً إلى بعض الأودية التـى تجرى فى حوض تـاريم شديد الجفاف .

والـذى يحدث هـو أن مـدى توغل التيـارات الهوائيـة التى تنقل الأمطـار كـان متذبذبًا غـاية التذبذب . وقد تأتى سلسلة دورات من السنـوات لا يصل فيها مطر

كاف إلى قلب المنطقة التى نحن بصددها . ويترتب مع ذلك قحط شديد لابد معه من أن القارة من جهة أخرى . وهكذا تمثلت صلة أهل الفيافى الداخلية بأهل الحضارة المستقرة فى الصين أو فى الغرب . . . تمثلت فى سلسلة لا تنقطع من فترات الغزو وفترات الهدوء .

سابعًا ـ منطقة شبه القارة الهندية :

وللقارة الآسيوية ثلاث من أشباه الجزر الكبرى تقع كلها فى جنوب القارة وتطل على المحيطين الهندى والهادى ، وهى شبه جزيرة العرب فى أقصى الجنوب الغربى ، وشبه جزيرة الملايو والهند الصينية فى أقصى الجنوب الشرقى ، ثم شبه جزيرة الهند الصينية فى أقصى الجنوب الشرقى ، ثم شبه جزيرة الهند فى الوسط ، وهى التى يطلق عليها بعض الجغرافيون شبه القارة ولكل من أشباه الجزر تلك صفاته ومميزاته الخاصة ، مما ترتب عليه أن كان له دور حضارى خاص ومميز . فشبه جزيرة العرب كانت كتلتها مربعة الشكل أو مستطيلة ، وكانت ترتبط ماديًا بأرض قارتين هما آسيا وإفريقية ، كما كانت تحيط بها بحار على شكل خلجان كبيرة (البحر المتوسط) أو أذرع بحرية (البحر الأحمر والخليج العربى) أو خلجان تنفتح على المحيط (خليج عدن وبحر العرب) ولها فوق ذلك موقع جغرافى فريد . لايكاد يضارعه أو يحاكيه موقع جغرافى آخر فى العالم ، وهو قريب على ما يبدو من موطن البشرية الأولى ، وقد جرت على مسرحه ملاحم الهجرات الكبيرة والاتصالات البشرية التى حددت مجرى التاريخ ، وبلاد العرب فى تاريخها الطويل كانت مستقرًا أو معبرًا للعناصر البشرية من جميع ألوان البشر ، ومن جميع الثقافات والحضارات والأديان ، ذلك أنها كانت كثيرة المداخل والمخارج من جميع الجهات ، وفى كل الاتجاهات تقريبًا . بل من هنا كانت حياتها الحضارية كلها حركة ، لم تعرف الركود ، ولم تعرف الجمود ، ولم تعرف الاستقرار الساكن والوقوف عند وتيرة تاريخية واحدة ، وإنما كانت كلها حركة تطور ، وإن اختلفت سرعة الايقاع من وقت لآخر فكانت تشتد وتتسارع مع القيادة البشرية الناشطة ، وتجمد أو تضعف فى عهود الركود التاريخى أو الغزو الأجنبى الداهم الذى ينتزع المبادأة من

أيدى أبناء البلاد (كما حدث فى عهدنا الأخير) .

وأما شبه جزيرة الهند الصينية والملايو فى أقصى الجنوب الشرقى ، فإنها كانت مخرجًا آخر لقارة آسيا الكبيرة ، وهى شبه جزيرة بالمعنى الواضح ، فهى لا تتصل بآسيا إلا من جهة واحدة هى الشمال والشمال الشرقى ، وتحيط بها مياه المحيط من الشرق والجنوب والجنوب الغربى ، تجاور الجزر الواقعة إلى الجنوب والجنوب الشرقى منها ، وهى أرخبيل جزر الهند الشرقية التى يبلغ آلاف قليلة من الجزر التى يختلف بعضها عن بعض فى الحجم وعدد السكان . ولكن شبه جزيرة الهند الشرقية وملحقاتها الجزرية يعيش عليها خمسة أمثال سكان الجزيرة العربية وملحقاتها أو ما يزيد ، وأن كانوا مختلطين فى السلالة واللغة والدين وبعض ألوان الحضارة ، التى يغلب عليها الطابع المحلى فى بعض الأحيان ، وذلك كله بخلاف ما عليه الحال فى الجزيرة العربية ذات الطابع الواحد فى الدين واللغة والثقافة والحضارة بعامة ، وان كان هناك شيء من الاختلاف فى بعض معالم سلالاتهم الجنسية من إقليم لإقليم .

فأما شبه الجزيرة الثالثة فهى شبه جزيرة الهند فى وسط جنوب القارة . وهى مثلثة الشكل رأس مثلثها إلى الجنوب وقاعدته عند سفوح جبال الهمالايا . ولا يخلو التكوين الجيولوجى والفزيوغرافى لشبه جزيرة الهند من دلالات بالنسبة لفهم طبيعة البيئة الجغرافية فى تلك البلاد ، ولتفسير بعض معالم التاريخ البشرى والحضارى لما جرى على تلك الأرض الهامة فى تاريخ القارة الآسيوية ، بل وتاريخ الحضارة البشرية بصفة عامة . ففى أقصى شمال شبه القارة الهندية (وتشمل الهند وباكستان وبنجلاديش وامتدادها فى اسام) توجد سلاسل جبال الهمالايا وما وراءها من هضبة التبت العالية ، وهذه كلها مناطق شديدة الارتفاع ، بل ربما كانت أعلا مناطق العالم كله فى الجملة والاتساع . والجبال ذاتها حديثة من الناحية الجيولوجية ، أى أنها ترجع إلى عصر السلاسل الألبية على امتداد آسيا وأوروبا ، وعصر سلاسل جبال الأمريكتين على سواحل المحيط الهادى الشرقية . وقد كان هذا العصر عصر اضطراب جبلى فى العالم كله ، ويطلق عليه الزمن الجيولوجى الثالث . وقد أثر وجود السلاسل الجبلية فى شمال الهند . فقام حد « مناخى »

تتوقف عنده التيارات الهوائيــة الموسمية التى تأتى محملة بالرطـوبة والأمطار الغزيرة فى فصل صيفى معين وتأتى من المحيط الهندى (سيما خليج البنغال) ، وترتطم بالجبال فتسقط كل ما بها من رطوبة ومطـر ، وتجرى المياه غزيرة جدًا إلى سهل الهند الشمالى ، وهـو سهـل عـريض لـه مـا يشبـه السنـام فى الـوسط وينحـدر سطحـه فى الجملـة شرقـًا وجنوبـًا إلى خليج البنغـال ، كما ينحدر غـربه مـع نهر السند وروافـده الكثيرة نحو الجنـوب والجنوب الغربى إلى البحر العـربى الذى يمتد إلى سواحل بـاكستان وغـرب الهند . وفى هـذا السهل العظيم تراكمـت الرواسب السميكـة خلال بقيـة الزمن الجيولوجى الثالث والزمن الجيولوجى الرابع الذى تلاه إلى الوقت الحاضر . ويقال أن تراكم الـرواسب قد أدى إلى زيادة حمولة السطح على مـا تحته من طبقات الأرض ، كما يقـال أنـه نتيجة لـذلك فإن جبـال الهمالايـا ذاتها (التى يخفف نحت الصخور وإزالتهـا من وزن كتلتها التـى تندفع إلى أعـلا) . . . هذه الكتلـة الجبلية لاتزال فى ارتفاع مستمر ، وإن كان غير محسـوس حتى اليوم . وقد استقرت الحياة على السهل الهندى الكبير منذ أقدم العصور ، وعلى الرغم من أننا لم نجد حتى الآن آثارًا للعصر الحجرى القـديم فى السهل ذاته فقد وجدت بعض آثـار ذلك العهد فى المناطق التى تقع إلى الجنوب منـه . أما السهل ذاته فقد عثـر فيه على آثار من العصر الحجرى الحديث وما تلاه خصوصًا عنـد طرفه الشمالى الغربى ، حيث عرفت آثار الاستقـرار فى باكستـان بآثـار حضارة « مـوهنجودارو » التى استمـرت من العصر الحجرى الحديث إلى عصر بداية استخدام المعدن . وفوق ذلك فإنه لابد وإن تكون آثار كثيرة غيرها قد طمرت تحت طبقـات الطمى المترسبة بوفرة على السهل الشمالى كله . . . . . . وهذا يـذكرنا ببعض ما حدث فى دلتا النيل التى لم يعثـر فيها على آثار من العصر الحجـرى الحديث إلا عند حـافات الـدلتا بخـلاف وسطها الـذى كساه الطمى بطبقة كثيفـة . ومع ذلك فإن هناك ملاحظـة عامة على هـذا السهل الهندى العظيم فى الشمال ، ذلك أن سطحـه يتجـه إلى الشرق فى قسم منـه وإلى الغـرب فى قسم آخر . وقد ترتب على ذلك اختـلاف فى « التوجيه الجغرافى البشرى » للسكان منـذ أيامهم التـاريخية القـديمة الأولى وحتى اليـوم . وقد انعكس ذلك فى صـورة الحيـاة والحضارة على مـر الزمن ، حتى إنـه لم تقم هنـاك وحدة بين مختلف أقـاليم

السهل الفيضى العظيم إلا فى أحوال نادرة . وكـذلك لم تقم وحدة بين السهل وما يقع إلى جنوبه فى بقية الهند . وإنما قامت عدة وحدات حضارية وسياسية واختلفت التجمعات البشريـة والحضارية والسيـاسية كما سنـرى بعد قليل . ويكفى الآن أن نذكر أن شبه القارة الهندية لم يعرف الوحدة الشاملة إلا تحت تأثير العوامل الخارجية كما حـدث أيام الاستعمار البريطـانى للهنـد كلها ، حيث قـامت وحـدة الحكومـة الاستعمارية مفروضة على سكان شبه القارة كله . وحتى من الناحية اللغوية لم يكن مستطاعـًا لمجموعـة اللغات التـى يزيـد عددهـا وعدد اللهجـات الكبيرة منها على المائة . . . لم يكن مستطاعًا توحيد التفاهـم بينها إلا بلغة أجنبية مشتركة واحدة هى لغـة الاستعمار «الإنجليزيـة» . ولا تزال آثـار الاختـلاف ثابتـة حتى الآن فى ذلك السهل الشمالى الخصيب الـذى انقسم بعـد استقـلال الهنـد عـام ١٩٤٧ إلى دولتين كبيرتين هما الهند وباكستان ، ولم تلبث باكستان الشرقية أن عادت فاستقلت فى هيئة دولة بنجلاديش .

وإلى الجنوب من السهل الشمالى الكبير تقـوم مجموعة من الجبـال المنقطعة ولكن التوغل فيها كان أمرًا غير متيسر . ولذلك فلا تزال بعض القبائل القديمة تقيم فيها بعيدة من معالم الحضارة المزدهرة بين أهل السهل الشمالى . ثم إلى الجنوب من ذلك تقوم هضبة « الدكن » ، وهى هضبة تغطيها اللابا البركانية التى تشبه ما نشاهده فى هضبة الحبشـة بأفريقيـة . وهذه اللابـا بركانيـة تفتت فى شكل تربـة سوداء تحتفظ بـالرطـوبة وتجود بها زراعـة القطن الهندى (بخـلاف الشمال حيث تقوم زراعـات الأرز والقمح ، وهى الحبوب التى دخلت إلى الهند من الشرق (من الصين أوالهند الصينية بالنسبة للأرز) أو من الغرب بالنسبة للقمح . . . وقد كانت زراعة القطن وبعض المحاصيل المدارية الأخرى سببًا من أسباب الثروة والحياة الزراعية فى وسط الهند ، ولكن هضبة الدكن بقيت كذلك فى شبـه عزلة حضارية عما يقع فى شمالها أو فى جنوبها البعيد .

ولقد كان المثلث الجنوبى من شبه القارة الهنـدية منطقة مميزة بذاتها اندفعت إليها بعض العناصر القـديمة من السكـان ، ومنهم « الدارفيـديون » الأقـدمون ، وهم سلالة من السمر السود وأشباه الزنوج ، يبـدو أنهم يمثلون فريقًا من سلالة سوداء

البشرة ، انتشرت حول المحيط الهندى وامتد انتشارها إلى إفريقية السوداء وإلى أطراف بلاد العرب الجنوبية وبعض سواحل إيران ثم الهند الجنوبية كلها ثم بعض جزر المحيط الهندى إلى جزر جنوب شرق آسيا فى أطراف المحيط الهندى ثم أخيرًا إلى أستراليا ، حيث لا تزال ذريتهم تتمثل فى بعض قبائل تلك القارة فى الفيافى فى الشمال والوسط ، وهم سكان أستراليا الأصليون الذين وجدهم المستعمرون البيض على حالهم الفطرية القديمة ، فطاردوهم وأجلوهم عن الأراضى المعتدلة والصالحة للزراعة لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن استنبات النبات .

ولا يشذ عن حالة جنوب الهند الدارفيدى الذى أشرنا إليه من حيث الانعزال النسبى واستمرار العناصر القديمة إلا سواحل ذلك الطرف الجنوبى فى الغرب والشرق . فأما عن الساحل الغربى فقد انتقلت إليه وإلى شماله بصفة خاصة عناصر (البارسى) الفارسية وعناصر أخرى مختلفة من أحلاف البرتغاليين وغيرهم على ساحل ولاية « كيرالا » التى انتشرت فيها المسيحية وعرف سكانها بالنشاط والحركة والتقدم . وأما ساحل كرمانزل الشرقى فقد نزلت فيه عناصر ملاحية بحرية ونشطت فيه التجارة مع خليج البنغال وما وراءه وأصبح لأهله من سكان مدراس وما إلى الجنوب منها (وكذلك من بعض عناصر القبائل الساحلية) نشاطهم وانتشارهم إلى جزيرة « سرنديب » أو « سيلان » (سرى لانكا الآن) ، حيث كان ذلك مظهرًا فريدًا وشاذًا عن المألوف بالنسبة للخروج من بلاد الهند إلى ماوراءها . . . ولا يعادل ذلك إلا خروج بعض العناصر الهندية من الشمال ومن أطراف السهل الشمالى عن طريق بنغالة ، وتوسع تلك العناصر مقتفين آثار بعض الملاحين القدامى فى اتجاه سواحل بورما وما وراءها إلى بلاد الملايو وشبه جزيرة الهند الصينية التى تأثرت بالتيارات الكبيرة الوافدة من الهند وما وراءها مما سنشير إليه فيما بعد .

على هذا النحو تنوعت البيئات واختلفت فى شبه القارة الهندية . وهو تنوع لم ينته بالهند إلى الوحدة الكاملة ، بل بقيت الهند فى حياتها الحضارية كلها منقسمة قسمين كبيرين هما ما يمكن أن نسميه « الهند النهرية » أو الهند السهلية » فى الشمال «والهند الهضبية والساحلية » فى المثلث الواقع إلى الجنوب من السهول الشمالية

ولكل منهما طبيعته الحضارية : الشمال قد انتقلت إليه وخرجت منه حضارات متعددة ، فجاءه الآريون الأقدمون من الشمال الغربى ،ثم العرب المسلمون من الشمال الغربى أيضًا ، ودخلت إليه أفواج جديدة ومختلطة من حضارة المغول وغيرهم من المسلمين ، وخرجت منه فى الشمال الديانة البوذية التى نشأت بعد البراهمية الهندوكية القديمة ، ولكنها لم تعمر فى الهند الشمالية وإنما خرجت منها إلى التبت والصين والهند الصينية ، كما خرج فريق منها جنوب الهند ليستقر فى جزء من (سرى لانكا الحالية) ، فكأن البوذية نشأت عقيدة هندية شمالية وانتهت إلى غير ذلك . أما القسم الجنوبى والهضبى والساحلى من الهند فإنه كان « مختزن » السلالات والحضارات ، اندفعت إليه أو بعبارة أدق « دفعت » إليه العناصر القديمة من الشمال ومن السواحل إلى داخليته ، حيث عمرت وبقيت حتى اليوم ، ولم تخرج من الهند إلا خروجًا محدودًا جدًا ، لأن جنوب الهند كان يشبه ما نسميه «الركن المغلق » أو بعبارة دارجة « قاع الزكيبة » حيث تبقى متخلفات الحضارة وتعمر على الزمن دون أن يزعجها شيء من دخيل الحضارة . والأمر الطريف أن الهند على الجملة لم تجد من الثروة الحيوانية فيها ما يساعد أهلها على التوسع والانتشار إلا ما أخذوه من حيوانات البلاد المجاورة ، مثل الحصان ، وقد دخل من وسط آسيا ، ومثل الجمل وقد جاء مع العرب والإسلام . أما حيوان الركوب والنقل الأصيل فى الهند فقد كان « الفيل الهندى » ، وهو يختلف فى طبيعته عن «الفيل الإفريقى » الذى لم يستأنس مطلقًا وكان شرسًا غير قابل للترويض أو الاستئناس ، ولا يزال كذلك حتى الآن . أما الهند فقد أستأنس لها فيلها ، وكان صالحًا للترويض ، فاستخدم فى النقل وفى حمل الأثقال وجرها . . . واستخدم آخر الأمر فى المناسبات الاحتفالية ونحوها ثم فى الحرب ذاتها حيث كان يستخدم للتخويف ، ونقله الفرس والرومان ، من الهند ، ثم بعض سكان إفريقية القديمة منهم والأحباش الذين ساقوا فيلهم المعروف فى اتجاه أرض مكة وبيت الله الحرام . ولكن الفيل تقاعس عن السير على طريق الغزو الذى سبق إليه قبيل الإسلام .

ثامنًا ـ منطقة الصين الكبرى :

وهذه منطقة كبرى من مناطق القارة الآسيوية تكاد تشمل جميع شرق القارة .

بل إن الصين بمساحتها وسكانها تكاد تشغل مكانة قارة بذاتها ، فإذا نحن أخذنا قارة أوربا على سبيل المثال ، وامتددنا من المحيط الأطلنطى حتى جبال أورال فى الشرق ، وجدنا أن من الممكن أن تضع أوربا التى تحدها سلسلة الأورال داخل القارة الصينية . وأما من ناحية السكان فالصين تشمل خمس سكان العالم برمته وإذا حسبنا امتداداتها إلى اليابان من جهة وإلى أطراف شبه جزيرة الهند الصينية التى تشغلها عناصر من أصل منغولى أو صينى والتى تأثرت بحضارة الصين بدرجات متفاوتة ، فإننا نجد أن هذه الحضارة بامتداداتها المتأثرة بها تغطى ما يقارب ربع الإنسانية . كذلك فإن ثقل المنطقة الصينية من الناحية الحضارية يزكيه أيضًا تاريخها الطويل ، واتصال حياتها خلال ذلك التاريخ ، وكل ما هناك أن ضخامة هذه المنطقة واتساعها وتنوع بيئاتها القارية والداخلية والشاطئية والبحرية قد مكنت لها قدرًا كبيرًا من الاكتفاء الذاتى ، بحيث إنها لم يخرج منها إلى الخارج غير العناصر الزائدة ، وغير «فيض» السكان والحضارة . كذلك فإن العالم الخارجى الذى استطاع فى بعض العصور أن « يطرق » أبواب هذه المنطقة الضخمة لم يستطع أكثر من أن يقف عند هذه الأبواب دون التوغل الظاهر أو الذى يمس الكيان المتماسك للحضارة الصينية . ومن هنا فقد احتفظت تلك المنطقة بوحدتها الثقافية والحضارية ، خصوصًا وأن المنطقة لم تكن مفتوحة انفتاحًا كبيرًا إلا من ناحية واحدة هى ناحية الرعاة فى شمالها الغربى ، وهى الجهة الوحيدة التى جاءت إلى الصين منها غزوات أو هجرات كبيرة العدد . ولقد أحست الصين بأن هذا هو مصدر الخطر الذى لا تقدر عليه ، ومن هنا فقد أقامت سورها الكبير لترد موجات الغزاة ، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير . أما شواطئ الصين فى الشرق والجنوب الشرقى فقد كانت « مخارج » للبشر وللحضارة أكثر منها « مداخل » . ومن هنا كان الانتشار من السواحل إلى أشباه الجزر الصغرى نسبيًا ، ومنها شبه جزيرة كوريا التى كانت صغيرة جدًا بالنسبة للكتلة الصينية والتى لم تهتم الصين بأن تضغط عليها بما يطغى عليها طغيانًا كاسحًا أو يغطى على لون حضارتها الخاص فى مجال اللغة والتجارة . ولقد عرفت كوريا منذ القدم بأنها أرض «شيلا » التى طرق أبوابها تجار البحر مستغنين عن مداخل الصين وأبوابها الضيقة على شواطئ أرض

الصين ذاتها إلى الجنوب ، ومع ذلك فمن الجائز ، بل والأرجح ، أن تكون بعض العناصر المنتشرة من القارة قد مرت بأرض « شيلا » وما جاورها مرورًا سريعًا إلى أرخبيل اليابان ، الذى لا نجد كل عناصر سكانه من العنصر المنغولى أو الصينى ، وإنما جاء بعضهم إلى شمال اليابان من « الأينو » من طوال الرجال ذوى السحنة غير المنغولية وغير الصينية ، ومن الجائز أنهم يمثلون هجرة قديمة من القارة (أو من الأرض الواقعة إلى الشمال من المنطقة الصينية المنغولية) إلى بلاد اليابان . وقد بقى الأينو متركزين فى شمال اليابان ، وإن كان بعضهم قد اختلط آخر الأمر بالعناصر المنغولية فى الكتلة الصينية .

وتظهر بعض النتوءات فى ساحل الصين إلى الجنوب من البحر الأصفر ، ومنها شبه جزيرة صغيرة هى « شاندونج » . ولكن هذه جميعًا لم تكن « مخارج » بشرية من الصين ، وإن كانت قد مثلت نقاط تركز حضارى وثقافى جعل لها طابعها الخاص . ويكفى أن نذكر أن « شاندونج » كانت فى قسمها الغربى موطن نشأة «كونفوشيوس» حكيم الصين العظيم وصاحب المذهب الفكرى والمنحى الاجتماعى الذى طبع حياة أهل الصين حتى الآن ، بعد أن تبلورت آراؤه فى غرب شاندونج منذ خمسة عشر قرنًا ، ولئن كانت الكونفوشية لم تبلغ مرتبة الدين بالمعنى المعروف فى شرق القارة الآسيوية ، فإنها مذهب فكرى وعقيدة إنسانية ومنحى اجتماعى له مزاياه التى استمسك بها شعب الصين وسار عليها خلال قرون طويلة . وحتى بعد أن جاءت البوذية من الهند والتبت نراها قد تركزت فى مناطق خاصة (لاسيما فى التبت ذاتها) وانتشرت لتضيف إلى شرائع الحياة الصينية دون أن تمحو أصول المذهب الاجتماعى الكونفوشى .

أما عن الساحل في جنوب الصين فقد كان ساحلاً مفتوحًا على الخليج ، خرجت منه عناصر الملاحين الصينيين . واستقر فى بعض موانيه ملاحو غرب آسيا الذين جاءوا إلى الصين من بواباتها التي كان أغلبها يقع على السواحل الجنوبية فى منطقة «فوكيين » الساحلية وإلى الجنوب منها حتى مشارف الهند الصينية . وقد بدأت الصلات البعيدة مع هذه المناطق الساحلية منذ العهد الإغريقى الرومانى (بل ويقال إن بعضها بدأ أيام مصر الفرعونية) ولكنها ازدهرت خلال العهد العربى

الإسلامى ، مما كتب عنه الكتاب والملاحون العرب (مثل ابن بطوطة وغيره) ، بل وكتبت عنه أيضًا بعض المصادر الصينية (مثل نصوص تشاو ـ جو ـ كوا) .

ولابد لنا من أن نشير إلى بعض المعالم الجغرافية التى ميزت المنطقة الصينية الكبرى . ذلك أن الأنهار الكبرى التى تقطعها تسير كلها تقريبًا من الغرب إلى الشرق، بما فيها النهر الأساسى الذى يعتبر الآن حدًا سياسيًا بين الصين وأراضى سيبريا (الاتحاد السوفيتى سابقًا) ، وهو نهر عامور الذى لم تقم عليه حضارة مرتكزة نظرًا لقسوة مناخ الجهات التى يمر بها ، ولكن السياسة والتوسع الروسى الكبير فوق سهول سيبريا وبحثًا عن الوصول إلى المحيط الهادى . . . هذه الظروف السياسية والعسكرية جعلت منه حدًا بين بلدين كبيرين من بلاد آسيا الشرقية .

وإلى الجنوب منه هناك نهر « هوانجهو » أو النهر الأصفر الذى يجرى من داخلية مناطق الشعوب الشمالية إلى أرض تربة « اللويس » الهوائية والتى كانت مركزًا لحضارة قديمة من أعرق حضارات العصر الحجرى الحديث ، وقامت على زراعة القمح التى يبدو أنها انتشرت من غرب آسيا انتشاراً بطيئًا ولكنه كان انتشاراً ثابتًا ، طور الحياة الرعوية إلى حياة زراعية مستقرة ومتصلة فى اتساعها ، خصوصًا وأن النهر الأصفر لم يكن حوضه مقسماً إلى سلسلة من الأحواض كغيره من أنهار المنطقة الصينية ، وإنما كان كله سهلاً واحدًا كبيرًا امتد فى اتساع مفتوح من الغرب إلى الشرق ومن المناطق السهوبية الرعوية إلى مناطق الساحل الشرقى . فضلاً عن أن جريان هذا النهر كان دائم الأخطار بسبب الفيضان ، وتحول مجرى النهر تحولاً مفتوحًا فوق سهول « اللويس » المكشوفة . ولكن هذا الخطر لم يخل من الخير بالنسبة للصين ، فقد كان الفيضان الذى يمثل مصدر خطر مشترك بالنسبة لمجتمع الصين الشمالى قد جعل المجتمع يعرف كيف يتحد ويتضافر لدرء هذا الخطر المشترك، أو على الأقل لتجديد الحياة بسرعة فائقة عقب كل فيضان ، خصوصًا وأن هذا الفيضان كان يتمثل فى مجرد « انتقال » مجرى النهر نحو الجنوب أو نحو الشمال ، أكثر مما يتمثل فى فيضان منتظم وشامل على «الجانبين » داخل منطقة تشبه « الوادى العريض » ، على نحو يقضى على الحرث كله على جانبى ذلك الوادى .

وإلى الجنوب من سهل النهر الأصفر فى شمال الصين يوجد حوض نهر « يانج

تسى » وهو النهـر الكبير الذى تتكون منه الصين الوسطى . . . وهـو يجرى كذلك من الغـرب (حيث منابعـه فى أطراف التبت) إلى المحيط فى الشرق . وينقسم هـذا المجرى إلى سلسلة من الحيضان ، وأشهـرها حوض « تسشوان » فى قلب الصين ، وقد كـان مركزًا لحضـارة مزدهرة قامت على أسـاس زراعة الأرز زراعة نـاجحة ، وعلى أساس أنه حوض تحيط به المرتفعات كـانت لهذا الحوض مكانته التاريخية بين أحواض الصين.

وبعد أن يخرج اليانج تسى من حوض تسشوان يسير محددًا من حوض صغير إلى آخـر حتى يصل إلى قـرب المنطقـة الشرقيـة فيتسع مجراه إلى أن يصب فى المحيط . وكان مجراه الأسفل مخرجًا ومدخلاً للاتصال بين الصين وما وراء المحيط .

وإلى الجنوب من هذا النهر الذى يتوسط الصين كان هناك نهر « كيانج » « أوسى كيانج » وهو نهر أقصر من سابقه ، ولكنـه يصرف مياه جنوب الصين ، وقد قامت عليـه حيـاة زراعيـة مـزدهرة بمحصـول الأرز . ولقـد كـان الاتجاه الجغـرافى لهذا الحوض ، كنظيره اليانج تسى إنما هو من الغـرب إلى الشرق ومن الجهات الداخلية إلى المحيط ، ولكن السكـان لم يخرجـوا لـلانتشـار فى الطـريق البحـرى من البيئـة الـزراعية فى جنـوب الصين ، حيث يتـوافـر الأرز وبعض المحاصيـل شبه المداريـة والمدارية ، ممـا جعلها بيئة قابضـة بأبنائها ولا تطـردهم نحو الخارج . ومن هنـا فقد طال استقـرار حياة أهـل الصين الجنوبيـة فوق بلادهـم التى أثمـرت جهودهـم فيها فأقاموا الحياة الزراعية الزاهرة.

تلك هى الحافـةالجنوبية للمنطقـة الصينية الكبرى ، ولكن الحدود هنـا تستحق إشـارة خاصـة ، لاسيما فإن مجموعـة أنهار الهند الصينيـة تبدأ من منطقـة الصين ، وتتجه كلهـا نحو الجنوب أو الجنوب الشرقى . ومن هنـا فإن خط تقسيم المياه بين المنطقتين يتـداخل مع خط الحدود الجغـرافى بين منطقتين حضاريتين متـداخلتين فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى ، ولكنه كان خط تقسيم مياه أكثر مما كان « خط تقسيم حضـارة » ، ولذلك فإننـا سنعود لنـربط بين الحضـارة فى كل من المنطقتين عندمـا نتكلم عن منطقة شبه جزيرة الهند الصينية .

ولنعد إلى نشأة الحضارة فى منطقة الصين الكبرى ، فإذا بـدأنا بالشمال فإننا نجد

أن أقدم الحضارات المعروفة لنا من عهد ما قبل التاريخ هى حضارة منطقة « تشو ـ كو ـ تيين » ، وهى حضارة ترجع إلى أوائل عهد معرفة الإنسان « بالنار » واستخدامها فى منطقة تشبه « العراء » المكشوف ، حيث توجد بها بعض واجهات الجبال المحمية التى تشبه الكهوف ، ولكنها لا تبلغ التكهف الكامل . وقد اتخذ الإنسان صناعاته الحجرية من حجر الكوارتسيتا الذى يصعب تهذيبه ، ولا يعرف تاريخها بشكل محدد، ولكنها حضارة « رجل الصين » الذى يختلف عن الإنسان العاقل الذى عرفه غرب العالم القديم فى العصر الحجرى القديم الأعلى وفى العصر الحجرى الحديث . ولكن المهم أن صناعة رجل تشو ـ كو ـ تيين كانت صناعة مميزة، نشأت وتخصصت فى آثارها الحجرية ، واستقرت بعض الاستقرار فى منطقة تقع فى التلال إلى الغرب والشمال من موقع بكين الحالية .

وبعد أن جاءت حضارة العصر الحجرى الحديث وشملت شمال الصين ، قائمة على زراعة القمح ، وهى زراعة يبدو ، كما قلنا ، أنها جاءت فى الأصل من غرب آسيا وانتقلت انتقالاً بطيئًا عبر سهول آسيا الوسطى . وقد بقيت الصين الشمالية متميزة بزراعة القمح عن الصين الوسطى والجنوبية التى تميزت بزراعة الأرز الذى هو نبات جنوبى يبدو أنه استنبت لأول مرة فى جنوب شرق آسيا . وقد كان من الطريف أن شمال منطقة الصين الكبرى امتاز بزراعة « شتوية » هى القمح ، فى حين امتاز جنوبها بزراعة « صيفية » هى الأرز . ومن هنا فقد ظهر مجال طبيعى لقيام لون من «التبادل » بين أهل الشمال وأهل الجنوب . وعلى الرغم من أن أدلة هذا التبادل السحيق فى التاريخ لم تصل إلينا ، إلا أنها أدلة طبيعية يمكن تصور قيامها دون مشقة. وعلى هذا النحو فقد كانت هناك مقومات لبداية شىء من التكامل ، وإن لم يكن الأمر أمر « وحدة » بالمفهوم الحديث بين شقى المنطقة القارية الشاسعة ، وهو أمر أثبته التاريخ البشرى الطويل الذى تأكدت أسبابه مع الزمن .

والحق أن المنطقة الصينية كلها كانت على أقسامها الكبيرة منطقة ذات وحدة حضارية ظاهرة . وحتى السكان فى الشمال والجنوب كانت لهم مسحة سلالية عامة ، فهم جميعًا من المنغوليين ذوى المسحة المعروفة بالقامة المتوسطة والرأس العريض والجلد المائل إلى الصفرة البنية والأعين « المشقوقة » ، حيث يميل الجفن

العلوى فوق حافة العين فيظهرها بمظهر مائل . وفوق ذلك فإن السكان لهم لغة مشتركة قد تكون ذات لهجات محلية متباينة ولكنها ذات « كتابة » واحدة (وإن كانت معقدة ومكونة من مجموعة من الأشكال وليس لها أبجدية من النوع المعروف في لغاتنا ، في غرب القارة) . والواقع أن الجريدة التى تصدر بكتابة « المندارين » فى الصين كلها يمكن أن يقرأها جميع أهل الصين (أو من يقرأ منهم) وهم مئات الملايين . وتلك ظاهرة تمتاز بها المنطقة الصينية عن منطقة كالهند حيث اللغات كثيرة والكتابات التاريخية شتى ، وحيث لم يكن للسكان وسيلة للاتصال اللغوى فى العصر الحديث إلا بلغة أجنبية دخيلة هى اللغة الإنجليزية .

كذلك الحال بالنسبة للديانات والعقائد . . . فهناك للصين مذهب اجتماعى واحد أو شبه واحد هو المذهب « الكونفوشى » . وهو الذى يقارب بين الصينيين بصرف النظر عن اختلاف العقيدة كالبوذية المنتشرة فى كثير من المناطق أو حتى الإسلام الذى ينتشر فى بعض الجهات الداخلية أو بعض المدن الكبرى المتناثرة بين «كانتون » فى الجنوب « وبكين » أو « بايجنج » فى الشمال . والطريف أن أهل الصين لهم عادات اجتماعية مشتركة ، ومنها احترام الأسرة الذى نقلوه عن الكونفوشية التى كانت توصف أحيانًا « بعبادة الأجداد » .

وحتى إذا نظرنا إلى الحضارة الصينية من منظور زمنى تاريخى ، فإننا نلاحظ إنها فى المنطقة كلها قد امتازت بالاستمرار وعدم التغير الظاهر من عصر إلى آخر . وكأن الحياة والحضارة تسير بطريقة « رتيبة » جدًا لا تغيير فيها . ومن هنا فإننا نجد أن الأمر فى الصين يختلف تمامًا عنه فى بلد حضارى قديم آخر مثل الهند أو مثل مصر . ففى الصين مثلما يدخل الزائر إلى أحد متاحف الحضارة والتاريخ فى أى بلد فيمر من قاعة تمثل عصرًا أو أسرة من العصور أو الأسرات التاريخية إلى قاعة ثم قاعة أخرى فى المتحف . . وهكذا حتى يخرج من المتحف فى آخر قاعاته ، ذلك دون أن يحس تغيرًا ظاهرًا فى محتوى القاعات التى تمثل العصور المتتابعة . . . وكأن التاريخ كله كان فى الصين وحدة متماسكة ، مستمرة ، بل كأنه تاريخ أسرة واحدة لا تكاد حياتها تتطور من عصر لآخر إلا فى حدود ضيقة مرسومة ، أما فى الهند مثلاً فإن البلاد كلها متحف يعيش كل العصور دفعة واحدة . فهناك الأزمنة القديمة

والـديـانـات القــديمـة ، ثم الألـوان الـوسطى من التـاريـخ ، والهنـد المغـوليـة والإسلاميـة، ثم هنـاك الهند الحديثة . وهكـذا فإن الحيـاة فى الهند وريفهـا ومدنها عبـارة عن متحف حى لكل العصور والـديـانات واللغـات والثقافـات المتعايشـة والمتعـاصرة . وأما فى مصر فإن الحضـارة متجـددة ، والسكان قـد غيروا مظاهـر حيـاتهم وحضارتهم مـن عصر لآخر فهنـاك العهـد الفرعـونى بأدواره المختلفـة ، وهنـاك العصر الإغريقى الـرومـانى ، ثم العصر القبطى والعصر الإسـلامى ، ثم أخيرًا هناك عصر الحضارة المعاصرة . ولا يسهل أن يمثل مظـاهر الحضارة المصرية وآثارهـا بلون واحـد فى متحف كبير واحد لا تختلف «المعروضـات» فيه من قـاعة لأخرى . بل إن المصريين وإن كانوا قد احتفظوا بمصريتهـم وفرضوها على مظاهر الحياة فى مختلف العصور ، لم يجدوا حرجًا فى أن يغيروا لغتهم من عصر لآخر . بل ولا فى أن ينتقلـوا من عقيـدة إلى أخـرى من عهـد الفـراعنـة إلى المسيحيـة ثم الإسلام . . . وذلـك رغم احتفاظهم بظـاهرة مصرية مميـزة واحدة هى « التـدين » والتمسك بالديـن وممارسته ، وإن اختلفت العقيدة من عصر لآخـر . وهذا أمر لم تعرفه الصين ولا المنطقة الحضارية الصينية .

تاسعًا ـ منطقة الملايو وجنوب شرق آسيا :

وهذه منطقة شبه جـزرية وجزرية ، تبدأ من جسم القارة الآسيـوية ولكنها تمتد إلى البحر ويغطـى جزء منها ميـاه المحيط . وقد كـانت تمثل مخرجًـا للقارة أكثـر مما كانت تمثل مـدخلاً إليها . وتمتـد فيها السلاسل المقطعة فى اتجاه الجنـوب والجنوب الشرقى ، وتجرى أنهارها جنوب خط تقسيم الميـاه مع الكتلة الصينية ، وتجرى إلى البحار فى الجنوب والجنوب الشرقى . ومن بينها نهر ميكونج وايراوادى وغيرهما ، وتمتد منها أشباه جزر فـرعية أهمها شبه جزيرة الهند الصينية وشبـه جزيرة الملايو . أما الحدود الجنوبيـة للمنطقة فيحددها علماء الجغـرافيا الطبيعية والجغرافيـا الحيوية بأنها تقع عندمـا يعرف « بخط والاس » ، وهو خط يقع عند مستـوى مائة قامة تحت سطح البحر فى شكل قوس كبير ، وقد لاحظ والاس أن مـا يقع داخله من جزر الهند الشرقيـة تعيـش فيـه حيـوانـات ونبـاتـات تتبـع مجمـوعـة الحيـاة على سطـح القـارة

الآسيويـة فى طرفيهـا الجنوبى الشرقى ،وأن مـا يقع إلى خارج القـوس يتبع منطقة حياة حيـوانية ونباتية مختلفـة . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مـا يدخل فى الخط كان إلى عهـد جيولوجى قـريب نسبيًا (ربما كـان الزمن الجيولـوجى الرابع) متصلاً اتصالاً بريًا مباشرًا بأرض القـارة ، ثم حدث هبوط فى اليابس أو ارتفاع فى سطح البحر (أو الاثنان معًا) فتكون أرخبيـل الهند الشرقية وبه آلاف الجزر (منها ثلاثة آلاف جزيرة فيما يعرف بأندونيسيا الحالية) وهى التى يمر بها خط الاستواء . وبذلك يقع الأرخبيـل فى المنطقة الاستوائيـة ، وتقع داخلية أشبـاه الجزر فى منطقة موسميـة ، وهى كلها غزيـرة المطر وفيرة الغطـاء النباتى والزراعى ، وتقـوم حياة أهلها كلها على الزراعة الاستوائية وعلى موارد البحر وموارد ما تحت الأرض ، ثم على خيرات الموقع الجغـرافى ، حيث تـدور طرق الاتصـال البحـرى حول الـركن الجنـوبى الشرقى للقارة الآسيـويـة وحيث يلتقى محيطان من أكبر المحيطـات ، هما المحيط الهادى والمحيط الهندى .

أما عن السكان فقد جاءت أصـولهم من أرض القارة الآسيوية ووصل بعضهم على طول السواحل الجنوبية أو السواحل الشرقية ليستقروا فى شواطئ الهند الصينية أو الملايـو أو فى بعض الجزر المتفـرقـة . وعلى كل حـال فقـد كـان الاتجاه العـام للهجـرات من الشمال أو من الغـرب . وقـد زاد اختـلاط عنـاصر السكـان ، بل اختلطت الحياة فى المنطقـة كلها حتى اتخذت لها اسماً مركبًا (الهنـد الصينية) من كل من الهند والصين . ويبدو أن المسحة الخارجية لـلاختلاط السلالى والحضارى جاء من الهنـد أكثـر ممـا جاءت من الصين ، وهـى الأكثر نقـاء (والأقل اختـلاطًـا) ، ولـذلك فقـد غلبت النسبـة إلى « الهنـد » (المعـروفة بـالاختـلاط) على النسبـة إلى «الصين» ، فأطلق على المنطقـة كلهـا « الهنـد الصينيـة » ، لأن التيـار الأغلب (أو الأقدم على الأقل) فى الهجرة والتأثير الحضارى إنما جاء من ناحية الهند .

أما عـن تكوين السكـان فإن هناك نـواة (فى شبه جـزيرة الملايـو بصفة عـامة) لمجموعـة من السكان كانت لهم ، ولا تـزال ، لغة قـائمة بذاتها هى اللغـة الملاوية (لغـة الملايو) ، التى لا تـزال عميقة الجذور فى شبـه الجزيرة ، ولم تستطع اللغـات الجديدة (كالصينيـة الدخيلة أو لغات كمبوديـا وكمبوتشيا وفيتنام وسيـام القديمة

(تايلند) ولهجاتها) أن تقتلع الملاوية أو تطغى عليها . وقد عرف سكان الملايو منذ القـدم بنشاطهم التجـارى البحرى فـركبـوا البحر وانتشروا من شبـه جزيـرتهم ، فاتجهت أقلية منهم إلى جزر الأرخبيل المجـاور ولكن التيار الأساسى والأنشط لهم توسع بـالبحر نحو الغـرب وقطع المحيط الهندى كله حتى وصل إلى شرق إفـريقية واختلط بـالسكـان ، لاسيما فى الشطـر الشرقى لجزيرة مـدغشقـر ، حيث يستمـر اختلاط عنـاصر الملايو مع السكـان النازحين من إفـريقية إلى الجزيـرة . ويبدو أن بعض عنـاصر الهنـد الصينيـة الأخـــرى ، لاسيما عنـاصر « الخمير » التى لا يـزال خلفاؤهـا يقطنون كمبـوديا (كمبـودشيا) حتى الآن ، قـد انتقلوا مع ركـب الملايو ودخلـوا جـزر « القمـر » (أو القمر) فى شرق إفـريقيـة. حتى إنـه ليقـال أن لفظ « القمر» مشتق من لفظ « الخمير » المنقول من أقصى جنوب شرق القارة الآسيوية .

على كل حال فإن هذه صـورة تعكس الوجه « الحضارى » لمنطقـة الملايو والهند الصينية ، وكيف أن أصـول الحضارة واللغـة والثقافـة ، بل والسلالـة ، فى الملايو كانت قـوية ، وقـادرة على التوسع والانتشـار فى وقت سابق لتوسيـع الحضارة من الجانبين الأكبر كثيراً ، وهما جـانب الهند وجـانب الصين (لاسيما هـذا الأخير) . وظاهر أن التـوسع من جانب الهند جـاء أغلبه لاحقًا بالتوسـع الملاوى وسابقًا على التوسع الصينى، وأن هذا التوسع الأخير جاء آخر الأمر وخلال القرون الأخيرة ، ولكنه جاء توسعًا قويًا وشامـلاً ، بل طاغيًا . وقد عاون على ذلك كثرة العدد الذى توسع من جـانب الصين ، وجاء «فيضًـا» من منطقة أوسع كثيراً بل وأكثـر تماسكًا ووحدة ، وهو الفيـض الصينى الذى يكاد أن يمسح بيده على منطقـة الهند الصينية ومنطقـــة الملايـو كلهـــا ، بل ويمتـد إلى مـــا وراء ذلك فى بعض جـــزر الأرخبيل الأنـــدونيسى ومـا وراءه فى اتجاه جنـــوب غـرب المحيط الهادى ، حتى أخـذ يهدد المنطقة الاسترالية البعيدة حتى تطلق عليه الآن تسمية «الخطر الأصفر » .

عاشراً ـ منطقة المحيط الهندى :

ولا نستطيع أن نترك منطقة الملايـو والهند الصينية دون أن نتبعها بكلمـة موجزة عن منطقة جزر المحيط الهندى . ذلك أن جزر هذا المحيط قد ارتبطت ، كما رأينا ،

أوثق الارتباط بالانتشار الحضارى من منطقة الملايو ومن شواطئ المحيط ذاته إلى الشمال منها ، كما ارتبطت فى الوقت ذاته بتاريخ الاتصال الحضارى بشواطئ إفريقية الشرقية ، التى ارتبطت بالتالى بالمحيط الهندى والنشاط البحرى القديم والوسيط ، بل والحديث ، فوق مياهه . ولابد أن هذا النشاط والاتصال قد أفاد من وجود نظام الرياح الموسمية المنتظمة ، والتى كانت تسير فى اتجاهين مختلفين بحسب الموسم ، ولكنها كانت تعاون الشراع فى كل موسم . ولابد أيضًا أن يكون الملاحون القدامى قد أتقنوا فن الافادة من الرياح مهما اختلف موسمها . وقد ترتب على رحلاتهم القديمة تلك أن اختلطت سلالتهم ولغاتهم وألوان حضاراتهم ، مما انعكس كله فى سكان الجزر الكثيرة المتناثرة فى مجموعات متباعدة فى المحيط ، وإن كان بعض مجموعات الجزر قد تأثر أكثر بسواحل الهند وسكانها ، ومنها جزر المالديف فى خليج البنغال ، فى حين جمع بعضها الآخر بين مؤثرات الملايو ومؤثرات الهند الصينية كجزر شيسيل وموريشيوس وغيرها حتى تصل إلى جزر القمر (أو القمر) التى أشرنا إلى أنها متأثرة بحضارة الملايو والخمير (كمبوديا أو كمبودشيا) ثم الشق الشرقى من جزيرة مدغشقر التى تنقسم طوليًا (فى اتجاه شمالى جنوبى) بين سلالات آسيا وسلالات إفريقية . بل إنه يقال إن شاطئ شرق القارة الإفريقية ذاته قد تأثر كذلك بهجرات الملاحين من جنوب شرق آسيا ومن الهند ، فوق تأثره بالهجرات العربية من جهة الجزيرة العربية ، أى أن شاطىء إفريقية الشرقى قد تأثر بالهجرات والمؤثرات الحضارية من كل من أشباه الجزر الممتدة من القارة الآسيوية . وقد يكون من الطريف أن نشير هنا إلى ما أصبح يسمى بجبال « القمر » فى هضبة شرق إفريقية (« رودنزورى » على الأرجح) وهى تسمية إما أن تكون مشتقة من أضواء القمر ونجوم السماء (مما يبرر نسبتها إلى القمر) ، وإما أن تكون كما يرى نفر قليل من الباحثين من اسم قبائل « الخمير » فى كمبودشيا أو محرفة عن ذلك الإسم الذى اشتق منه على ما يبدو اسم جزر القمر ، كما أسلفنا من قبل .

والخلاصة أن المحيط الهندى فى رأينا منطقة حضارية ، وإن كان خاليًا من اليابس إلا من مجموعات متفرقة من الجزر . وقد ساعدت الظروف الطبيعية التى

سادته ، خصوصًا نظام الرياح الموسمية ، على جعل المحيط مسرحًا لنشاط بشرى تقل الحضارة بين شواطئه ، وكان ذلك دليلاً على أن المحيطات (كالبحار) لاتفصل بين الحضارات وإنما تصل بينها إذا ما توافرت العوامل الجغرافية الطبيعية الأخرى ، وأهمها نظام الرياح ، وإذا ما وجدت العناصر البشرية ذات الحيوية والنشاط ، والتى تخرج من اليابس فتركب البحر وتنقل الحضارة وتربط بين السلالات الشعوب ، ولو كان الرباط خفيفًا ، يركب خطوطًا متباعدة بين الجزر المتناثرة فى بطن المحيط .

حادى عشر ـ منطقة جزر المحيط الهادى :

وهذه منطقة حضارية جزرية أخرى للمحيط الكبير الآخر فى مطلع الشرق ، هو المحيط الهادى بين كتلتى العالم القديم والعالم الجديد . ولكن مبعث الحضارة فى هذه الحالة كان من جانب واحد من المحيط هو جانب القارة الآسيوية ، لأن جانب العالم الأمريكى الجديد لم تكن تطل منه حضارات ذات انتشار بحرى كحضارة الصين أو الهند وما وراء ذلك من حضارات العالم القديم ذات الانتشار البحرى الواسع . كذلك كانت السواحل الشرقية للمحيط الهادى عبارة عن جبال التوائية عالية تحيط بالمحيط كله بما يشبه السور المرتفع فيما أصبح يعرف بأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية حتى إنه ليبدو أن تلك السلاسل العالمية قد سورت المحيط وقفلت أبوابه الشرقية . ولقد كان الاتجاه الجغرافى لحضارات الهنود الحمر فى الأمريكتين نحو المشرق والداخل فى القارتين ، فلم يعرف أن حضارة الانكا أو الآستك مثلاً كان لها نشاط فى اتجاه المحيط الهادى . ومن هنا فإن مجموعات الجزر فى المحيط الهادى طورت هويتها الحضارية فيما يشبه العزلة ، إلا عما انتقل إليها بالبحر من ناحية الغرب . ونحن لا نعرف الكثير عن أصول الهجرات القديمة التى عمرت جزر المحيط الهادى ، ولكننا نعرف أنها مجموعات من الجزر لسكانها صفاتهم الجنسية والسلالية المميزة ، كما أن لهم لغاتهم الخاصة بهم . ولابد أن الاتصال بين مجموعات الجزر كان بطيئًا وغير مضطرد ، ولكنه استمر أجيالاً طويلة طبع الحياة فى كل مجموعة من الجزر بطابعها الخاص المميز .

كذلك فإننا لا نعرف صلة واضحة بالسلالات التى تعمر آسيا الشرقية الآن من ناحية الصفات السلالية التى تختص بها سلالة أهل الصين المميزة أو حتى الهند الصينية المختلطة بعض الشيء . وقد نستنتج من ذلك أن سكان مجموعات الجزر فى المحيط الهادى لابد وأنهم وصلوا إلى المحيط وانتشروا فيه فى وقت مبكر عن انتشار السلالة الصينية الحديث من الصين ذاتها نحو الجنوب ونحو جزر الأرخبيل الأندونيسى . وعلى كل حال فإن منطقة المحيط الهادى ، التى قد تعتبر أوسع مناطق العالم كلها من حيث المساحة وسعة الانتشار ، تشمل مجموعات جزر ميلانيزيا وميكرونيزيا وبولينيزيا التى يمتاز كل منها بسلالة تختلف بعض الاختلاف عن المجموعتين الأخريين من حيث التكوين الطبيعى لجزر بعضها مرجانى ، وبعضها بركانى ، وكذلك من حيث التكوين السلالى ولون البشرة ومن حيث اللغة والثقافة وصفات الحضارة عامة ، رغم وجود بعض التشابه الذى لا نعرف الكثير عن ظروف قيامه ولا عصر حدوثه ، ولكننا نفترض على كل حال أنه يرجع على الأقل إلى ما يعادل ما نسميه فى العالم القديم بالعصر الحجرى الحديث من حضارة الإنسان وعمارته للأرض . ولقد استمرت مجموعات جزر المحيط الهادى فيما يشبه العزلة عن العالم ، وحتى عندما جاء عصر توسع العرب والمسلمين ، من الغرب فإنه يبدو أن هذا الانتشار فى العهد الوسيط قد توقف عند أطراف آسيا الشرقية فيما أصبح يعرف بأنه بلاد « واق الواق » وهى آخر الجزر التى انتشر إليها العرب فى عصرهم . أما ما وراء ذلك شرقًا فقد بقى مجهولاً حتى جاءت الاكتشافات البحرية الأوربية الحديثة وجاء بعضها بالدوران حول أمريكا الجنوبية والدخول إلى المحيط الهادى من بابه الخلفى البعيد ، وجاء بعضها الآخر من ناحية جزر المحيط ذاته فى جنوبه الغربى ، ثم جاء بعضه الأخر بعد ذلك منتشراً إلى مجموعات الجزر الواقعة حتى شمال المحيط الهادى ، سواء من ناحية آسيا ، أم من ناحية أمريكا الشمالية .

ثانى عشر ـ منطقة استراليا البعيدة :

وهذه هى المنطقة الأخيرة من مناطق الحضارة الكبرى ، فى العالم القديم ، كما

إنها فى الوقت ذاته أحدث المناطق بالنسبة لمعرفتنا الجغرافية بتلك المناطق ، وإن كان عمران الإنسان لها قديماً ، بما يشبه قدم حياة الاستقرار وتخصيص لون الحضارة ونوعها فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، الذى استعرضنا بعض معالمه حين بدأ البشر يمارسون حياة الاستقرار ، أو ما يشبهه ، وبدأت صناعاتهم الحجرية تعرف التخصص وأخذ السكان يعيشون فيما يشبه « المحلات » أو المقار التى يصنعون فيها آلاتهم الحجرية الدقيقة ، ويمارسون منها حرفة الصيد فى نطاق محدد المعالم ومعروف للجماعة البشرية التى « تقطنه » وتمارس فيه حرف « الصيد والجمع والالتقاط . . . » أى جمع الحبوب أو الثمار من مناطق محددة يستقر السكان بجوارها « ويحرسون » نباتاتها من عدوان الحيوان عليها . . . حتى يتم نضجها ثم حصادها فى مواسم معينة . وذلك دور من أدوار الحضارة البشرية سبق دور « العصر الحجرى الحديث » الذى عرف فيه الإنسان « الاستقرار الكامل » فيما يشبه «المحلات الثابتة » أو «القرى» (مواقع الاستقرار) . والذى قامت فيه حياة البشر على « استنبات النبات» «واستئناس الحيوان » بعد أن مرت جماعات البشر بمرحلة انتقال جاءت فى ختام مرحلة العصر الحجرى القديم الأول .

وقارة أستراليا أصغر القارات حجماً ، بل هى فى حقيقتها جزيرة كبيرة . وفوق ذلك فهى قارة منعزلة أو شبه منعزلة ، تقع فى ركن بعيد من العالم القديم عند طرفه الأقصى من الجنوب والشرق . يفصلها عن ذلك العالم مجموعة من جزر المحيط التى لم تكن فى طريق الهجرات المنتظمة ، وإنما مرت فوقها (أو عبرتها سريعًا) موجة قديمة من هجرات البشر فى العصر الحجرى القديم (أو فى قسمه الأعلى على الأرجح) . ولقد كان هذا العصر الحجرى القديم فى جملته عصر هجرات بطيئة جدًا يبدو أن مراحله الأولى قد سبقت طغيان البحر وتكونها نطاق الجزر الكثيرة الواقعة فى جنوب شرق آسيا ، والتى تبلغ بضعة آلاف من الجزر الواقعة فى مناطق استوائية ومدارية يصعب على الإنسان استعمارها على نطاق واسع ، وإن كان بعض العناصر البشرية القديمة جدًا قد استطاعت أن تستقر فى بعضها (مثل جزيرة جاوة) وربما قبل أن تظهر على شكل جزر . ولكن عندما جاء القسم الأعلى (والأحدث) من العصر الحجرى القديم كانت حياة البشر وحضارتهم قد تطورت

إلى درجة تسمح بالهجرات المغامرة لبعض العناصر التى استطاعت آخر الأمر أن تتخطى أطراف آسيا الجنوبية الشرقية ، وأن تصل فى النهاية إلى القارة القصوى التى أصبحت الآن هى القارة التى نسميها استراليا (أو استراليشيا ، كما يحب البعض أن يسميها لتشمل الجزر القريبة منها) . وكانت تلك العناصر القديمة جماعات من الزنوج الأوائل ذوى السحنة الزنجية الخالصة والتى لم تتأثر بغيرها من السلالات . وقد استطاعت تلك الجماعات أن تستعمر قارة أستراليا وأن تمتد إلى ما وراء الكتلة القارية إلى جزيرة تسمانيا . وليس من المعروف تمامًا كيف انتشرت تلك العناصر الزنجية العتيقة ولكن أهل البحث فى أصول السلالات البشرية يستنتجون أنهم جاءوا كفريق من الزنوج القدامى الذين انتشروا على سواحل المحيط الهندى . أو بعبارة أدق هم الذين نشأوا على تلك السواحل وانطلق فريق آخر عبر جنوب شبه القارة الهندية (ومن بقاياهم «الدرافيديون » الذين اختلطوا بغيرهم فى جنوب الهند) ، كما انتشرت بقيتهم حتى بلغت أستراليا التى لم يسبقهم إليها أحد ، ولم يلحق بهم أحد خلال قرون طويلة ، فنموا فى عزلة وازدادت ملامحهم الزنجية الخالصة « تخصصًا » ، لأنهم لم يختلطوا بغيرهم كما حدث بالنسبة للعناصر الزنجية فى إفريقية أو فى جنوب الهند ، وإنما ازدادت خصائصهم الجنسية والسلالية «وضوحًا » ، لاسيما بعض الصفات الزنجية الخالصة كالأنف شديد « الانفطاس » والشعر شديد « الفلفلة » والملامح التى ليس فيها شىء من « القسامة » . وقد استمر أولئك الزنوج القدامى منعزلين فى أستراليا وتسمانيا ، لا يعرفهم أحد ولا يعرفون أحدًا حتى جاءت العناصر الأوروبية البيضاء منذ قرون قليلة ، فدخلوا القارة ولم يختلطوا بأحد من السكان « الأصليين » ، وإنما طاردوهم إلى الفيافى ، والقفار ، وأخذوا منهم الأراضى الغنية والصالحة للزراعة أو الرعى فاحتلوها مع الشواطىء التى أقاموا فيها الموانى للاتصال البحرى بالخارج . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى تسمانيا وطاردوا الزنوج الأصليين الذين لم يجدوا لأنفسهم « مخرجًا» أو ملجأ يفرون إليه ، وانتهى أمرهم بالموت والانقراض أمام أسلحة الغزاة الأوربيين الذين نظروا إلى الزنوج الأصليين نظرة لا تختلف كثيرًا عن النظرة إلى حيوان آدمى يطارد حتى يقضى عليه !

لقد وصل الزنوج الأصليون إلى أستراليا وهم فى مرحلة حضارية تعادل حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى التى أشرنا إليها من قبل فى بعض جهات العالم القديم . ولكنهم « وقفوا » عند هذا القدر من التطور الحضارى الذى وقف بهم عند صناعة الآلات الحجرية المتخصصة والتى تنفع فى صيد الحيوان ومطاردته فى مناطق المراعى الطبيعية ، وكذلك لم يعرف أولئك الأقدمون شيئًا عن « الزراعة » أو استنبات النبات وإنما وقفوا أيضًا عند حد « الالتقاط » من خيرات الطبيعة العادية والتى شاركهم فيها بعض الحيوان الذى مارسوا اقتناصه وصيده . والشىء الطريف أن دخول العناصر الأوربية الأنجلو سكسونية (ومن جاء فى أثرهم من بعض العناصر البيضاء الأخرى من أهل البحر المتوسط ، وكذلك من عناصر غير بيضاء من أهل آسيا الجنوبية الشرقية ، لم يؤثر فى حياة الزنوج الأصليين وحضارتهم، بمعنى أنه لم ينقلهم من دورهم الحضارى القديم إلى وضع الحياة الجديدة فى الزراعة والصناعة واستخراج المعادن وغير ذلك ، وإنما ترك الأوربيون سكان البلاد الأصليين على حالهم القديمة تلك ، بعد مطاردتهم فى القرون الثلاثة الأخيرة ، من المناطق الصالحة لسكنى المستعمرين ، وإقامتهم وعملهم ، إلى الفيافى البعيدة فى قلب قارة أستراليا . وهناك نقطة أخيرة نشير إليها على سبيل المفارقة عن المنطقة الحضارية الاسترالية التى وصلتها الحضارة الحجرية القديمة العليا ثم « توقفت » فيها عن التطور حتى جاء الأوربيون المستعمرون . وتلك المفارقة تتمثل فى جزيرتى زيلندة الجديدة ، وهما تقعان على الطرف الجنوبى الشرقى من القارة ويكونان جزءًا جغرافيًا من تلك القارة ولكن تاريخهما الحضارى يختلف بعض الشىء . ذلك أن العناصر الزنجية القديمة لم تصل إلى زيلندة الجديدة، وإنما وصلت إليها عناصر شبه بولينزيه ـ ميلانيزية هى عناصر «الماورى»، وهى قبائل دخلت إلى زيلنده الجديدة فى وقت متأخر كثيرًا عن وصول الزنوج إلى أستراليا ، بل إنهم جاءوا كجزء من موجة بشرية لاحقة كانت على اتصال ببعض الموجات البشرية التى وصلت منطقة جزر المحيط الهادى الجنوبى . واستقرت فى الجزيرتين وطورت حياتها ونظمها الاجتماعية إلى درجة أهلتها لأن تقف فى وجه الغزاة الأوربيين المحدثين وأن تعايشهم بل وتقاسمهم بعض معالم

حضاراتهم الحديثة ، وإن كان أغلب الماورى قد اضطر آخر الأمر لأن يستقر فى مناطق محددة فى الداخل وبعيدًا من الموانى التى دخل منها البيض وتوسعوا من حولها بانين حضاراتهم الحديثة ومستغلين البيئة بالوسائل العلمية التى عرفتها الزراعة الحديثة والرعى الحديث والصناعة التى تتصل بكل منهما أو تنبنى عليهما معًا .

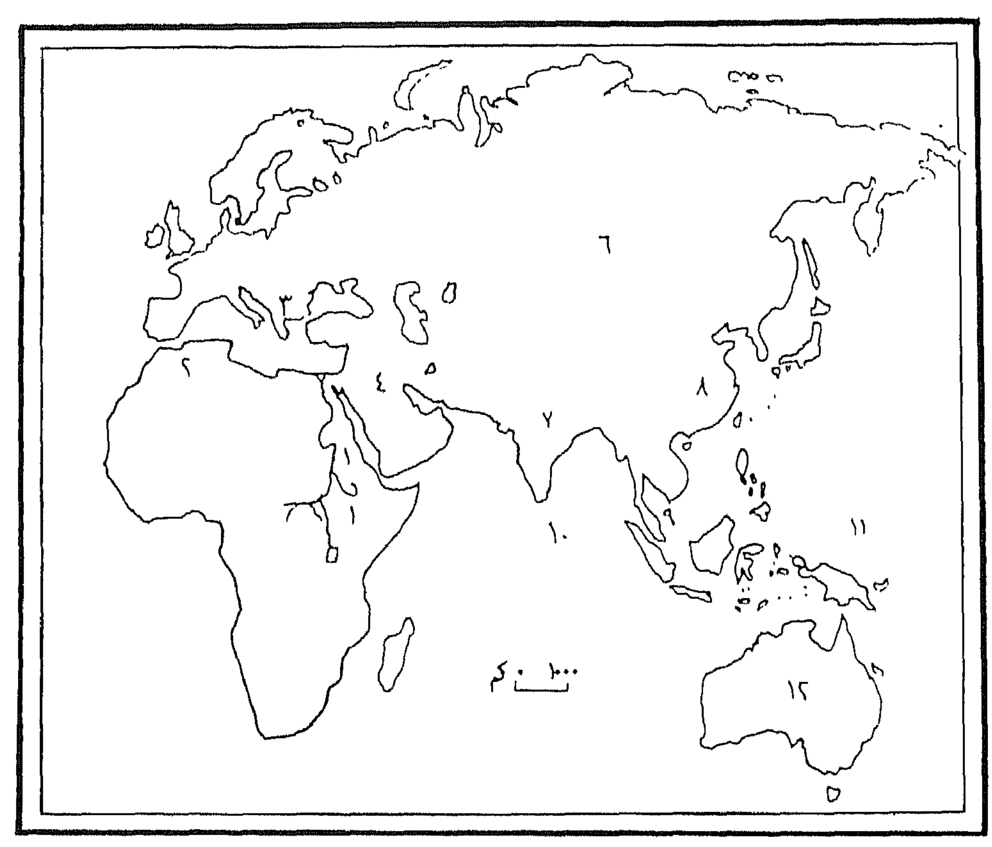
* * *

ختـــام

على هذا النحو نكون قد انتهينا من استعراض المناطق الحضارية التى حاولنا فى هذا المبحث أن نقسمها إلى اثنتى عشرة منطقة كبرى ، وأن نتابع هويتها الحضارية التى اختلفت من منطقة لأخرى اختلافًا شمل المكان والزمان ، أى شمل البيئة والتاريخ والحضارة جميعًا . كذلك فقد تبين لنا اختلاف الحال من منطقة إلى أخرى ، فبعضها بلغ قدرًا كبيرًا من الأهمية بالنسبة لتطور الحضارات البشرية ، وتطور الصلات الحضارية داخل كل منطقة على حدة ، وبين كل منطقة وأخرى من المناطق التى عرضنا لها . ولكن الشىء الهام أننا قد لمحنا فى دراستنا أن هناك «وحدة حضارية » بالنسبة للانسانية فى جملتها . وإن كانت هذه الوحدة إنما تتبين أهميتها وأثرها عبر الكرة الأرضية فى جملتها كلما تقدم الزمن وتقدمت المدنية المادية والثقافية البشرية والحضارة الإنسانية بصفة عامة . ولكن التداخل والتكامل بين تلك المناطق الحضارية الكبرى لم يتم إلا بعد أن تقدم التاريخ ، بعد أن كانت الإنسانية قد مرت بحقبة طويلة من عصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ القديم ، ولكن قصة التداخل والتكامل بين مناطق الحضارة الإنسانية تستحق أن نفرد لها مبحثًا خاصًا يكون أقرب إلى الدراسة التاريخية منه إلى الدراسة الجغرافية ، أو لعله فى واقع الأمر يمثل ما نعرفه بالجغرافيا التاريخية ، مما نرجو أن يجد موضعه الحق ، من المعالجة فى مبحث قائم بذاته نعنى فيه بصفة خاصة بالمنطقة العربية التى تمثل قلب العالم القديم . واتصالاتها بالمناطق الحضارية المجاورة والبعيدة إلى الشرق منها وإلى الغرب .



بيان تقريبى لمواقع المناطق الحضارية فى العالم القديم (قبل العهد العربى)



١ـ منطقة حوض النيل وشرق أفريقية

٢ ـ منطقة شمال غرب أفريقية .

٣ ـ منطقة اليونان وجنوب شرق أوربا .

٤ ـ منطقة أرض العروبة فى جنوب غرب آسيا .

٥ ـ منطقة الهضبة الإيرانية .

٦ ـ منطقة آسيا الداخلية (الوسطى والشمالية) .

٧ ـ منطقة شبه القارة الهندية .

٨ ـ منطقة الصين الكبرى .

٩ ـ منطقة الملايو وجنوب شرق آسيا .

١٠ ـ منطقة جزر المحيط الهندى .

١١ ـ منطقة جزر المحيط الهادى .

١٢ ـ منطقة أستراليا البعيدة .



« ٣ »

المشرق العربى بين الماضى والحاضر



المشرق العربى بين الماضى والحاضر

مقدمة - تعريف وتحديد للمشرق العربى :

يهتم الجغرافيون فى دراساتهم لبعض المناطق أو الأقاليم ، وتقويم دورها الحضارى والتاريخى ، بالموازنة أو المكاملة بين عاملين جغرافيين أساسيين ، هما البيئة الطبيعية ومواردها من جهة ، والموقع الجغرافى واتصالاته من جهة ثانية . وفى هذه الدراسة يحاول الجغرافيون دائماً أن يحددوا دور العمل البشرى فى بيئته وفى موقعه ، تحديداً يكشف عن التكامل بين البيئة والإنسان حيناً ، وعن التصارع والتغيير أو المواءمة والتغير حيناً آخر . ولقد كان المشرق العربى نموذجاً لتلك الدراسات الجغرافية التى تناولته فى أوضاعه التاريخية أو أوضاعه المعاصرة ، وإن كان الجغرافيون قد اختلفوا بعض الاختلاف فيما بينهم . فمنهم من مال إلى الأخذ بقدر ظاهر من الحتم الجغرافى، ومنهم من كان أكثر اعتدالاً فزاوج بين العاملين الطبيعى والبشرى على نحو استطاع أن يعمق مفهومنا للعامل الجغرافى بمعناه الذى يشمل البيئة والإنسان ، ويربط بين العمل البشرى والظروف التى تكتنفه من قريب أو بعيد ، خصوصاً وأن هذا العمل لا يجرى فى فراغ ، وإنما هو فى حالة المشرق العربى كان يجرى فى بيئة صالحة لإنبات الحضارة ورعايتها على النحو الذى يحقق لها النماء والتطور والاستمرار . وفى هذا كان المشرق العربى مشرق الحضارة حقاً ، وبقى كذلك منذ كان التاريخ ، فلم تغرب عنه الحضارة ، وإن كانت وتيرتها قد اعتراها الهدوء أو الانطواء بين حين وحين .

وفى هذا المقال سنحاول أن نعرض للمشرق العربى من ناحية الموقع الجغرافى والتفاعل بينه وبين العمل البشرى خلال التاريخ بصفة عامة ، وفى المرحلة المعاصرة على وجه الخصوص . ولكننا قبل ذلك لابد لنا من أن نحاول التعريف بهذا المشرق ، ورسم نطاقه ، والتعرف بقدر الإمكان على حدوده . ومثل هذا

التعريف ضرورى ، لأن إسم المشرق العربى يتـداخل مع مسميات أخـرى تشمله وتتعداه فى النطاق . منهـا « الشرق الأدنى » و « الشرق الأوسط » ، وهما تسميتان لهما شيء من الأسـاس الجغـرافى العـام ، ولكنهما تستعمـلان فى كثير من الأحيـان بمدلول سياسى مرن وغير دقيق إذا أخضعناه للمقاييس الجغرافية العلمية الضيقة .

ولعل اصطـلاح الشرق الأدنى أقدم الاصطـلاحين استعمالاً ، حيث إنه يعـادل فى جنوب غرب آسيا وما جاوره أو واجهه من أطـراف أفريقية وأوربا ، ما يطلق عليه تسميـة الشرق الأقصى فى شرق القـارة الكبرى وجنـوبها الشرقى . ومع ذلك فإن اصطـلاح الشرق الأدنى ذاته لم يكن دقيق المدلـول ، إذ لم يكن لهذه المنطقة حـدود واضحة ومتعـارف عليها بين الجغرافيين تعـارفًا يمكن معه أن تـرسم خطوط تلك الحدود (*) . وغاية مـا هناك أن الجغرافيين قد درجوا على أن يجعلوا المنطقـة الواقعة جنوب غرب آسيا والمطلة على البحر المتوسط نواة للشرق الأدنى لأنها كانت أقرب المناطق إلى أوربا ، وأدنى ما ينزل فيـه القادم بالبحر فى اتجاه المشرق . ولكن حدود الشرق الأدنى من النـاحيـة الشرقية يمكن أن تـرسم بصفـة عـامة على أنها المنطقـة الصحراوية الوسطى من إيران ، بحيث أن مرتفعات إيران الغربية والشمالية الغربية تقع ضمن الشرق الأدنى ، وكـذلك هضـاب آسيـا الصغـرى والشرق العـربى فى الجزيرة العـربية كلها وفى قرن أفـريقية الشرقى وشمال شرق هذه القارة بـامتداد إلى الصحراء الليبيـة . كما أن الحدود الغربيـة للشرق الأدنى كان لابـد أن تمتد لتشمل شبه جزيـرة اليونان وسواحل مقدونيـة الشرقية لأن هذا النطاق اليـونانى المقدونى كان مـن الناحية التـاريخية والبشريـة العامـة أكثر اتجاهـًا نحو جنـوب شرق البحر المتوسط وواجهته الآسيوية المقابلة منه إلى شمال البلقان .

تلك على وجــه التقـريب حـدود منطقــة الشرق الأدنى بمفهـومــه التـاريخى والحضـارى . وإن كان من العسير لمثل تلك الحدود أن تـرسم بشكل دقيق يتمشى

(*) لمناقشة حدود منطقة الشرق الأدنى أنظر المقدمة والفصل الأول من كتاب المؤلف S.A. Huzayyin ، "Arabia and the Far East " Soc. Roy. de Céog, d'Egypte, Le Caire, 1942 . وهو الكتاب الذى نشرته الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٤٢ وأعيدت طباعته عام ١٩٨٢ .

مع معالم الجغرافيا الطبيعية . فليست هناك فواصل طبيعية بارزة وممتدة يمكن أن يركن إليها بصفة واضحة . كما أن البحار متقاربة ومتداخلة ، وظروف المناخ ممتدة إلى وراء أية حدود يمكن رسمها ، وكذلك الحال بالنسبة لظروف التوزيع النباتى فى المنطقة وما جاورها شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا . ولذلك فإن أفضل ما يمكن أن يقال بالنسبة لاصطلاح الشرق الأدنى ، إنه يمثل تسمية تاريخية وحضارية أكثر مما يمثل تسمية جغرافية طبيعية متميزة تميزًا واضحًا عما جاورها من هنا أو من هناك .

وكذلك الحال بالنسبة لتسمية « الشرق الأوسط » . وهو اصطلاح لم يشع إلا منذ الحرب العالمية الثانية . وقد أطلقه العسكريون والسياسيون إذ ذاك ، لأن الأمر لم يكن أمر قرب أو بعد بالنسبة لأوربا ، بقدر ما كان أمر توسط بالنسبة للاستراتيجية العالمية ، أى بالنسبة للعالم القديم كله . وبعبارة أخرى فإن التركيز فى التسمية الجديدة إنما كان على لفظ « الأوسط » أكثر مما كان على لفظ « الشرق » . بل إن التسمية الجديدة . ترتب عليها أن أصبحت كلمة « الأوسط » مقابلة لكلمة «الأقصى » . وبقيت منطقة بين الشرقين (تشمل الهند وما جاورها وداخلية آسيا) ولكنها تخرج فى التسمية عن نطاق أى منهما ، مع أنها من صميم الشرق بمدلوله التاريخى والحضارى العام (*) .

أما اصطلاح « المشرق العربى » فقد يكون أكثر تحديدًا من الناحية الحضارية . ذلك أن الأمر فى تعريفه لا يتوقف على المكانية والموقع ، وإنما يتصل بالطابع البشرى . فهو المشرق الذى يرتبط بالعروبة ، وحدوده معروفة من الناحية الشرقية مع إيران ، ولكنه يشمل حوض الخليج العربى كله تقريبًا . لأن العناصر العربية تطل على هذا الخليج من جوانبه الشمالية الشرقية (عربستان) والشمالية والغربية والجنوبية الغربية حتى بحر العرب ، كما أنها تعمر جزره وتؤثر بحضارتها العربية

(*) حاولنا فى المرجع السابق أن نسمى هذه المنطقة الوسطى بالشرق المتوسط أوالمركزى (بالإنجليزية Central East) . وفى هذه الحالة يمكن تسمية الشرق الأدنى بالشرق الوسيط (Middle East) . ولكن العرف جرى الآن على تسمية هذا الشرق الأدنى بالشرق الأوسط . وقد يكون من الأفضل ، منعًا للبس ، الاحتفاظ بالتسميات الشائعة ، فيبقى لفظا الأدنى والأوسط مترادفين ، ونترك الهند والباكستان ضمن « جنوب آسيا » ، وما يقع إلى الشمال منها ضمن « داخلية آسيا » .

والبحرية فى أطراف إيران المطلة عليه . فمن الناحيـة التاريخية كان الطابع العربى هو الغالـب على هذا الخليج ، أيـام أن استقرت العنـاصر العربية فى سيراف وغيرهـا من مرافئ الجانـب الإيرانى من الخليـج . وحتى قبل أن تظهـر الحضارة العربية بمـدلولها المحدد ، كانـت المؤثرات الحضارية تـأتى من جانـب الجزيرة العربية ومـا وراءها فى البحـر المتـوسـط . بـل إن شـواطـئ الخليـــج العـربيـة كـانـت منشـأ الفينيقيين ، كما كانت جبـال عمان متصلة أشد الاتصال وأقواه بالحضـارة الأولى فى أدنى العراق . ولئن كـانت السيطـرة السياسيـة قد غلبـت على الخليج مـن جانـب إيران فى بعـض فترات محدودة ، فإن تلك السيطـرة لم تستطع فى يوم مـن الأيام أن تطمس الطـابع الحضـارى العـربى الشامـل للخليج . وما كـانت تسميـة « الخليج الفـارسى » إلا انعكاسًا أوربيًـا لفترة كانت الحياة العربية على شواطئ الخليج قـد ركدت فيها تحت سيطرة الحكـم التركى ، حتى إذا ما عادت تلك الحياة إلى النبض من جديد حق على الجغرافيين العرب أن يحيوا الـوصف القديم والأصلى للخليج العربى . . . امتدادًا طبيعيًا لبحـر العرب ، الذى ركبتـه سفنهم وسعت على صفحته بـالسلع والتجارة والوساطة الحضارية منذ أقدم العصور .

ونحن حتى إذا مـا وازنا بين شـواطئ الطرف الجنـوبى الشرقى لجزيرة العـرب والشواطئ المقابلة لها من إيران عنـد مدخل الخليج ، فإننا لا نلبث أن نلحظ الفرق الكبير فى النشاط الحضـارى فى التجارة والنقل البحرى ونشر الحضارة والثقـافة إلى مـا وراء البحار . ذلك أن الـركن الجنوبى العـربى من إيران كـان ركنًا مغلقًـا ، لا تـؤمن الملاحـة على شـواطئه ، ولا تقع عنـده المداخل الصحيحـة إلى أرض إيـران ومراكـز حضارتها القديمـة . بل إن الأحوال الجويـة والصحية فيه لا تسـاعد على شىء من البنـاء الحضارى أو الاتصـال التجـارى الناهض ، على نحـو ما نـرى فى الطـرف الجنوبى الشرقى من الجزيـرة العـربية . ومـن هنا فإن مـدخل خليج عمان وشواطئه العربيـة إنما كانت هى القاعدة لنشر الحضارة العـربية الإسلامية إلى شرق أفريقية وبحار الهند من جهـة ، والطريق إلى الطرف الشمالى للخليج وأرض العراق الأدنى وعربستان (ومنها إلى إيران) من جهة أخرى .

تلك إذن هى الحدود الشرقيـة للمشرق العربى فى أصـولها الحضاريـة والبشرية

وامتدادها الجغرافى الطبيعى . فإذا ما انتقلنا إلى حدوده الشمالية فإننا نجدها أكثر تحديدًا ووضوحًا ، لأنها تساير الحافة الجبلية فى آسيا الصغرى والأناضول إلى خليج اسكندرونة العربى . ومن الطريف أن نلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العناصر المتفرقة وغير ذات الأصل العربى إلى الجنوب من الحافة الجبلية فإنها كلها عناصر قد تأثرت إلى حد كبير جدًا بالطابع الحضارى العربى ، وإن كان اتصال الجبال وامتداد سلاسلها من الشرق إلى الغرب قد واجه العرب فى انتشارهم من الجنوب، ولم يسمح لهم بالتأثير الواضح فى داخلية الهضبة الجبلية من ناحية نشر العروبة أو حتى نشر الإسلام ذاته . ومن المفيد فى هذا المجال أن نوازن بين الحافة الجبلية لإيران الغربية والحافة الجبلية لجنوب الأناضول ، فنرى كيف أن وجود بعض المسالك من سهول العراق إلى هضبة إيران قد سمح للمؤثرات السامية أن تنتشر إلى آشور القديمة ، كما سمح للإسلام أن ينتشر إلى هضبة إيران . أما هضبة الأناضول فإن حافتها كانت فقيرة فى المنافذ من الناحية الجنوبية ، ولذلك فإن الإسلام لم ينتشر مع ا لعرب القادمين إلى الأناضول من الجنوب ، وإنما جاء مع الأتراك السلجوقيين ثم العثمانيين الذين تقدموا من شمال إيران ومن الشرق إلى الغرب على طول خطوط الجبال إلى داخلية الأناضول وما وراء ذلك . ومن هنا فإن الأناضول لم تكن مجال التوسع العربى ، وإنما كانت مجال التوسع الآسيوى الداخلى . بل إن أرمينيا استطاعت أن تبقى على مسيحيتها كجزيرة منعزلة إلى شمال شرق الأناضول ، لأن الإسلام لم ينتشر إليها مع العرب الذين وقفوا عند مشارف الهضبة وسلاسلها الجنوبية ، ولم ينتشر مع العثمانيين الذين تقدموا بين سلاسل الجبال إلى الجنوب من تلك الجزيرة الأرمينية .

أما فى الغرب فإن الجانب البحرى من حدود المشرق العربى ظاهر محدد ، لأنه يطل على البحر المتوسط الذى لم يستخدمه العرب فى العهد الإسلامى كمخرج للهجرات من سواحل الشام فى سورية ولبنان وفلسطين إلا بقدر محدود فى العصر الحديث إلى ما وراء البحر المتوسط كله والمحيط الأطلسى فى المهاجر البعيدة . ولكننا إذا ما انتقلنا إلى شواطئ أفريقية الشمالية ، فإننا لا نلبث أن نلمس الحاجة إلى توقيع حد اصطلاحى للمشرق العربى ومدى امتداده فى شمال القارة إلى الجهة

الغربية . وليس من جدال فى أن حوض النيل الأدنى والأوسط فى مصر والسودان يقع كلـه ضمن نطـاق المشرق العـربى . ولكن تـوقيع فـاصل بين المشرق العـربى والمغرب العـربى أمر يستحق النظر ، خصـوصًا وأن السياسيين والمتأثـرين بالمنطق السياسـى الغربى يميلـون أحيانًا إلى اعتبـار كل ما يقـع إلى الغرب من مصر مغـربًا عربيًـا ، فى حين أن الربط الجغـرافى السليم يجعل ليبيا عـامة ، ولاسيما أقليم بـرقة بالذات ، أقرب اتصالاً بالمشرق العربى منهـا بالمغرب العربى . ولقد كانت كذلك منذ أقدم العصور ، بل منذ عصر ما قبل التـاريخ . والحقيقة أن دلتا النيل وأطرافها الغربيـة فى إقليم البحيرة وكذلك الفيـوم كانت عـريقة الاتصـال ووثيقته بـداخلية الصحراء الليبيـة وما وراءهـا من مناطق الإستقـرار الساحلى . كما أن بقيـة ليبيا فى أقليم طـرابلس وفـزان كـانـت منطقـة ربطت المشرق العـربى بها وراءه فى المغـرب العربى وداخلية الصحراء وما وراءها من أقاليم إفريقية الغربية السودانية . ولذلك فإننـا نميل إلى اعتبـار ليبيـا ضمن نطـاق المشرق العـربى ، بحيث يقتصر المغـرب العربى على أقليم أفريقية الصغرى بمدلولها الطبيعى ، الذى يشمل تونس والجزائر والمغـرب ، مع امتـداد حضـارى قـوى فى داخـل الصحـراء إلى أقليم مـوريتـانيـا والسواحل التى تسيطر عليها أسبانيا .

فإذا ما انتقلنا أخيرًا إلى الحدود الجنوبية للمشرق العربى ، فإننا نجد صورة تشبه من بعض الوجـوه ما رأيناه فى حـدوده الغربية ، ولكنهـا أكثر تداخـلاً وتعقيدًا من الناحيتين البشرية والحضاريـة ، خصوصًا وأن الحضارة العربية كـانت فى ملاصقة حضارات بحـرية وبـرية لا تفصلها عنهـا فواصل طبيعيـة بارزة ، كما هى الحال فى المناطق الواقعة إلى الشمال أو حتى إلى الشرق من المشرق العربى . ففى بحر العرب انتشر الملاحون العـرب ونزحوا إلى جـزر ذلك البحر ثم إلى سواحل شرق أفـريقية حيث أثروا فيها بالجنس والحضارة وبـالعروبة والإسلام ، حتى إنه ليصعب وضع حد فـاصل لما هو فى نطـاق المشرق العربى مـن القرن الإفـريقى وسواحلـه فى بلاد الصـومـال وما جـاورهـا جنـوبًا وشمالاً . بـل إن أرتيرية هى فى الـواقع الجغـرافى والحضـارى امتـداد للمشرق العربـى ، وهى فى حياتها وتـاريخهـا أقـرب إلى شرق السودان والصحـراء الشرقية منهـا إلى هضاب أثيـوبيا العـالية . فإذا مـا انتقلنا إلى

السودان فإن شماله ووسطه يقع بلا جدال فى صميم المشرق العربى . وحتى جنوبه فإنه من الناحيـة السلالية والحضارية أقرب إلى النيل الأدنى منـه إلى داخلية أفريقية العليـا أو حـوض الكـونغـو المجاور إلى الجنـوب الغـربى . ولا نـزال نجـد تحت المؤثرات الزنجيـة فى حوض الغزال ، طبقة سـلالية متأثرة بالحاميـة التى تأثرت بها مصر القديمـة وبقية السودان الشرقى . ولـولا أن المد العربى الـذى جاء إلى أرض وادى النيل الأدنى فى مصر ثم انطلق فى طريقه إلى السودان الشمالى والأوسط لاسيما بين القرنين الثـانى عشر والسادس عشر . . . لولا أن هذا المد العـربى قد انقطع عن جذوره حين جـاء المد التركى فى القرن السادس عشر وما بعـده ، لاستطاع فى يسر أن يتـابـع امتداده إلى أقصـى جنـوب السـودان وإلى مشـارف الهضبة الاستـوائيـة ، ولاستطاع الإسلام أن يبلـغ المشارف . وما ذلك كله إلا لأن السودان الجنـوبى امتداد طبيعى للمنطقة الواقعة إلى الشمال منه فى الوادى . بل امتداد طبيعى للمشرق العربى بمفهومه الحضارى والتاريخى العام .

الأصول الإنسانية والحضارية للمشرق العربى

ولكن مـا تلك الأصول الإنسـانية والحضـارية التى نتحـدث عنها فى التعـريف بالمشرق العربى وتحديد امتداده الجغـرافى ؟ ليس من شك فى أن هذه المنطقة كان لها دورها الخاص فى مـرحلة نشـوء الحضارات البشريـة المستقرة ، لاسيما بعـد ظهور الزراعـة والاستقرار فى العصر الحجـرى الحديث وما بعـده . أما قبل ذلـك فهناك مرحلة طويلة جداً فى العصر الحجرى القديم وما قبله ، وهى تتصل بنشأة الإنسان الأول ومراكز انتشار السلالات وموضـوع هذا البحث يثير خلافات بين أصحاب الرأى فيه . فمنهم من يرى أن آسيـا هى الموطن الأصلى للانسان . ومنهم من يرى أفريقيـة أحق منها فى ذلك . ولكل من الرأيين مرجحـاته ، وإن كانت أفريقيـة قد بـدأت فى السنوات الأخيرة تجتـذب أعـداداً متكـاثرة من البـاحثين وعلماء مـا قبل التاريخ وحفـريات عصر البلايـوسين والبلايستوسين الأدنى ، وهم يـرجحون أن تكون أفريقية الموطن الذى تطـور فيه الإنسان الأول ، وظهرت حضارته الأولى فى العصر الحجـرى القديم الأسفل ومـا قبلـه . وإن كانت آسيـا قـد بدأت يكـون لها

دورها الخاص خلال ذلك العصر ذاته ، وازداد هذا الدور ظهوراً خلال العصر الحجرى القديم بصفة عامة ، لاسيما فى عهوده الوسطى والمتأخرة ، وربما كذلك فى مطلع العصر الحجرى الحديث ، حين أصبحت لإقليم جنوب غرب آسيا مكانته الخاصة ، حتى ظهرت السلالات البشرية الحالية وهى التى تتقارب فى توزيعها الجغرافى حتى تكاد تلتقى (فيما عدا السلالة الصفراء) عند جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقية ومن الطريف حقًا أننا نجد السلالات البيضاء تبدأ عند القوقاز وتنتشر فى شمال أوربا ، والسلالة المعروفة بالسلالة الألبية تبدأ أيضًا غير بعيد من أطراف آسيا الصغرى ، وكذلك سلالة البحر المتوسط تبدأ من جنوب غرب آسيا وتنتشر فى اتجاه حوض ذلك البحر بما فى ذلك الركن الشمالى الشرقى من أفريقية . أما السلالة الزنجية فتبدأ مؤثراتها من شاطئ جنوب غرب آسيا إلى شرق أفريقية وداخل تلك القارة من جهة وإلى ما وراء المحيط الهندى فى أقصى الشرق وأطراف المحيط الهادى من جهة أخرى . وقد دعا تقارب أطراف التوزيع الجغرافى للسلالات البشرية المعاصرة فى الركن الجنوبى الغربى من آسيا إلى اعتبار هذا الإقليم أرجح الأقاليم لأن يكون الموطن الأصلى للإنسان المعاصر وسلالاته .

أما بالنسبة للحضارات المستقرة التى بدأت فى العصر الحجرى الحديث (حوالى النصف الثانى من الألف السادسة قبل الميلاد) وامتدت إلى مطلع العصر التاريخى (أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد) فإن إقليم الشرق العربى بامتداده الذى المحنا إليه يعتبر بحق أبعد أقاليم الأرض عراقة فى التاريخ الحضارى المستقر للانسان على الأرض. فضلاً عن أن هذا الإقليم قد امتاز فوق ذلك باستمرار الحياة الحضارية فيه وتنوع مظاهرها واتساع اتصالاتها بحكم الموقع الجغرافى فى وسط العالم القديم . فأما عن الاستمرار فإن الحياة المستقرة قد اتصلت أسبابها فى هذا الإقليم ـ أو فى بعض أجزائه على الأقل ـ خلال سبعة آلاف من السنين أو ما يزيد . وعلى الرغم من أن تلك الحياة قد اعتراها الجمود أو الاضطراب من وقت لآخر ومن منطقة لأخرى داخل هذا الإقليم ، فإن سكان الإقليم على الجملة قد وفقوا خلال أكثر من نصف الفترة التى استقرت فيها الحياة بهم فى وطنهم الكبير . فازدهرت الحضارة ونمت المدنية وقامت النظم الاجتماعية التى أضفت على الإقليم وأهله

طابعهـم الخاص ، كما اتصلت أسباب التبـادل الحضارى بين الإقليم ومـا جاوره أو بعد عنه من أقاليـم القارات الثلاث التى تتألف منها الكتلة القـارية للعالم القديم .

وأما عـن تنوع الحضـارة وأسبابها فـإن الإقليم كـان ظاهـر التنوع فى بيئـاته التـى تبدأ بـالصحراء وتتـدرج إلى أرض المراعـى وأرض السهـول النهريـة والـواحـات ومناطـق الجبـال والسواحـل التى تطل على ا لبحار المعتـدلـة أو البحـار الدفيئة أو الحارة . وذلك كلـه تنوع انعكس فى أنماط البيئـة وأنماط الحياة ومظـاهر النشـاط البشرى ، ولكنـه تداخل فى ذلك كلـه وتكامل حتى أصبح لحضـارة الشرق الأدنى عامـة ثم المشرق العربى بصفة خـاصة طابعه المعين من الحياة والمدنية والحضـارة الإنسانية ، التى خـرجت بأصحـابها عن نطاقهم المحـدود إلى النطـاق العالمى فى اتصـال ليس كمثله اتصال آخر لحضارة من الحضـارات التى ظهرت فى أقاليم أخرى من العالم ، ولكنهـا انطوت على ذاتها ، أو لم يتعـد تأثيرها وتأثـرهـا بالحضـارات الأخرى مـا جاورهـا مباشرة من أقاليم الأرض . وليس من شك فى أن الموقع الجغرافى الفـريد الذى امتاز به الشرق الأدنى والمشرق العربى بصفـة خاصة كان له الأثر الأصيل فى الدور الذى قام به سكان المنطقة فى الربط بين أطراف العالم القديم .

ولكن تنوع البيئات وتكاملها فى نطـاق المشرق العربى يستحق شيئًا من الإفاضة لما له من أثر كبير فى البناء والاستمرار الحضارى فى هذه المنطقة ، بل فى العالم القديم فى جملتـه . ذلك أن هناك جهـات أخرى من العـالم قامت بها حضـارات قديمـة أو حديثة ، ولكن قليلاً من تلك الحضـارات هى التى استطاعت الاستمرار على الزمن كما استمرت الحضارة فى المشرق العربى . ولا شك أن ظاهرة الاستمرار الحضارى هذه قـد استمدت أصولها من البيئة الطبيعيـة التى امتازت بالتنـوع والتكامل فى آن واحد . فالشرق العـربى وإن كان ذا بيئة صحراوية أو شبـه صحراوية ، لاسيما فى نواته الداخلية ، إلا أنه كان يقع بين المناطق الحارة شبه الاستوائية والمناطق المعتدلة الدفيئـة ومن هنا امتاز بـوجود المراعى بنوعيهـا من الاستبس والسافانـا . وبذلك أصبحت البداوة فيـه أصلاً من أصول الحيـاة والحضارة والتاريخ . ولكنـه كان فى الوقت نفسه إقليم زراعة متنوعـة النمط . فمنه الأرض التى تسقى بالمطر ، والتى تسقى من ميـاه الأنهار الجارية ، والتى تسقيهـا العيون المتفجـرة فى الواحـات ومن

حول الآبـار . وفيه محاصيل المناطق الحارة وشبه الموسميـة فى الجنوب ، ومحاصيل المناطق المعتدلة فى الشمال . وفيه محاصيل الحقل من حبوب وخضر ، وفيه محاصيل البسـاتين والأحـراج من شجـر مثمر وغير مثمـر . ثم إنـه فـوق ذلك إقليم كـان ولايزال غنيًا بالمعادن والثروة المعـدنية . ففى العصور الأولى لاستخدام المعدن كان المشرق العربى من أول المنـاطق التى استخدم فيهـا النحاس ثم الحديـد من بعده ، وفى العصور الـوسيطة احتفظت مـدنه بسمعتهـا فى صناعـة المعادن ، ثم فى العصر الحديث جـاء البترول فأظهر أن هـذه المنطقـة تعتبر أكبر خزان إقليمى لهذا السـائل الأسود النفيس . وبـالإضافة إلى كل هـذه المقومات الطبيعية التى تضـاف إليها فى المستقبل مصادر طائلـة من الطاقة الكهربية والشمسية وغيرها كـان الإقليم متنوعًا فى حياتـه البشرية المستقرة وغير المستقرة . فبـالإضافة إلى البـداوة التى كانت أصل الحيـاة العربيـة وينبـوعهـا الفياض والـذى يغـذيها من وقت لآخـر بموجـات، من الهجرات التى تجدد دم أهل الحضر ، وتضيف إلى تنـوع تراثهم الفكـرى والروحى والاجتماعى والثقـافى . . . إلى جـانب تلك البـداوة التى رسمت بتراثهـا الأصيل كثيرًا من معـالم الحياة العـربيـة وشيمها الإنسـانية وقيمهـا الأخـلاقية من الصفـاء والنقاء، ومن النخوة والنجدة ، ومن الكـرم والسماحة ، ومن البذل والتضحية ، ومن الشمم والكبرياء . إلى آخر ما يمتاز بـه العربى القديم والعربى المعاصر . . . إلى جانب ذلك كله كـانت هناك الحياة الحضرية التى عرفهـا المشرق العربى فى قراه ومدنـه ، التى يرجع تـاريخها إلى أوائل العصر الحجـرى الحديث، والتى استمرت الحياة فى بعضهـا دون انقطاع خلال سبعة آلاف من السنين أو أكثـر ، لم تنقطع فيها الصلة بين البدو والحضر ، ولا بين أهل الـداخل وأهل الساحل ، ولا أهل الجبال وأهل السهـول ، وإنما تكـاملت الصلة بين أنماط الحيـاة العـربيـة فى تنوع واتسـاع واتصـال واستمرار لا يكـاد يكـون لها مضـارع فى أى إقليم آخر من أقـاليم العـالم القديم .

الإقليمية والاتصالات العالمية فى المشرق العربى :

ولكن أثر الموقع الجغـرافى إنما يتضح مداه ، حين نـوازن بين ظاهـرتى الإقليمية

والعالمية فى التاريخ الحضارى للمشرق العربى بالذات . والواقع أنه يصعب أن نجد إقليماً آخر من مواطن الحضارة فى العالم استطاع أن يوائم بين الظاهرتين كما فعل هذا الإقليم وأهله . ولقد كان طبيعيًا حين نشأت الحضارة المستقرة الأولى ثم الحضارة التاريخية أن تكون نشأتها إقليمية محدودة ، بل أن تكون تلك النشأة على نطاق محلى ، قبل أن تتسع الاتصالات والتبادل الحضارى إلى النطاق العالمى بمعناه المعروف . وذلك ما حدث فعلاً حين نشأت حضارات ذات طابع محلى فى أجزاء مختلفة من المشرق العربى . فكانت الحضارة الفرعونية فى أرض النيل الأدنى ، وكانت مجموعة الحضارات الأورية والسومرية والأكادية والبابلية والآشورية وغيرها فى أرض العراق التى كان يصعب الربط فيما بينها بالنسبة لأرض وادى النيل الموحدة . وكذلك نشأت حضارات أخرى فى أرض الشام وفلسطين ولبنان ، أو على شواطئ الخليج العربى ، أو فى أرض عمان ، أو فى وادى حضرموت ، أو فوق هضبة اليمن ، أو فى نقاط مختلفة من شمال الحجاز . ولكن تلك الحضارات كلها بقيت محلية الطابع نسبيًا رغم ما قام بينها من اتصالات ، بحيث أن المشرق العربى مر فى عهد طويل يمكن أن نسميه عصر المحلية الحضارية ، حتى جاء العهد العربى ، وكان التطور والاتصال الحضارى الداخلى فى الإقليم قد بلغ مرحلة النضوج ، فظهرت الوحدة الثقافية والحضارية الشاملة ، وانتهى عهد الجاهلية السياسية ، وظهرت الوحدة القومية فى أولى صورها الشاملة مع ظهور الإسلام فى العهد العربى . فكانت العربية وكانت العروبة وكان الإسلام ، وبدأعهد لا يزال حتى اليوم يظللنا بظله ، وإن كانت الوحدة قد اعتراها الخمود أو الانحلال بين حين وحين .

ولكن ظاهرة العالمية فى حد ذاتها تستحق أن نتناولها بشىء من التقصى ، ذلك أنها لم تظهر بمعناها الصحيح فى العالم القديم إلا مع النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد . أما قبل ذلك فقد كانت هناك عدة مناطق حضارية فى العالم القديم لكل منها طابعها المميز ، فى الصين ، والهند ، وإيران ، والشرق الأدنى الأسيوى ، ومصر وبلاد الإغريق . وكانت كل من هذه المناطق تكون عالمًا حضاريًا محدداً ومتميزاً لا يكاد يتصل اتصالاً مباشراً إلا بالعالم المجاور

له . كاحتكاك مصر بالشرق الأدنى الآسيوى ، أو بلاد الأغريق بمصر ، أو الشرق الفارسى القديم باليونان القديمة . فلما جاء الأسكندر ، وقام بحملته التاريخية من بلاد الأغريق إلى الشرق الأدنى الآسيوى ، ثم مصر ، ثم حدود برقة ، ثم عاد إلى مصر ومنها إلى الشرق الأدنى الآسيوى وتركستان الغربية وحدود الصين ، ثم اتجه نحو الهند ، ثم عاد إلى غرب آسيا حيث قضى نحبه . . . كانت هذه أول حملة احتكت فيها مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكًا مباشرًا . فتقاربت أجزاء العالم القديم ، وظهرت فكرة « العالمية » (أو بعض بوادرها على الأقل) ، ووضعت أسس الاتصال العالمى ، ففتحت الطرق ، وسعى عليها التجار والملاحون فى البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضًا قبل عهد الأسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة .

وهكذا ظهر الفارق الكبير بين عهد ما قبل الإسكندر ، حين كانت الإقليمية هى الطابع الغالب على الاتصالات الحضارية ، وعهد ما بعد الأسكندر ، حين ظهرت العالمية بمعناها التاريخى المعروف . وترتب على ذلك أن برزت رسالة جديدة لسكان المشرق العربى القديم ، فلم يعد الأمر أمر اتصالات محلية لا يتعدى أثرها سكان الإقليم إلا إلى ما جاوره مباشرة من أرض آسيا أو أرض إفريقية أو حوض البحر المتوسط ، وإنما أصبحت للإقليم رسالة فى الربط بين مختلف أجزاء العالم القديم ، من أقصى شرقه إلى أقصى غربه ، ومن جهاته الاستوائية إلى أطرافه الشمالية . وانعكست صورة ذلك فى دور « الوساطة » من الناحية التجارية ، ودور « الدعوة والبلاغ » من ناحية الصلات الفكرية والروحية والاجتماعية . وبذلك كله برز دور «الموقع الجغرافي » بمعناه العالمى ، من حيث إن المشرق العربى هو همزة الوصل من ناحية اليابس واقتران القارات ، ومن ناحية الماء واقتراب البحار على طول أذرعه البحرية الطويلة وخلجانه المتوغلة . وبمعنى آخر فإن المشرق العربى أصبح مقرن القارات ومفرق البحار . ومن الطريف أن جزيرة العرب لم تكن جزيرة بالمعنى الكامل وإلا لاستطاع الملاحون وركاب البحر العابرون من غير أهل المشرق العربى أن يدوروا بسفنهم حول الجزيرة دون أن يكون هناك لأهل سواحلها دور خاص فى الوساطة ، على نحو ما حدث حين جرى دوران أهل

غرب أوربا حول الجزيرة الإفريقية الكبيرة فى عهد الاكتشافات البحرية إلى الهند .
أما جزيرة العرب فإن البحار تتقارب عندها ولا تقترن . ومن هنا فقد كان على العابر أن يغير وسيلة النقل ، وأن يقف عند الموانى ليلتمس وساطة حداة الإبل وربانية القوافل ، فضلاً عن آن سكان شواطئ المشرق العربى المطلة على البحر المتوسط من جهة ، والمطلة على الخليج العربى وبحر العرب الجنوبى من جهة أخرى ، كانوا أصحاب سفن ونقل بحرى إلى ما وراء بحارهم . ومن هنا فقد تكامل دور الوساطة بالنسبة للعرب الأقدمين وأسلافهم على شواطئ المشرق العربى وعلى طول طرقه البرية بين البحار . وقد علّم ذلك أهل المشرق أن يكونوا تجاراً ينقلون السلع ويسعون بالخير بين أهل المشارق وأهل المغارب ، وبين سكان الجنوب وبحاره الدفيئة وسكان الشمال وبحاره المعتدلة أو الباردة . ومع تبادل السلع ونقلها كان تبادل الأفكار ، بل والمعانى والقيم الإنسانية على جميع مستوياتها الفكرية والروحية والدينة وعلى نحو تفرد به المشرق العربى بين أقاليم الأرض جميعًا .

ولقد امتاز المشرق العربى بأن كان مهبط الأديان السماوية الثلاثة الكبرى ، اليهودية والمسيحية والإسلام . وكانت لذلك دلالته وحكمته من الناحية الجغرافية . فهذا المشرق يتوسط العالم القديم ، ويختلف مثلاً عن الصين التى كانت قارة ثقافية نائية عند طرف ذلك العالم ، وعن الهند التى كانت شبه قارة ثقافية متوسطة نسبيًا ، ولكنها محصورة بالجبال ، وذات منفذ بشرى أساسى وعريض واحد نحو البحار الجنوبية الشرقية وعالم الهند الصينية . أما بلاد العرب فقد كانت فى موقع مثالى ، له منافذه التى تطل على كل اتجاه ، وله مسالكه التى تسمح بعبور كل شىء مادى أو معنوى ، وله سكانه الذين عرفوا شعوب الأرض وما وراء البحار ، وألفوا التجارة والتبادل معهم منذ قديم بل ألفوا العطاء والأخذ دون شعور بالخصاصة أو الأثرة حين العطاء ، أو بالحرج أو مركب النقص حين الأخذ عن غيرهم من الشعوب . وبذلك كله أصبح سكان المشرق العربى وأحسو دائماً بأنهم أصحاب رسالة ، لأنهم كانوا فى واقع الأمر مؤهلين بحكم موقع وطنهم وطبيعته لأن يحملوا عبء تلك الرسالة بين الأمم والشعوب . ولكن علينا فى هذا المجال آن

نميز بين فئتين من سكان ذلك المشرق القديم فى عهد انتقاله من مرحلته «الإقليمية» إلى مرحلته « العالمية » هما فئة اليهود من جهة ، وفئة المسيحيين والمسلمين من جهة أخرى . ذلك أن اليهودية إنما أنزلت تعاليمها فى عهد الإقليمية قبل حروب الإسكندر العالمية ، وبذلك فقد نشأ اليهود وتبلورت تعاليمهم فى عهد لم يكن فيه سكان المشرق العربى قد عرفوا العالمية ، وأغلب الظن أنه حتى ما جاء فى التعاليم الأصلية لليهودية من معانى البر بالآخرين والإيثار والتضحية من أجل السلام الإنسانى ، تسامحًا ورحابة ، لم يفهم عنه اليهود الأوائل وأخلافهم ما كان ينبغى أن يفهموه ، وإنما اشتدت بهم الإقليمية والشعوبية إلى حد الشطط وظلم الأنبياء أنفسهم وتقتيلهم حين يدعون إلى حسن الجوار والتآخى أو إقامة السلام على أساس من السماحة أو من العدل . وهكذا تطورت اليهودية فى عهد الجاهلية الحضارية للمشرق العربى ، أى فى عهد الفرقة والتنابذ القائم على الجفوة والقسوة والقطيعة بين الناس . ومن هنا فإن اليهود منذ نشأتهم الأولى فى عهدهم القديم وفى ظروفهم التاريخية قبل أن تظهر فكرة العالمية ، قد انطووا على أنفسهم ، بل رأوا أنفسهم « الشعب المختار » الذى يجب أن يركز الخير ويوجهه كله لصالحه الخاص ، ولو ترتب على ذلك ظلم الآخرين . وحتى فى مجال الروح حفظ اليهود عقيدتهم لأنفسهم ، لم يفهموا عن رسلهم وأنبيائهم أن الدين السماوى إنما أنزل ليعم أهل الأرض . ومن هنا فإن اليهودية كما مارسها اليهود لم تنطو على أى « بلاغ » أو رسالة بالنسبة للآخرين ، ولم يشعر اليهود ولم يستشعروا أى واجب بالنسبة لابلاغ رسالة اليهودية إلى الخلق من حولهم. وكان من نتيجة ذلك أن اليهود حين انتشروا جماعات متفرقة فى الأرض كلها لم يبلغوا رسالتهم لأحد . ولم يعنوا بنشر دينهم بين غيرهم من الناس إلى أى قدر ظاهر . وهم فى ذلك كله قد اختلفوا عن المسيحيين والمسلمين اختلافًا واضحًا ، فهؤلاء الأخيرين جميعًا قد فهموا روح المسيحية ثم روح الإسلام على النحو الصحيح الذى يجب أن يفهم عليه الدين السماوى ، بل دين الله الذى يجب أن يكون للخلق جميعًا . ذلك أن المسيحية والإسلام قد جاءوا بعد أن كانت فكرة « العالمية » قد ظهرت ، وانطبعت تعاليمها فى أذهان أهل المشرق كحملة لرسالة التواصل بين أطراف الأرض . ولئن كان ذلك التواصل قد

ظهر أول ما ظهر أيام الإسكندر فى صورة حروب وتوسع عسكرى واصطدام مسلح ، فإنه مع ذلك قد ترك أثره الدائم على نفوس أهل المشرق وفى قلوبهم وعقولهم ، فأدركوا إلى غير نكوص أن العالم واحد ، وبالتالى فإن أية رسالة للتوحيد ينبغى أن تكون رسالة شاملة بالنسبة للعالم كله ، وينبغى أن تمارس مثل تلك الرسالة على أساس أن « البلاغ » فريضة على كل مؤمن ، بحيث أن الحقيقة الروحية لا يجوز أن يحبسها صاحبها فى نفسه ، ولا أن يطويها على ذاته ، أثرة منه وشحًا وتقاعسًا أن يدع الناس يشاركونه ما أنزل الله من هداية . وبمعنى آخر فإن فكرة « الشعب المختار » قد اهتزت من أساسها فى عهد المسيحية ، ثم اهتزت مرة أخرى حتى تقوضت أركانها تمامًا فى عهد الإسلام . ولقد قامت دعوة المسيحية كلها على أساس المحبة والتسامح حتى إلى حد التفريط فى حق الذات ، وكان ذلك أمرًا ضروريًا ليمكن أن يرجع الناس من أقصى حدود الأثرة التى دعا إليها اليهود ومارسوها فى إصرار عنيد ، إلى قدر من الإيثاريعود به الفرد إلى حكمة الدعوة لإقامة الحق بين الناس . فلما جاء الإسلام دعا إلى الإخوة والعدل ، وإلى المساواة بين الناس كأسنان المشط تقف إلى مستواها الواحد ، وألغى الإسلام فكرة «الاختيار » إلغاء صارمًا لم يعد معه فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وظهرت إلى جانب ذلك فكرة الكيان الفردى والقيمة الإنسانية الذاتية لكل فرد ، سواء أكان من أبناء الشرق أم من أبناء غيره من أقاليم الأرض . وبذلك كله تألقت فكرة العالمية حتى سمت إلى مستوى فكرة « الإنسانية » . وكان ذلك فى واقع الأمر تطبيقًا لدعوة فهمها أهلها ومارسوها فى وقت برزت فيه قيمة موقع بلادهم الذى انطلقوا منه يبلغون الرسالة ، ويعلمون الناس ، ويبشرون بمبادئ المحبة والحق والعدل والمساواة .

ولكن هناك بضع نقاط تستحق شيئًا من الإفاضة فيما نحن بسبيله من تقصى مظاهر الإقليمية والعالمية فى حياة المشرق العربى وحضارته وتاريخه . وأولى هذه النقاط أن الظروف التى تبلورت فيها الممارسة اليهودية للصلات الإنسانية فى عهدها القديم كانت ظروف إقليمية وتفكك محلى وقطيعة داخل المشرق العربى ذاته ، فضلاً عن أن فكرة العالمية كما ذكرنا لم تكن قد برزت بعد ، بخلاف الحال

وقت ظهور المسيحية ثم الإسلام ، حين تفتحت عيون أهل الإقليم على العالم كله من حولهم ، بل وبعيدًا عنهم ، وحين تطورت الصلات الإنسانية وقواعدها الروحية ، فكانت ممارسة الدين على أساس أنه لله وللناس جميعًا بل وللإنسانية كلها . والحق أن الفرق بين اليهودية من جهة ، وبين المسيحية والإسلام من جهة أخرى ، لم يكن فرقًا فى رسالة التوحيد فى صورتها الأصيلة ، ولا فى أصول عقيدة إبراهيم كما جاءت بها تلك الرسالة ، بقدر ما كان فرقًا فى فهم الرسالة وتطبيق مفهومها فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، ثم فى صلات تلك الجماعة مع من حولها من الجماعات داخل نطاق العقيدة أو خارجه .

والنقطة الثانية أن اليهود فى المشرق قد تغيرت من حولهم الظروف ، حين انتقل الإقليم من منطقة أو مناطق حضارية محدودة الاتصال بالخارج نسبيًا إلى منطقة وصل بين أطراف العالم ومختلف حضاراته . ولكن اليهود بقوا على انطوائهم ، واستمروا فى ممارسة عقيدتهم على أنها عقيدة مغلقة على أصحابها ، تعادى الرسالات اللاحقة ، وتسعى بينها بالقطيعة وعدم التعايش ، كما ترفض فكرة (البلاغ) من أساسها ، وتؤمن بأن الرسالة هى إنما « للشعب المختار » دون سواه . وهذا نمط من الحياة وسلوك لا يطاوع العصر ولا يجاريه ، بعد أن أصبحت بيئة المشرق بيئة وصل بين الشعوب . ومن هنا برز التناقض بين الممارسة اليهودية وبين مقتضيات البيئة بعد أن تطورت ظروفها التاريخية ، وظهرت العالمية التى قضت بأن يتصل أهل المشرق اتصالاً مفتوحًا وسمحًا بغيرهم من الشعوب ، وأن تكون كل رسالة روحية فيه للإنسانية كلها ، وأن تزول آثار الانطوائية والاعتزال والأنانية والاستعلاء ، سواء فى مجال الحياة والمعاملات المادية ، أم فى مجال الروح وما يتصل به من فكر وفلسفة وعبادات . ولم يكن غريبًا وقد عزل اليهود أنفسهم عن مقتضيات بيئتهم ، ولم يتجاوبوا مع التحول التاريخى الكبير الذى جاء فى أعقاب عهد الإسكندر . . . لم يكن غريبًا أن يجد اليهود أنفسهم غير موفقين فى مطاوعة البيئة أو مواكبة الزمن ، فينحل عقدهم وتضيع ريحهم فى بيئة تقضى بالربط والاتصال . بل لم يكن غريبًا آخر الأمر أن يضطروا إلى الارتحال ومنابذة حياة الاستقرار فى منطقة لا تسمح بالانطواء الأنانى ، حتى هاجروا آخر الأمر إلى

مناطق بعيدة ومتفرقة من العالم ، مارسوا فيها فلسفة الشعب المختار ، والعقيدة المغلقة ، فانتشر اليهود ، ولكن الديانة اليهودية لم تنتشر كما حدث فى حالة الانتشار الواسع الذى كان للمسيحية ثم للإسلام .

ومن الخير هنا أن نذكر النقطة الثالثة ، وهى أن اليهود وقد شتتوا أنفسهم ، فنزحوا عن المشرق ، وبقوا بعيدين عنه زهاء ألفى عام ، يحاولون الآن السيطرة على إقليم لا يصلحون بحكم فلسفتهم وسنتهم فى ممارسة الحياة ، لأن يتجاوبوا مع مقتضياته ، ولا أن يحملوا فيه رسالة الوصل بين الأمم والشعوب ، وصلاً يقوم على العطاء قبل الأخذ ، وعلى البلاغ قبل الانطواء وعلى الإيثار دون الأثرة . ومهما طال الزمن فإن إقامة سلطة يهودية صهيونية للسيطرة على هذا الموقع الجغرافى الذى يربط العالم لن تتوافق مع مقتضيات البيئة والموقع الجغرافى ، ولن تكون إلا ظاهرة مصطنعة لا يكتب لها التاريخ امتداد البقاء لأنها ضد طبيعة الأشياء .

أما النقطة الرابعة التى يهمنا أن نسجلها هنا ، فهى أن نمط الحياة فى هذا الإقليم خلال العهد العربى كان مما يسر « للعالمية » أن تتأصل وتجد لنفسها المقر والمعبر فى أرض كان سكانها من المسيحيين ثم المسلمين أصحاب رسالة إنسانية ، مارسوا عقيدتهم على أساس أن إبلاغ الرسالة فريضة على المؤمن ، وأن الوصل بين الناس والتراحم بين الشعوب واجب والتزام يقتضيهما الوجود العربى المسيحى والإسلامى وسط العالم . ولقد كان تكوين السكان ذاته ، لاسيما فى العهد العربى الإسلامى ، مما يجعل الاتصال بالناس والشعوب وتيرة الحياة المألوفة . فقد دخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وانتفت «العنصرية » وكادت أن تصبح خروجًا على تعاليم الدين ، وغدا الاختلاط والمعاشرة بين سلالات البشر وذوى الألوان المتغايرة من سنن الحياة الجديدة ، ولم يستشعر النازح إلى الإقليم أنه غريب فيه مهما بعد أصله . وفوق ذلك فإن رباط العقيدة ، والثقافة العربية جب ما سواه من عناصر التفرقة والتفكك والتنابذ ، وألف الناس أن يعيشوا جميعًا فى بيئة مشتركة ، ليس فيها مكان لشعب منطو أو شعب مختار .

وفى هذه المنطقة ، كما ذكرنا ، كانت البحار تتقارب ولا تتلاقى . فكان من الضرورى لعبور السلع خلال المشرق العربى بين الشرق والغرب وبين الجنوب

والشمال ، أن تتغير وسيلة النقل من السفينة إلى دابة الصحراء . ومن التوفيق إلى الحيوان المميز للإقليم منذ قديم كان هو الجمل الناقل والجمل الراحل الهجين . وبذلك وجد العرب أصحاب البلاد وأضيافهم من عابرى السبيل وسيلة الحمل والنقل والسفر ، وأصبحت قوافل الإبل « سفن الصحراء » الملائمة للبيئة والظروف كل الملاءمة . ونستطيع أن نتصور الحال لو أن الصحارى العربية كانت كمناطق السهوب الآسيوية التى تمرح فوقها جحافل الخيول . إذن لما كان العرب حداة إبل فى غالبيتهم ، ولأصبح الطابع الغالب فى الحياة والحركة العربية هو طابع فرسان السهوب ، الذين يستشعرون الاستعلاء على الناس لمجرد أنهم فرسان يمتطون الخيل ولا يحدون الإبل . وإذن لكانت الجزيرة العربية مصدر هجرات من جحافل المخربين فوق خيولهم مثل التتر والمغول وغيرهم ، لا حداة الإبل الذين يسعون بالتجارة والفكر والفن والجمال الرقيق بين جيرانهم على الشواطئ ، وفى مواقع الحضارة المستقرة من حول الجزيرة . ولئن كان العرب قد عرفوا فصيلة الحصان العربى ، فإن هذه الفصيلة لم تظهر إلا فى عهد متأخر نسبيًا ، وبعد أن تم استئناس الحصان فى قلب آسيا بنحو ألفى عام أو ما يزيد (*) . فضلاً عن أن الحصان العربى يعتبر حيوانًا ضيفًا على البيئة العربية ، فهو لا يرعى فى داخلية الجزيرة على هيئة قطعان كما ترعى الإبل والأغنام ، وإنما يربى فردًا أو أفرادًا ، وتضفى عليه العناية الفائقة كأداة مستحدثة من أدوات الزينة أو أدوات الفتح بين حين وحين .

والنقطة الخامسة التى نسجلها فى دراسة الأصول والاتصالات الحضارية فى المشرق العربى هى أن طبيعة الإقليم ذاته ومسالكه الداخلية ، ومطلاته الخارجية

(*) كانت داخلية آسيا الموطن الأصلى للحصان ، ولا تزال بعض الخيول غير المستأنسة تعيش وتتكاثر هناك . وقد استؤنس الحصان فى تلك المناطق خلال الألف الثالثة قبل الميلاد . وأدخله الهكسوس كحيوان حرب إلى المشرق القريب ومصر حول المائة الثامنة عشرة قبل الميلاد . ويقال إن سليمان (القرن العاشر ق . م .) كان أول من استولد فصائل الخيل التى انحدرت منها الخيل العربية . ويبدو أن هذه الفصيلة الأخيرة لم تظهر بصورتها المعروفة إلا فى « أيام العرب » وحروبهم قبل الإسلام ، ومنها حرب داحس والغبراء ، وهما من أسماء الخيل .

كـانت مما جعل الاتصـال أمرًا سهـلاً وميسـورًا ، سواء أكـان ذلك فيما بين مختلف أرجـاء المشرق العربى ، أو بـالنسبة للمـواصلات العـالمية البعيـدة المدى . فمصر مرتبطـة أيسر الارتباط بشمال الجزيرة العربيـة عن طريق شمال شبه جزيـرة سيناء ، حيث الرمـال الساحلية والكثبـان الرملية المتفـرقة على السهل الساحلى تختـزن مياه أمطـار الشتاء وتجود بها على مـدار العـام فى هيئـة آبار سطحيـة . ومن مصر يتجـه الطريق الساحلى ذو المراعى والمياه إلى برقة وبقية ليبيا ، ويمتد طريق وادى النيل إلى داخلية السـودان وأقاصيـه ، كما تمتد أوديـة الصحراء الشرقيـة ومسالكهـا فى اتجاه شرق السودان وأريترية . أما الهلال الخصيب بقرنيـه الشامى والعراقى فهناك أكثر من طـريق يعبر الباديـة السوريـة بين القرنين ، بحيث إنـه بعد أن بـدأ الجفاف يحل تدريجيًا بالمنطقـة فى العهد التاريخى القديم وخلال العهد الـرومانى ، فإن الاتصال تحول من المسالك الجنـوبية فى تلك البـادية إلى مسالكهـا الشمالية حيث المطـر أغزر والنبـات أوفر . وفيما بين الشـام واليمن هنـاك طريـق رحلة الشتـاء والصيف عبر الحجاز ، وبين هذا الأخير وبين الخليج العربى هناك طريق نجد الذى يعبر الجزيرة العربيـة ، ثم أخيرًا بين الركن الجنـوبى الشرقى من الجزيرة وسـائر أرجائهـا هناك طريق الساحـل البحرى بين عمان وإمارات الخليج وشط العرب من جهـة ، وبينها وبين سواحل ظفـار وحضرموت واليمن من جهة أخـرى ، وهو طـريق طويل لا تخلو بعض أطرافه الجنوبية من مخاطر ، ولكنه كان وسيلة صالحة لاحكام الاتصال الحضـارى والتجـارى ، وهـو من هـذه النـاحيـة كـان مسرحًـا للنشـاط البحـرى والساحلى ، تمامًا كما كانت سواحل الشام وفلسطين ودلتا النيل ، التى ترابطت بين أهلها الصلات العريقة ، على الجانب الآخر من الجزيرة العربية .

فأمـا عن الاتصـال بين المشرق العـربـى ومـا جـاوره أو بعـد عنـه فى الشرق والغرب ، فإن المسالك البرية والبحرية قد تكاملت فى ذلك على نحو جعل من هذا المشرق حلقة اتصال تجارى وحضارى عام فى العـالم القديم من حوله . فإلى الشرق والشمال الشرقى كـانت جبـال زاجـروس لا تمثل حاجـزًا حقيقيًـا ، لأن المسـالك تخترقها فى يسر وترقى من سهل عربستـان إلى إيران الجنوبية ، ومن سهل آشور إلى داخليـة هضبة إيـران الشمالية ومـا وراءهـا فى اتجاه تركستـان وقلب آسيا وشرقهـا

البعيد، وإن كـانت جبال كـردستان والأناضـول أكثر امتـدادًا وأصعب اختراقًا ، فلاتعبرها غير ممـرات قليلة فى اتجاه القوقاز ، كانت صـالحة لمرور التجارة المتقطعة أكثر من صـلاحيتها للتوسع والانتشـار الحضارى بمعناه المعروف ، وهـو التوسع الذى جاء أغلبه فى اتجاه السلاسل من الشرق إلى الغرب . وأما مطل المشرق العربى على البحر المتـوسط فقد كان منـذ أقدم العصـور نافذة حضـارية مفتوحـة على هذا البحر وما وراءه من بحار قريبة وبعيدة . فمنه انتشر الفينيقيون إلى الحوض الغربى للبحر المتـوسط وما وراءه ، وفيه التقى المشرق مع الغرب الأوربى خـلال التاريخ القديم والوسيط ، ومنه انتشر أخلاف الفينيقيين من غرب السواحل والجبال المطلة عليها إلى ما وراء المحيط الأطلسى وأرض المهاجر فى العهد الحديث . كذلك كانت مرافئ مصر الشمالية مطـلاً على البحر المتوسط منذ أيـام الإغريق وحتى قبل ذلك ، واستمرت تطل على البحر وتتصل به أو تتلقى منـه سلع التجارة وأسباب الحضارة وتنقلها إلى داخليـة المشرق العربى فى اتجاه إفريقيـة أو جنوب غرب آسيـا . وأما فى الجنوب الغـربى من المشرق العربى فقـد كان معبر باب المنـدب على الدوام طـريقًا للتجـارة البحـريـة من جهـة ، وللهجـرات والانتشـار الحضـارى فى اتجاه القـرن الإفـريقى من جهة أخـرى ، وقـد سبقت المؤثـرات الحضاريـة الحاميـة والساميـة مؤثرات العرب التى جاءت فى العهد الإسلامى إلى بلاد أرتيرية والصومال ، حيث ألتقى التيار اليمنى بـالتيار القـادم من ناحية مسقـط وعمان والخليج العربى فى اتجاه شرق القارة الإفـريقية وسـواحل زنجبار . أما بقيـة السواحل العـربية الجنـوبية فى حضرموت ، فقد كانت مطلاً آخر على بحار الهند ، ولكن نشاط أهلها الذين كثيرًا ما يسمـون بفينيقى الجنوب ، امتد إلى جنـوب شرقى آسيا فى الملايو وأنـدونيسيا ، أى إلى أبعـد حتى مما امتـد إليـه نشاط العنـاصر البحريـة التى خـرجت من الخليج العربى إلى سواحل شبه الجزيرة الهندية .

وهكذا كان المشرق العربى منذ أقدم عصـوره منطقة اتصال وربط جغرافى برى وبحرى بما جاوره وبعد عنه فى مختلف الاتجاهات .

صفـــوة القـــول :

على هذا النحـو تنتهى بنا هـذه الدراسـة العامة للجغـرافية الحضـارية للمشرق

العربى . ويتضح منها أننا بصدد إقليم يمتاز على معظم أقطار الأرض وأقاليمها بظاهرات ومعالم فذة فى نوعها . فهو إقليم متنوع البيئات ، متكامل الموارد ، ذو موقع جغرافى فريد ، واتصالات طبيعية داخلية وخارجية تربطه بالعالم القديم كله أسهل الارتباط وأقواه . كما تقطنه عناصر عرفت العالم ، وعرف الناس حضارتها ورسالتها الحضارية منذ أقدم العصور . ولعل ذلك كله أن يكون من وراء امتداد التاريخ واتصال أسباب الحياة والحضارة فى أرض العرب على مر الزمن . وإننا لنرجو أن نكون بهذه الدراسة العامة قد فتحنا الطريق إلى مزيد من الدراسات التفصيلية فى هذا الضرب من « الجغرافيا الحضارية » ، بحيث تحفل الدراسات القادمة ببحوث الجغرافيين ، قدامى وناشئين ، فى بعض ما أوجزنا أو أشرنا إليه من نقاط . بل إننا لنرجو أن يكون موضوع الجغرافيا الحضارية للمشرق العربى من بين ما يعنى به الباحثون والدارسون والمعلمون فيما يبحثون أو يعلمون أو ينشرون بين الناس . فذلك باب أولى أن يلجه الجغرافيون العرب قبل سواهم ، لأنهم أقرب الدارسين إلى هذا الإقليم ، وأقدرهم على اكتناه أسراره ، وتصوير ما عاشوا ويعيشون فيه من تجارب ، وما يدققون وينعمون فيه من نظرات ، فى بيئة من حقها عليهم أن تنال أو فى قدر من اهتمامهم بالبحث والدراسة والتصوير .

وقد يكون من الخير فى ختام هذه الدراسة أن نجمل القول فى النقاط الأساسية الآتية ، والتى ينتهى إليها حديث المشرق العربى بين ماضيه وحاضره ومستقبله القريب . فذلك قد يزيد من تحديد الصورة ، أو هو على الأقل يضع النقط على بعض الحروف .

أولاً - إن المشرق العربى منطقة فريدة فى تكوينها الجغرافى . فهى جزء من المنطقة المعتدلة الدفيئة ، ولكنها تجاور المناطق شبه الموسمية وشبه الاستوائية من جهة ، والمناطق المعتدلة الباردة من جهة أخرى . وهى مفتوحة على تلك المناطق جميعًا . وبالإضافة إلى ذلك فإنها غنية الموارد ، ظاهرة التنوع فى مجال الثروة النباتية الطبيعية ، والزراعية ، والثروة الحيوانية ، والثروة المعدنية . وكذلك فى الموارد التى تترتب على النقل والتبادل التجارى فى الطيبات . وقد كان هذا التنوع أساسًا للتكامل فى الحياة المادية للسكان منذ أقدم العصور . وذلك مقوم ضرورى فى بناء

المدنية والحضارة ، وفى بقائها واتصال أسبابها على مر الزمن .

ثانيًا ـ كذلك فإن البيئات فى المشرق العربى كانت من النوع الذى يمكن أن نسميه « بيئات التحدى » . فهى بيئات فيها شىء من القسوة المعتدلة ، ولكن تلك القسوة لا تصل إلى حد التعجيز . وبعبارة أخرى فإن البيئات العربية الطبيعية كانت تدعوالسكان بل تستفزهم إلى العمل الذى يتحدى الظروف الطبيعية ، ولكنها فى الوقت ذاته توحى إليهم بالأمل فى قهر الصعاب . فالصحراء تتحدى من يحاول أن يقطعها ، ولكنها تضم الواحات الطبيعية التى يعرف عابر الصحراء أنه يستطيع أن يفىء إليها كمراحل على الطريق . والأنهار الجارية فى المشرق العربى كثيرًا ما تفيض وتغرق جوانبها مهددة كل حرث ونسل ، ولكن التجربة أثبتت أن الخير كان يجىء فى أعقاب الفيضان ، وإن هذا الفيضان ذاته كان يمكن فى كثير من الأحيان التحكم فيه عن طريق العمل فى ضبط مياه الأنهار . كذلك البحار العربية كانت فى بعضها الشعاب التى تزيد من خطورة الملاحة ، ولكن الريح المنتظمة كانت على الدوام صديق كل مسافر فى البحر . ولئن كان الارتحال بالبر والبحر فى أقطار المشرق العربى قد انطوى على شىء من المشقة أو المغامرة بالنهار ، فإن الليل ونجومه الثوابت فى سمائه الصافية كان دليل كل مرتحل على ظهر بعير أو ظهر سفينة . وكذلك استنباط خيرات الأرض واستغلال مواردها فى المشرق العربى لم يكن من اليسر بمثل ما كانت عليه الحال فى المناطق الاستوائية ، ولا من الشدة بما يقيد النشاط فى المناطق شديدة البرودة . وإنما كان الجد المعتدل فيه يؤتى ثماره ، وكانت التجربة والحنكة والعلم فيه هى السلاح المثمر لكل عامل دؤوب . ومن هنا فإن بيئات التحدى الرقيق كالبيئة العربية كانت منذ قديم مهدًا للنشاط البشرى المثمر وللعمل الذى يهديه الأمل ويشجعه اضطراد النجاح واتصال التوفيق .

ثالثًا ـ كذلك فإن التكوين السكانى لأهل المشرق العربى كان فريدًا فى مزاجه . فإن المنطقة كانت قريبًا من الموطن الأصلى للسلالات البشرية التى تعمر العالم القديم . عندها تقاربت تلك السلالات فى نشأتها الأولى . وفى دماء سكانها تزاوجت المميزات الجنسية والمواهب والملكات . بل إن سكان المشرق العربى كانوا منذ قديم بعيدين عن كل مركب يدعو إلى التنابذ أو القطيعة . فاتخذوا من

رباط الثقافة والفكر والعقيدة مـا يزكى رباط الدم والنسب . ولم يستشعروا مركب خـلاف أو نقص أو حتى مركب استعـلاء حيـال غيرهـم من الشعوب المجـاورة أو البعيدة . وكان ذلك مصدر قوة لا حد لها بالنسبة لسكان المشرق ، لاسيما فى عهود الاتصال العالمى واسع النطاق .

رابعًا ـ فإذا تناولنا النـاحية الثقافية والحضارية العامـة بنوع خاص ، لم يلبث أن تبهرنا الحقيقـة الرائعة ، وهى أن هذا الإقليم قـد مر فى حياته الحضـارية بمرحلتين كبيرتين . أولاهما امتـازت بالإقليميـة الـواضحة ، حيث قـامت بـه مجموعـة من الحضارات لكل منها نطاقها الإقليمى أو المحلى المحدود ، فى مصر وحوض النيل ، أو فى الشام ، أو فى العـراق ، أو فى جنوب الجزيرة الغـربى أو جنوبها الشرقى ، أو فى بعض الجهات الصحرواية المنعزلـة . ولكن تلك الحضارات ما لبثت أن تقاربت وتلاحمت فى عهد ظهرت فيه الاتصالات العالمية ، فسعت بالمنطقة كلها إلى الوحدة الفكرية والروحية والثقافية بل والحضـارية العامة . ولئن جاز لنا أن نصف القسم الأول من تاريخ المشرق العربى قبل وحدته الحضارية فى العهد الإسلامى بأنه عصر «الإقليميـة الحضـارية » أو « الجاهليـة السيـاسيـة » ، فإن ظهور الـوحـدة فى أولى صورها وأقـربها إلى « القومية العربية » مع مطلع الإسلام كـان ظاهرة سبق المشرق العربى بها غيره من مناطق العـالم ولا تكاد تضارعه فى قدم الفكرة القـومية واتساع نطاقها واستنادها إلى أساس ثقافى وفكرى وروحى واجتماعى غير بلاد الصين .

خامسًا ـ كان الموقـع الجغرافى للمشرق العـربى أيضًا مـوقعًا فـريدًا . فـالمنطقة تتوسط العالم القديم ، وهى بذلك أصلح مقـر تقوم فيه « الأمة الوسط » بكل ما فى هذه التسمية من معنى . وكل هذا الموقع شبه الجزرى لا يمكن أن يتجاهله أو يدور من حـولـه من يـريـد أن يسير بين أقصى الغـرب وأقصى الشرق ، أو بين الشمال والجنـوب فى وسط العـالم ، ومن هنـا كان للمـوقع الجغـرافى العـربى أثـره الكبير والبعيـد المدى على مجرى الأحـداث التاريخيـة ، بل وفى تتـابع المراحل الحضـاريـة ذاتها . وقد ترتب عليه أنه منذ أن ظهرت العالمية فإن سكان هذا المشرق لم يستطيعوا أن يعيشـوا فى بيئتهم بـأنفسهم ولا لأنفسهم وحـدهم . وأصبح هــذا سجيـة من سجاياهم ، يعطون العـالم ويأخذون عنه ، ويعاملونه ويتعـاملون معه ، ويعملون

دائماً لأن يكون مسعاهم بين الأمم مسعى الخير والأمن والتعاون والسلام .

سادسًا ـ ولكن الموقع الجغرافى كان دائماً سلاحًا ذا حدين . ذلك أنه كان مصدرًا للخير من حيث مرور التجارة والمنافع ، وقيام العرب بدور النقل والوساطة بين الأمم والشعوب فى مجال السلع ومجال الأفكار فى الوقت ذاته . ولكنه كان فى بعض الأحيان مصدر إضرار وشر مستطير ، حين طمع فيه الغزاة والراحلون من أدنى الأرض حينًا ومن أقصاها فى بعض الأحايين . ومصدر الشر أن أولئك الغزاة والدخلاء لم يكونوا من أهل المنطقة ولا من أهل منطقة تشبهها فى الموقع أو فى التاريخى الحضارى القائم على التبادل الرحب والاستجابة لمفهوم العالمية والاتصال العالمى السمح ، وإنما جاءوا إلى المنطقة طامعين فى السيطرة عليها ، والتحكم عن طريقها فى مسالك المواصلات العالمية ولئن كان بعض أولئك المتحكمين لم يحسنوا الإفادة من الموقع الجغرافى ، كما حدث فى العهد التركى ، حين جاء الأتراك فحلوا محل العرب فى السيطرة السياسية على المنطقة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحلوا محلهم فى حمل التجارة ووصل أسبابها بين الشرق والغرب . . فإن آخرين ممن جاءو إلى المشرق العربى فى عهد الاستعمار الأوربى الحديث قد استغلوا ذلك الموقع أسوأ استغلال ، وجعلوا منه منطقة عراك من أجل السلطة والسيطرة العالمية . حتى غدا المشرق العربى فى العهد الحديث للاستعمار ممرًا ومقرًا فى آن واحد .

سابعًا ـ أن الأمر فى المشرق العربى ، منذ ظهرت الاتصالات العالمية فى العهد الأغريقى الرومانى كان أمر توازن بين مقتضيات الهيئة المحلية ومؤثرات الموقع الجغرافى : ففى العهود التى استجاب فيها العرب لمقتضيات بيئتهم المتحدية ، وعملوا على استغلال موارد تلك البيئة واستدرار خيرها ، واستمسكوا بما تدعو إليه تلك البيئة من دوافع التكامل والترابط الداخلى والوحدة فى مجال المادة ومجال الفكر والثقافة والروح . . فى مثل تلك العهود عرف العرب قوميتهم بمفهومها الصحيح والكامل كعقيدة وكحركة على طريق القوة والمجد ، فحملوا عبء الرسالة المفروضة على « الأمة الوسط » ، تعارفًا وسلامًا ، وسعيًا بالخير والعدل بين الأمم والشعوب . وفى العهود التى انصرف فيها العرب عن مقتضيات بيئتهم . وارتدوا إلى « الجاهلية السياسية » ، تفرقًا وتنابذًا أو انحلالاً وضعفًا ، ذهبت ريح

قوميتهم ، وركد تيارها ، وطمع فيهم الغزاة والمغامرون ، وأصبح الموقع الجغرافى الفريد وبالاً عليهم بل وعلى العالم ، لأن الأمر قد أصبح أمر تحكم وسيطرة عالمية ، قبل أن يكون أمر وصل بين أطراف العالم . . . وفى بعض الأحيان ، كما يجرى الآن فى فلسطين ، أصبح الأمر أمر طمع فى استقرار جديد ، فى بيئة عربية ، من جانب عنصر دخيل ترك أسلافه أرض المشرق قبل أن يعرفوا معنى العالمية ومقتضياتها ، وما تفرضه من رسالة وتدعو إليه من بلاغ ، ثم اختلطت فيه دماء عناصر كثيرة أخرى أوربية وغير أوربية ، ضاع معها كل ميراث شرقى أو حتى سامى بالمعنى الدقيق للكلمة فجاءت هذه الفئة المغامرة من الأوربيين وأصحاب الاستعمار الحديث يفرضون لوناً جديداً من السيطرة على المشرق ، والتحكم فى مثل هذا الموقع الذى شاءت الطبيعة والتاريخ أن يكون أرض الزاوية بين أقطار العالم القديم ، فلا يجوز أن تتحكم فيه عناصر لا يؤهلها تكوينها ولا تاريخها الحضارى أو الروحى لأن تحمل فيه رسالة الوصل السمح بين الشعوب .

ثامناً ـ وأخيراً قد ينفعنا فى مجال الموازنة بين البيئة المحلية والموقع الجغرافى ومقتضيات كل منهما أن نذكر أن المشرق العربى كان فى بعض عهوده مجالاً للصراع والتنافس العالمى ، ولكن ظروف ذلك الصراع تختلف من عصر لآخر وإن كانت طبيعته تتشابه من بعض الوجوه على اختلاف العهود . ففى العهد القديم مثلاً كان الصراع بين الفرس والروم من أجل السيطرة على قلب العالم القديم ، واستطاعت كل من القوتين الجبارتين أن تجد لنفسها موطئ قدم فى المشرق العربى . بل إن العرب أنفسهم انقسموا فيما بينهم ، فكان منهم من يناصر الفرس ، ومنهم من يناصر الروم . ولكن العرب مالبثوا أن اكتشفوا أنفسهم وعرفوا طاقاتهم المادية والروحية مع مطلع الإسلام ، حين اجتمعت إرادتهم وتوحدت كلمتهم ، واستطاعوا آخر الأمر أن يمسكوا بزمام الأمور ، وأن يقوموا على الوساطة والربط بين الشعوب على أساس من الحق والعدل والخير والسلام . وبعد انقضاء العهد العربى بكل ماواكبه من وحدة وقوة وأمن ، جاءت عهود من التدخل الأجنبى أيام الأتراك ثم أيام الاستعمار الحديث والمعاصر . فظهر التنافس من أجل السيطرة على المشرق ومقدراته . وعن طريق ذلك من أجل التحكم فى موارد الشرق البترولية

من جهـة وفى طرق المواصـلات العالميـة من جهـة أخرى . ولكن من حق العـرب وواجبهم وهم فى هذا المجال ألا يدعوا ذلك التنافس والصراع العالمى يحيد بهم عن طـريق الوحـدة ، أو يبعد بهم عن مسـار العـروبة المستقل والمميـز . بل من حقهم وواجبهم أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم وأن يحتفظـوا بشخصيتهم ويدركوا أن درس الماضى كفيل بأن ينير طـريق العمل أمـامهم ويفتح أعينهم على الحقيقـة الخالـدة ، وهى أن حاضر العـرب قمين بأن يضحو مرآة صـافية تنعكس فيهـا صورة الماضى المجيد ، وحدة وقوة ومنعة ، وامتدادًا رائعًا نحو مستقبل لا مجال إلى الشك فيه .

« ٤ »

المغرب العربى : صلاته بالمشرق العربى القديم والحديث



المغرب العربى : صلاته بالمشرق العربى القديم والحديث

مشرق العروبة ومغربها :

ينقسم العالم العربى الممتد من هضاب إيران إلى شواطئ المحيط الأطلنطى قسمين كبيرين هما المشرق العربى والمغرب العربى ، وتقوم أرض مصر رباطًا بينهما فى التراب من جهة ، وفى الحضارة من جهة أخرى ، وإن كانت أكثر اتصالاً بالمشرق منها بالمغرب ، لأن أرض سيناء كانت لصيقة بالجزيرة العربية ، ولأن مياه البحرين المتوسط والأحمر وجهت اتصال مصر نحو المشرق العربى بصفة خاصة . وفوق ذلك فإننا نلاحظ أن العروبة حين انطلقت من جزيرة العرب إلى الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، تابعت سيرها عبر مصر إلى المغرب العربى فى ليبيا وصحراء مصر الغربية ، إلى تونس ثم إلى الجزائر وبلاد المغرب ، واستمرت فى سيرها الغربى هذا عدة قرون حتى بلغت الأندلس وأرض أيبيريا . ولكن جانبًا كبيرًا من أولئك العرب النازحين بقوا فى أرض مصر الطيبة ، ولم يحاولوا الانتقال جنوبًا مع نهر النيل ، إلا بعد عدة قرون من دخولهم مصر (عام ٦٤٠ م وما بعده) ، حتى بدأت بعض القبائل العربية تنتشر جنوبًا على حافة الوادى ، لاسيما ابتداء من القرن الثانى عشر ، حين انطلقوا نحو السودان الشمالى وأرض النوبة وأطراف ايرترية القديمة ، وانتشر الإسلام فى ربوع السودان الشمالى والأوسط انتشارًا جاء مستقلاً ومختلفًا فى طبيعته عن انتشار الإسلام نحو ليبيا وتونس والجزائر وما وراءها إلى أرض الأندلس . كذلك فإن العرب المسلمين

لم ينشئوا فى السودان غير مجتمعات رعوية ، لم تكوّن دولاً كتلك التى أنشأها العرب فى شمال إفريقية وفى الأندلس ، وإنما قامت فى السودان دويلات صغيرة وغير متماسكة . ولم يعرف السودان العربى حكومة موحدة كالتى عرفناها فى أرض شمال إفريقية . . . وكانت تلك الدول أضعف من أن تنتقل بالاسلام إلى جنوب السودان ، إلا فى حدود ضيقة . حتى إذا ما جاء « العهد التركى » وظهر الأتراك العثمانيون فى شمال الجزيرة العربية وفى مصر أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، فإن تيار الهجرة العربية عن مصر ووادى النيل والصعيد لم يلبث ان ضعف وانكسرت شوكته فتوقف على أبواب السودان الجنوبى ، الذى لم يلبث أن دخل إليه الاستعمار الأوربى الحديث فى القرن التاسع عشر (أو قبل ذلك فى بعض السواحل الإفريقية الغربية أو الشرقية) وبدأت المسيحية القادمة مع الكنائس وفى كنف قوى الاستعمار التجارى والعسكرى ، فاستطاعت أن توقف توغل الإسلام إلى الجنوب .

الجبهة الليبية :

أما الجبهة الليبية فقد كان توجيهها الجغرافى فى العصور القديمة (قبل العرب) نحو مصر ، ثم نحو شاطئ البحر المتوسط وما وراءه ، فى حين أن اتجاهها نحو الغرب كان محدودًا . والواقع أن ليبيا فى العهد القديم كان يطلق عليها تسمية «إفريقية » وهى التسمية التى عرفها بها اليونان والرومان ، والتى أطلقت فيما بعد على القارة الإفريقية كلها . وكانت القبائل الليبية قبل ذلك تتصل اتصالاً وثيقًا بمصر ، لاسيما فى عهد الدولة الفرعونية الحديثة ثم العهد الفرعونى المتأخر ، عندما اشتد اتصال القبائل الليبية المحاربة بأرض مصر فى الدلتا الغربية والوسطى ، ثم الدلتا الشرقية . وتزايد نفوذ القبائل المحاربة والمرتزقة من ليبيا حتى شاركوا فى إقامة حكم الأسرة الثانية والعشرين الليبية (على أيام الملك « شاشانق ») ، وامتد بعض نفوذ المحاربين الغربيين فى جانب من الأسرة الثالثة والعشرين ، ولكنه كان نفوذًا مضعضعًا ، حتى تقلص النفوذ الليبى ثم توقف أو اقتصر على أطراف أرض البحيرة فى غرب الدلتا . وفى مرحلة لاحقة لم يلبث النفوذ « التركى » ذاته ان تقدم من مصر على ساحل البحر المتوسط إلى أرض ليبيا ، حيث استقر فيها استقرارًا سطحيًا ، زاد

من سطحيته ظهور الطـائفة « السنوسية » التى انتشرت زواياهـا فى أرض برقه وسارت مـع انتشار الليبيين فى اتجاه « الفيـوم » بـأرض مصر ، حتـى اشتبكت مـع الاستعمار الحديث الآتـى من ناحية إيطـاليا والذى استمر حتـى الحرب العالمية الثانيـة وخروج إيطاليا من أرض ليبيا المستقلة .

وهكذا كانت ولايـة « برقة » هى نقطة الارتكاز بالنسبـة للنشاط الليبى الحديث ، وهى فى حقيقة الأمر إنما ورثت نشاطًا سابقًا قديمًا فى برقة ، ويرجع فى أصوله إلى عهد الاستعمار اليونـانى الـرومانـى فى منطقة « الشحـات » (« سيرنايكـة ») التى كـانت مستعمرة إفريقية جاءت بالبحر ، وأحيـت منطقة الجبل الأخضر ، واستمرت فى برقة كلها خصوصًـا جانبها الغربى الـذى يتلقى أمطار الرياح الغـربية . ولا تزال إلى الآن مستقرًا للحياة فى تلك المنطقة من الجبل الأخضر .

أما إلى الغرب من برقة فهناك منطقتان أخـريان تمثلان بقية أرض ليبيا وهى المنطقة الجنوبية فى « سبهـا » والجبال الجنوبية الغربيـة ، وتقطنها قبائل قديمـة ، ربما كانت غير عربيـة الأصل ، وربما كانـت أصولها متصلة بـالعناصر الحامية التـى جاءت إلى منطقة أوزو وأطـراف هضبة تيبستـى الداخليـة ، والمتجه إلى جنـوب تونـس وأطراف جبال الأطلـس ، وأما المنطقة الأخرى (الثـالثة) من ليبيـا فهى منطقة شاطـئ البحر المتوسط عند طرابلس وما جاورها من شـواطئ تمتد إلى حدود تونس وهى منطقة سبق إليها الاستعمار اليونانى القديم قبل أن تمر بها العناصر العربية التى جاءت عن طريق مصر واستمرت حتى استقرت في شمال تونس ونشرت فيه الثقـافة العربية الإسلامية . ولم تزل منطقـة طرابلس على حـالها حتى جاء الأتراك واحتلـوها احتلالاً سطحيـًا ثم تركـوها لايطـاليا واستعمارهـا الحديث ، الـذى استمر حتـى عادت ليبيـا الموحدة إلى الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية .

تونس وقرطابة القديمة :

ثـم نأتـى تونـس بعد ليبيـا . وعندهـا يبدأ « المغـرب العربـى » بمعناه التـاريخى الخالص. وتختلـف تونس الشماليـة عن تونـس الجنوبيـة ، حيث كانـت الأمطار فى الشمال أغزر والنباتات أغنى وأكثر إدرارًا للخير من تونس الجنوبية الجافة نسبيًا . وقد

كانت تونس الشمالية منطقة مستقرة وذات شخصية حضارية أوضح كثيرًا من غيرها من مناطق الساحل الشمالى لإفريقية . بل إن بعض مظاهر الاستقرار فيها ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأعلى وبدايات العصر الحجرى الحديث . وهى مقر الحضارة التى عرفت باسم الحضارة « القفصية » (نسبة إلى قرية قفصة) التى وجدت بها آثار العصر الحجرى القديم الأعلى التى ترجع إلى عشرة آلاف سنة أو أكثر . . . والتى يبدو أنها استمرت حتى ظهر العصر الحجرى الحديث فى هذه المنطقة . . . ثم استمرت هذه المنطقة أرض خير واستقرار فى العصور التاريخية القديمة ، عندما بدأت الاتصالات الحضارية مع النشاط التجارى البحرى فى البحر المتوسط ، وهى اتصالات تهم المشتغلين بدراسة الانتشار الحضارى القديم . بل هى التى أدت إلى ظهور قرطاجة قرب موقع تونس العاصمة الحالية . والمهم فى تلك الاتصالات القديمة إنها تمثل المرحلة الأولى التى اتصلت فيها مصر بتونس ولو بطريق غير مباشر. إذ أن بعض معالم الحضارة المصرية القديمة ، لاسيما الكتابة القديمة الأولى والمنحدرة من الهيروغليفية المتأخرة ، كانت قد انتقلت إلى شواطئ فينيقية القديمة فى لبينطة (بشاطئ فلسطين الشمالى وشاطئ لبنان الجنوبى) . ومن هناك نقل الفينيقيون القدماء تجارتهم وحضارتهم وكتابتهم إلى قرطاجة القديمة . . . تلك التى أفادت من هذا الانتشار الحضارى ، وتبنت قواعده فى شاطئ تونس ، ثم ثويت وازداد نشاطها حتى خرج إلى أرض ايطاليا الرومانية القديمة . وخرج هانيبال إلى شاطئ إيطاليا الشمالى الغربى ، وحاول غزو الإمبراطورية الرومانية الأولى . . . لولا أن روما كانت هى الأقوى ، فردت الغزو إلى قرطاجة فى معركة شارك فيها نساء المدينة كما روى التاريخ القديم . فانكمشت قرطاجة ولكن جذوة الحضارة بقيت كامنة تحت رمادها ، حتى جاء العرب فى غزوتهم الكبرى واستقروا فى أرض قرطاجة ذات الحضارة والتراث الحضارى القديم . وفى تونس استقر العرب وارثين لتراث حضارى قديم ، وظهرت دولة الفاطميين الأولى والتى ما لبثت أن ارتدت بحركة آلية جاءت وكأنها رد فعل متأخر لحركة الانتقال الحضارى من مصر وفينقية القديمة إلى تونس . . . ثم ارتد الفاطميون إلى مصر على طول الشاطئ والبر الليبى . . . حتى استقر الأمر للفاطميين فى مصر ، وأقاموا قاهرة المعز لدين الله ، ثم أقاموا الأزهر الشريف كمسجد قصدوا

به فى أول الأمر خـدمة المذهب الفاطمـى الشيعى . ولكن روح مصر الرحبـة أبت فى آخر الأمـر إلا أن تجعله مسجدًا للمـذاهب الإسـلامية الأربعة ، وفـرضت مصر على الروح الفاطمى أن يقتصر أمره على المؤثرات الاجتماعية والثقافية العامة فى مصر . . . أما النـاحية الدينيـة (والعلمية) فقد انعكسـت عليها روح مصر الرحبـة ذات الأفق المتسع ، وصار الأزهر إسلاميًا لكل المذاهب وكل العالم الإسلامى .

تلك قصة دور تونس قبل الإسلام وبعده . وهـى قصة تفرد لتونس دورًا خاصًا فى التاريـخ الحضارى والجغرافيـا الحضارية لمغـرب العالم العـربى بل إنها قصـة تعكس الاتصال الحضارىٰ والفكـرى بل والثقافى بين كل مـن مغرب البلاد العربيـة ومشرقها القديـم ، وهو جانب طـريف من التـاريخ القديـم للوحدة العتيدة بين شقـى العالم العربى .

الجزائر والمغرب وما وراءهما :

وللجزائر والمغـرب موقع خاص فى المغـرب الأقصى ، وهما فى الحقيقة قلـب ذلك العالم . ولهما ثلاثة أقسام (أو أشرطة) متـوازية من الشرق إلى الغرب . والقسم الأول والأقدم فى الاستقـرار هو الشريـط الداخلى المجاور للصحـراء . وعلينا أن نـذكر أن داخلية الصحراء الكبرى فى العصور الحجـرية وما نسميه « العصر المطير » الموازى فى أغلبـه « للعصر الجليـدى » فى أوربا . . . . كـانـت الصحـراء الكبرى هى مـوضـع استقـرار إنسان العصر الحجـرى القديـم فى ذلك العهـد أكثـر من شـواطئ البحـر المتوسط الواقعة إلى الشمال . وقد استمرت الحضارات الحجرية فى القسم الداخلى من الجزائر والمغرب ، وتطورت من صناعة الآلات الحجرية من قطع الصخر (أو«النواة») إلى « شظـايا » الصخـر الصـوان الرقيقـة والتى تكـون مثلثـة فى الشكل أو مستطيلـة كالنصـال ، وقد استمرت هذه الأخيرة (النصـال) خلال مانسميه بـالعصرالحجرى القديم الأعلى . . . بل وإلى بدايات العصر الحجرى الحديث (الذى عرف « الرعى » « والزراعة » فى بعض الأماكن) .

أما القسـم الثانى فهـو خط يسير مع هضبة تيبستـى إلى جبال أطلس فى كـل من الجزائر والمغرب ، وهـذا الخط شهد توسعـًا أحدث وربما امتد خـلال العصر الحجرى

الحديث (الألف السادسة ثم الخامسة قبل الميلاد) . وهذا الشريط الأوسط من صحارى المغرب وهضابه وجباله هو الذى شهد انتشار « الحاميين » والذين جاءوا بلغتهم ونظامهم الاجتماعى من مكان يرجح كثيرًا أن يكون جنوب الجزيرة العربية . ومن هناك إلى القرن الأفريقى حيث انتشر الحاميون فى شعب ثلاث هى : الشعبة الأولى التى سارت نحو هضبة شرق إفريقية والشعبة الثانية التى اتجهت نحو صحراء البحر الأحمر وسلاسل جباله إلى أرض مصر ، حيث كانت بدايات الحضارة المصرية قبل أن يقيم الفراعنة حضارتهم . وأما الشعبة الثالثة من أولئك الحاميين القدماء فقد انتشرت إلى قلب الصحراء الكبرى حيث صارت مع الهضاب والجبال إلى أطلس الجزائر والمغرب ، وكانت أساس تكوين القبائل التى عرفت الآن « بالبربر » وهم حاميون لهم ثقافتهم المميزة ، وقد سبقوا وصول العرب الساميين إلى تونس والجزائر والمغرب بعد ذلك بقرون عديدة . والواقع أن البربر يمثلون الاتصال الأقدم بكل من شرق إفريقية ومصر القديمة وجنوب الجزيرة العربية ، وهو اتصال بشرى وحضارى يرد الصلة بين المغرب الإفريقى والمشرق الأدنى (موطن الحاميين والساميين) فى الجزيرة العربية إلى أقدم كثيرًا من العهد العربى . بل وهو اتصال يحدد مكانه البربر من تاريخ العلاقات الحضارية بين مشرق العالم العربى ومغربه .

أما نطاق شواطئ البحر المتوسط فى تونس ثم الجزائر ثم المغرب فإنه يمثل الشريط الثالث لمرور القبائل وانتشارهم من المشرق إلى المغرب . وله جانب آخر من الحركة قديم هو انتشار العناصر البحرية ، وهذه حركة قديمة ترجع على الأقل إلى عصر حضارة النحاس والبرونز . وكان السكان البحريون خلالها يدورون مع الشواطئ فى اتجاه المحيط الأطلنطى . بل إن بعضهم وصل فى دورانه وانتقاله البحرى حتى بلغ الجزر البريطانية ، وكان بعضهم يعرفون « بالباحثين عن المعادن» ، وبعد هذه الدورة وخلال التاريخ القديم والوسيط جاءت حركات الساميين بالبر من الشرق إلى الغرب على طول الشاطئ الإفريقى الشمالى . وكانت الموجة العربية آخر تلك الهجرات ، وهى التى استقر بها الإسلام فى تونس ثم فى الجزائر والمغرب ، وامتدت حركتها حتى بلغت أرض الأندلس عبر مضيق جبل طارق على أيام طارق بن زياد ، وهو أحد أبناء البربر الذين اختلطوا بالعرب ، وتلك الحركة العربية هى التى انطلقت منها حركة

بعض أهل الثقافة العربية والعلم ، واستقروا فى أرض صقلية ونحوا ببعض ملوكها فى اتجاه الفكر العربى والانتقال به إلى أرض ايطاليا وما وراءها ، وإن كانت هذه الحركة أضعف من حركة الانتشار العربى والإسلامى إلى أرض الأندلس ، حيث عاش النفوذ العربى الثقافى والإسلامى نحو ثمانية قرون حتى استطاعت الحضارة المسيحية الكاثوليكية أن ترد موجة الإسلام عن أيبيريا إلى المغرب ، وأن تغير اتجاه التوسع الحضارى ، فانحسرت إفريقية وتقدمت أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) بعيدًا فيما وراء البحار والمحيطات إلى العالم الجديد فى الأمريكتين وعلى شواطئ إفريقية العربية ثم إلى إفريقية الشرقية ومشارف بحار الهند ثم الهند الصينية . . . وتلك قصة أخرى التقى فيها المد العربى مع المد الأوربى فى الشرق الأقصى والفلبين .

ولنعد إلى منطقة المغرب الأقصى فى إفريقية ، فنجد أن الانتشار السامى والإسلامى جاء كذلك من الشرق ، واستطاعت بعض القبائل العربية القادمة أصلاً من جزيرة العرب أن تتجه جنوبًا وتبلغ أرض موريتانيا وتستقر فيها قبائل شنقيطية وتجلب معها لغة عربية امتازت بنقائها واستمساكها حتى اليوم بلهجتها العربية الفصيحة . كذلك فإن المد العربى استمر من هناك متوغلاً مع شاطئ غرب إفريقية إلى السنغال . وهناك احتكت القبائل العربية والسامية الأصل بالعناصر الزنجية ، وحدث الاختلاط فى وادى نهر السنغال الممتد من الداخل إلى المحيط . وعلى الرغم من أن الاختلاط السلالى كان محدودًا ، فإن اختلاط النظم الرعوية بالنظم الزراعية المستقرة كان أوضح ، وامتدت آثاره إلى ظهور عناصر من القائمين بالتبادل التجارى الذى تركز فى مراكز مثل داكار وما جاورها . ثم امتد التوسع من الساحل إلى الشرق على طول الحزام السودانى الغربى . . . ودخل الإسلام عن هذا الطريق إلى قلب النطاق السودانى وإلى حدود تشاد الشمالية والوسطى ، حيث بدأت القبائل المختلطة تنتشر ، وتعمر هذه المنطقة مع مجالات جانبية للتوسع نحو المناطق الأغنى بأمطارها ونباتاتها فى النيجر ونيجريا الوسطى وغانا بل وبعض المناطق الجنوبية والمطلة على المحيط فى توجو وغيرها . وجاء هذا التوسع العربى الأصل على دفعات من الهجرة . فضلاً عن أن بعض تلك الهجرات فى بلاد وادای وغيرها بلغت حدود السودان الشرقى . وهناك التقى التيار العربى الذى بدأ فى المغرب الأقصى وأطراف الجزائر

وامتد فى حركة دوران مع سهول السودان الغربى حتى التقى فى السودان الشرقى بتيار الهجرة العربية الذى أتى عن طريق مصر وسودان نهر النيل .

ذلك طرف من قصة انتشار العرب والإسلام إلى شمال إفريقية وغربها وعلاقاتهم الأولى بالمشرق العربى وأرض مصر ، ثم امتدادات ذلك عن طريق الجزائر والمغرب إلى الأندلس من جهة ، وإلى غرب إفريقية والسودان الغربى والأوسط من جهة أخرى، وهى قصة صورناها فى موضع آخر من هذا الكتاب ولكنها لا تمثل نهاية العلاقات الحضارية التى شملت شواطئ إفريقية الشمالية ، إذ أنها فى حقيقة الأمر استمرت فى صور أكثر اختلاطًا وتعقيدًا عندما جاء العصر الحديث ، وانتشر الأتراك أولاً ثم تداخلت العناصر الأوربية فى الواجهة الشمالية للبحر المتوسط . وفى أعقاب الأتراك ، جاءت أربع عناصر من الأوربيين هم الإنجليز والفرنسيون والأسبان والايطاليون . أما الإنجليز فقد كانت مصر محط أنظارهم ، ومكنوا لأنفسهم فى ثلاث نقاط أو أربع على الطريق إليها ، وهى جبل طارق عند مدخل البحر المتوسط ومالطة فى وسطه وقبرص عند طرفه الشرقى . وقد أدرك الإنجليز قيمة موقع مصر الجغرافى على طريق الهند ، وذلك منذ أن جاء بونابرت وحاول قطع تلك الطريق عليهم فى آواخر القرن الثامن عشر . وبعد أن رحلت الحملة الفرنسية عن مصر بقيت أعين بريطانيا على مصر وموقعها الفريد حتى احتلوها عام ١٨٨٢ ثم قامت المنافسات بينهم وبين فرنسا ، حتى عقدت بين الدولتين معاهدة الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، وانفردت بريطانيا بمصر بعد أن كانت قد وضعت يدها على قناة السويس . أما فرنسا فقد انفردت من جهتها بكل من تونس ثم الجزائر ثم المغرب وكان تدخلها ذا صفة حربية وسياسية وثقافية جميعًا ، فحاولت أن تفرض لغتها على كل تلك الأقطار . بل إنها بدأت تحارب اللغة العربية هناك لولا أن تونس والمغرب كانتا مقرًا قديماً لتلك اللغة ، كما إنها نفذت عن طريق منافسة إيطاليا لفرنسا فى المجال التونسى الذى كان قد عرف طريقه فى الاتصال الثقافى بما يقع إلى شمالها فى صقلية ، التى هى امتداد لايطاليا ، كما أن تونس كانت قد تبنت الإسلام والثقافة العربية فى مسجد الزيتونة واتصالاته التقليدية مع مصر وجامعها الأزهر . أما فى الجزائر فقد كانت فرنسا صاحبة السلطان الثقافى والعسكرى والسياسى جميعًا ، ولولا

أن الإسلام وجد فى الجماعات الإسلامية مثل جمعية « العلماء » الذين حافظوا على الفكر واللغة العربية فى مساجدهم وزواياهم ومدارسهم ، ثم بعض معاهدهم وعلى رأسها معهد عبد الحميد بن باديس فى قسنطينة . والحق أن جمعية العلماء هى التى مكنت للفكر والثقافة العربية والإسلامية من أن تصمد فى مواجهة الفكر والثقافة الفرنسية وغير الإسلامية حتى حررت الجزائر واستطاعت بثورتها أن تنتزع الاستقلال فى عام ١٩٦٢ . وكان أبناء الجزائر قبل ذلك قد انتشروا إلى أرض فرنسا ذاتها فى هيئة هجرات من العمال وأهل الحرف الصغيرة ، وانقلب الغزو الفرنسى إلى غزو مضاد إلى فرنسا حيث استطاع الملايين من سلالة الجزائريين أن يثبتوا أقدامهم فوق التراب الفرنسى بما لا يسهل زعزعته أو رد مدّه إلى الجزائر ، حتى اضطرت فرنسا إلى التسليم باستقلال الجزائر والاكتفاء من غزوها السابق بالخروج من أراضى المستعمرات الفرنسية فى منطقة الهضاب الوسطى من الجزائر ، حيث حل محلهم المزارعون الجزائريون فى هذا النطاق الهام من أرض الجزائر .

كذلك فإن فرنسا كانت قد مدت ظلالها إلى بلاد المغرب الأقصى منذ أوائل القرن العشرين وأقامت صلات اقتصادية وطيدة مع المغرب حتى دب الخلاف من جديد واستطاع المغرب مع ملكية محمد الخامس أن يرد هذا العدوان الأوربى وأن يقيم دولة المغرب الحديثة . . . ولم يلبث السلطان الفرنسى الذى امتد من المغرب جنوبًا مع الاتجاه العربى القديم حتى سيطرت فرنسا على السنغال وغينيا وغيرها من مواقع غرب إفريقية . . . هذا المد الفرنسى الذى سار فى أعقاب المد العربى الإسلامى . . . لم يلبث أن ارتد وأن خرج من مواقع كثيرة فى غرب إفريقية ومنها موريتانيا ومالى والسنغال وغيرها . وهذه قصة تعكس كلها تناوب « المد » بين العروبة والإسلام من جهة وبين الاستعمار الفرنسى فى أقصى الغرب من جهة أخرى .

أما عن ايطاليا وامتدادها إلى شمال إفريقية ، فإن التوسع الايطالى جاء متأخرًا عن كل من التوسع الإنجليزى والفرنسى ، ولم يبق أمام إيطاليا إلا أن تحاول أن تقفز على ما تبقى من الفريسة فى الساحل الشمالى من إفريقية . وكان ذلك الجزء المتبقى هو أرض ليبيا . وقام النزاع بين إيطاليا وتركيا العثمانية وغزت إيطاليا أرض ليبيا فى عام ١٩١١ ، حيث استقرت هناك بضعة عقود حتى خرجت وعادت من حيث أتت ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وإن كان بعض امتدادها الثقافى قد بقى فى تونس

المجاورة إلى الغرب بفضل هجرات كانت قد جاءت من إيطاليا إلى ذلك الركن المواجه لها فى شمال إفريقية .

وأما العنصر الأوربى الرابع الذى حاول التوسع إلى شمال غرب إفريقية فهو العنصر الأسبانى . وكانت أسبانيا بعد أن دفعت بالعرب الأندلسيين إلى خارج بلادها قد اندفعت واحتلت بعض شواطئ « الريف » المغربى ومرافئه فى مواجهة جبل طارق ، كما أنها امتدت إلى ما أصبح يسمى « بالصحراء الأسبانية » بين المغرب وموريتانيا والجزائر وبدأت استغلال بعض الموارد هناك . وقد قامت المنازعات بين أسبانيا والمغاربة فى أرض « الريف » أول الأمر ثم انتشرت المنازعات إلى بقية المغرب الأقصى ، وانتهى الأمر بانسحاب أسبانيا من كل ما احتلته ماعدا ثغرين صغيرين على مضيق جبل طارق ، وأغلب الظن أن النفوذ الأسبانى فى المنطقة كلها هو إلى زوال .

* * *

هذه صورة عامة للعلاقات التاريخية بين المغرب العربى فى شمال إفريقية والمشرق العربى فى مصر والجزيرة العربية وهى صورة أبرزت عدة نقاط هامة منها :

أولاً : إن المشرق العربى والمغرب العربى لم يكونا أبدًا منطقتين منفصلتين الواحدة عن الأخرى ، وإنما كانتا من الناحية الطبيعية والناحية الحضارية منطقة واحدة ، هى التى ورثها العرب فى قلب العالم القديم ، وأقاموا عليها جانبًا من « أرض العروبة » التى نفرد لها هذا الكتاب .

ثانيًا : إن الاتصال بين المشرق العربى والمغرب العربى ليس اتصالاً طارئًا ولامنقطعًا ، وإنما هو اتصال قديم ومستمر متجدد ، وترجع أصوله الأولى إلى العصور الحجرية قبل التاريخ ، ولم يكن الدور « العربى » إلا تتويجًا لصلات أصلية وعريقة . . . وقد تزامن هذا الدور مع العهد الإسلامى والحضارة الإسلامية التى أعطته الطابع التاريخ الذى بقى على الزمن ، والذى قام كله على ثقافة متكاملة ومتماسكة بين أقطار المشرق وأقطار المغرب ، بل هى التى فرضت نفسها فى التاريخ أيام قيام الأزهر الشريف على أيدى الفاطميين وأيام رجال أمثال عبد الرحمن ابن خلدون عرفوا شمال إفريقية وعرفوا « الفيوم » وأرض

مصر . . . ثم خلدهم التاريخ الفكرى حتى أيامنا المعاصرة . بل إنها ثقافة عربية عرفت العمل القومى والسياسى حين جاء عهد الاستعمار فربط من جديد بين مصر ومشرقها العربى وبين جميع أقطار العروبة فى شمال إفريقية . . ومن هنا كان تكامل « العروبة » الذى نفرد له أيضًا هذا الكتاب .

ثالثًا : إن التاريخ كان دائمًا يعيد نفسه فى الصلات بين المشرق والمغرب ، وهو فى كل مرة يعيد فيها نفسه كان يجلى روح العروبة وتكامل العروبة بل ودورها الإنسانى الفريد فى الربط بالإسلام بين شعوب البشر وألوان الحضارات بل وحتى المذاهب السياسية التى جارت بها رياح التغيير الفكرى والإنسانى المعاصر . ولعل موقعها الجغرافى الفريد أن يجعلها سبيلاً للربط بين أقطار الأرض وحضاراتها ومذاهبها الفكرية على نحو قد يكون سبيلاً حقًا إلى اشاعة أسباب السلام بين شعوب الشرق والغرب والشمال والجنوب فى عالمنا المعاصر .



« ٥ »

العرب وانتشار الإسلام

(أثر العوامل الطبيعية والبشرية فى حركة الانتشار)



العرب وانتشار الإسلام
(أثر العوامل الطبيعية والبشرية في حركة الانتشار)

تقديم : عن أصول انتشار الرعاة الأقدمين :

تعتبر حركة انتشار العرب والإسلام مع مطلع العهد الإسلامي من أبرز حركات الانتشار في التاريخ البشري ، وأبعدها أثرا وابقاها في التاريخ الحضاري . ولا يمكن أن يتأتى مثل ذلك نتيجة للمصادفة ، ولا أن يكون ظاهرة من الظاهرات العادية في التاريخ الحضارى الذى اعتدنا أن تحكمه عوامل فعالة توجه التاريخ وتكيف الاحداث ، خصوصا أذا بقيت مؤثرات الأحداث اجيالا متعاقبة ومتصلة كما حدث فى حالة الإسلام الذى جاء وأنتشر كرسالة لها أبعادها المتعمقة فى ضمير الإنسان وأفعاله وتصرفاته بصرف النظر (صرفا يكاد يكون كاملا) عن أصله أو جنسه أو سلالته .

وظاهرة انتشار الرعاة من بيئة شبه صحراوية أو بيئة رعوية ، هي ظاهرة بالغة القدم . وترجع في أصولها إلى المراحل الأولى من عصور ما قبل التاريخ ، بل ترجع فى بلاد العرب وما حولها من الصحارى وأشباهها فى آسيا وإفريقية إلى العصر الذى نسميه بالعصر المطير الذى يشمل العصور الحجرية الأولى (القديمة) والوسطى والعليا (وهى الأحدث) . ولقد جاء العصر المطير فى أكثر من دور وأحد ، أذ تخللته فترة واحدة على الأقل من الجفاف الكامل ، وفترة أو فترتان من الجفاف النسبي ، وفى ذلك العصر كانت الأمطار والزوابع المطيرة تتخلل النظام الصحراوي، فتتوغل أعاصير البحر المتوسط من الشمال إلى جوف المناطق

الصحراوية من أطرافها الشمالية ، وعلى هيئة أمطار معظمها شتوى ، كما كانت الزوابع المدارية وشبه الموسمية تتوغل فى ذلك النطاق الصحراوى من أطرافه الجنوبية على هيئة أمطار أغلبها صيفى . وعلى ذلك فقد كان النطاق الصحراوى دائم المطر على قمتين أحداهما شتوية فى الشمال والأخرى صيفية فى الجنوب . وقد نما الغطاء النباتى وتكاثف فى ذلك النطاق الصحراوى وشبه الصحراوى ، حتى غطت الأدغال قيعان الأودية ورءوس الجبال والتلال العالية فى ذلك النطاق ، وبالتالى فقد تكاثرت الحيوانات مما أتاح لإنسان العصر الحجرى الاقدم والأوسط والأعلى أن يعيش على التقاط النباتات والحبوب والثمار واقتناص الحيوان ، وأن ينشىء حضارات تقوم على صناعة الآلات الحجرية والتركز فى مناطق تكثر بها الموارد المائية والنباتية والحيوانية ، حتى إن العصر الحجرى الأقدم والأوسط والأعلى كان عصر أزدهار نسبى فى الحياه البشرية ، وإن اعترته فترات من الجفاف النسبى ، كان الإنسان يضطر فيها إلى الهجرة إلى خارج المنطقة الداخلية من النطاق الصحراوى ، خصوصا فى فترات الجفاف . وبعبارة أخرى فإن النطاق الصحراوى فى آسيا وإفريقية كان يمكن تشبيهه بقطعة « الأسفنج» تمتص مياه الأمطار وتزدهر بالحياة والحركة الداخلية خلال الأدوار المطيرة ، حتى إذا ما جاءت فترة جافة انعصرت المياه من الأسفنجة وخرجت جموع السكان فى هيئة هجرات كبيرة إلى مختلف الاتجاهات ، وتستمر حالة القحط والهجرة والفرار من الصحراء حتى تعود الأحوال المناخية إلى التحسن من جديد ، فتنقضى الحاجة إلى الهجرة وإلى ترك أودية الصحراء وقممها العالية .

العصر الحجرى الحديث :

ولقد أنتهى العصر الحجرى القديم بحلول الجفاف النهائى بعد أنقطاع العصر المطير . ويقال إن ذلك حدث حوالى الألف التاسعة أو الثامنة قبل الميلاد حيث دخلت المنطقة كلها فى فترة جفاف طويل وتدريجى حتى عادت الأحوال المناخية فتجددت فى دور نسميه « بالدور الممطر » أى أن الأمطار تجددت ، ولكن إلى درجة محدودة ، فلم تكن « مطيرة » بالمعنى القديم ، وإنما كانت تمثل حالة « ممطرة » زاد

فيها المطر بنسبة محدودة إلى أكثر مما يصيب الجزيرة العربية من المطر فى الوقت الحاضر . وقد أدى ذلك إلى ظهور الحضارة التى نسميها بحضارة العصر الحجرى الحديث التى عرف الإنسان فيها الآلات الحجرية المصقولة ، بعد أن كانت صناعاته الحجرية فى العصر القديم مقصورة على الآلات « المشظاة والمشطوفة » دون صقل ظاهرى . كما أن الإنسان في العصر الحجرى الحديث عرف صناعة الفخار والآنية التى يحفظ فيها المواد الجامدة كالحبوب والسائلة كالماء والزيت . وعرف اختزان المواد، وأصبح يعيش على تربية الحيوان واستدرار خيره بدلا من مجرد اقتناصه والقضاء عليه .بل إنه عرف كذلك كيف يستنبت النبات ، بعد أن كان يكتفى بالتقاط حبوبه وجنى ثماره البرية . ومن هنا فقد تغير شكل حياة العربان فى الصحارى واصبح الراعى يهدف إلى تنمية الحياه واستدرار خيرها بدلا من العيش عالة عليها أو مخربا لها بالصيد والقنص ، أو التقاط الحبوب وجمع الثمار. بل إن حياة الأعرابى أصبحت حياة « منتجة » تقوم على استثمار مصادر الطبيعة والأخذ بأسباب الآختزان من موسم لآخر . ففى أحد المواسم مثلاً ينتج الناس أكثر مما يستطيعون استهلاكه مباشرة من الشعير أو القمح أو تمر النخيل أو زيت الزيتون أو الثمار المجففة أو غير ذلك ، أو حتى من منتجات الألبان كالسمن والجبن ونحوها أو حتى من قديد اللحوم المجففة ، فيخزنون كل ما يمكن اختزانه من تلك المنتجات النباتية أو الحيوانية . وهذا يجعل لديهم فائضًا يمكن أن يتبادلوه مع غيرهم ، مما أنشأ التجارة والتبادل وهي حرف جديدة أضيفت إلى حرفة الزراعة وحرفة الرعى ، مما أوجد لونا جديدا من ألوان تبادل السلع ، وما يتبع ذلك من احتكاك الأفكار والمعاملات ، وأصبحت للأعراب « أسواق » يلتقى فيها الناس ويتبادلون السلع والأفكار والأراء والتجارب ، مما كان بداية لحضارة هى التى عرفناها بحضارة العصر الحجرى الحديث وما جاء فى أعقابه . ولقد أصبحت الهجرة فى هذا العصر هجرة للتجارة والتبادل هى التى تطورت فيما بعد وفى عصر ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية ، من رحلة الشتاء والصيف ثم من لقاءات سوق عكاظ وغيرها من أسواق الجزيرة العربية التى وصلنا خبرها، أو مما أهمله الزمان وعفى عليه التاريخ .

العصر التاريخى القديم :

وفى العصور التاريخية القديمة التى تلت العصر الحجرى الحديث أتسع نطاق الأتصال بعد أن نشأت حضارات مستقرة فى بعض البلاد المجاورة للصحارى والتى تتخللها ، مثل مصر وأرض سورية وأرض السواد فى العراق وما وراءها من جهة ، ومنها بعض جهات إفريقية الشمالية والشرقية من جهة أخرى .

وفيما بين تلك البلدان ومواطن الحضارة المستقرة أو شبه المستقرة قام نشاط التبادل والتجارة فى ظروف من السلم أحيانا وظروف من الحرب والتشاجر أحيانا أخرى ، وكانت تلك الحركات والرحلات بين أرض الرعاة والرحل وبين أرض الاستقرار والحضارة الزراعية المستقرة . وهى تلك الحركات التى كان يحكمها عاملان أساسيان ، هما تغير الأحوال المناخية وميلها إلى الجفاف فى بعض الأحيان (مما كان يسميه بعض الباحثين « بنبض الصحراء ») ثم عامل استقرار الحضارة وقوتها على ردع الرعاة وغزواتهم فى بعض الأحيان الأخرى . وفى الحالات الأولى كانت قوة الغزو تطغى على الأرض المزروعة وتخرب حضارتها ، بخلاف حالات قوة الحضارات الزراعية ، حيث كان الاستقرار يجمع من القوة ما يردع به موجة الغزوات التى تنكسر على حدوده . ولكننا نلحظ فى حالة الغزوات التى كانت تخرج من صحارى شمال بلاد العرب ووسطها أنها كانت فى بعض الأحيان تتلقى موجات أضافية تأتى من ناحية آسيا ، فيجمع الرعاة قوة مضافة إلى قوتهم ويجتاحون أرض الاستقرار فى يسر يغير وجه الحضارة فى أقاليم الاستقرار . وقد رأينا فى العصر القديم كيف أن الهكسوس مثلا ومن خالطهم من الحيثيين وسكان الهضاب الواقعة إلى شمال الجزيرةالعربية قد تسللوا إلى أرض الاستقرار فى مصر فى القرون الأولى من الألف الثانية قبل الميلاد ، واستطاعوا أن يهزوا قواعد الحضارة المستقرة فى مصر ، حتى استطاع أبناء الكنانة المستقرة أن يجمعوا من القوة ما يردون به جحافل الرعاة على أعقابهم وأن يتعقبوهم إلى شمال الجزيرة العربية . ويجمل بنا أن نلحظ أن رعاة هضاب آسيا وداخلها قد جلبوا معهم حيوانهم السريع وهو الحصان ، الذى أستأنسوه وركبوه من موطنه الأصلى فى داخلية آسيا إلى غرب آسيا

ثم إلى أرض مصر . فأدخلوا به أداة جديدة من أدوات الحركة والحرب ، وقلبوا بذلك موازين هذة الحركة والحرب فى أقليم من أقدم أقاليم الأستقرار ، وأستمرت الحال على ذلك حتى فطن المصريون القدماء إلى قيمة هذا العنصر الجديد الذى أدخله الهكسوس إلى بلادهم ، فصنعوا «عجلة رمسيس » وانتقلوا بها إلى شمال الجزيرة وأرض فلسطين وسورية القديمة وأعادوا إلى ميزان القوة اعتداله فى هذا الإقليم القديم من أقاليم الحضارة فى الشرق القريب .

ولنذكر أن دخول الحصان إلى غرب آسيا وبلاد العرب قد نوّع مصادر الثروة الحيوانية في الإقليم ، وكان لذلك أثره فى الحركة وحياة الاستقرار فى البلاد بما فى ذلك داخلية الجزيرة العربية ذاتها . ذلك أن الحيوان الأصلى فى داخل الجزيرة كان هو الجمل ذا السنام الواحد ، وهو حيوان يصلح لحمل الأثقال والسعى بها بين أطراف الجزيرة ، وبين موانيها على السواحل الجنوبية والشرقية إلى أطرافها فى الشمال وعلى السواحل الشمالية والغربية ولا يصلح فى الحركة السريعة والحرب (إلا أنواع خاصة منه تعرف أحيانا باسم « الهجين ») . فلما وصل الحصان إلى داخلية الجزيرة حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد (على أيام الملك سليمان وجيوشه من الفرسان) بدأت تظهر فصيلة الحصان « العربى » الضامر ، وهى الفصيلة التى تطورت وضمرت بطونها فى بيئة فقيرة نسبيا وتختلف بعض الشيء عن بيئة السهول فى داخلية آسيا ، حيث الحشائش أغنى منها فى شمال الجزيرة العربية وداخليتها ، وحيث أنواع الحصان الأصلية لا تزال تعيش فى حالة برية أو شبه برية ، أما الحصان فى داخلية الجزيرة فقد عاش فى بيئة صقلتها يد الإنسان والحضارة منذ قديم ، فالحصان العربى هو نتيجة «التربية » والتقويم فى معيشته وحركاته ، وجرى ذلك على ناموس « الاختيار » فى تناسل الصفات ، حتى ظهرت سلالته العربية المنتقاة ، وهى السلالة التى لا يزال يجرى عليها التناسل والاختيار حتى الآن .

عصر الجاهلية وظهور الإسلام :

وظاهر أن التفاعل فى العصور القديمة كان قائما بين العوامل المناخية الطبيعية التى تغير البيئة وبين العوامل البشرية التى تؤثر فى انتشار القبائل الرحل أو كبح

جماح الهجرة من الفيافى إلى مناطق الاستقرار . و ظاهر أيضا أن أثر العوامل الطبيعية فى العصور القديمة وقبل أن يبدأ التاريخ كان أقوى من أثر العوامل البشرية التى أزداد مفعولها كلما تقدمت الحضارة واستطاع أهل الأستقرار أن يصدوا هجمات الرعاة على أرض الأستقرار . وظاهر أيضا أن « مقدار » التغير فى المناخ وكمية الأمطار الساقطة كان أكثر وضوحا فى العصر المطير (الحجرى القديم) والعصر أو الدور الممطر (الحجرى الحديث) ، وأن ذلك ترك من الآثار الفزيوغرافية ما يمكن ملاحظته وتسجيله في مظاهر البيئة الطبيعية التى تتخلف عن سقوط الأمطار ونحت الأودية أو أرساب الرواسب . وقد يسّر ذلك علينا متابعة «الذبذبات » التى اعترت ظروف المناخ فى العهود السابقة للتاريخ .

أما فى العصر التاريخى القديم . وابتداءً من العهد الأغريقى الرومانى مثلا فإن الذبذبات أصبحت أصغر وأقل فى مفعولها الطبيعى ، مما جعل من العسير متابعة أثرها على معالم الطبيعة من النحت والأرساب ونحو ذلك . كذلك فإن مفعولها أصبح مما يصعب جدا أن نلاحظه ونتابعه بالنسبة لتغيرات الحياة النباتية أو الحيوانية . والواقع أن الباحثين في شئون المناخ القديم يرون أن الدور الممطر الذى ظهر مع العصر الحجرى الحديث قد تضاءل أثره شيئا فشيئا حتى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ثم تضاءل سقوط الأمطار بعد ذلك أكثر فأكثر حتى نهاية « العصر الكلاسيكى » (الاغريقى الرومانى) حين ساد جفاف يكاد يشبه حالة الجفاف التاريخية التى عرفت فى أوائل العصر المسيحى . وإذا حاولنا أن نتابع أثر ذلك فى الجزيرة العربية وداخليتها بالذات ، فإننا نلاحظ أن عصر الجاهلية عرف بالاضطرابات الشديدة بين القبائل وظهور ما أصبحنا نسميه « بأيام العرب » ، وهى أيام الحروب والغزو بين القبائل، والتى لعب فيها الحصان العربى دوره الكبير فى حملات الغزو، حتى أن بعض تلك الأيام والحروب ينسب إلى أسماء بعض الخيل ، ومن ذلك على سبيل المثال حرب «داحس والغبراء ». والواقع أن تلك الحروب الجاهلية قد صاحبها شيء من محاولة للمواءمة بين الموارد وعدد السكان فظهر ما يعرف باسم وأد البنات ، من املاق أو خشية املاق كما أشار القرآن الكريم الذى دعا إلى مكافحة

هذه الظاهرة الاجتماعية التى كشفت فوق ذلك عن الروح الأعرابية فى التمييز الظالم بين ذرية البنين وذرية البنات .

الأدلة العلمية على تغير المناخ قبل الإسلام : الأدلة الأثرية *

تلك بعض « القرائن » على تغير الأحوال المناخية والميل إلى الجفاف التدريجى خلال العصر الجاهلى . ولكن الدراسة العلمية تقتضينا أن نتابع بعض « الأدلة » على مثل هذا التغير المناخى ولعل بعض أدلة الآثار القديمة التى سبقت العصر الإسلامى أن تكون من أهم ما يثبت لنا أن الحالة المناخية فى تلك الأيام كانت أكثر رطوبة وتساقطا للأمطار مما أصبحت عليه الحال فى العصر الإسلامى . ومن أهم تلك الآثار فى شمال الجزيرة العربية ، ما تركه الرومان من صهاريج كانت تجمع المياه المنصرفة عن الأمطار الساقطة إذ ذاك، وهى صهاريج لا تكفى الأمطار الساقطة حاليا لملئها بالمياه . وكذلك فوهات آبار المياه الجوفية وقد كان الرومان يبطنونها بالمبانى الحجرية التى تظهر عليها آثار خط المياه الجوفية فى العصر الذى بنيت فيه . ويلاحظ أن مستوى هذه المياه فى الوقت الحاضر قد هبط بمقادير تتراوح بين مترين وأربعة أمتار . ولما كانت تلك المياه هى فى الأصل مستمدة من المياه الجوفية المتسربة فى التربة من الأمطار الساقطة على السطح ، فإن هبوط مستواها هو دليل قاطع على أن الأمطار الساقطة والمياه الجوفية المتسربة كانت فى عصر بناء فوهات تلك الآبار أغزر مما أصبحت عليه فى عصور لاحقة ، وذلك دليل الجفاف الذى حل بالمنطقة ، وهو الجفاف الذى يستدل عليه أيضا من أن صهاريج المياه القديمة فى هذه المنطقة وفى امتدادها على سواحل البحر المتوسط فى

---

* سبق للكاتب أن درس هذه الأدلة الأثرية والتاريخية وغيرها على تغير المناخ نحو الجفاف في الفصل الأول من كتاب أصدره عام ١٩٤٢ وأعيدت طباعته في ١٩٨٢ وهو

S . A Huzayyin " Arabia and the Far East " See also

S . A Huzayyin " Spread of the Arabs and of Islam : Its relation to climatic changes and other factors " Bulletin of the Geographical Society of Egypt, vols. LI and LII , 1978 - 79, pages 5 - 22 .

منطقة مريوط المصرية قد أصبحت تمتلئ الآن بالرمال بدلا من مياه الأمطار التى تضاءلت بالتدريج فى كل هذا الإقليم .

وهناك دليل آخر يمكن اعتباره من أدلة الآثار فى شمال الجزيرة العربية ، ذلك هو طرق المواصلات والتجارة القديمة التى كانت تقطع بادية الشام بين القرن العراقى من الهلال الخصيب والقرن الشامى منه (ويشمل الأردن وفلسطين ولبنان وسورية المعاصرة) . ويلاحظ أن أقدم تلك الطرق فى العهد اليونانى وأوائل العهد الرومانى كان يبدأ عند نهاية أرض شط العرب على قمة الخليج العربى عند ميناء قديم كان يطلق عليه « شاراكس سبازينو » ثم يتجه غربا إلى أرض النبط ومنطقة البطراء ومنها إلى رأس خليج العقبة أو شمالا إلى غزة القديمة . وقد بلغ هذا الطريق قمة نشاطه حول بداية العهد المسيحى ، ثم بدأ النشاط التجارى ينتقل نحو الشمال ، فأصبحت قمة الطريق من ناحية الشرق قرب وسط العراق . عند اقتراب نهرى دجلة والفرات من بعضهما البعض ، ثم يخترق الطريق بادية الشام فى وسطها وينتهى إلى بُصره القديمة وغيرها من حاميات الرومان ذات المبانى والآثار الضخمة فى جنوب سورية، ومنها إلى البحر المتوسط . وبعد ذلك ـ وأغلب الظن أن ذلك جاء نتيجة لازدياد الجفاف فى بادية الشام ـ أنتقل الطريق آخر الأمر إلى أقصى شمال بادية الشام ، فكان يبدأ قرب الطرف الشمالى لأرض العراق . ويعبر الجزء الشمالى الضيق من بادية الشام والذى تركز فيه سقوط الأمطار بعد أن تراجع وانحسر عن جنوب البادية على صحراء النفود، واقتصر على الشمال القريب من أطراف هضبة الأناضول . وظهرت فى هذا الدور مدينه بالميرا عاصمة الملكة الزباء، ومنها إلى شمال سورية ثم البحر المتوسط . ولا شك أننا نستطيع أن نستنتج من تراجع خط سير القوافل التجارية من جنوب بادية الشام إلى وسط البادية ثم إلى طرفها الشمالى أنه حدث خلال القرون الأولى من العصر المسيحى أن تراجع سقوط الأمطار من الجنوب إلى الشمال ، وهذا معناه تزحزح خط سير أعاصير الشتاء الآتية من حوض البحر المتوسط والمتجهة نحو الشرق حاملة الأمطار . . . . تزحزح ذلك الخط من الجنوب نحو الشمال ، مما جاء نتيجة لتغير مناخى وقلة تدريجية لأمطار بادية الشام . ولا نزال نلاحظ حتى اليوم الآثار العمرانية التي خلفتها

حاميات الرومان فى بعض تلك المناطق من مسارح وملاعب وعمائر وغيرها .

فإذا ما أنتقلنا إلى جنوب الجزيرة العربية ـ وجنوبها الغربي بصفة خاصة ـ فإننا نجد أدلة أثرية مشابهة على تغير المناخ نحو الجفاف خلال القرون القليلة التى سبقت مطلع العهد المسيحى والقرون القليلة التى لحقت به . وقد كان الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مقرا لسلسلة من العهود الحضارية التى تركت آثارها دالةعلى أحوال ماطرة من المناخ ولكنها كانت تتجه بالتدريج نحو الجفاف الذى أثر فى مواضع تلك الحضارات ومدى أزدهارها . وتلك الحضارت هى حضارة « معين » (من القرن التاسع قبل الميلاد حتى قبيل العهد المسيحى) التى ورثتها حضارة أطلق عليها اسم حضارة « سبأ » (وارثة سبأ القديمة) التى عادت فازدهرت فى أوائل العهد المسيحى . ثم اخيرا جاءت حضارة « حميرَ » التى تداخلت مع حضارة سبأ وورثت عنها الكثير واستمرت حتى جاء الغزوَ الإثيوبى حوالى القرن الخامس والسادس بعد الميلاد . ويلاحظ فى هذه الحضارات المتتابعة أن حضارة «معين » كانت عاصمتها « قرنوه » وهى فى أرض « الجوف » الداخلى من هضبة اليمن ، ولا يكاد ارتفاعه أن يزيد على الف متر أو نحو ذلك فوق سطح البحر ، فضلا عن أنه يقع فى منطقة « ظل المطر » بالنسبة لهضبة اليمن التى تأتى معظم أمطارها من الجهة الجنوبية الغربية . ويبدو أن الجفاف التدريجى قد حل بمنطقة الجوف التى أزدهرت فى القرون السابقة للعهد المسيحى ، ولكنها لم تلبث أن جفت وحلت محلها منطقة «سبأ » التى تقع إلى الجنوب منها وعلى أرتفاع بضع مئات الأمتار فوق الجوف وعاصمتها مأرب ذات السد التاريخى المعروف الذى كان يجمع مياه أمطار الهضاب العالية الواقعة إلى الغرب منه . وهو السد الذى استمر حتى القرن الخامس بعد الميلاد، . وكانت الأراضى المجاورة له والمحيطة به (وارتفاعها فى المتوسط نحو ١٥٠٠ متر فوق البحر) مقرا لحضارة سبأ والحضارة الحميرية التى لحقت بها واختلطت بنشاطها وثقافتها وامتدت إلى بعض أطراف اليمن وحضرموت ، كما استمرت حتى جاء الغزو الإثيوبى .

ولكن علينا أن نلاحظ فوق ذلك أن قبائل اليمن القديمة كانت تتجه بالتدريج من مناطق الجوف الداخلية والمعرضة للجفاف إلى مناطق أعلا فى الأرتفاع وأقرب

إلى مصادر مياه الأمطار فى الغرب وفى قمم الهضاب والجبال ، حتى إذا ما جاء الغزو الإثيوبى فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانت مناطق مأرب وسدها القديم (الذى تهدم واندثرت حياته فى القرن الرابع أو الخامس من الميلاد) قد جفت ودالت أيامها ليستقر السكان فى المناطق العالية عند مستوى ١٨٠٠ متر وأكثر فوق البحر وفى مناطق ذات تربة أغلبها بركانى يحتفظ بالرطوبة وتجود فيه الزراعات . وأصبحت العاصمة هى صنعاء وسهولها المجاورة على ارتفاع يزيد على ألفى متر فوق البحر ، وتصل بعض قممه إلى ما يقارب الثلاثة الآلاف من الأمتار أو ما يزيد . وقد بقيت هذه الهضاب والقمم العالية مقرا للحضارة والاستقرار خلال العهد الإسلامى كله حيث قامت مدائن صنعاء وتعز وإب وغيرها .

وبالاضافة إلى هـذه الأدلة الأثرية المستقاة من مواقع استقـرار الحضارات القديمة بهضبة اليمن ومدائنها القديمة ، فإننا نلحظ وجود مواقع لكثير من صهاريج المياه القديمة . وقد زرنا بعض هذه المناطق فى رحلة للجامعة المصرية فى عام ١٩٣٦ * ولاحظنا أن الحميريين بصفة خاصةتقع صهاريجهم فى المواقع العالية بين القمم الجبلية التى تتجمع مياه أمطارها فى أحواض صناعية كبيرة لا يزال بعضها قائماً ، ولكن مياه الأمطار الحالية لا تكفى لملئها بالماء ، وإنما تتجمع المياه القليلة فى قيعانها أما السكان الحاليون فيختارون الحفائر والوهاد المعلقة فى مواقع أقرب إلى سفوح القمم، حيث يتجمع الماء فى حفرة طبيعية أو شبه طبيعية تشبه البرك المكشوفة وغير المسورة، والتى يرتوى منها الحيوان ويتزود منها البدو بما يروى ظمأهم وهناك بعض الصهاريج القديمة فى مواقع منخفضة ولكنها أهملت لأن الأمطار الساقطة على ما يبدو لا تكفى لمدها بالمخزون المناسب . وهكذا فإن الإدلة الأثرية المتصلة بموارد مياه الشرب تدل فى جملتها على أن الأحوال المناخية وأحوال المطر بصفة خاصة قد تغيرت فى الوقت الحاضر عما كانت عليه أيام سبأ وحمير . كذلك فإننا نلحظ فى العهد الإسلامى أن حضارات الهضبة العليا من اليمن كانت تعتمد فى

* انظر : سليمان حزيّن « رحلة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت » مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ .

مياه الشرب والسقيا على الينابيع المتفجرة بين صخور القمم أكثر من اعتمادها على أقامة الصهاريج ، وإن كان بعض هذه الأخيرة قد وجد أيضا ، ولو أن ذخيرته من الماء كانت قليلة أو شبه آسنة .

أدلة النصوص القديمة على تغير المناخ :

وإذا استمررنا فى الحديث عن جنوب الجزيرة العربية فإننا نجد النصوص التى تركها الكتاب من العصر الأغريقى الرومانى تدل كذلك على أن الحالة المناخية فى أرض اليمن وحضرموت كانت فى ذلك العهد غيرها الآن ، لا سيما فى أرض وادى حضرموت الذى كان منبت أعشاب البخور التى تجلب من هناك ومن المناطق المجاورة لها أو القريبة منها فى جزيرة سقطره وبعض شواطئ البحر الايرترى القديم أوبحر العرب وخليج عمان الآن . وقد وردت أحاديث أرض البخور فيما تركه كتاب العهد الإغريقى الرومانى من أمثال ديودوراس سيكولوس وسترابو وغيرهما من كتاب العهد القديم وملاحيه . ويبدو أن اسم « حضرموت » ذاته فيه شيء من الدلالة على الحالة المناخية والصحية فى ذلك الوادى الغائر فى هضبة الاحقاف وحضرموت . ذلك أن بعض الكتاب يفسر الاسم بأنه مشتق من «الحضور » و «الموت » ، وقد يبرر هذا التفسير ما يذهب إليه كتاب العهد الإغريقى الرومانى الذين يصفون الوادى بأنه وادى الموت ، وإن الابخرة والرطوبة مع الحرارة الشديدة ومع الروائح التى تنبعث من أعشاب البخور وأزهاره كانت خانقة أو شبه خانقة بل يقال أن بعض الروائح الكريهة قد تنبعث من تربة الأرض إذا نبشت . كذلك فإن المنطقة الوسطى والسفلى من وادى حضرموت ذاته لابد وأنها كانت كثيرة المستنقعات ويكثر بها البعوض وربما الملاريا مما يجعل الحالة الصحية للسكان غير طيبة . ويذكر بعض الكتاب أن المدينة العاصمة فى ذلك الوقت كانت فى « شبوه » بالجزء الأعلى من وادى حضرموت بعيدة عن أسفل الوادى وعلى مقربة من أرض اليمن السعد وهضابه العالية .

وقد استمرت منطقة حضرموت وما جاورها لاسيما فى جزيرة سقطره . . . . . استمرت تمون العالم الإغريقى الرومانى بالبخور ، لا سيما بعد أن ازداد الطلب مع

ظهور الكنائس والأديرة المسيحية فى المشرق العربى ،وبعد أن صارت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية الرسمى ، وعند ذاك يقال أن حضرموت أخذت تعجز عن الوفاء بالحاجة المتزايدة إلى البخور والمواد شبه العطرية ، ولعل ذلك أن يكون مرتبطًا بقلة الأمطار الساقطة على جنوب الجزيرة ، حيث هجر السكان المناطق المنخفضة ووديانها ولجاؤا كما ذكرنا إلى أعالى الهضبة اليمنية ، فارتفعت منطقة العمران من مناطق الجنوب نحو هضبة اليمن إلى مستوى صنعاء وما ماثلها من المدائن ذات الأرتفاع الكبير عن سطح البحر والتى تتلقى الأمطار الصيفية الكافية. ويبدو أنه فى هذه الفترة عجز جنوب غرب الجزيرة العربية عن الوفاء بالمطلوب من محصول البخور والمواد العطرية ، فانتقل النشاط التجارى إلى « الهند» وانصرف الملاحون عن شواطئ الجزيرة العربية إلى شواطئ شبه القارة الهندية .

كل هذا عن جنوب الجزيرة العربية وأدلة الوثائق والنصوص القديمة على تغير المناخ فى خلال العصر الجاهلى وبعد أنتهاء دور المطر الإغريقى الرومانى (العصر الكلاسيكى) ، أى فيما بعد القرنين الرابع والخامس الميلاديين على وجه التقريب . أما عن داخلية الجزيرة وشمالها فإن النصوص العربية القديمة تعطينا صورة مشابهة لما حدث فى جنوب الجزيرة العربية من حلول الجفاف التدريجى . ونجد أدلة النصوص هذه متواترة فيما تلقيناه عن العصر الجاهلى من أخبار العرب وأيامهم . والذى نعرفه من هذا الحديث المتواتر عن العرب والأعراب من العصر الجاهلى يدلنا على أن العصر كان عصر اضطراب وهجرات دائمة ، وغزو كثير بين القبائل من أجل التحكم فى مصادر الرعى وموارد المياه لسقيا الإنسان والحيوان . والمعروف كذلك أن العصر الجاهلى قد أمتاز بصفة عامة بانقراض تدريجى للثروة الحيوانية البرية والوحشية. فالحيوان المفترس قد قل وانحصر بالتدريج فى مناطق الجبال العالية . كهضاب اليمن ومرتفعات عمان وربما بعض أودية نجد العليا ، ذلك أن الغطاء النباتى قد خف بالتدريج فقلت حيوانات الرعى الطبيعى من غزلان ونحوها، وبالتالى فقد قل مصدر الغذاءبالنسبة للحيوان المفترس . ومع ذلك فإن الأمر لابد أن حل بالتدريج ، فنحن نعرف أن بعض شعراء العرب ومغامريهم من أمثال امرئ القيس كانوا يجوبون الجزيرة العربية فى طولهاوعرضها

طلبـا للمغامـرة والشهـرة أو للغزو وفـرض الجاه . وقد خـرج امـرؤ القيس فيما يبـدو مـن الأحقـاف فى شمال غـرب حضرمـوت ، حتـى قطـع الجزيـرة كلهـا إلى أطـراف الأناضـول فى أقصى الشمال . كذلـك فإن من المعـروف أن هجرات القبائل العـربية جاء اقـدمها فيما يبدو مـن أرض الجوف فى شرق اليمن (وبعـد بداية الجفـاف فيها) إلى قلـب الجزيرة ونجـد وأطـراف الخليج حتى بلغ أرض العـراق . والمثـل العربـى المعروف يقول « اليمن مهـد العرب والعراق لحدهم » وذلك ينطبق بصفـة خاصة على هجـرة قبائل الأزد وقضـاعة فى ذلـك الطريـق القديـم حتى استقـروا بأرض السـواد بالعراق . أما بالنسبـة لشمال الجزيرة العربية فإن النصوص القديمة قـد تواترت بشأن حركه القبائل والنـازحين عبر بادية الشام إلى الشمال من صحراء النفـود . وقد استمر الحديـث متـواترًا مـن العصر الجاهلى إلى بـدايـة عصر الإسـلام . فنـرى كاتبـا مثـل المسعودى فى الجزء الأول مـن « مروج الـذهب » (القـرن العاشر الميـلادى) يشير إلى ماتواتر مـن أحاديث أواخر عصر الجاهلية من أن الرواة يذكـرون أن رجلا عجوزا كان يعيش فى مطلـع العصر الإسلامى ويـروى عن أجـداده أن المرأة البدوية فى عهـدهم كانـت تخرج من أطراف أرض العراق لتـزور أصهارها على الجانـب الغربى من بـادية الشام ، فكانت « تخرج من أرض خصبة ذات موارد مائية متاحة لتمر فى أرض أخرى عامرة بالماء والكلأ » حتى تصل أرض الجانب الغربى من البادية . وذلك بالطبع مجرد قول متـواتر ولكنه يدل على أن حـالة المطر والنبـات كانت غير حالها فى مطلـع العهد الإسلامى .

حركة الإنتشار من الجزيرة العربية والعوامل التى أخرت بداياتها حتى ظهور الإسلام :

إن منطق الأشياء بالنسبة للقرائن والأدلة التى سقناها من قبل كان يقتضى أن يبدأ العرب فى الأنتشـار من جزيرتهم مـع حلول الجفاف التـدريجى أيام العصر الجاهلى . ولكن الحقيقـة والواقع أنـه قامت ظـروف وملابسـات أدت إلى تأجيل حـركة الخروج والانتشار . وفى هـذا المجال يحسن أن نـوازن بين منطقة الإستبـس الفقيرة فى الجزيرة العـربيـة ومنطقـة الإستبـس الغنيـة فى داخليـة القـارة الآسيـويـة ، ذلـك

أن هذه الأخيرة كانت أكثر مطرا ، وتأتيها التيارات التى تحمل البخار والماء من مصدرين على الجانبين ، هما المحيط الهادى والرياح الموسمية فى شرق القارة من جهة ، والأعاصير المتوغلة من قارة أوربا ، ولا سيما فى الربيع والصيف . ومن البحر المتوسط الذى تأتى أعاصيره فى الشتاء . ومن هنا فإن مراعى الاستبس فى داخلية آسيا غنية بالكلأ والحيوان وأسباب العيش لجموع كبيرة من الرعاة . ومن هنا أيضًا فقد كانت هجرات الرعاة من داخلية آسيا حركات كبيرة ذات أعداد غفيرة ، كما حدث أيام الهون الذين حطموا الأمبراطورية الرومانية ، وفي أيام المغول والتتر والأتراك الذين حاولوا تحطيم دولة الأسلام فى الشرق العربى ، لولا وقوف مصر وجيوشها فى وجه ذلك الغزو . أما الجزيرة العربية فقد كانت الإستبس فيها فقيرة ، وكان عدد سكانها القادرين على الخروج والانتشار بالتالى محدودا فى جميع الحالات . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال أن مجموع الغزاة الذين دخلوا أرض مصر مع مطلع العهد الإسلامى لم يكد يتجاوز العشرين ألفا ، وهو عدد محدود فيما يبدو بالنسبة لجحافل الرعاة الذين اندفعوا من داخلية آسيا نحو الصين من جهة ونحو العالم الرومانى ثم العربى بعد ذلك فى اقاصى الغرب من القارة الآسيوية من جهة أخرى .

هكذا كان النزوح من شمال الجزيرة العربية محدودا منذ البداية، فضلا عن أن وجود امبراطوريتين كبيرتين فى مواجهة هذا النزوح ، هما أمبراطورية الفرس وأمبراطورية الروم، قد أدى إلى ظهور مقاومة قوية ضد التوسع نحو الشمال الشرقى أو الشمال الغربى من الجزيرة ، بل إن كلا من الأمبراطوريتين قد عملت على استقرار الأعراب على حدودها لتتخذ منهم دويلة حاجزة ضد الهجوم والتوسع العنيف من داخلية الصحراء ، فأنشأ الفرس دويلة اللخميين ، وأنشأ الروم دويلة الغساسنه ، وقام بذلك حاجزان ضد توسع أهل البادية الرحل إلى أرض الأستقرار على جانبى الأمبراطوريتين ونجحت كل من الأمبراطوريتين فى أقامة الأمن « المرتزق » (أو شبه المأجور) على حدودها . وكان ذلك من عوامل «تأجيل » الخروج الجماعى وغير المكبوح من داخل الجزيرة إلى خارجها . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن تغير المناخ نحو الجفاف بالتدريج خلال القرون الأولى من

العهد المسيحى لم يترتب عليه خروج تلقائى ومباشر من داخلية الجزيرة العربية إلى خارجها ، وإنما تأجل ذلك بفعل عوامل سياسية وبشرية أخرى زاد من قوتها وفعاليتها أن نمو التجارة الرومانية فى العهد المسيحى مع أزدياد قوة الكنائس وعمران أديرتها واستمرار الطلب على مواد البخور والعطور وغيرها من نتاج جنوب الجزيرة العربية ثم من نتاج الهند ، مما أوجد وظيفة ثانية لبدو الصحارى العربية ، بعد أن تضاءلت مهنة الرعى بسبب الجفاف التدريجى ، فظهرت مهنة ثانية أضافية هى مهنة « الوساطة » التجارية ، التى كان طريق الحجاز وأرض قريش أبرز أمثلتها (وإن لم يكن المثال الوحيد بالطبع فقد ظهر إلى جانبه طريق آخر من سواحل الخليج إلى داخلية الجزيرة وشمالها) . ومن هنا فإن طرق القوافل والتجارة الرابحة عوضت عرب الصحراء ولم تضطرهم إلى النزوح والهجرة إلى الخارج .

كذلك فإن هناك فارقا كبيرا آخر بين أرض سهوب صحراء العرب وأرض سهوب آسيا الداخلية . ذلك أن هذه الأخيرة لم تكن فى يوم من الأيام مهبط أية ديانة سماوية، ومن هنا فإن رعاة آسيا الداخلية يعتمدون على بيئتهم الخشنة والبعيدة عن اللين والتهذيب ، فلما خرجت جموعهم إلى الشرق الصينى أو إلى الهند القديمة أو إلى الغرب وحدود الأمبراطورية الرومانية أو إلى سهول المشرق العربى الإسلامى . . . . . . خرجت دائما فى هيئة غزوات عارمة ومخربة ، وذلك بخلاف غزوات رعاة المشرق العربى الذين عرفوا المسيحية (بل عرف بعضهم اليهودية من قبل) ، ثم جاءهم الإسلام فأعطاهم « رسالة » دينية واخلاقية خرجوا بها وبقيمها الرفيعة وكتابها ودستورها الخالد إلى حدود الإمبراطوريات القديمة فى الشمال والشرق والغرب . . . . وكانوا فى خروجهم حملة رسالة ودستور إنسانى ، هذب غرائزهم وشذب خشونتهم وجعلهم أقدر على « التفاعل » مع حضارات العالم المستقر خارج حدودهم، بل أعطاهم ما يقدمون لغيرهم وما يشاركون به فى بناء عهد جديد من الحضارة الإنسانية . . . . بل بناء عصر جديد من الحضارة والتاريخ ،هو العصر الإسلامى وعالمه الكبير .

عهد الخروج الإسلامى إلى داخلية آسيا :

هكذا مرت الجزيرة العربية بفترة اضطراب سكانى وحركات هجرة وغزو امتص جانبا منها ذلك النشاط الملحوظ فى النقل والتجارة وفى الوساطة التجارية الناجمة بين اليمن وجباله وشواطئه من جهة ، وشواطئ الخليج العربى من جهة ثانية ، ثم أسواق الحدود على الجانبين العراقى والشامى إلى شواطئ بحر الروم من جهة ثالثة . وأدى ذلك كله بالتالى إلى امتصاص حركة الخروج بسبب الجفاف ، واستمر الامتصاص خلال قرنين أو ثلاثة هى العصر الجاهلى ، حتى جاء الإسلام برسالته الجديدة فى مواجهة تصارع الأمبراطوريتين الكبيرتين ، وتطاحن الفرس والروم إلى درجة أضعفت الجانبين واتاحت فرصة التاريخ أمام الشعب الجديد ورسالته التى دعت الجميع إلى رحابها ، دعوة بعيدة عن الإكراه قريبة إلى مبادئ العدل الاجتماعى ، الذى ساوى بين العرب والعجم ، الذين بدأت دولتهم تدول ، وبينهم وبين الروم الذين أنقسمت كنائسهم وساد التنابذ بين أهل الدين وأهل الحكم والسلطان بينهم ، فنفذ الإسلام بسماحته وشموله ، بحيث جاء منقذا لكثير من شعوب حكَمها الرومان والروم وحلفاؤهم فى فترة انحلال سياسى وعسكرى ، مهد السبيل لسيادة الشعب الجديد ، بل الحضارة التى أطل بها الإسلام على أطراف الأمبراطوريات المتهالكة .

ومع ذلك فإن علينا أن نذكر أن الخروج العربى نحو الشمال قد سبقه توسع فى الاتجاه المضاد ، دخلت به جيوش الفرس والرومان ومن قبلهما دخل تجار الإغريق إلى أطراف الجزيرة العربية وبعض أجزائها الداخلية . ويهمنا أنه من ناحية الشمال الشرقى للجزيرة كان دخول الفرس بجيوش نظامية دون أن تكون هناك هجرات منتظمة فى أية صورة ظاهرة ، وقد سبق ذلك التوغل حركة أنتشار العرب المسلمين بنحو ألف سنة أو أكثر . وقد توغل الفرس فى أحدى غزواتهم إلى أرض مصر ذاتها وراء الجزيرة العربية فى أواخر العهد الفرعونى ، كما توغل الفرس أيضًا وبلغوا أطراف أرض سبأ القديمة فى اليمن . كذلك فإن الفرس قد أنتشروا بالبحر إلى أرض الخليج العربى وجزره وسواحل عمان فى الجنوب الغربى . أما المؤثرات السلالية من هضاب إيران الشمالية فيبدو أن بعض عناصرها وسكانها الأقدمين قد

نزلوا إلى الخليج وبلغوا عُمان ، حيث أثروا فى السلالة تأثيرا ظاهرا ، لا سيما فى شكل الأنف الطويل والكبير، وهو ما يعرف باسم الأنف الأرمينى أو الآشورى القديم الذى عرفناه من تماثيل الأشوريون الأقدمين وصورهم . وهكذا فإن صلة التوسع والإنتشار بين هضبة إيران والجزيرة العربية هى صلة قديمة ، بحيث يمكن أن نعتبر التوسع العربى فى الاتجاه المضاد رد فعل لحركة قديمة سابقة من الشرق إلى الغرب . ولكن حركة التوسع القديمة لم تكد تحمل معها الا النذر من معالم الحضارة والمدنية ولم تترك أثرا يذكر فيما عدا أثرها الخفيف فى ناحية السلالة . أما حركةالخروج فى العهد الإسلامى فإنها حملت معها حضارة جديدة وعقيدة لم تلبث أن غلبت على ما سبقهامن عقائد فارسية قديمة ، ثم خالطت الفكر واللغة القديمة وزاوجتها مزاوجة آتت ثمارهافى الفسلفة والعلم الإسلامى فى عهد العباسيين الذين جاءت بعض معالم ثقافتهم ثمرة لتلك المزاوجة التاريخية ،التى تركت أثرها الخالد فى تاريخ الفكر الإنسانى خلال فترة من أمجد فترات التاريخ .

ولنتابع الان معالم إنتشار العرب بدينهم الجديد وقيمهم الفكرية والروحية والاجتماعية فى بلاد الفرس ، لعلنا أن نتفهم مبلغ تأثر حركة الإنتشار بمعالم الطبيعة الجغرافيةعلى الطريق من جهة ، وتأثرها بالظروف البشرية والحضارية التى وجدها العرب من جهة أخرى . وقد كان لعبور الهضبة الإيرانية طريقان . أحدهما جنوبى والآخر شمالى . فأما عن الطريق الجنوبى فقد كانت تقع فيه منطقة « فارس» القديمة موطن الحضارة والقوة الفارسية على أيام الاكاسرة . وظاهر أن هذه المنطقة واجهت التوغل العربى والإسلامى بقيمه الاجتماعية التى جاء بها عرب الإسلام الذين يبشرون بالحق والاخاء والمساوة بين الناس بصرف النظر عن أصلهم أو تاريخهم. أما الطريق الشمالى فى الهضبة فقد كان أقرب تناولا لجموع العرب الفاتحين والمبشرين بالدين الجديد . وقد سارت جموع هؤلاء الفاتحين عبر جبال زاجروس إلى مناطق همَدان وشمال أيران حتى بلغت مشارف تركستان الغربية ، فوجدوا هناك قبائل الرعاة الأتراك القدماء ، وهم يعيشون فى بيئة تشبه ، ولو من بعض الوجوه بيئة بلاد العرب الشمالية. وهناك أيضا اتخذ العرب لهم قاعدة انتشروا منها فى اتجاهين ، أولهما نحو الجنوب الشرقى عبر الجبال مرة أخرى

إلى شمال غـرب بـلاد الهنـد حيـث استقـر بهم الحال وبـدأ الإسـلام يـوطـد أقـدامـه بالتدريج فى أرض السند وأطراف القارة الهندية الشمالية . أما الاتجاه الثانى للإنتشار فقد كان نحو أطراف أمبراطورية الصين القديمة وبلاد تركستان الشرقية التى وجد الرعاة حافتها الشمالية أصلح لتوسع جموعهم ومعهم حيواناتهم من الجمال ذات السنامين والخيل حتى دخلوا إلى حافات صحراء جوبى وأرض منغوليا، وحتى قرعوا أبواب الصين الشمالية واستعمروا ولايات الأمبراطورية الشمالية الغربية في أقليم سيانفو وما يليه شرقا إلى سهول شمال الصين . وكان هذا الطريق الشمالى، وطرقه (حافة منغوليا الداخلية) ، هو طريق التوسع الأساسى لجموع الرعاة القادمين من الغرب . . . . أماالحافة الجنوبية لصحراء حوض تاريم والتى تحاذى حافة هضبة التبت ، فإنها لم تكن صالحة تماما لمسيرة الرعاة والغزاة ، ولذلك فإن الإسلام لم يسلك هذه الطريق الجنوبية ، وإنما اقتصر توسعه على الحافة الشمالية لصحراء حوض تاريم .

ومع ذلك فإن علينا أن نذكر أن إنتشار الإسلام فى طريقه إلى الصين لم يأت مع تلك الغزوات الأولى حوالى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وإنما بقى الإسلام محدودا فى مناطق الرعاة تلك حتى جاء العصر المغولى بعد ذلك بقرنين أو أكثر ، فخرجت جحافل المغول والرعاة غير المسلمين من حافات صحراء جوبى ، ولم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد . . . خرج التتر والمغول من داخل آسيا إلى غربها ، وغزوا أرض المسلمين في تركستان الغربية وما وراءها فى شمال إيران ثم المشرق العربى الشمالى ، فحطموا بغداد فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ثم اتجهوا إلى أرض الشام وفلسطين ، حيث قابلتهم جيوش مصر التى دافعت عن الإسلام وقاعدته فى شمال الجزيرة ، وهزموا المغول والتتر . ولكن الشيء المذهل هو أن هؤلاء التتر والمغول الذين جاءوا إلى المعركة بقوتهم وجبروتهم ، ، دخلوا إلى الإسلام الذى فتح قلوبهم فى موجة سريعة ارتدت بهم مره أخرى نحو المشرق إلى أرض الأتراك ثم إلى أرض المغول فى داخلية آسيا الشرقية .

الخروج الإسلامى إلى شمال إفريقية وبعض جهاتها الداخلية :

أما عن الخروج فى مطلع العهد الإسلامى إلى شمال إفريقية فقد كان طريقه

الأساسى عبر شبه جزيرة سيناء إلى أرض مصر ، حيث تركز الإسلام واتخذ قاعدته القوية . التى انتشروا منها غربًا ، ثم عادت أحدى موجاتهم فامتدت من بلاد تونس فى القرن العاشر الميلادى إلى مصر ، التى لم تلبث أن أصبحت منارة العلم وفقة العقيدة مع قيام الأزهر الشريف ، جامعه وجامعته ، ولكن علينا أن نذكر أن الإسلام لم ينتشر فى ربوع أرض مصر فور دخوله ، فقد كان دفع الجزية كافيا لان يحتفظ أقباط مصر بديانتهم إلتى اعتبروها قريبة فى بعض أصولها الأساسية من الإسلام ، فضلا عن أن العقيدة الجديدة كانت تقوم على عدم الإكراه فى الدين ، ومن هنا فقد بقى معظم أهل الر يف فى مصر على ديانتهم حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، حين كانت الكنيسة قد ضعفت ، ودخلت جموع متزايدة إلى الإسلام . كذلك فإن الإسلام لم ينتشر من رأس الدلتا إلى الصعيد ثم إلى النوبة والسودان إلا بعد انقضاء نحو خمسة قرون على دخول الإسلام إلى مصر فى منتصف القرن السابع الميلادى ، فقد بقى العرب الأوائل متركزين في شمال مصر واكتفوا بالهجرة منها على ساحل البحر المتوسط إلى شمال إفريقية . أما انتشارهم نحو الجنوب فقد بقى حتى جاءت موجات جديدة من قبائل الجزيرة العربية ، وبدءوا ينتشرون جنوبا على طول الوادى وحافاته المجاورة للصحراء ، وذلك فى القرن الثانى عشر وما بعده . واستقر الكثيرون وهم فى طريقهم ، وأنشأوا نجوعا باسماء عربية مثل بنى سويف وبنى مزار وبنى قرة وبنى عدى ونجع حمادى وغيرها من الأسماء الكثيرة . ثم رحلت طلائعهم إلى النوبة (حيث اختلط بعضهم بالنوبيين[1]) ثم إلى شمال السودان وشرقه وغربه . واستمر توسعهم حتى صدمته هضبة الحبشة التى سبقتهم إليها المسيحية القبطية منذ القرن الخامس الميلادى وما بعده . وهكذا حتى بلغت طلائع العرب حوض النيل الأعلى فى بحر الغزال وبحر الجبل . ولكن يبدو أنه فى ذلك الوقت كان المد العربى قد طالت به الطريق وضعفت به الخطوات ، فضلا عن أن الغزو التركى فى شمال الجزيرة ومصر فى القرن السادس عشر قد قطع سيل العروبة عن جذورها فى الجزيرة ، فانقطع المدد العربى الذى يغذى سيل القبائل من الشمال الشرقى إلى مصر ووادى النيل فى السودان . ومن هنا توقف المد واستمرت الحال على ذلك حتى جاء عهد

الاستكشافات الحديثة فى داخلية إفريقية ، ودخلت سلطات الاستعمار ومعها هيئات التبشير المسيحية من أكثر من كنيسة واحدة ، وأخذت المسيحية تستند إلى سلطة المستعمرين ودولهم ، وأخذت تنتشر بين القبائل ذات العقائد الفطرية ، وصوّر المستعمرون تجار المسلمين ودعاتهم على أنهم تجار رقيق ينبغى أن يتحاشاهم أبناء القبائل والسكان الأصليون ، وبالتدريج أصبحت محاربة أنتشار الإسلام والسعى بالقطيعة بينه وبين السكان الأصليين سياسة مرسومة لدول الإستعمار فى تلك المناطق . وقد استمر هذا الأمر حتى بعد أن بدأ ظل الاستعمار ينقشع عن هذه المناطق .

وفى هذه الأثناء كان انتشار تجار المسلمين بالبحر قد بدأ يصل إلى القرن الأفريقى عن طريق باب المندب (بعد أن كان الإنتشار المباشر من الحجاز إلى شواطئ البحر الأحمر الغربية قد بقى ضعيفا ومحدودا) . وكذلك امتد إنتشارهم بالمباشرة من جنوب بلاد العرب وجنوبها الشرقى (عمان) إلى سواحل إفريقية الشرقية . ولكن هذا الإنتشار من البحر لم يلتحم بالإنتشار الإسلامى الآتى بالبر من الشمال عن طريق السودان الأوسط . وبذلك فقد بقيت منطقة بحر الغزال تمثل نطاقا حاجزا بين الإسلام الآتى من الشمال والاسلام القادم عن طريق القرن الإفريقى .

وإذا عدنا إلى الشمال وإلى أرض مصر فإننا نجد أن التيار الإسلامى انطلق منها إلى شمال إفريقية فى ليبيا ثم فى تونس ومنها غربا إلى الجزائر ثم المغرب . ومن هناك دار إلى الجنوب نحو موريتانيا (حيث استقرت بعض القبائل العربية النازحة وارست قواعد اللغة العربية والفقه والأدب فى واحاتها) ، بعد أن كان أثر الإسلام فى قبائل البربر فى جبال أطلس المغربية والجزائرية . كما أن المد الإسلامى سار مع سواحل المغرب إلى السنغال وأطراف إفريقية الإستوائية ، وإن كانت القبائل النازحة قد فضلت عدم التوغل فى النطاق الإستوائي ، ورغبت عن ذلك إلى التوسع والدوران شرقا مع الحزام السودانى نحو مالى وشمال نيجيريا وتشاد ، حتى التقت موجة الإسلام القادمة من شمال إفريقية وغربها بالموجة القادمة مع النيل من مصر إلى شمال السودان ووسطه وأطراف جنوبه . أما عن الطرق الصحراوية التى تقطع الصحراء الكبرى من شمالها إلى جنوبها وتتبع خطوط الواحات وبعض

الأودية الصحراوية الداخلية التى تغذيها أمطار مرتفعات تبستى . . . هذه الطرق كان روادها من التجار الذين ربطوا إسلام ساحل البحر المتوسط بإسلام مناطق السافنا فى النطاق السودانى الغربى . وبذلك كانت تلك الطرق سبل اتصال حضارى وتجارى ، ولم تكن طرفا لانتشار القبائل كما كانت الحال بالنسبة لطريق سواحل إفريقية الغربية ، وإذا عدنا إلى سواحل إفريقية الشمالية مره أخرى فإننا نجد أن التوسع الإسلامى عن طريق مخرج اللسان التونسى وصقليه كان محدودا ، أما التوسع عن طريق الريف المغربى إلى جنوب إسبانيا فقد كان طريق التوسع الإسلامى الذى بلغ بالإسلام ربوع الأندلس وجنوب إسبانيا وجنوبها الشرقى ، حتى وصل التوسع إلى قلب أيبيريا ،بل خرجت واحدة من طلائعه فى يوم من الأيام إلى جبال البرانس وما وراءها فى جنوب فرنسا ، حيث عجزت عن أن تبلغ بالإسلام إلى غايته فى ذلك الطرف من القارة الأوربية .

الخروج الإسلامى بالبحار الجنوبية من شواطئ الخليج وبحر العرب :

إن الأمر المشهور والمتداول بين عامة الباحثين هو أن الأمة العربية أمة « برية » ، كان إنتشارها الأساسى عن طريق البر . وظاهر أن مرجع هذا الرأى إلى أن حركة الإنتشار الكبرى إنما تمثلت فيما عرضنا له من أن العرب خرجوا بجموعهم وحضارتهم وعقيدتهم وقيمهم العربية والإسلامية من شمال شبه الجزيرة إلى إيران حتى حدود الهند والصين من جهة ،وإلى أرض مصر وشمال إفريقية إلى المغرب والإندلس ، ثم كذلك إلى موريتانيا وشواطئ إفريقية الغربية ، ثم رجعت مع سهل السودان الغربى حتى السودان الشرقى وبعض أطراف إفريقية الإستوائية . وتلك حركات خروج كبرى يندر أن تناظرها حركات مماثلة فى التاريخ ، بل إنها حركات غيرت وجه التاريخ الإنسانى بصفة عامة فى قارتين هما أكبر قارات العالم القديم وبعض أطراف من جنوب القارة الأوربية التى دخلها العرب والإسلام من ناحية الأندلس وايبيريا ، وجاءت محاولة مترددة ليدخلها عن طريق صقلية ، كما دخلها الإسلام على أيدى الأتراك (بدل العرب) إلى أرض البلقان (شبه الجزيرة فى الجنوب الشرقى) من القارة الأوربية . ولقد كان ذلك كله انتشارًا بريًا لم يركب

العرب (والأتراك) البحر فيه إلا ركوبا عابرا وقصير المدى ، وحتى ساحل البحر المتوسط الذى ورث فيه العرب مواقع الفينيقيين الأوائل كان خروج الملاحين العرب منه خروجا محدودا ، وقفوا به فى وجه الغزو الصليبى ، خرجت به جموع قليلة من أحفادهم الذين خرجوا فرادى أو فى مجموعات مغامرة قليلة وصلت بهم إلى بحر الظلمات (الأطلنطى) وما وراءه إلى بعض شواطئ قارتى العالم الجديد فى عهد قديم (؟) أو فى عهدنا هذا الحديث إلى بعض سواحل إفريقية الغربية أو فى عهدنا هذا الحديث إلى بعض سواحل إفريقية الغربية ، وأقاموا جماعاتهم ومراكزهم التجارية فيما نسميه الأن بأرض المهجر الأمريكى الشمالى أو الجنوبى أو أرض المهجر الإفريقى .

ولكن الحقيقة أن العرب لم يكونوا أمه « برية » فحسب ، وإنما كانت لهم جموعهم « البحرية » التى خرجت من شواطئهم على الخليج وسواحل بحر العرب والركن اليمنى ، وكان خروجهم من تلك الشواطئ فى ثلاث مراحل، أولاها سبقت الإسلام وقيل فيها أن الخروج من شواطئ الخليج وموانيه القديمة يمثل الموجة الفينيقيـة القديمـة حيث تعلـم أسلافهـم ركوب البحـر على شواطـئ الجزيرة الشرقية قبـل أن تنتقل بهم التجارة البريـة إلى شواطئ البحر المتـوسط ، حيث أقـاموا موانئهـم الجديدة وركبـوا البحر نـاقلين معهم حضـارتهم وفكرهـم متأثـرين بـالفكر المصرى القـديـم ، حتـى بلغوا بـه أرض قـرطـاجـة فى تـونس . وإلى جـانـب تلـك الموجات البحرية القديمة والتى كان لها ما يناظرها على شواطئ اليمن وجنوب غرب القارة الآسيوية ، والتى ارتبطت ملاحتها بملاحة البحر الأحمر القادمة من شواطئ مصر فى شمال ذلك البحر إلى بلاد « بونت » القديمة فى العهد الفرعونى ، كانت هناك موجة أو موجات بحرية بعد ذلك فى العهد الكلاسيكى القديم ، ارتبطت بالنشاط البحرى فى العهد الإغريقى الرومانى ، وانتشرت بها الحضارة والتجارة فى البحر الأحمر من جهة ، وعند رأس الخليج العربى من جهة ثانية ، ثم من قواعد البحر الأريثرى ثم على شواطئ اليمن وحضرموت القديمة وبعض شواطئ الصومال من جهة ثالثة . وأخيرا جاء العصر الحديث فى أعقاب عهد الاستكشافات الأوربية (من غرب أوربا على أيام الإسبان والبرتغال ومن جاء فى

أعقابهم من هولنديين وانجلو سكسونيين وكانت هذه هى الموجة الأحدث فى انتشار الملاحين العرب الذين جاء أغلبهم من جنوب بلاد العرب وبعض شواطئ الخليج (لا سيما مسقط) ، وهذا هو الانتشار الذى حمل الإسلام فى اتجاهين متقاطعين ، هما الاتجاه البحرى الشرقى إلى سواحل الهند ثم إلى أندونيسيا وجزر الجنوب الشرقى الآسيوى حتى شواطئ الصين الجنوبية والوسطى من جهة وشواطئ جزر الفلبين الجنوبية من جهة أخرى (بلاد واق الواق فى أغلب الظن)،فضلا عن أنه مر بالكثير من جزر المحيط الهندى لا سيما فى منطقة المالديف .

على أن هناك ملاحظتين ينبغى أن نسجلهما فى هذا الانتشار البحرى للعرب من الغرب والشرق . أولاهما أنه لم يكن مجرد خروج من الشواطئ وإنما كان متمما للنشاط العربى العام ، وهو نشاط مثلث الأطراف ، فقد كان هناك النشاط البحرى الخالص فى الشواطئ الجنوبية والشرقية إلى جانب النشاط البحرى فى الشاطئ الفينيقى قديما وحديثا . وكان هناك النشاط البرى فى داخلية الجزيرة العربية والذى تأثر بتغيرات المناخ قبل الإسلام فى الجزيرة وصحاريها وأشباه صحاريها من جهة ثانية . ثم نشاط «الوساطة » التجارية والنقل البرى بالقوافل بين موانى الجنوب وموانى الشمال من جهة ثالثة . ومن هنا فإنه لا يمكن أن يفهم النشاط العربى فى صورته الكاملة إلا إذا ربطنا النشاط البحرى بالنشاط البرى وبنشاط الوساطة التجارية التى تعلم العرب عن طريقها أن يكونوا حملة فكر ورسالة ، بل حملة عقيدة وقيم إنسانية غيّر بها العرب وجه التاريخ ، واختلفوا كل الاختلاف عن أقرانهم رعاة داخلية آسيا الذين صاحب خروجهم غزو بعيد وطغيان خرّب بعض معالم الحضارة ، وبذلك فقد أصبح العرب بناة للحضارة بل حماة لها فى كثير من الأقطار التى خرجوا إليها فى آسيا وإفريقية وبعض أطراف القارة الأوربية .

أما الملاحظة الثانية التى نود تسجيلها بالنسبة للخروج العربى البحرى من الجنوب والجنوب الغربى لبلادهم فهى أنه كان خروجا « سلميا » ، فلم يعرف التاريخ أن حملة عسكرية بحرية واحده خرجت من شواطئ الجزيرة ، وإنما هى

كانت كلها حملات تجارية تنقل السلع وتنقل الأفكار . . . . وقد كان رجال تلك الحملات من التجار وحملة الرسالة إلى جانب أنهم كانوا بحارة يكسبون عيشهم عن طريق النقل البحرى المسالم ، ولم يكونوا من قطاع البحر وقراصنة الطرق البحرية . وهذه حقيقة هامة ميزت التوسع البحرى العربى الإسلامى وجعلت منه مدخلا إلى لقاء وتزاوج حضارى لا يكاد يناظره تداخل حضارى آخر . فقد التقت حضارة العرب وثقافتهم مع حضارات الهند والهند الشرقية والملايو واندونيسيا والهند الصينية والصين والفلبين وحتى أطراف أرض « شيلا » القديمة فى شبه القارة الكورية . وكان ذلك اللقاء كله لقاء سلميًا لم تكن تخالطه أية حروب من ذلك النوع الذى كثيرا ما يحدث عندما تلتقى حضارات بعيدة الأصول متباينة الأفكار أو التقاليد ، كما حدث على سبيل المثال عندما التقت حضارة أوربا بحضارات الأمريكتين القديمة ، فثار الصراع من أجل الحياة بين الغزاة وسكان البلاد الأصليين . وذلك ما لم يحدث شيىء منه عندما التقى العرب المسلمون بأهل آسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وبعض أطراف تلك القارة الشرقية .

من هم العرب الذين نشروا الإسلام*

تحدثنا فيما سبق ، عن البيئة التى انتشر منها العرب ، وشرحنا كيف أن تلك البيئة متنوعة فى أقاليمها ، ومميزاتها الجغرافية ، وكيف أن ذلك التنوع ، كان له أثره الواضح فى الصفة التى اتخذها توسع العرب من تلك الأقاليم . بالبر حينا والبحر حينا آخر ، كما شرحنا كيف أنه على الرغم من اختلاف تلك الأقاليم بعضها عن بعض ، فإنها تؤلف فيما بينها تلك البيئة العامة التى سميناها بالبيئة العربية .

وكذلك الشأن فى سلالات العرب فهم على اختلافهم فى الشمال والجنوب وعلى تنوع مميزاتهم الظاهرية فى البادية والحضر ، وفى الداخل والجهات الساحلية فإنهم

* فى الفقرات التالية سنحاول تعريف «العرب » من حيث خصائصهم السلالية ومن الناحية الانثروبولوجية (علم السلالات البشرية) . أما التعريف العام للعرب من الناحية الاجتماعية والسياسية ، فإنه فى رأينا كالآتى : « العربى من كانت اللغة العربية وعاء ثقافته وكانت العروبة محط انتمائه » سليمان حزيّن .

يمثلون فى الواقع شعبا واحدا ، له مميزاته العامة المشتركة ، وثقافته الواحدة فى اللغة والاتجاه الدينى والفكرى العام .

ولذلك فإننا إذا حاولنا الآن أن نتتبع أصل العرب . إنتهى بنا البحث إلى أن ذلك الاصل ليس ضيقا ولا محدودا . وإنما هو متشعب غير محدود ، وإلى أن العربى يجمع فى تكوينه السلالى بين مميزات أهل آسيا الغربية وأهل البحر المتوسط ، وبعض أهل أفريقية الشرقية ، ويرث هذه العناصر جميعا ، أو يشترك معها على الأقل ،فى كثير من المزايا والملكات والمؤهلات التى تضيف إلى تراث العرب السلالى والثقافى جميعا .

وهناك نظرية تجعل من الشرق الأدنى الوطن الأصلى للإنسان ، أو بعبارة اصح المنطقة التى انتشرت منها السلالات البشرية الكبرى التى تعمر العالم فى الوقت الحاضر . وتقوم تلك النظرية على أساسين : أولهما : الموقع الجغرافى ، إذ يجمع الشرق الأدنى بين قارات العالم القديم الكبرى (آسيا وأوربا وإفريقية) ،كما يجمع بين بحار الشمال (أى البحر المتوسط وما يليه شمالا وغربا) ، وبحار الجنوب (أى البحر الأحمر وبحر العرب وما يليهما جنوبا وشرقا) ، وثانيهما : إن سلالات البشر الكبرى من عناصر آسيا الداخلية (الأتراك البيض والمغول الصفر) ومن العناصر البيضاء (أى الشقر فى شمال أوربا والبيض السمر فى جنوبها وفى شمال إفريقية) ، ثم العناصر السمراء والسوداء (فى إفريقية وجنوب الهند وجنوب شرق آسيا ثم أستراليا البعيدة) . هذه العناصر كلها تتقارب بعض أطرافها ، فى الشرق الأدنى ، الذى يبدو أنها انتشرت منه أو من جواره نحو الشرق فى حالة سكان آسيا الداخلية ، ونحو الغرب والشمال فى حالة العناصر البيضاء ، ونحو الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فى حالة الزنوج ومن إليهم من ذوى البشرة السمراء والسوداء .

وإذا صحت هذه النظرية ، وهو ما يرجحه أغلب الباحثين ، لاسيما فيما يختص بالعناصر البيضاء والسوداء ، وإن لم يسلموا به جميعًا فيما يتصل بالمغول ، فإنه يجب أن ننتظر أن يجمع أهل جنوب غرب آسيا فى دمائهم وتكوينهم السلالى مزيجًا من المميزات والصفات ، وأن يكون هناك شيء من الاختلاف بين أهل الجزيرة العربية فى مختلف جهاتها ، لاسيما الشمال والجنوب ، وهو ما أنتهت إليه البحوث الحديثة بالفعل .

تغلب على العرب فى جملتهم الصفات التى يعرفها علماء الانثروبولوجيا (أو علم السلالات البشرية) بالصفات « القوقازية » والتى يطلق عليها أحيانا بشىء من التسامح ، اسم الصفات « السامية » ، وإن كان من الأفضل أن يقتصر استعمال هذا اللفظ الأخير على الناحية الثقافية عامة واللغوية خاصة ، وألا يكون له مدلول سلالى معين . وأهم تلك الصفات العربية ، البشرة السمراء أى القمحية اللون ، والقامة المعتدلة ، أى فوق المتوسطة ، والرأس المستطيل أو المتوسط الاستدارة ، وملامح الوجه القسيمة الوسيمة فيما عدا استطالة الأنف وبروزه فى بعض الأحيان، والشعر المجعد تجعيدا خفيفا ، واللحية المتوسطة الكثافة ، ولون الشعر الكستنائى ، والعيون العسلية الغامقة ، والأطراف المتناسبة مع القامة التى يغلب عليها أن تكون نحيلة ، لا سيما بين أهل البادية ، حيث يقل الغذاء ويكثر التنقل وتطول المسافات .

على أن هذه الصفات وإن كانت غالبة ، فإنها فى الحقيقة لا تتمثل على صورة واضحة خالصة ، إلا فى جهات محدودة من الجزيرة ، لا سيما فى الأجزاء الداخليةمنها ، مثل نجد وبعض جهات الحجاز وبادية الشام . وربما كانت هذه الأخيرة الوطن الأصلى لبعض العناصر التى عرفت فيما بعد بالساميين .

كذلك من المهم أن نلاحظ من الناحية السلالية اختلاط المظاهر والمميزات فى بعض المناطق . ففى العراق مثلا اختلط الأعراب ، ومن يعرفون بالساميين ، بعناصر أخرى انحدرت من الهضاب ، حيث يمتاز السكان فيها الآن باستدارة الرأس وانبطاح مؤخرة الجمجمة ، وارتفاع اليافوخ وأم الرأس ارتفاعًا ظاهرًا ، وانحدار الجبهة وتقهقرها إلى أعلى ، وشدة بروز الأنف وأرتفاع قنطرته وغلظ جوانبه ، فضلا عن أن القامة متوسطة ، وإن الجسد يميل إلى الامتلاء بعض الشئ . وهذه الصفات بالطبع لا توجد خالصة إلا فوق الهضبة نفسها ، أما فى بعض جهات العراق فإنها تتمثل مخففة ومختلطة بالمميزات الاعرابية المشار إليها من قبل . ويظهر أن بعض عناصر الهضبة هاجرت نحو الجنوب وأن أثرها لم يقف عند العراق وإنما امتد مع الخليج إلى عمان ، ومنها غربا إلى وادى حضرموت ، حيث تظهر بعض المميزات شبه الارمينية بين سكان ذلك الوادى كما سنرى بعد قليل .

كذلك تأثر سكان الشام ، لا سيما جبال لبنان ، بالعناصر التى انحدرت من هضبة الاناضول فى الشمال ، ويرجع بعض تلك المؤثرات إلى أيام الحيثيين الذين توسعوا فى لبنان القديم ، وأثروا فى سكانه ، كما تجددت تلك المؤثرات فى أيام الأتراك الذين امتد تأثيرهم ، فشمل أجزاء مختلفة من سورية ولبنان وفلسطين . وتتمثل هذه المؤثرات الشمالية أيضا فى استدارة الرأس ، وانبطاح مؤخرة الجمجمة انبطاحا خفيفا، وغلظ الأنف نسبيا ، وغزارة شعر الوجه ، إلى غير ذلك من المميزات المعروفة بين أهل الأناضول .

فإذا ما انتقلنا إلى جنوب الجزيرة العربية ، وجدنا الاختلاف أكثر وضوحا بين أهل ذلك القسم من الجزيرة . وقد لاحظ علماء الانثروبولوجيا منذ بدأوا يبحثون هذا الإقليم ، امتياز سكانه فى جملتهم (ما عدا شمال اليمن) باستدارة الرأس استدارة يختلفون بها عن أهل الشمال عامة . كما لاحظوا ظهور المؤثرات شبه الارمينية ، التى أشرنا إليها ، فى كل من عُمان ووادى حضرموت . ويظهر أن وصول هذه المؤثرات الأخيرة، أمر حديث نسبيا ، فهى فى وادى حضرموت تكاد تقتصر على أهل الواحات المستقرة فى قاع الوادى دون « القبائل » ، وهم البدو المتنقلون فى فيافى حضرموت الجافة ، ويمثلون حالة متوسطة بين القوقازيين أو الساميين فى الشمال وفى اليمن من جهة ، وبين سكان شواطئ بحر العرب والبحار الهندية فى الجنوب من جهة أخرى : بل إن الصفات الهندية والتقارب بين بعض الحضارمة ، لاسيما على الشواطئ الجنوبية لبلاد العرب ، وبين بعض سكان الهند الغربية وهضبة الدكن أمر واضح ملموس ، كذلك توجد مميزات زنجية خفيفة جدا تتمثل فى بروز الفم ، وفرطحة طرف الانف الادنى ، بين بعض سكان شواطئ حضرموت، وإن كان من الجائز أن تكون هذه المؤثرات ، راجعة إلى تجارة الرق ونقل الزنوج من شرق إفريقية إلى جنوب بلاد العرب، ثم اختلاطهم هناك بالسكان الاصليين .

فأما عن هضبة اليمن ، فإنها تمثل منطقة اختلطت فيها العناص القوقازية من ذوى الرأس المستطيل ، بعناصر جنوب بلاد العرب من ذوى الرأس الأكثر استدارة ولهذا الاختلاط ، وكذلك لاتصال اليمن بالشمال ، وتبادل الهجرات

بينهما ، تاريخ طويل طريف ، ولكن يكفى أن نذكر الآن على وجه الاجمالى ، وإنه فى القرون الأولى مـن الحضارة السبئيـة (أى فى بضعة القرون السـابقة للعهـد الميلادى) حدثـت عدة هجـرات متلاحقة مـن الشمال إلى الجنوب ، ولا يزال أثـرها ظـاهرًا بين سكان منطقـة حاشد فى شمال بلاد اليمـن ، فى حين أنه فى أواخر الحضـارة الحميرَية (أى فى بضعة القرون السابقة للهجرة) انقلبت الآية واتت أغلب الهجرات من اليمن نحو الشمال ، ولعل هذا هو السر فى أن كثيرًا من القبـائل العربية فى صدر الإسلام ، كانت تـدعى لنفسها أصلاً يمنيًا ، بـل لعل هذا هو السر فى ظهور المثـل الذى أشرنا إليه : « اليمـن مهد العـرب والعراق لحدهـم » إشارة إلى أن العـرب فى العهد الجاهلى وفجر الإسلام ، كانوا يخرجون مـن اليمن ويهاجرون شمالاً ، حتى يستقر بهم المقام فى أراضى السواد بالعراق .

الخلاصة مـن كل هـذا ، أن العرب الـذين انتشروا مـن شبه الجزيـرة ، واختلطوا فيما بعد بسكان بقية العالم العربى و الإسلامى فى خارج الجزيرة ، كانوا يمثلون شعبا متنوع المميزات والملكات ، ولكن ليس معنى هذا التنوع أن العرب خليط من الاجناس ، وإنما معناه الصحيح أنهم سلالة متجانسة ذات تنوع من الناحية السلالية ولكنها موحدة التكوين من ناحية الفكر والثقافة . وقد أفاد التنوع من حيث أنه أعد العرب وجعلهم صالحين من الناحية الجسدية للانتشار والحياة فى بيئات متباينة بعيدة عن الجزيرة والوطن الأصلى ، كما أفادت وحدة الفكر والثقافة فى أنها ربطت بين مختلف أجزاء العالم العربى والإسلامى فى داخل الجزيرة وخارجها ، بما فى ذلك مصر وشمال إفريقية من جهة ، وشرق إفريقية وبعض جزر جنوب شرق آسيا من جهة أخرى .

صفوة القول فى خروج العرب وانتشار الإسلام :

إن خروج العرب وانتشار الإسلام بهم ومعهم من الجزيرة العربية إلى أقطار الأرض والبحار شرقا وغربا وجنوبا ليمثل ظاهرة تاريخية فريدة ، جعلها الإسلام تتسم بسمة من الإنسانية والحضارة والاتصال الروحى المفتوح بين شعوب لم تكد تعرف مثل هذا الاتصال السمح من قبل . وقد يكون من الخير أن نوجز فى ختام

هذا البحث بعض مـا يميز حركة الخروج والتوسع العربى وحـركة انتشار الإسلام التى جاءت فى أعقابها وذلك فى النقاط الآتية :

١ ـ أن ظاهـرة الخروج العربى ثم الإسلامـى من الجزيرة لم تكن ظاهـرة مستقلة بذاتها فى التاريـخ ، ولا ظاهرة مفـردة فى هذا التـاريخ البشرى ، وإنما هى واحـدة من سلسلـة متصلة الحلقـات من حـركات الخروج والانتشـار من النطـاق الرعـوى وشبه الصحراوى والصحراوى (الآن) فى كتلة قارتى آسيا وإفريقية . ولقد كان نطاق مراعى الاستبس فى القارتين نطاقا يتلقى الرطوبة والأمطار من المحيطات والبحار التى تحف القارتين ، وكان مقدار الأمطار الساقطة عليه يتأثر دائما بمدى توغل التيارات الهوائية واعاصيرها من الشرق أو الغرب أو الجنوب ، وهو توغل كان يتأرجح ويتذبذب خلال العصر التاريخى المناخى للأرض ، بل وبصورة أوضح خلال ما يعرف باسم العصر المطير الجيولوجى (البلايستوسين) . وحتى هذا العصر المطير لم يكن متصلا فى دور واحد ، وإنما كان له دوران أو ثلاثة أدوار تفصلها فترة أو فترتان من الجفاف ، فكان النطاق الصحراوى وشبه الصحراوى فى القارتين يتأرجح فى مقدار أمطاره الساقطة وغطائه النباتى وما يعيش عليه من حيوان وإنسان ، إبان ما يعرف بالعصر الحجرى القديم . وكانت المناطق الصحراوية فى كل من القارتين تشبه الاسفنجة التى تمتلئ بالماء ويكسوها الغطاء النباتى والحيوانى والبشرى إبان كل من أدوار المطر . ثم تعتصر كل هذا وتدفع به إلى خارجها عندما يحل الجفاف ، بل كانت محصلة ذلك التتابع بين المطر والجفاف أن كانت الهجرات البشرية الكبيرة أو الصغيرة تخرج من نطاق السهوب وأشباه الصحارى إلى الأراضى المجاورة ومناطق الاستقرار القديم على بعض أطراف القارتين وما يتصل بها من سهول أوربا التى تعتبر امتدادا للقارة الآسيوية .

٢ ـ ولن ندخل فى تفاصيل تلك الذبذبات والهجرات فى عصور ما قبل التاريخ . وإنما الذى يعنينا فى هذا البحث هو العصر التاريخى ثم العصر العربى والإسلامى منه بصفة خاصة . وفى العصر التاريخى القديم (والذى توافق مع جانب من العصر الفرعونى فى مصر) خرجت غزوات متعددة لا سيما من

منطقة السهوب فى داخلية آسيا . فقد خرج « الهونج نو » القدماء إلى شمال الصين وخرج الآريون ومن سار فى أعقابهم إلى شمال الهند وهضبة إيران، وخرج الهكسوس من داخل تركستان إلى أطراف إيران والاناضول ثم إلى مصر فى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد ، ولابد أن هجرات مماثلة (وإن كانت أقل فى عددها وأثرها) قد خرجت من داخل الصحراء الإفريقية إلى الأراضى القابلة للاستقرار فى شمال إفريقية) أو فى مصر أو على طول النطاق السودانى جنوب الصحراء ، حيث قامت حضارات قديمة ولكنها أحدث من حضارة مصر الفرعونية الأولى . وتلك الظروف القديمةفى العصر التاريخى لاتزال تستحق المزيد من الدراسة والتقصى بالنسبة للتاريخ الحضارى فى كل من آسيا وإفريقية وما يلامسهما من مهاد الحضارات القديمة فى البحر المتوسط وما إلى شماله من جهة ، وفى داخلية إفريقية وجنوب آسيا من جهة أخرى .

٣ ـ أما عن العصر العربى ومولد الإسلام الذى داخله فإن الصورة أوضح وأكثر جلاء. وقد بدأ العهد العربى بمفهومه اللغوى والثقافى خلال القرون الأولى من العهد المسيحى . وبعد أن تطورت الكتابة العربية من الكتابة النبطية ، وتطورت اللغة عن أصولها السامية واتخذت نطقها ومنطقها العربى الذى تطور كثيرا وبلغ صورته الأولى المجيدة فيما نسميه بالعصر الجاهلى ، حتى أنزل كتاب الله فى مطلع الإسلام فاضفى على اللغة بهاءها وجلالها قولا وترتيلا وكتابة وصياغة وبلاغا حتى أصبحت العربية هى لغة التلاوة والعقيدة والعبادة، وتوطدت مكانتها لغة للأدب والفن وجمال التعبير البشرى ، بل لغة الحضارة والمدنية والثقافة والسياسة جميعا ، وحتى بالنسبة لمن لم تنتشر العربية بينهم من المسلمين غير العرب فإن جمال التذوق الحسى والسمعى للقرآن جمع بينهم وبين المسلمين العرب وأبناء العربية . ومن هنا كان الدور التاريخى الكبير الذى لعبته العربية لغة دين ولغة حضارة فى آن واحد ، بحيث تصعب التفرقة بين العروبة وبين الإسلام اللذين جعلت منهما لغة العقيدة أمة واحدة.

٤ ـ وفى هذا العهد الإسلامى وما سبقه من العهد الجاهلى ، لم تكن التغيرات المناخية التى صاحبت الجفاف النهائى الذى لا نزال نعيشه . . . . لم تكن هذه

التغيرات إلا بمقدار ضئيل فى حد ذاته ، وما نظن أنه تجاوز السنتميترات الخمسة أو العشرة بالنسبة لكمية الأمطار السنوية فى أقاليم الصحارى العربية ، ولكن هذا القدر من التغير نحو الجفاف كانت له فعاليته الكبيرة والبالغة ، لأن الأمطار الساقطة كانت تمثل هامش « الكفاف » ، فإذا زادت أو قلت أو تذبذبت من سنة لأخرى فإنها تكون ذات أثر بالغ بالنسبة لحياة الرعاة والأعراب ، بل حياة الكلأ والحيوان والإنسان جميعا ، وأغلب الظن أن الجفاف الذى حل اتخذ صورة الذبذبة من سنة لأخرى مع ميل إلى قلة الزوابع الماطرة بالتدريج مع تقدم الزمن ، حتى استقرت حالة الجفاف الحالية خلال نهاية القرن الخامس بعد الميلاد ، وإن كان هذا فى حد ذاته تقديرا واستنتاجا شخصيا أكثر منه استنباطا علميا دقيقا .

٥ ـ وسندنا فى استقراء ما حدث من تغير مناخى وجفاف تدريجى فى تلك الفترة هو سند ذو شقين . فأما الشق الأول فهو القرائن التاريخية التى تستنبط من النصوص القديمة التى وصلتنا عن كتّاب العهد الإغريقى الرومانى ، لا سيما عن جنوب الجزيرة وأرض اليمن وحضرموت ، أو تستقى من بعض الحكايات والروايات التى بقيت لنا فيما تركه كتاب العرب فى العهد الإسلامى الأول ، لاسيما من شمال الجزيرة . كذلك ما تداولته الأجيال عن حركات الاضطراب والهجرة داخل الجزيرة العربية ، ومنها إلى أراضى الاستقرار وموارد المياه الجارية أو الساكنة فى آبار الأرض وواحاتها خلال العهد السابق لظهور الإسلام ، وخلال «أيام » العرب وحروبهم التى وصلتنا أنباؤها لتقص علينا عبرة الاضطرابات القبلّية والنزوح والتشاحن بين البدو فى وقت شح فيه المطر ونضبت الآبار وجف الكلأ الذى كان الأعراب يعتبرونه « ملكية مشاعة» بينهم لكل منهم فيه نصيب يحل لصاحبه أن ياخذه ولو غلابا .

٦ ـ أما الشق الثانى من سندنا فى افتراض تغير المناخ فهو « الأدلة » الأثرية أو «الاركيولوجية » . ويستمد هذا السند من دراسة الآثار القديمة التى خلفتها الحضارات والشعوب القديمة فى مختلف ارجاء الجزيرة العربية . وهذه الآثار يوجد بعضها فى شمال الجزيرة ومثيلتها فى جنوبها . ففى الشمال هناك

«الصهاريج » القديمة التى بنيت لتجميع مياه الأمطار فى العصر الأغريقى الرومانى (أو ما يعادله) وهى الآن جافة لا تكفى الأمطار المتسربه إليها لملئها ، فضلا عن أن بعضها قد ردمته الرمال والأتربة المتراكمة . كما أن شمال الجزيرة توجد به آبار حفرت فى عصر الرومان وبطنت جوانبها بالحجر . ولكن الملاحظ الآن أن مستوى المياه الجوفية فى هذه الآبار قد انخفض عنه فى العصر الكلاسيكى (اليونانى الرومانى) . ومعنى ذلك هو بالطبع انخفاض كمية الأمطار الساقطة والتى هى المصدر الأساسى للمياه الجوفية . وفوق ذلك فإن شمال الجزيرة العربية عامر بآثار المبانى القديمة الضخمة وبعض بقايا المدن التى اندثرت لأسباب طبيعية أو أسباب بشرية أخرى . أما جنوب الجزيرة (ومنطقة اليمن وحضرموت العليا بالذات) ففيها آثار كثيرة لصهاريج قديمة لا تكفى مياه المطر الحالى لملئها . وفضلا عن ذلك فإن الحضارات القديمة فى بلاد اليمن وأطراف حضرموت ، وهى حضارة معين وحضارة سبأ وحضارة حميرّ قد قامت أولاها فى جهات داخلية ومتوسطة الأرتفاع (فى منطقة الجوف التى لايكاد أرتفاعها أن يزيد على نحو الف متر فوق البحر) ثم حدث بالتدريج أن اضطرت القبائل فى عهد سبأ وحمير إلى الأرتفاع على المرتفعات إلى مستوى نحو ١٢٠٠ متر فوق البحر أو أكثر ثم إلى مستوى ١٨٠٠ متر (وما فوقها) ، وظاهر أن هذا الارتفاع والتسلق التدريجى نحو القمم إنما جاء نتيجة لجفاف داخلية الهضبة وجفاف سفوحها الداخلية السفلى وتركز الأمطار على مناطق القمم العالية .

ومثل هذه الأدله الأثرية لا بد وأن تكون موجودة فى جهات أخرى من الجزيرة العربية ، لا سيما فى منطقة عمان ونحوها من المناطق العالية والتى تتلقى الرياح شبه الموسمية وأمطارها التى يبدو أنها ضعفت بالتدريج فى خلال القرون القليلة التى سبقت ظهور الإسلام .

٧ ـ وإذا صح ما نستنتجه من أن الفترة ما بين القرن الثالث والقرن الخامس أو السادس بعد الميلاد كانت فترة جفاف تدريجى حل ببلاد العرب ، فقد كان من الواجب أن ننتظر خروجا للبدو من الجزيرة فى تلك الفترة . ولكن أسبابا

أخرى أدت إلى « تأجيل » هذا الخروج ، وربما كان من العوامل الأساسية فى هذا التأجيل أن الجزيرة العربية كانت فى أصلها فقيرة بالسكان بسبب أن سهوبها ومراعيها أفقر من منطقة السهوب فى أواسط آسيا وافقر من مناطق السافنا فى سهول السودان أو شرق إفريقية ، وبذلك فإن العدد الإجمالى للبدو العرب كان محدودا نسبيا . ومن هنا فإنه لم يكن كافيا لخروج كبير شامل كذلك الذى خرج من داخلية أسيا إلى شرقها وغربها ، وإنما كان عدده كافيا بالكاد لاحداث الهجرات الداخلية فى الجزيرة ولحركات الغزو المحلى الذى ساعد عليه ظهور الحصان العربى ، الذى زاد من سرعة الحركة ، وكان وسيلة الغزو الأساسية فى حركات الاضطراب .

٨ ـ وهناك عامل آخر سياسى قد ساعد أيضا على تأجيل حركة الخروج . وذلك أن الأصل فى حركات خروج الرعاة أنهم يسعون للتوسع والسيطرة على بلاد الحضارة المستقرة المجاورة ، كما حدث فى حالات خروج الرعاة من داخلية آسيا إلى مناطق الاستقرار فى الصين والهند وأطراف الأمبراطورية الرومانية وقت ضعفها ، بل وفى أوقات ضعف بعض الدول الإسلامية المستقرة فى أرض العراق وأطراف الشام ، حين أغرى ذلك جحافل المغول والتتر ثم الأثراك على غزو أطراف العالم الإسلامى فى غرب القارة . وأما فى حالة العرب قبل الإسلام فقد كانت هناك دولتان عظيمتان هما دولة الفرس ودولة الروم ، وقد أقامت كل منهما « دويلة » عربية من اللخميين والغساسنة على حدودهما وجعلت منها سياجا يحول دون توسع البدو وغزوهم للأراضى المستقرة . وقد نجحت الأمبراطوريتان فى حفظ الأمن واحتواء الأعراب فى جزيرتهم . وهذا عامل سياسى كان له أثره التاريخى الكبير فى تأجيل الخروج العربى لقرنين أو ثلاثة قرون .

٩ ـ ولكن السمة التاريخية والحضارية الكبرى للخروج العربى فى عهد الإسلام هى أن العرب لم يخرجوا هذ المرة من بلادهم صفر اليدين من الناحية الحضارية والفكرية والروحية ، بل إنهم حملوا معهم ـ ولأول مرة فى تاريخ الجزيرة العربية ـ رسالة العقيدة الجديدة التى لم تكن مجرد ديانة بالمعنى الضيق للكلمة ،

وإنما كانت تمثل غطاء جديدا من الحضارة يجمع بين العقيدة واللغة والنظام الاجتماعى الجديد ، بل يسجل نبراسا من الحكم ينطوى على مبادئ الإخاء والمساواة والعدل ، كما يربط بين العبادات والمعاملات جميعا فى نسيج متكامل . ومن هنا فقد هدف خروج العرب هذه المرة إلى العطاء قبل الأخذ ، وكان العطاء الروحى والاجتماعى الذى لم تألفه الغزوات التى كانت تخرج من مناطق السهوب وأشباه الصحارى فى فترات القحط والجفاف والمجاعة ، وبذلك فإنها كانت حركة تستهدف البناء الحضارى ، ولا تنزع إلى التخريب المادى أو الفكرى .

وهناك ملاحظة هامه ينبغى تسجيلها فى مجال انتشار الإسلام . ذلك أن توسع السلطان العربى قد استند إلى قوة الغزو العسكرى . ولكن انتشار الإسلام كدين وعقيدة لم يؤمّن نفسه بالقوة بين الشعوب المفتوحة . فقد ساد المبدأ الأساسى « لا اكراه فى الدين » منذ اللحظة الأولى للغزو الذى كان غزوا عربيا أسلاميًا بالمعنى الدينى الخالص . ومن المفيد فى هذه المناسبة أن نذكر على سبيل المثال أن أنتشار الإسلام وعقيدته فى داخلية آسيا إلى مناطق السهوب الشرقية فى أرض المغول لم يحدث مع أنتشار سلطان العرب إلى تركستان وأطراف المناطق الرعوية المغولية بل لم يأتِ فى وقت قوة التوسع العسكرى والسياسى فى القرن الثامن وما بعده ، وإنما جاء بعد ذلك بقرنين آخرين أي فى عهد ضعف السلطان العربى وغزو المغول للشرق الأوسط وأحراق أحدى عواصم الفكر السياسية (وهى بغداد) فقد وصل المغول إلى الشرق الأوسط وهم على غير الإسلام ، ثم لم يلبث الإسلام أن فتح قلوبهم وأنتشر فى عقر دارهم فى وقت كانت القوة السياسية والعسكرية للإسلام أضعف من أن تفتح بلادهم وتنشر فيها العقيدة الجديدة . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن انتشار الإسلام فى أرض المغول والتتر لم يتزامن مع عصر قوة العرب السياسية والعسكرية .

١٠ ـ لقد كان من الطبيعى أن تأتى حركة الإنتشار الكبرى من بلاد العرب الوسطى والشمالية ، وأن يكون الخروج الأساسى بالبر لأن معظم العرب رعاة وبدو

بـريون . وقـد كان محور هـذا الخروج البرى إلى الشمال (إيران ومـا وراءها) مـن جهـة والشمال الغربـى (مصر وما وراءهـا) من جهـة أخرى . أمـا اتجاه الشمال المباشر للجـزيرة أى نحـو جبال الأناضـول وأرمينيا ، فـإن اتجاه الجبال هنـا كان من الشرق إلى الغـرب متعامدا على مسـار الخروج العربـى ، كما كانت تقـل فيه المنـافـذ والأوديـة التـى تخترقـه فى اتجاه منطقــة أرمينيـا . ولـذلـك فـإن العـرب لم يتقدمـوا فى هذا الاتجاه و إنما انحـرفت حركـة التوسع نحـو إيران ومـا وراءها . أما إنتشـار الإسلام فى الأناضـول ذاته فإنـه قد جاء على أيـدى الأتراك العثمانين الـذين جـاءوا مـن ناحيـة الشرق وسـاروا فى اتجاه سلاسـل الجبـال حتى دخلـوا أودية الأنـاضول وهضـابه ، ثم وصلـوا آخر الأمر إلى مـداخل البلقـان وجنوب شرق شبه القارة البلقانية . وهذا مثل طيـب لأثر الظروف الطبيعية والتضاريس فى اتجاهـات التوسـع والأنتشـار البشرى، ولقـد سبق لنـا أن عـالجنـا تفاصيـل التوسع البرى والانتشـار عن طريق الهضبة الإيـرانية إلى تركسان فى القـرن الثامن والقرنين التـاسع والعاشر ، ثـم العودة من هنـاك إلى شمال غرب الهند والـدخول بالإسـلام إلى هناك ، بعد أن كانـت طلائع الانتشار من تـركستان في اتجاه الشرق قد تـوقفت عنـد أبواب أمبراطـورية الصين ، حتـى جاء الـوقت ففتـح الإسلام قلـوب المغول وجحـافلهـم فى أيـام قوتهم وغـزوهـم للمشرق العـربى فى القـرن الثـالـث عشر فخسروا المعـركـة التى وقفـت مصر فى وجههـا ، ولكنهـم كسبـوا الـدخول إلى سـاحة الإسـلام . كذلـك سبق أن عـالجنا حـركة الخروج بـالبر إلى شمال سيناء ثم مصر ومنها إلى شمال إفريقية التـى خرجوا منها إلى الأندلس ، كما دارت قبائلهـم مع المغـرب إلى سواحـل إفريقيـة الغربيـة ثم إلى سهـول السودان العربـى وسهول السودان الشرقـى حتى التقى التيار الآتـى من الغرب مـع التيار الذى جاء إلى السودان الشرقـى عن طريق مصر ووادى النيل . وهذه حـركة من أهـم حركـات التـوسـع والانتشار البرى وأبـرزهـا واطـولها فى جميع شمال القـارة الإفريقية .

١١ ـ ولكـن القصة التى تعتبر العـرب أمة « بريـة » كان خـروجها الأساسـى بالبر ، لايجوز أن تغطى على الحقيقة الثـانية والهامة ، وهى أن العرب مـن حيث مكانهم

فى نشر الإسلام كان لهم دورهم « البحرى » بقدر لا يقل كثيرا عن دورهم البرى . والواقع أن تسمية « الجزيرة العربية » فى حد ذاتها تدل على أرتباط اليابس بالماء فى الطبيعة ، وحتى إذا اعتبرنا أن بلاد العرب هى فى حقيقتها «شبه جزيرة » وليست « جزيرة » بالمعنى الكامل ، فإن تداخل الماء باليابس وإحاطته به إحاطة شبه كاملة كان له أثره الكبير والدائم فى حياة العرب وارتباط العديد من شواطئ شبه الجزيرة بالنشاط البحرى فى مختلف أعصر التاريخ . ولقد كان لبلاد العرب أربعة بحار تطل عليها الشواطئ الطويلة . وتقوم عليها المرافئ الطبيعية والموانى العريقة . وأول هذه الشواطئ شاطئ فينيقية القديم الذى عرف أحيانا (فى العصور القديمة والوسيطة) باسم الشاطئ « الليبنطى » وهذا هو الشاطئ الذى قامت عليه موانى فينيقية القديمة ثم المرافئ التى خلفتها فى العصور اللاحقة . وقد نشطت الملاحة بينها وبين شواطئ مصر القديمة ، حيث كانت تنقل الأخشاب القديمة إلى مصر وتنقل الأفكار والمعالم الحضارية من مصر إلى هذا الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط ، كما أن المعالم الحضارية المصرية القديمة (وأهمها « الكتابه » القديمة) أنتشرت من فينيقية إلى قرطاجة على شواطئ تونس فى مغرب البحر المتوسط . وفى العهد الوسيط نشطت التجارة بين هذا الشاطئ وشواطئ أيطاليا وغرب البحر المتوسط ، ثم أخيرا فى العهد الحديث أصبح شاطئ ليبنطة ولبنان مصدرًا « للهجرات » العربية الحديثة إلى أراضى «المهجر » فى الأمريكيتن ، وكذلك على شواطئ إفريقية الغربية الاستوائية وشبه الاستوائية .

والشاطئ الثانى للجزيرة العربية هو شاطئ البحر الأحمر ولكن هذا الشاطئ العربى لم تكن له حافة برية (جبلية مخضرة) كتلك التى كانت لشاطئ ليبنطة ، ولم يكن به غير القليل من الموانى الطبيعية الصالحة كقواعد للملاحة ، فضلا عن أن شطوط المرجان وجزره كانت تكتنف أغلبه . ولذلك كله فإنه لم تكن هناك هجرات ولا اتصالات ملاحية واسعة النطاق ، وإن كان الأمر لم يخل من بعض الهجرات القليلة العدد والتى خرجت من أرض الحجاز وما إلى جنوبه وعبرت البحر الأحمر إلى شواطئ إفريقية المقابلة ، ولكن على دفعات

متباعدة وقليلـة الأثر . ولعل من أبرزهـا ما بقى لنا مـن آثار الهجرة الأولى (على دفعتين) للمسلمين الأوائل الذين اضطهدتهم قريش فهـاجروا بدينهم وحريتهم إلى شواطئ أريترية المقابلة .

والشـاطئ الثالث والهام للجـزيـرة هو شـاطـئ الخليج ، ويـلاحظ فيـه أن الجانب الغربى (العربى) كان أقدم فى نشاطه (الذى يرجع إلى ما قبل التاريخ) من الجانـب الشرقى (الفارسـى) . كما أن الاستقرار فيـه أنشأ حضارات يـرجع بعضها إلى ما قبـل أن يبدأ التاريخ ، بل إنه ليقـال (فى رأى بعض الباحثين) إن هذا الشاطـئ الغربى للخليج كان الموطن الأول لبعـض الفينيقيين قبل أن ينتقل هؤلاء الأخيرون إلى شـواطئ ليبنطـة القديمة على البحـر المتوسـط . كذلـك فإن الخروج والانتشار البحرى مـن ذلك الجانب من شـاطئ الخليج العربـى كان فى أكثر مـن اتجاه . فهناك نشـاط بحرى قديـم امتد إلى ساحـل شط العـرب حيث قامت شـاراكس سبازينو (المحمرة) القـديمة على الشاطئ ، والتـي التقى فيها نشاط العـرب بنشاط الاغـارقة القدمـاء ، وقامـت فى مخارج شط العـرب بعض القـواعد التجـاريـة والملاحية القـديمـة ، لا سيما في جزيـرة فيلكـة فى مواجهـة الكويت الحديثة . أما إلى الجنوب من ذلك فقد قام ميناء « جره » القديم وما تلاه مـن الموانى على الشـاطـئ أو فى جزر البحـريـن وخلافهـا ، وهـى كلها مـرافئ قام فيها النشـاط الملاحى ونشاط صيد اللؤلـؤ وغير ذلك مما قامـت عليه التجارة والتبادل . ومن المفيد أن نـلاحظ فوق ذلك أن موانى الجانب الغـربى (العربى) قـد وسعـت نشاطهـا وتـوسعـت فى بعـض المرافئ والموانى على الجانـب الشرقـى (الفارسـى) للخليج ، فقـد انتشرت بعض القبـائل إلى أرض « عربستـان » عند رأس الخليـج جنـوب شرق المحمـرة، واستقـرت بعـض العنـاصر مـن الملاحين والتجـار العـرب فى ميناء سيراف القـديـم على الجانـب الفارسـى ، واستمـرت الحال على هذا النحـو خلال العصور الوسيطـة ، حتى نشطت بعـض العناصر الفـارسية بعـد ذلك وتـوسعت إلى جـزر البحريـن وغيرها على بعـض الشواطـئ العربيـة . . . . . ولكن الشئ الـذى ميز منطقة الخليـج برمتهـا هو التوسـع من الشواطئ الغربية فى منطقة عمان (بصفـة خاصة) إلى ما وراء البحر فى اتجاه الهند

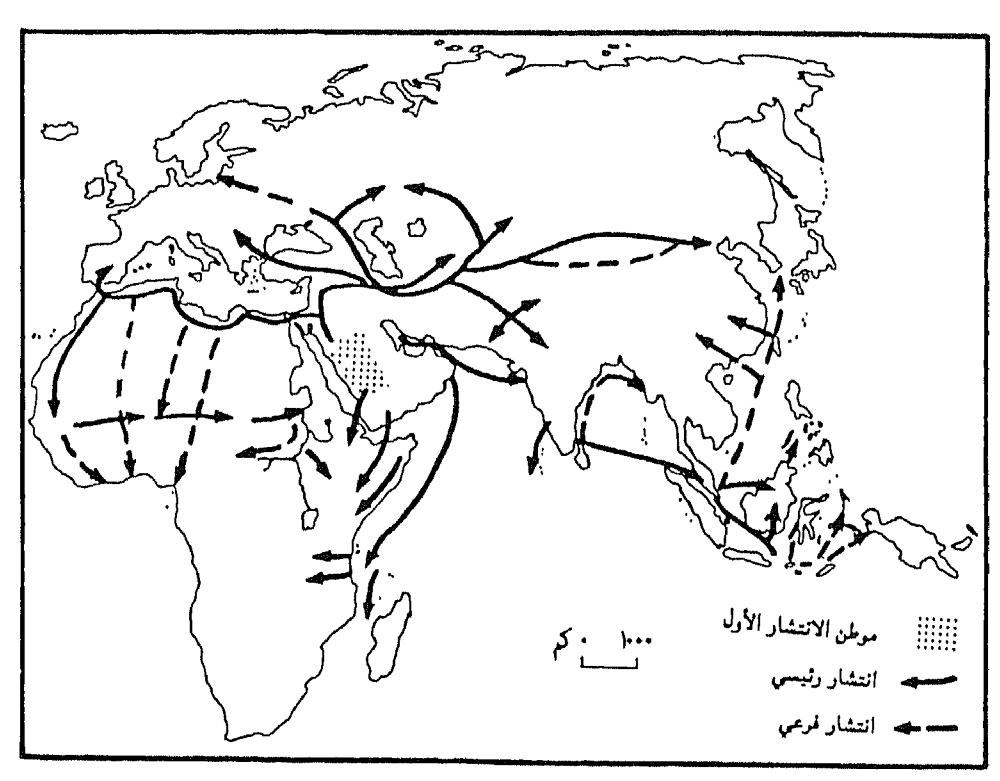
والمشرق البعيد من جهة وشواطئ شرق إفريقية وأرض « الزنج » وزنجبار وسفالا من جهة أخرى . وقد سبق هذا التوسع وصول البرتغال إلى شرق إفريقية وأرض الهند ، ثم استمر بعد ذلك فى عهد التوسع الأوربى الحديث على أيدى الهولنديين والبريطانيين وغيرهم. وزاد ذلك من الروابط الوثيقة بين أرض عمان وشواطئ إفريقية الشرقية على نحو لا تزال آثاره باقية معنا حتى الآن .

أما الشاطئ الرابع للجزيرة العربية فهو شاطئ اليمن وحضرموت ، وهى شواطئ كانت تكوّن جانبا من شواطئ بلاد «بُنت » القديمة ، أو هى على الأقل كانت وثيقة الاتصال بها ، وقد كان لها دورها القديم حين كانت على اتصال بأرض مصر منذ الأسرة الحادية عشرة وربما قبل ذلك ، ثم إزداد اتصالها بمصر فى عهد الدولة الفرعونية الحديثة ثم فى عصر الإغريق والرومان والبطالمة . ثم ازداد التوسع العربى بعد ذلك واستمر مع أرض الصومال وهضبة شرق إفريقية حتى الآن . ولكن الحركة الحديثة والهامة ، إنما هى خروج الحضارمة من واديهم وهجرتهم فى أعقاب الاستكشافات البرتغالية والإسبانية والهولندية الحديثة إلى شواطئ الهند ثم الهند الصنية وجزرها من أرض الملايو واندونيسيا ، حيث استقر العرب تجارا ووسطاء بين أهل المشرق الآسيوي البعيد وبين تجار أوربا . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نتذكره هو أن التجار العرب استطاعوا (رغم أعدادهم المحدودة نسبيا) أن ينشروا الإسلام والفكر الإسلامى بين السكان الأصليين وأن يقفوا سدا فى مواجهة العقيدة المسيحية التى دخلت مع المستعمرين بحيث إن الإسلام غلب على جزر المالديف وشواطئ الملايو وماليزيا وأرخبيل أندونيسيا والأجزاء الجنوبية من الفلبين وما جاورها . ولم يتوقف المد الإسلامى إلا بسبب الإسبان ودخول ديانتهم الكاثوليكية فى شمال جزر الفلبين .

١٢ ـ والملاحظة الأخيرة التى علينا أن نثبتها بالنسبة للخروج العربى القديم والتوسع بالبر والبحر . . . . . هى أن هذا الخروج قد استند إلى أصول قديمة وسابقة على ظهور الإسلام ، ولكنه لم يتخذ صورة « حضارية » تقوم على إبلاغ

الرسالة ، ونشر « العقيدة » والنظام «الاجتماعى » الجديد ، وتساعد على الترابط الإسلامى ومبادى الأخاء ووحدة « أمة » المسلمين . . . لم يتخذ الخروج العربى هذه الصورة الجديدة التى خلدته على الزمن إلا بعد ظهور الإسلام ونزول رسالته التى اتخذت صفة التبشير ، وفرضت على المسلم أن يبلغها إلى غيره من جيرانه والوقوف وراءهم . ومن هنا فإن الخروج العربى الإسلامى جاء مختلفا عن خروج الرعاة الوثنيين من داخلية القارة الآسوية قبل ظهور الأديان السماوية ، وحتى بعد ظهورها ، فكان خروج الرعاة الوثنيين خروجا مخربًا قام على الفتح الغاشم . أما الخروج العربى فى عهد الإسلام فقد جاء ومعه رسالة سماوية تدعو إلى الحق ومبادئ الأخاء والعدل ، بل تدعو إلى إقامة أمة من المسلمين المتساوين فى الجاه وفى الحقوق الإنسانية بعامة . ولذلك فإن هذا الخروج الإسلامى لم يكن مخربا ، وإنما هو قد ساوى بين الغالب والمغلوب ، وبين العربى والأعجمى والرومى ، وسمح للمسيحى وأهل الذمة جميعا فى الاحتفاظ بعقيدتهم وممارستها فى حرية . ولقد كانت هناك أسباب طبيعية (من تغير المناخ وشيوع الجفاف) تدعو إلى خروج العرب قبل ظهور الإسلام بقرنين أو ثلاثة ، ولكن قيام الدولتين الرومية والفارسية كما رأينا قد كبح جماح الرعاة وأجل خروجهم من أراضيهم . كذلك فإن قيام الوساطة التجارية بين جنوب بلاد العرب وبحاره وبين شمال الجزيرة وأسواق الشمال (لا سيما الرومية منها) ، فقد أوجد فرصة للعمل في التنقل والتجارة الرابحة أمام القبائل العربية (لا سيما قريش) وساعد بالتالى على تأجيل الخروج ولكن المهم أن ظاهرة الهجرة إلى الخارج بالبر والبحر لم تتوقف عند حد العهد السابق للإسلام والذى تلا ظهوره مباشرة ، وإنما استمرت بعد ذلك ولو على فترات فى حين أصبحت ظاهرة مستمرة ومستقلة جعلت صلة بلاد العرب بما حولها وما وراء بحارها صلة دائمة . حتى إذا ما جاء عهد الاستعمار الحديث وخرجت أوربا إلى ما وراء البحار فى الإمريكتين وشواطى إفريقية الغربية والشرقية ثم بلاد الهند وجنوب شرق آسيا ، كان العرب مؤهلين لأن يسيروا فى هذا التيار ، ولأن يخرجوا بنشاطهم البحرى والتجارى والثقافى (بل

والحضارى العام) إلى بلاد المهجر الغربى أو بلاد المهجر الإفريقى أو المهجر الشرقى الأقصى ، وأفرد لهم ذلك مكانة خاصة بين شعوب العالم الحديث خلال القرون القليلة التى تلت عهد الاستكشافات الأوربية والتوسع الاستعمارى الأوربى الحديث ، فلم يكن العرب شعبا مستعمرًا ، ولم تكن حركة التوسع العربى المعاصر حركة تساندها الحكومات أو الهيئات التبشيرية (المسيحية) الحديثة (كما حدث بالنسبة للتوسع الاستعمارى فى العالم القديم والعالم الجديد على حد سواء) وإنما كانت حركة التوسع العربى الحديث كلها حركة شعبية قام بها الملاحون والتجار العرب المتحمسون لنشر دينهم وعقيدتهم تطوعا وحبا وكرامة ، على نحو لم تكن تعرفه العناصر الأوربية والحكومية والكنسية التى اختلط عملها الاستعمارى بعملها التبشيرى . أما العرب المسلمون والمسيحيون (على سواء) وهم الذين خرجوا فى العهد الحديث من جزيرتهم فإنهم أعادوا السيرة الأولى التي عرفها التوسع العربى فى مطلع الإسلام ، فأعاد التاريخ نفسه بالنسبة لقصة الخروج والتوسع العربى ، توسع تجارة وتوسع حضارة وتوسع دين وعقيدة على نحو مازج بين حضارة العرب وحضارات الشعوب الأخرى ، وزاوج بينها على نحو يبنى الحضارة الإنسانية على أساس من التكامل والتآخى والسلام ، وهو درس ما أجدر الإنسانية أن تذكره ، وأن تعى مغزاه التاريخى العظيم .



طرق انتشار الإسلام فى العالم القديم



« ٦ »

العروبة ومصر
(تأصيل العلاقات بينهما فى المكان والزمان)



العروبة ومصر
(تأصيل العلاقات بينهما فى المكان والزمان)

موضوع العلاقة بين مصر وسائر أرض العروبة فى آسيا وإفريقية موضوع يستأهل النظر والتأصيل ، لاسيما وأن النظرة الظاهرية ترد هذه العلاقة إلى العهد العربى ولا تكاد تتجاوزه فى القدم إلى ما قبل ذلك ، إلا بقدر محدود . مع أن حقيقة الأمر أن تلك العلاقات هى أقدم من ذلك بكثير . والنظرة المدققة ترد الاتصال الأول بين مصر وسائر مواطن العروبة إلى عهود موغلة فى القدم . حتى إنه كانت هناك مدرسة لبعض الباحثين فى أصول مصر الفرعونية تحاول أن تنسب أصل الفراعنة إلى هجرة من شمال الجزيرة العربية إلى أرض النيل الأدنى ، وهو رأى فيه شىء من المغالاة ، لأن تلك الصلات الأولى بين أرض الساميين وأرض النيل كانت صلات تجارية وحضارية ، ولم تأت فى شكل هجرة بشرية كبيرة . أما إذا كانت هناك هجرة فأغلب الظن أنها جاءت من جنوب الجزيرة العربية ، ومن موطن اللغة «الحامية » العتيق هناك إلى شرق إفريقية ثم إلى شمالها الشرقى فى عهد تكوين اللغة المصرية القديمة ، التى استندت فى بعض أصولها إلى اللغة الحامية ، قبل أن تدخل إليها بعض المؤثرات « السامية » التى جاءت مع التجارة والاحتكاك التجارى بين الأرض السورية والأردنية والفلسطينية من جزيرة العرب وبين شرق الدلتا المصرية .

أوضاع العلاقات المكانية بين مصر والجانب المشرقى من أرض العروبة فى عهدها العتيق :

لكننا قبل أن نتطرق إلى العلاقات التاريخية (وقبل التاريخية) بين مصر وسائر أرض المشرق العربى يجمل بنا أن نؤصل هذه العلاقات فى المكان ، بحيث نربط بين الأحداث التاريخية وبين الظروف الجغرافية الطبيعية التى كيفت تلك العلاقات وحددت طرقها ومسالكها بالبر أو بالبحر . فمصر تربطها بالجزيرة العربية طرق شتى ، قد يكون أهمها وأكثرها مباشرة برزخ شبه جزيرة سيناء . وهوالمعبر البرى المتصل ، والذى دخلت عنه المؤثرات السامية ثم العربية . وقد يكون ثانيها فى الأهمية (غير المباشرة) معبر باب المندب ، الذى يربط بين جنوب الجزيرة وباقى أرض بونت القديمة وامتدادها فى شرق إفريقية إلى أرض وادى النيل الأدنى ، الذى دخلت إليه مؤثرات اللغة الحامية فى عصر ما قبل التاريخ، وقبل أن تتقدم الحضارةالفرعونية ، التى تغلب على لغتها الأصول الحامية قبل أن تضاف إليها المؤثرات السامية القادمة من الشمال الشرقى . ولكن معبر سيناء كان ولا يزال هو المدخل الشرقى الأهم بالنسبة لمصر وبالمعنى الفعلى الصحيح ، وقد حددت الطبيعة المسالك الأرضية التى رسمت طريق الاتصال والهجرة فيه . وأولها وأهمها طريق الساحل الشمالى بمحاذاة البحر المتوسط . وعلينا أن نذكر أن نهر النيل كان فى فجر التاريخ وأوائله القديمة يجرى منه فرع أصيل وهام هو الفرع البيلوزى (أو البلوظى) الذى كانت له دلتا تقع الآن فى سهل « بالوظة » جنوب بحيرة البردويل ، وتغطيها فى الوقت الحاضر رمال سطحية من الكثبان الساحلية ، وهذه الرمال تتشرب الأمطار الشتوية الساقطة حتى تصل مياهها إلى الطبقة الطينية غير المسامية ، فتكوّن طبقة من المياه الجوفية التى يستغلها الإنسان فى هيئة آبار من نوع « الجب » الذى أنزل إليه الصبى يوسف (عليه السلام) ، وبقى فيه حتى اكتشفت وجوده سيارة من التجار العابرين للساحل الشمالى إلى أرض الكنانة . وتلك الرمال تستمر شرقًا فى شمال شبه جزيرة سيناء وتتخللها كذلك الآبار التى كانت تمد التجار وجموع المهاجرين والقوافل بالماء على طول طريق الهجرة أو التجارة أو الغزو فى

الاتجاهين . ولا شك أن هذا الطـريق الطبيعى كان هـو همزة الوصل الميسر بين مصر وسائر أرض العروبة فى المشرق ، وسبيل الاتصال فى الاتجاهين عبر التاريخ .

وإلى الجنوب من ذلك الطريق الشمالى المفتوح كانت هناك صحراء التيه . . . تلك الأرض القاحلة التى يتكون معظم سطحها من صخور الحجر الجيرى الذى يبتلع كل ما يسقط عليه من ماء المطر ، ولا يسمح بجريان المياه السطحية إلا فى أودية تبقى جافة معظم العام ، مما جعل المنطقة صعبة العبور ، وساعد على تكوين هذه الصحراء التى يبدو أن شعب إسرائيل تاه فيها أربعين عاما دون أن يصل إلى منتهى رحلته . ولا تزال منطقة التيه هذه صعبة العبور حتى الآن ، وتقوم حائلاً دون الاتصال الميسر مع مشرق أرض العرب .

ثم إلى الجنوب من هضبة التيه تقوم الكتلة الصخرية العالية ، التى تكوّن جبل سيناء بالمعنى التقليدى . وهى مكونة من صخور نارية وتجتذب قممها العالية بعض الرطوبة والأمطار ، وتنبت فى أوديتها بعض الأعشاب التى تيسر المرعى أو قد تقوم فيها بعض الزراعة على العيون أو الآبار . ولقد كان جنوب سيناء الجبلى مَعبراً آخر بين أرض مصر وأرض مَدْيَن إلى الشرق من جبل سيناء . . . وهى الأرض التى كانت قاعدة لحياة رعوية . أو شبه مستقرة فى بعض مواقعها . . . بل كانت قاعدة لحضارة هى أصل الحضارة النبطية التى انبثقت منها بعض جذور الحضارة العربية الأولى ، ولعلها كانت كذلك منبت الكتابة التى تطورت فيما بعد إلى الكتابة العربية ، لأن موقعها بين مصر والجزيرة العربية ، وكذلك بين جنوب بلاد العرب (اليمن) من جهة وبلاد الشام من جهة أخرى . . . ذلك الموقع جعل منها عقدة حضارية فى مثلث قديم من مثلثات الحياة والحضارة العربية الأولى ، فكان لها دورها الخاص فى قيام الصلات الحضارية الأولى بين مصر والشام واليمن وسائر أرض العروبة فى المشرق .

كل هذا عن الجسر البرى الكبير الذى أجرى مسيرة الاتصال وحدد معالمها بين مصر وباقى أرض العروبة خلال التاريخ . . . بل وقبل أن يبدأ التاريخ . ولكن هذا الجسر الأرضى كان له جناحان بحريان ، إحداهما إلى الشمال فى البحر المتوسط والآخر إلى الجنوب فى البحر الأحمر . وكان الجناح البحرى الشمالى يصل بين دلتا

مصر وسواحل فينيقية وليبنطة (الشام الجنوبى والأوسط) . والشىء الطريف أن الطبيعة ذاتها قد رسمت لونًا غريبًا من الصلة المادية بين نهر النيل وذلك الساحل العتيد . . . ذلك أن رواسب الحبشة التى يجلبها الفيضان فى كل عام إلى ساحل الدلتا الشمالى يتكون بعضها من الرمال الثقيلة التى ترسب عند مصبات النيل ، ويتكون بعضها الآخر من رقائق الميكا البركانية الأصل والتى تطفو على سطح الماء، لاسيما وأنّ مياه البحر مالحة ثقيلة ، فتدفعها التيارات المائية فى اتجاه الساحل نحو الشرق والشمال الشرقى ، حتى ترسب على سواحل فينيقية وليبنطه ، وتمثل بذلك رباطًا ماديًا مع « تربة » نهر النيل . وسنرى فيما بعد كيف أن هذا الرباط كانت له جوانب «حضارية» تمثلت أول ما تمثلت فى صلة الثقافة مع أرض فينيقية القديمة ، وما انتقل إليها من حضارة الفراعنة . بل إن واقع الأمر أن اتصال مصر الفرعونية مع ساحل فينيقية وما وراءه من جبال لبنان إنما يرجع إلى عهود قديمة ، حين كانت الأخشاب تنقل إلى أرض مصر لصناعة السفن التى كانت من أشهرها مراكب الشمس التى كُشف عنها فى جدار هرم خوفو الكبير .

أما الجناح البحرى الجنوبى للاتصال بين مصر وسائر أرض العروبة فهو ذلك الذى يمتد فى البحر الأحمر . . . تلك الذراع التى تمتد من القلزم إلى باب المندب . . والتى كانت تطل عليها مرافئ قديمة ، أولاها عند رأس خليج السويس (ارسينوى القديمة ثم القلزم التى تلتها) ، وتمتد إلى بعض النقاط على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، والتى تنتهى إليها الطرق العابرة للصحراء الشرقية إلى مرافئ القصير القديمة ثم عيذاب إلى الشمال من سواكن . . . . وكانت الطرق القديمة تمتد من وادى النيل إلى شاطئ البحر الأحمر على طول الأودية الصحراوية ، وتنتهى كلها إلى مرافئ بحرية كانت شواطئها تكتنفها بعض المخاطر بسبب وجود الحواجز المرجانية . . . ولكن مخاطر الملاحة فى البحر الأحمر (ورياحه غير المنتظمة) لم تحل دون ركوب المغامرين من ملاحى مصر القدماء . . . ركوبهم البحر والارتحال وسط المخاطر ، ورغم تحطم المراكب والأشرعة فى مغامرات سجل التاريخ وأحداثها وقصصها خلال العصور . . . وكانت رحلات تلك المغامرات تنتهى إلى الشواطئ الجنوبية للجزيرة العربية ، أو إلى شواطئ إفريقية المقابلة ، أو تمتد إلى عرض المحيط الهندى وبعض شواطئه، دورانًا حول الجزيرة العربية .

بدايات العلاقات بين مصر والجزيرة العربية قبل التاريخ :

كل ذلك عن الأوضاع الجغرافية المكانية التى حددت طرق الاتصال بالبر والبحر. ولعل هذا العرض أن يكفى ليوضح كيف أن الطبيعة ذاتها قد مهدت لأن يبدأ الاتصال وأن تتيسر أسبابه منذ البدايات الأولى للنشاط البشرى قبل أن يبدأ التاريخ المكتوب . وهذا فى حد ذاته يبرز كيف أن ما درج عليه الكاتبون من قصر الحديث عن صلات العروبة على العصر « العربى » بمعناه الثقافى والذى درج التقليد على أن تبدأه بعد ظهور الكتابات «المعلقات » والآثار الأدبية العربية قبل الإسلام ببضعة قرون قليلة . ولكن الحقيقة أننا نظلم «العروبة » حين نقصر بداياتها على ذلك العهد (العصر الجاهلى الأخير) . ولابد لنا من أن نفترض وجود عهد من «الجاهلية الأولى » كانت العلاقات الثقافية والسكانية قائمة فيه عن طريق المسالك البرية والبحرية التى أشرنا إليها ، وإن كانت لم تتخذ طابعها « العربى الكامل » إلا مع ظهور الثقافة العربية كما أسلفنا . . . ومعنى ذلك فى رأينا إنه كانت هناك «جاهليتان » أولاهما هى « الجاهلية الأولى » أو « جاهلية ما قبل التاريخ » هناك وثانيتهما هى « الجاهلية الثانية » أو « جاهلية ما قبل الإسلام » . وعلى الرغم من أن العروبة بمعناها التاريخى والتقليدى إنما تبدأ مع عصر الجاهلية الثانية ، فإنها بمفهومها « الحضارى » إنما تبدأ قبل ذلك بكثير . . . بل إننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن العروبة لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحًا بدون «جذورها » الحضارية فى عصر ما قبل التاريخ هناك ، وبدون أصولها «السامية » فى الشمال « والحامية » فى الجنوب . . . وهى الجذور التى أثرت فى نشأة الحضارة المصرية ونشاطها حتى قبل أن يبدأ العهد الفرعونى . . . كما أنها هى أيضًا قد تأثرت بغير قليل من المؤثرات الحضارية المصرية القديمة التى بدأت فى وادى النيل ، وانتقلت منه بالبر والبحر إلى قلب الوطن العربى القديم وأطرافه على شواطئ البحر المتوسط الشرقى والبحر الأحمر وما وراءه جنوبًا إلى البحر الهندى وشواطئه العربية . بل إننا بهذا المفهوم الذى يستند إلى الأصول الحضارية التى سبقت التاريخ ، ثم يمتد عبر التاريخ القديم إلى الفترة « العربية» بحيث نستطيع أن نعيد صياغة مفهوم « العروبة »

ذاته . . . فنحدد حدود العروبة الأولى (السامية والحامية) على أنها تشمل الجزيرة العربية ومصر وشمال شرق إفريقية ، ثم تمتد إلى مناطق امتداد الحضارات السامية والحامية والمصرية الفرعونية فى أرض شمال إفريقية، حيث كانت لها القاعدة القرطاجية العتيقة فى تونس ، ثم القاعدة الحامية البربرية التى سبقت ظهور العروبة الجزائرية والمغربية بعد ذلك ، حين اكتملت صورة العروبة بمداها الواسع الكبير ، الذى امتد ليشمل ما نسميه الآن بالوطن العربى الكبير فى اسيا وإفريقية ، والذى كانت له امتدادات تاريخية موقوتة فى أرض الأندلس ، وامتدادات حضارية محدودة وموقوتة حاولت أن تحمل المؤثرات العربية فى اتجاه أوربا الجنوبية عن طريق صقلية أيام الملك روجر والجغرافى العربى الكبير الشريف الإدريسى .

على أنه قد يكون من الخير ، ونحن نعالج العهد الذى سبق قيام العروبة ومهد لها تمهيدًا حضاريًا . . . لعل من المفيد أن نسترجع بعض مظاهر الحياة والحضارة فيها نسميه بالعصر الحجرى الحديث ، وهو عصر قيام حرفتى الرعى والزراعة اللتين ميزتا حياة العرب والعروبة بعد ذلك بحقبة طويلة . ولقد كان ظهور حرفتى الرعى والزراعة بمثابة ثورة بعيدة الأثر انتهت بعد فترة تطور تاريخى طويل بظهور حضارة العروبة . ولكن الشىء الطريف هو أن صلات الحياة والحضارة قد امتدت خلال فترة التطور الطويلة بين شقى الإقليم الذى أصبح فيما بعد هو موطن العروبة بمعناها التاريخى والثقافى . ولقد شمل ذلك الموطن القديم جنوب غرب اسيا من جهة وشمال شرق إفريقية من جهة أخرى . وكان هناك « تكامل » قديم جدًا بين هذين الشقين ، وتمثل التكامل فى كل من مجالى الرعى والزراعة . فأما عن مجال الرعى واستئناس الحيوان وتربيته فقد كان أحد الحيوانات المستأنسة فى جنوب غرب آسيا هو فصيلة البقر ذى القرون القصيرة والتى تخرج مستقيمة من جانبى الرأس ، وهو حيوان بدأ استئناسه فى الشق الأسيوى ولم يدخل إلى مصر إلا فى عهد الدولة الفرعونية القديمة . وأما الشق الافريقى (المصرى) فقد كان حيوانه البقرى المميز هو فصيلة البقر الإفريقى الذى يمتاز بقرونه الكبيرة والتى تخرج ملتوية على جانبى رأس الحيوان . وقد بدأ استئناسه فى مصر وشرق إفريقية فى العصر الحجرى الحديث ، ولكنه استمر خلال العصر الفرعونى التاريخى ،

وأضيف إليه البقر الآسيوى الذى أشرنا إليه . وبذلك تكاملت الثروة الحيوانية وأُثريت الحياة والحضارة فى المنطقة العريضة التى أصبحت فيها بعد « منطقةالنواة » بالنسبة لوطن العروبة .

وكذلك فقد حدث مثل هذا التكامل بين جناحى « منطقةالنواة » المشار إليها ، وذلك بالنسبة للثروة النباتية ولنشأة الزراعة والاستقرار الأقدم فى قلب العالم القديم . ولقد امتاز كل من الجناحين بنبات خاص من الزراعات التى تعتمد على الأمطار الشتوية ، فلقد كان جنوب غرب آسيا (ولاسيما منطقة جبل حرمون وسفوح جبل الشيخ فى أرض الشام) موطنًا تنمو فيه نباتات القمح البرى . وأغلب الظن أن هذه كانت أقدم منطقة اهتدى فيها أسلاف الإنسان العربى إلى زراعة القمح واستنباته ، ويبدو أن زراعة القمح قد امتدت من هناك فى أكثر من اتجاه ، بما فى ذلك الامتداد إلى أرض مصر والنيل الأدنى . ولكن هذه المنطقة الأخيرة (وامتداداتها فى شرق إفريقية والحبشة القديمة من جهة وشمال إفريقية من جهة أخرى) كانت بدورها منطقة نمو « الشعير » البرى ، بحيث ابتكر سكان وادى النيل زراعة الشعير المستنبت قبل أن يعرف ذلك غيرهم من الشعوب، حتى فى جنوب غرب آسيا، وبذلك كان سكان وادى النيل الأدنى أسبق الناس إلى زراعة الشعير ونشر زراعته إلى باقى شمال إفريقية وشمال شبه جزيرة سيناء والمناطق شبه الصحراوية المجاورة والتى يناسب مناخها زراعة الشعير ، لاسيما وأنها أيسر من زراعة القمح ، وتتحمل ذبذبة ظروف المطر . ومن هنا فقد كانت مصر (التى تتمتع بفيضان النهر وبأمطار الشتاء على ساحلها الشمالى) أصلح البقاع بالتحديد للجمع بين زراعة الشعير وزراعة القمح . ولعل هذا الجمع أن يكون من أسباب أن حضارة العصر الحجرى الحديث وما جاء بعده كانت أقوى جذورًا وأغنى ثروة فى أرض مصر ، والتى أصبحت قاعدة صالحة لظهور حضارات العصر التاريخى التى تلت ذلك . ولكن المهم أن نذكر أن هذه المنطقة فى جملتها ـ وفى كل ما أصبح فيها بعد أرض العروبة فى آسيا وإفريقية ـ لم تعرف الانعزال حتى فى تلك العهود البعيدة ، وإنما عرفت الترابط والاتصال الذى مهد لظهور عهد العروبة الأولى مع مطلع التاريخ ، ثم عرفت بعد ذلك بقرون طويلة التمهيد لظهور العروبة الكاملة

مع نهايات عصر الجاهلية السابق لظهور الإسلام .

ويصح هنا أن نعرض لاكتشاف الزراعة ، خصوصًا زراعة الحبوب الشتوية ممثلة فى القمح والشعير ، وهما النباتان اللذان ميزا منطقة العروبة الآسيوية الإفريقية فيما نسميه بالعصر الحجرى الحديث ، وهو عصر يصعب تحديد بدايته ، إذ يبدو أن « اكتشاف » الزراعة لم يكن أمرًا مباغتًا ولا هو قد جاء نتيجة « لاختراع » يشبه ما نعرفه من الاختراعات المفاجئة الحديثة . وإنما جاء « اكتشاف » الزراعة تدريجيًا بحيث كانت هناك مرحلة من الانتقال من مرحلة الجمع والالتقاط إلى مرحلة « حراسة » الحقول البرية ، وذود الطير والحيوان عنها حتى ينضج الحب ، فكأن الطبيعة علّمت الإنسان كيف يرعى النبات البرى قبل أن « يستنبته » . وإنه ليصعب فى مرحلة معرفتنا الحالية أن نحكم ما إذا كانت زراعة القمح قد سبقت فى الزمن زراعة الشعير ، أم العكس . ولابد أن ننتظر الوقت حتى نعثر على أدلة أثرية قاطعة تعتمد على وسائل التحليل الاشعاعى (كربون ١٤ وغيره) يمكن معها تحديد تواريخ بعض بقايا القمح أوالشعير المزروع القديم . . . وعند ذلك نستطيع اجراء المقابلة التاريخية بين المواقع الأثرية فى الشام (والعراق) من جهة ، وفى مصر من جهة أخرى . وما دامت هذه الصعوبة قائمة فإننا نفضل (فى مرحلة معرفتنا القائمة) أن نعتبر أن قيام زراعة الحبوب الشتوية فى كل من غرب آسيا وشمال شرق إفريقية ، ظاهرة واحدة متكاملة وقعت على مراحل تدريجية خلال فترة يرجح أنها تقع بين الألف التاسعة قبل الميلاد والألف السابعة أو السادسة قبل الميلاد أيضًا . ولعل هذا أن يبرر اعتبارنا لشقى هذه المنطقة التى تتوسط قلب العالم ممثلين معًا لمنطقة « النواة » بالنسبة لظهور الزراعات الشتوية للقمح والشعير ، وإن كنا مع ذلك نرجح أن يكون « تطور » هذه الزراعة لتكتمل قبيل العصر التاريخى المكتوب قد تم بصورة « أسرع » فى أرض مصر ، لا لشىء إلا لأن منطقة غرب آسيا كانت أمطارها شتوية ولكن فيضان أنهارها (غالبًا بفضل ذوبان الثلوج) كان يأتى فى الربيع وأول الصيف ، بحيث يغرق حقول القمح فيها قبل نضجها . أما فى مصر فإن فيضان النيل فى الخريف كان يتكامل وأمطار الشتاء ، بحيث يأتى الفيضان ويتراجع عن جوانب النهر ودلتاه فى أنسب الأوقات لبذار الشعير أو

القمح ،فتأتى الأمطار الشتوية (القليلة) لتغذى النبات حتى ينضج مع الربيع وأوائل الصيف . ومن هنا فإن البيئة الطبيعية فى مصر كانت أنسب لتطور زراعة الحبوب وتقدمها على الزمن من البيئة الطبيعية فى جنوب غرب آسيا .

اكتمال العلاقات بين الجزيرة العربية ومصر فى العصور التاريخية (القديمة والعربية) :

تلك كانت هي الجذور البعيدة الأولى فى الربط الحضارى بين شمال الجزيرة العربية وشمال شرق القارة الإفريقية . ولقد كان من الطبيعى أن تنتهى تلك البدايات إلى اكتمال أسباب الاتصال فى العصور التاريخية اللاحقة ، وهى علاقات شملت الطريق البرى البرزخى فى سيناء ، وطريق الاتصال البحرى فى جناحى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وسارت وفق ذلك النسق الذى لمسناه فى أواخر عصر ما قبل التاريخ المكتوب .

ويهمنا فى الطريق البرى أن نذكر أن الأحداث كررت نفسها فى العصر التاريخى بطريقة ملحوظة ـ فالطريق الشمالى من شبه جزيرة سيناء أصبح هو الجسر المطروق فى أغراض التجارة وشىء محدود من الهجرة البشرية . ولعل من الخير كذلك أن نذكر أن الطريق البرى كان ينتهى فى مصر عند قاعدة حضارية جديدة فى منطقة «المعادى » التى تقع إلى الشمال قليلاً وإلى الشرق من قاعدة مصر الحضارية وعاصمتها فى « منف » (على الشاطئ الغربى للنيل) وما كان يتبعها كذلك فى منطقة « حلوان » مع الشاطئ الشرقى للنيل . وقد عثر فى المعادى على آثار ترجع إلى قرابة أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وبينها جرار فخارية من النوع «السورى » القديم ، وهى اسطوانية الشكل ولها مقابض جانبية من النوع « المتموج » الذى يكاد يحيط بأعلا الجرة التى تحمل بين اليدين حملاً عن طريق المقابض المتموجة حول الجرة . وقد عرف الأثريون أن تلك الجرار لم تكن تصنع إلا فى أرض الزيتون بالشام . وكانت الزيوت تحمل فيها إلى الأسواق قرب العواصم المصرية القديمة . وهذا دليل التبادل التجارى القديم والعريق بين مصر وجاراتها فى فلسطين والشام. وكانت المعادى القديمة إحدى أسواقها عند نهاية الصحراء الشرقية فى

إطلالها على وادى النيل . ولابد أن هذا الطريق قد بقى على الزمن ، لأننا نعرف أن الجرار السورية المشار إليها امتدت تجارتها إلى قلب الصعيد ومدائنه فى مصر العتيقة قبل أن يبدأ العصر الفرعونى . وذلك كله دليل العراقة فى الصلات التجارية القديمة بين الشام ومصر .

أما طريق الجناح البحرى الشمالى فإن صلات الملاحة والتجارة امتدت إلى سواحل فلسطين وفينيقية القديمة . وكانت أخشاب الأرز اللبنانية هى السلعة الأساسية فيها ، وقد استخدمها المصريون القدماء فى صناعة المراكب التى حلت فى النيل محل القوارب المصنوعة من عيدان البردى التى تنمو فى مناقع الدلتا ، والتى ساعدت المصريين على أن ينتقلوا بها على صفحة البحر المتوسط والبحر الأحمر جميعًا، لأن مصر كانت محرومة من الأخشاب الشجرية المناسبة لصناعة المراكب التى تصلح للبحار .

وفضلاً عن ذلك فإن الانتقال التجارى فى البحر المتوسط قد صاحبه انتشار وتبادل فى الأفكار وألوان الحضارة والثقافة . ولعل فينيقية بما جبل عليه أهلها من التبادل التجارى والفكرى . . . لعلها كانت هى المستفيدة من الاتصال بمصر الفرعونية ، حين دخلت اللغة وأساسياتها إلى فينيقية ، فتطورت إلى لون من الكتابة . . . عاد الفينيقيون فنقلوه إلى غرب البحر المتوسط فى أرض قرطاجة وتونس القديمة ، حيث استقرت الحضارة المتأثرة بالمدنية المصرية ، وبروح مصر الثقافية ، وبقيت كامنة فى أرض تونس الخضراء حتى آن الآوان وارتد الفكر الروحى فى قمة العهد العربى أيام الفاطميين الذين انطلقوا من قاعدة تونس والقيروان إلى قاعدة مصر « وقاهرة المعز لدين الله » . وكأن الأمر فى ربط تونس والجناح الغربى للعروبة بأرض الكنانة لم يكن بالمصادفة أو بمثابة الحدث الطارئ والذى لا أصل له ، وإنما كان انعكاسًا من التاريخ ، وصفحة جديدة منه تعيد إلى الأذهان صفحة قديمة ، كان التيار فيها من المشرق إلى المغرب ، ثم عاد بعد قرون عديدة ليرتد فى صورة فكر وثقافة ونظم اجتماعية وسياسية . . . عاد ليرتد من المغرب إلى المشرق . وهكذا أثبتت الجغرافيا مرة أخرى أنها المسرح الأصيل لأحداث التاريخ طردًا وعكسًا .

وأما عن الجناح البحرى الجنوبى لاتصالات مصر مع بلاد العرب عن طريق البحر الأحمر ، فإنها كانت تمثل صورة مختلفة بعض الشىء بحكم طبيعة البيئة ومقتضياتها . فهو كان اتصالاً تكتنفه بعض الصعوبات والعقبات الطبيعية التى سعى المصرى لأن يتغلب عليها . فالصحراء الشرقية كانت تقف حائلاً بين وادى النيل وساحل البحر الأحمر . وهذا الساحل أيضًا كانت رياحه أقل انتظامًا من رياح البحر المتوسط ، كما كانت تكتنفه شطوط المرجان وشعابه بكل أخطارها على الملاحة . وهو ساحل كانت طرق البحر تمتد فيه مسافات بعيدة عن أرض الوطن ، وتنتهى الرحلة فيه إما إلى جنوب الجزيرة العربية التى عرف المصريون فيها أبناء عمومتهم الآخرين من الحاميين ومن اختلط بهم بعد ذلك من الساميين ، كما عرفوا أرض البخور فى العصور القديمة التى يرجع بعضها إلى أسرات الدولة المصرية القديمة أو الوسطى أوالحديثة ، ثم عرفوا بعد ذلك أرض الحجاز المقدسة التى يقصدها الحجيج المصريون أو الحجيج العابرون من المغرب عن طريق مصر ووادى النيل وموانى البحر الأحمر المصرية فى القلزم وعيذاب وغيرها . كما عرف المصريون القدماء أيضًا شواطئ بلاد « بونت » القديمة التى تشمل شواطئ ايرترية والحبشة القديمة والصومال إلى جانب بعض شواطئ جنوب غرب الجزيرة العربية ، وتلك جميعًا هى البلاد التى توثقت صلاتها بمصر الفرعونية ، لاسيما أيام الدولة الفرعونية الحديثة والملكة حتشبسوت بالذات . وقد رسمت صور الرحلات إليها على معبد الدير البحرى فى منطقة طيبة الغربية . وكانت تمثل أول اتصال مسجل بين مصر وسكان شرق إفريقية المتأثرين بالحاميين (ثم الساميين) الأقدمين . كذلك فإن مغامرات الرحلات المصرية فى البحر الأحمر وما وراءه قد سجلت أيضًا فى رحلات السندباد البحرى ومغامراته فيما وراء البحار .

صفوة القول : السمات الأساسية التى ميزت العلاقة بين مصر والعروبة خلال التاريخ :

لعل فيما سبق ما يبرر الحقيقة الجغرافية والتاريخية ، بل والإنسانية الرائعة ، وهى أن الصلة بين مصر وسائر أرض العروبة ليست صلة طارئة ولا عارضة ،

وإنما هى صلة عضوية أساسية ، استمرت منذ ظهرت الحضارة البشرية فى هذا القسم من العالم القديم . وقد كان طبيعيًا مع ظهور الحضارات الإنسانية فى العصور الحجرية السحيقة أن يغلب «التشابه» حتى بالنسبة إلى الصناعات الحجرية (الصوانية) بحيث يكون هناك تميز «إقليمى» له سماته المميزة بين الصناعات الحجرية الأولى فى الإقليم الذى أصبح فيما بعد موطن العروبة . وإنما كانت الآلات الحجرية تتشابه فى شكلها وصناعتها وأغراض استخدامها فى وقت لم يكن الإنسان يعرف فيه غير الصيد والالتقاط سبيلاً للعيش .

ثم جاء العصر الحجرى الحديث فتميز هذا الإقليم كله بأنه إقليم نباتات الحبوب الشتوية وهى القمح بالنسبة لآسيا والشعير بالنسبة لإفريقية . . . وقد اتصلت الزراعات الشتوية (المطرية أو المروية ، ولو جزئيًا ، فى بعض الأحيان) . . . اتصلت بعضها ببعض، وربطت بينها أسباب التطور فى زراعة الأرض واستدرار خيراتها وبناء الحياة والحضارة « المستقرة » ، وبداية الحياة المتمدينة فى القرى الصغيرة والواحات ، ثم فى القرى الكبيرة ، وامتداد التواصل بينها . وهو ما يبدو أنه ظهر فى هذا الإقليم قبل غيرة من الأقاليم .

ولقد كانت تلك هى البدايات الأولى لعصر « ما قبل العروبة » وهو عصر «السامية» «والحامية» فى هذا الإقليم وامتداداته إلى الأقاليم القريبة . ولكن ذلك كان فى حقيقة الأمر يمثل الجذور الأولى لما تطور فيما بعد ، وأصبحنا فى العصر التاريخى القريب نسبيًا نسميه بعصر « العروبة » . . . وقد جاء مع ظهور العرب وثقافتهم العربية التى لا يمكن أن نفصلها عن أصولها السامية والحامية الأولى ، وإن كان إطلاق تسمية « العرب » « والعروبة» لم يعتمده الدارسون فى مجال التاريخ إلا بعد عصر إبراهيم وإسماعيل ، وبروز أهل البادية فى منطقة «النواة» التى شغلت الجانب الغربى والشمالى الغربى من جزيرة العرب وظهور ما يمكن أن نعتبره البدايات الأولى للحياة والثقافة العربية ، التى لم تلبث أن تبلورت فى هيئة «كتابة» قديمة بالأحرف النبطية ، التى سبقت ظهور الأحرف «العربية» الأولى خلال القرون القليلة من أوائل العهد المسيحى ، وإن كانت لم تأخذ صورتها المميزة إلا فى القرون القليلة السابقة لظهور الإسلام .

وإذن فإن من رأينا أن « العروبة » فى اتصالاتها الواسعة بمصر وغيرها هى أقدم كثيراً مما تصوره لنا كتابات بعض المحدثين . ويخطئ الحقيقة من يتصور أن العروبة لا تكون إلا مع العهد الإسلامى . وقد رأينا كيف أن الاتصالات الحضارية بين مصر والأرض التى أصبحت بعد ذلك أرض العروبة (بالمعنى التاريخى) إنما هى تسبق فجر التاريخ ، وأن تلك العلاقات قد تنوعت لتشمل اتصالات العرق والتجارة بعامة . ولقد تميزت تلك الاتصالات منذ بداياتها الأولى بسمات كثيرة ، قد يكون من الخير أن نشير إلى بعضها فيمايلى :

١ ـ لقد استندت تلك الصلات إلى عوامل جغرافية امتاز بها المسرح الطبيعى الذى كيف أحداث تلك الاتصالات . وقد استعرضنا ذلك فى الطرق البرية والبحرية التى رسمت مسالك الاتصال . فهى إذن قد استندت منذ البداية إلى أسس طبيعية ثابتة . ولعل ذلك أن يكون هو الأصل والأساس فى أنها بقيت على الزمن ، ولم يعرف عنها إنها انقطعت انقطاعاً ظاهراً فى يوم من الأيام .

٢ ـ أنها كانت علاقات تقوم على « التحدى » منذ كانت . فالظروف الطبيعية ذاتها ـ سواء فى صلات البر أو فى صلات البحر ـ كانت تيسر الاتصال وتحفز القائمين به على «تحديها » دائماً . ويكفى فى هذا المجال أن نذكر أن الظروف الصحراويةتتحدى بطبيعتها أهل الصحراء فى أن يتلمسوا طريقهم بالليل والنهار للتعرف على البيئة التى يسافرون فيها ، ويركبون المصاعب ، ويهتدون بانجم الليل لمسيرة الظلام ، « وبتقصى الأثر » لمسيرة النهار، والبحث عن الدروب والمسالك . كما يعمدون إلى استغلال موارد الطبيعة (ومنها إبل الصحراء) لقطع المسافات البعيدة ، وقهر الفيافى ، والسير الحثيث والسريع لاجتياز المصاعب ، وشحذ غريزة الاستطلاع ، والملاحظة القوية لكل ما تقع العين عليه من معالم الطريق ، وتمثل ذلك كله فى حذق الأعرابى المرتحل منذ أقدم العصور . كذلك يكفى أن نذكر من جهة أخرى كيف أن ملاّح البحر الأحمر القديم قد غالب الصعاب وتحدى المخاطر بين شعاب المرجان وعواصف البحر وأنوائه ، حتى شق طريقه إلى أقصى جنوب ذلك البحر ، وخرج بعد ذلك إلى مياه المحيط . ثم يكفى أن نذكر كيف أن المصرى القديم لم

يلبث أن أدرك أن موارد الأخشاب فى بلاده لا يمكن أن تعينه على بناء المراكب الكبيرة التى تركب البحر . . . فخرج إلى شواطئ غرب الجزيرة العربية فى شرق البحر المتوسط واستجلب أخشاب الأرز وحملها مسافات بعيدة حتى جاء بها إلى مصر ، فبنى المراكب التى تركب البحر . . . بل والتى أعدها بخياله لتركب بها الأرواح عبر محيط قبة السماء : كل هذه وغيرها كثير من مظاهر « روح التحدى » التى ميزت أسلاف العروبة فى الجزيرة العربية وفى مصر وما وراءها غربًا ، فأقاموا صلاتهم التاريخية التى غالبت الزمن .

٣ ـ كانت هذه العلاقات منذ قيامها الأول علاقات متكاملة ومتنوعة أشد التكامل وأوسع التنوع . فهى علاقات بالعرق والسلالة، امتزجت فيها الدماء والعروق وألوان الثقافة والفكر والفن والعقيدة ، حتى اتخذت العروبة طابعها الحضارى العام ، وصارت محصلة لفكر استوعب عقائد التوحيد منذ كانت ارهاصاته الأولى فى الجزيرة العربية وفى مصر ، وتتابعت عليها الأديان المتلاحقة منذ أيام إبراهيم وأبنائه الأوائل حتى عصر الإسلام وعقيدته التى مثلت التوحيد الحنيف فى أنقى صوره وأبسطها . وقد اتسع نطاق هذه العروبة حتى شمل الأرض كلها من حافات جبال زاجروس ومياه الخليج العربى حتى أقاصى المغرب وشواطئ المحيط الإطلنطى ، فصارت كلها أرضًا للعروبة مترابطة فيما بينها ، ومتصلة فى امتداد لا تكاد تتخلله أية جزر غير عربية أو غير معربة ، لاسيما بعد أن نطقت أرض العروبة كلها وشعوبها بلغة واحدة هى العربية . . . لغة القرآن الكريم . . . وخليفة مجموعة من اللغات السامية القديمة ذات الحضارات والفكر اللغوى والروحى الذى ورثه العرب ومن تكلم لغتهم وقاموا عليه إلى يومنا الحاضر .

٤ ـ على الرغم من أن العروبة قد استندت إلى النظام القبلى منذ قيامها ومنذ عهودها الأولى ، ومن أنها لا تزال حتى اليوم تقوم أساسًا على هذا النظام الاجتماعى الذى تتميز به مجتمعات القبائل فى معظم أرض العروبة . . . وعلى الرغم من أن المجتمعات العربية التى استقرت فى أراضى الزراعة والواحات وأمثالها كانت فى أصلها مجتمعات قَبلية ورثت عن أصولها ميزات القبيلة وعصبيتها

التى تتسم بنوع من عدم الاستقرار ومن مشاحنات الغزو والشحناء بين القبائل، وعدم تقبل الحكم المدنى إلا فى شىء من العسر . . . على الرغم من ذلك كله فإن تاريخ العروبة لم يكن يعرف شحناء « الحروب الإقليمية » بمعناها الواسع إلا فى أمثلة قليلة وإنما كانت له أعرافه التى يسوى بها مشكلاته وهى لا تزال فى نطاقها المحلى . وقد ينفعنا فى هذا المجال أن نذكر تاريخ مصر الفرعونية فى عهد الدولة القديمة ، حين كانت مصر وبقيت أقوى « دولة » بالمفهوم التاريخى ، وبقيت كذلك قرابة ثمانية قرون ، ومع ذلك فلم يعرف التاريخ حالة واحدة (فى عهد الدولة الفرعونية القديمة) خرج فيها أبناء وادى النيل الأدنى فى حرب يشنونها ضد أقرانهم القدماء من أعراب المشرق العربى القديم ، الذى اختلطت حضارته وزراعته (للقمح) بحضارة المصريين الذين بادلوهم التجارة والثقافة والفكر وبعض النظم الاجتماعية . . . ولقد فضل أبناء مصر الفرعونية تلك أن ينفقوا طاقتهم الزائدة فى بناء « الأهرام » بدلاً من أن يسخروها فى شن حرب على الجيران وذوى القربى القديمة . وحدث ذلك كله طوال الوقت الذى لم يدخل فيه « غريب » نواة منطقة العروبة القديمة . وبقى الأمر كذلك حتى دخل « الهكسوس » من رعاة آسيا الداخلية إلى أرض المشرق العربى القديم . . . دخلوا ومعهم حيوان « الحصان » الذى كان حيوان غزو واستعلاء وفتح ، بخلاف حيوان الجزيرة العربية الأصيل وهو «الجمل» الصبور الحمول الذى تألفه حداة الصحراء الأقدمون ، ولم يسع بهم إلى الغزو والفتح . . . لقد كان دخول الهكسوس إلى أرض المشرق العربى القديم سبيلاً إلى إدخال عنصر جديد اضطربه المصريون القدماء إلى أن يتبنوا فنون الحرب والقتال ، وإلى أن يردوا الهكسوس مستعملين سلاحهم الجديد ذاته ، فركب فرعون عجلته وشحذ همة فرسانه وخيوله لطرد الرعاة الدخلاء إلى المشرق من حيث أتوا . وكان ذلك أول درس فى التاريخ تعلم به سكان أرض نواة العروبة القديمة فنون الحرب والقتال على نطاق واسع ولمسافات إقليمية بعيدة .

هكذا كانت روح العروبة الأولى فى تلك الأيام السحيقة تسير على «السلام»

وتقوم على «السلام » ولا تنزع إلى الحروب إلا مضطرة ومدفوعة بالحاجة إلى دفع خطر الغرباء والدخلاء . . . بل لعل هذه السمة الأصيلة هى التى تكررت فى مطلع ظهور الإسلام حين فرض « الجهاد » على المؤمنين لدفع العدوان . . . بل لعلها هى التى تكررت خلال التاريخ فعرفت العروبة « السلام » كسجية عربية (ومصرية قديمة) أصيلة ، وخرجت من السلام إلى الحرب ولكن كوسيلة لدفع الدخلاء والمعتدين . . . ولطالما تكرر ذلك خلال العصور . . . وحتى وقتنا الحديث والمعاصر ـ حين دخل الصليبيون ثم الأتراك ثم الأوربيون المستعمرون ومن سعى وراءهم من غزاة أيامنا الجارية فى أرض فلسطين .

٥ ـ للعروبة وضعها العالمى المميز فى إحكام الصلات التاريخية والحضارية بين الشرق والغرب . ومرد ذلك إلى الموقع الجغرافى الفريد ، لاسيما بالنسبة للمشرق العربى . . . ويلاحظ أن الوطن العربى (لاسيما فى شقه الشرقى)يقع فى قلب العالم القديم عند مفارق البحار الشمالية والبحار الجنوبية ، وعند الأرض بين القارتين الكبيرتين (آسيا وإفريقية) وعلى مشارف الركن الجنوبى الشرقى لقارة أوربا وراء البحر المتوسط . ويلاحظ كذلك بالنسبة للطرق البحرية أن جزيرة العرب لم تكن جزيرة كاملة بحيث تستطيع المراكب أو السفن التى تقل المتاجر أن تدور حول اليابسة وأن تنفذ من البحار الشمالية إلى البحار الجنوبية دون أن يضطر أصحاب التجارة إلى تغيير وسيلة المواصلات ، فتقف مراكب الشمال عند شواطئ الجزيرة أو شواطئ مصر ثم تنقل المتاجر بالبر أو بوسيلة مائية نهرية عبر اليابسة ، لتعود فتقف عند شواطئ البحار الجنوبية فتنقلها مراكب أخرى وملاحون من طراز جديد يحملون المتاجر والسلع إلى ما وراء البحار الجنوبية . والعكس صحيح بالنسبة لحاصلات المناطق الحارة التى تجلب من جنوب آسيا أو شرق إفريقية ، فتتغير وسيلة النقل وتعمل قوافل الصحراء وحداة الإبل من أبناء العروبة فى نقل سلع الجنوب بالبر عبر البرازخ فى جزيرة العرب وفى أرض الزاوية فى مصر إلى شواطئ البحر المتوسط ، ومنها بالسفن وعلى يد ملاحى الشمال إلى الشواطئ المقابلة فى شمال البحر المتوسط وما وراءه من أقطار الشمال .

هكذا كانت أرض العروبة ومصر هى « أرض الزاوية » ، صاحبة الدور

الخاص فى الاتصالات العالمية . وقد علّم ذلك أبناء العروبة (بما فيهم أبناء أرض الكنانة) أن يصبحوا وسطاء السلع والتجارة ، وكذلك وسطاء الأفكار والقيم الإنسانية والروحية جميعًا . ومن هنا كان الدور التاريخى الذى اضطلعت به أرض العروبة وكانت السمة الخامسة التى ميزت العروبة وأبناءها على مر العصور .

٦ ـ وأما السمة السادسة للعروبة وأرضها وأهلها فقد ترتبت على السمة التى أضفاها عليها ذلك الموقع الجغرافى الفريد ، الذى جعل منها منطقة النواة الرابطة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . بل إن ذلك كله قد أثر فى بناء شخصية أهل العروبة ، وجعل منها ومنهم شخصية إنسانية عالمية ، مفتوحة الفكر ورحبة الاختلاط بالثقافات القديمة والحديثة ، تقوم فى الوقت ذاته على أساس « الأخذ » « والعطاء » وعلى أساس إقامة العدل والانصاف والصدق فى المعاملات بين الناس جميعًا ، فضلاً عن سمة الكرم وحسن الضيافة فى معاملة القادمين والعابرين ، سواء أكانوا من أهل الجنوب أم من أهل الشمال . . . بل إن هذه الروح المفتوحة فى المعاملات قد بلغت حد المبالغة فى بعض الأحيان ، فجاء يوم كان المصريون المحدثون مثلاً يقولون فيه عن أنفسهم « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »وذلك رغم أن أولئك « الضيوف » كانوا من الغزاة والفاتحين ، وتلك كانت هى صيغة المبالغة من كرم العروبة وحاتميتها التاريخية المتوارثة .

٧ ـ والسمة الأساسية السابعة للعروبة فى أوضاعها المكانية والزمانية من هذا الموقع الجغرافى الفريد ، ومن تاريخها الحضارى الموغل فى القدم ، أنها اتسمت بصفة الاستمرار والحيوية المتجددة على مر الزمن . فحضارة العروبة التى غالبت الأيام واحتفظت بالكثير عن أصول هويتها ، وجددت تلك الأصول وحفظتها على الزمن أطول مما استطاعه غيرها من الحضارات فى أجزاء أخرى من العالم . . . تلك العروبة قد حفظت ذاتها وقاومت كل محاولات التوغل والاقتحام حتى أصبحت فى التاريخ مضربًا للمثل بين الحضارات كلها فى القدم والاستمرار والنهوض بعد فترات الهدوء ، وبعث الروح القومية

وتجديدها رغم فترات الانكماش أو الركود . ولعل مرد هذا الاستمرار على الزمن لحضارة إقليم العروبة الكبير ، والذى جعل من هذا الإقليم كتلة بشرية ضخمة لا يكاد يضارعها فى الاتساع والاستمرار على الزمن غير كتلة أرض الصين . . . لعل السبب فى هذا أن منطقة العروبة بدأت بالنظام « القَبَلى » ثم تحولت في كثير من مناطقها (كمصر واليمن وغيرهما) إلى نظام «الاستقرار» . . . تمامًا كما حدث فى منطقة الصين الكبيرة والفسيحة الأرجاء . . . ولقد خالفت العروبة فى ذلك عن قارة إفريقية المجاورة والتى بدأت بالنظام « القَبَلى » ولكنها استمرت عليه حتى عصرنا الحديث . وعلينا أن نذكر أن القبيلة فى إفريقية لم تنتقل إلى نظام الاستقرار أو نظام « الدولة » وإنما بقيت القارة منقسمة إلى مجموعة كبيرة من القبائل المتفرقة أو المتناحرة ، ولم تكد أن تقوم فيها « دولة » مستقرة حتى جاء العصر الحديث . ولم يشذ عن ذلك فى إفريقية إلا أرض وادى النيل الأدنى (وهى جزء من نواة أرض العروبة) فظهرت فى مصر فى عصر ما قبل الأسرات الفرعونية « دويلات » إقليمية استقرفيها نظام الحكم وصارت لها هويتها وشخصيتها الإدارية ، ثم قامت الدولة الموحدة بين الوجهين القبلى والبحرى وظهرت أول «دولة » موحدة فى التاريخ ، وإن كانت تلك الدولة قد احتفظت ببعض أصول نظامها القَبَلى السابق ، وظهرت « القرية » أو « مجموعات القرى » لتحل محل القبيلة أو مجموعات القبائل المتجاورة ، حتى استكملت الدولة الموحدة مقوماتها فى الحكم والإدارة والطابع العام لما أصبح يعرف فيها بعد « بالحياة المدنية » أو «الحياة القومية » ومثل هذا حدث خارج مصر فى جهات أخرى من أرض العروبة ، ومنها العراق القديم بدوله التى لم تستكمل أسباب الوحدة المدنية الشاملة لأسباب جغرافية محلية ، ولكنها مع ذلك تتابعت على أرض العراق ، وحفظت لها طابعها الحضارى الذى استمر على مر العصور . كذلك ظهرت فكرة الانتقال من الدور القبَلى إلى دور الحكومة المستقرة فى جهات أخرى مثل جبال سورية ومثل هضبةاليمن ومثل بقاع أخرى فى شمال إفريقية ، وإن كان التاريخ لم يحفظ لنا منها مثل ما حفظه من الكيانات القديمة التى استقرت فى مشرق أرض العروبة .

وهكذا كانت السمة الثامنة والأخيرة للعروبة فى عهدها القديم أنها بلغت مرحلة الحكومة ذات الوحدة (ولو محليًا) قبل غيرها من أراضى العالم القديم بأجيال طويلة . ولقد استمرت هذه السمة وازدادت وضوحًا بعد أن اكتملت عروبة هذه المنطقة الكبرى فى عهد الإسلام الذى أتم الله به على الأمة العربية الأولى نعمة الوحدة التى تدعمها العقيدة الجديدة، فكان الامتزاج والتكامل بين العروبة والإسلام ، وأصبح من العسير علينا أن نتصور العروبة الجديدة بغير الإسلام . بل ظهرت فكرة « الأمة » (الإسلامية) لأول مرة فى التاريخ ، وقام نظام «الخلافة» ليغطى الوطن العربى كله فى مشرقه ومغربه ، وإن كانت الخلافة ذاتها قد أصبحت ذات شقين . . . خلافة مشرقية وخلافة مغربية (تمتد إلى أطراف الأندلس) وكانت تلك هى الصورة القديمة لوحدة العروبة الإسلامية . ورغم الضعف السياسى الذى انتاب هذا التنظيم من وقت لآخر فإن رباط العقيدة كان أقوى من أن يمحوه الزمن . بل إن هذا الرباط قد أضيفت إلى صورته الدينية الخالصة صورة جديدة تمثلت فى دور مصر وازهرها فى الحفاظ للإسلام بمنبره الفكرى والعلمى والتعليمى ، حيث أصبح الأزهر الجامع الذى يربط المذاهب العقيدية ، والجامعة التى تربط الفكر والعلم كسند أساسى للعقيدة التى صار الأزهر معقلها ومنارتها العلمية التى تشع إلى كل أقطار العالم الإسلامى ، مما أضفى على العروبة ومصر - حتى فى عهود ضعفها اللاحقة - سمة الريادة العلمية والفكرية ، بل والروحية، فى العالم الإسلامى كله .

لقد كان عهد الخلافة هو عهد الوحدة فى العقيدة والسياسة فى قلب العالم القديم. وإن كان انتقال الخلافة من ا لعرب إلى الأتراك قد أضعف تلك الريادة العربية للوحدة الإسلامية . . . ثم انتقلت الأمور فتخلى العرب عن استمساكهم بالريادة ذاتها وبالوحدة. . . ودخلت عناصر أخرى إلى المشرق العربى ، فظهر عهد الاستعمار الحديث وسيطرت على موقعنا الجغرافى الذى استعرضنا معالمه ومقوماته دول أوربية دخيلة . . . فتفكك العالم العربى ، وارتد عن وحدته التى حققها مع ظهور الإسلام ، وعاد العالم العربى إلى الانحلال والانقسام إلى ولايات محمية ثم دويلات شبه مستقلة أو ساعية إلى الاستقلال، واستمر ذاك حتى عادت

فكرة « الأمة » وفكرة « القومية » (بمفهومها الأوربى الحديث) إلى الظهور فى مشرقنا العربى خلال القرن التاسع عشر الميلادى وما بعده، فنهض العرب من سباتهم ، وذكروا أمجادهم السابقة ، حين كانوا أول موطن فى التاريخ ظهرت فيه فكرة الدولة ، ثم فكرة «الأمة» وأول من بعثت فى أرضهم فكرة « الوحدة » على نطاق جغرافى واسع (لم يناظره فى التاريخ القديم غير الصين) . ولكن معقبات الاستعمار الحديث عطلتنا من جديد فترة من الزمان ، فتردد العرب بين « القومية الإسلامية » و « الوطنية العربية » (لكل قطر أو إقليم صغير على حدة) ، حتى برزت بالتدريج فكرة « القومية العربية » بمفهومها المعاصر الجديد . . . ولكن حتى بعد أن ظهرت هذه الفكرة تردد العرب بين صور مختلفة من مظاهر تحقيقها ، وقامت « الجامعة العربية » ثم اضمحل عملها ، واكتفينا فيه بتحقيق الوحدة الثقافية دون الوحدة الاقتصادية . أما الوحدة السياسية فإن الجامعة العربية لم تجمع غير قليل من أسبابها ، وكان ذلك على خلاف ما لاحظناه من سعى مناطق أخرى من العالم لاستكمال أسباب وحدتها الاقتصادية والسياسية ، ولو بعد تعثرات كثيرة، كما حدث فى منطقة غرب أوربا التى سعت فى نهاية الأمر إلى التكتل الاقتصادى بأسلوب لعله ينتهى آخر المطاف إلى لون من ألوان الوحدة والسوق الاقتصادية والمالية المشتركة أو الترابط فى مجال الاقتصاد والسياسة جميعًا .

ولكن خير ما نتواصى به فى ختام هذا الحديث هو أن الوحدة العربية المنشودة كانت ولا تزال ، كما تصورناها فى تفكيرنا العلمى والقومى الحديث ، إنما هى تجمع بين «العقيدة» و «الحركة ». فأما أنها « عقيدة » فذلك ما لا نشك فيه ، وهو ما آمن به جيلنا السابق وجيلنا المعاصر ثم جيلنا القادم من شباب العروبة . وأما إنها « حركة » فذلك ما لا نزال بحاجة إلى أن نستحث الهمة فيه ، وما نأمل ونرجو أن يكون فى تجاربنا الجارية ما يعين على تنظيم خطواتنا إلى تحقيقه ، وذلك رغم مرارة بعض هذه التجارب . ولعل ذلك أن ينتهى آخر الأمر بأن تعود العروبة إلى دورها التاريخى والإنسانى الذى ميزها بين الأمم والشعوب منذ كان التاريخ .

« ٧ »

الشرق الأوسط والحروب العالمية فى التاريخ



الشرق الأوسط والحروب العالمية فى التاريخ

إن أحداث الحروب العالمية التاريخية واتجاهاتها الأساسية وخططها الكبرى لاتتأتى عفواً، وإنما يلاحق بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض . وهى فى كل ذلك متأثرة أبلغ التأثر بظروف الميدان الطبيعية ، وبالمواقع الجغرافية التى يجتذب بعضها المحاربين بما له من قيمة ظاهرة ، وينجذب إلى بعضها الآخر المحاربون أنفسهم بما لهم من بصيرة نافذة يكشفون بها عما لهذه المواقع من قيمة كامنة أو محتملة . ولا شك أن من المواقع ذات القيمة الكبرى فى الحروب العالمية موقع مصر وما يتصل بها من بلدان الشرق القريب . فقد كان لهذه المنطقة أثرها الكبير وقيمتها الخطيرة فى كل نضال من أجل السيطرة العالمية ، ولاشك أنها ستحتفظ بقيمتها هذه مهما تغيرت أحداث المستقبل ، ومهما تطورت فنون الحرب فى البر أو فى البحر أو فى الهواء .

ويعنينا فى هذا المقام أن نذكر أن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) لم تزد قيمة موقع مصر والشرق الأدنى كله ـ أو ما أصبح يعرف فى السنوات الأخيرة «بالشرق الأوسط » ـ إلا وضوحاً ، وأن أحداثها جاءت مرددة لما تجاوب به التاريخ من قبل ، فى فترات متقطعة ، منذ فتح الإسكندر باب الحروب العالمية ، التى امتد سعيرها بين الشرق والغرب ، والتى لم تكد واحدة منها تشب حتى أصاب الشرق الأوسط منها نصيب يسير أو خطير ، بل حتى غدت هذه المنطقة المتوسطة مسرح النضال وهدف المتسابقين من أجل التحكم فى المواصلات العالمية .

والذين يدرسون تاريخ الحروب فى العهد الحديث يتفقون فيما بينهم على أن هذه الحرب العالمية الثانية ، إنما بدأت فى حقيقتها منذ عام ١٩١٤ . وغاية ما هناك أن النضال الفعلى جاء فى جولتين ، لم تكن الأولى منهما حاسمة ولا فاصلة ، فلم

تنكسر جيوش ألمانيا فى أرضها مثلاً ، ولم تنهزم هزيمة ساحقة ، ولم يصب نظام الصناعة والإنتاج والمواصلات فى تلك البلاد بمثل ما أصيب به من خراب إبان الجولة الثانية . . . لا بل إن أداة الحرب فى جملتها ونواة الجيش الألمانى ذاته تركت سليمة ، أو شبه سليمة بعد الجولة الأولى ، وقد احتفظت تلك النواة بروحها العسكرى وتقاليدها ، ولم تسلم قيادتها بالهزيمة ، وإنما نسبتها إلى الثورة الداخلية فى ألمانيا . وهكذا لم تنقض عشرون سنة على إعلان الهدنة حتى نهضت من كبوتها وحتى استطاع المغلوب أن يبدأ بالتحرش والوثوب من جديد .

ومهما قيل فى أسباب هذه الحرب وما دفع المتحاربين إليها فقد كان الغرض الأول منها والمحرك الأساسى فيها ، إنما هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم فى مصاير الأمم ، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق ، وصلات أهل البلاد القوية والمستعمرة بأهل البلدان الضعيفة والمستعمَرة . ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط ، لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم بابًا ينفذ منه الغرب إلى الشرق ، وجسرًا تمتد من فوقه قوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطمعًا للطامعين ، وأن تكون أرزاقهم ، بل جهودهم فى الحياة ، مغنمًا يقتتل من دونه الأقوياء .

وقد تجلى التسابق على الشرق الأوسط فى كل من الجولتين ولكننا قبل أن نعالج ذلك لابد لنا من أن نلم بطرف مما يتصل بالقيمة الاستراتيجية التاريخية لبعض مناطق هذا الإقليم الهامة ومداخله الأساسية ، فذلك مما يعين على تفهم أهداف الحرب وخططها فى هذا القسم من العالم . وأول منطقة تلفت نظرنا فى هذا الإقليم هى مصر والركن الشمالى الشرقى من إفريقية فقد كان وادى النيل الأدنى ودلتاه على الدوام قاعدة عسكرية هامة يمكن الاستناد إليها والتوسع منها نحو قلب الشرق ، وقد تكرر ذلك فى التاريخ أكثر من مرة . فمن مصر توسع الفراعنة أيام إمبراطورية الدولة الحديثة ، ومنها توسع البطالمة بعد الإسكندر ، وإليها ارتكز جانب هام من قوة الرومان فى توسعهم إلى شمال بلاد العرب ورأس الخليج العربى فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، وفيها قامت دولة العرب والمسلمين ، ومنها اتسع سلطان صلاح الدين وأمثاله ممن عرفوا كيف يستغلون موقع أرض الزاوية وموارد تربة الكنانة ،

وفيها تجدد الملك لمحمد على وامتد نفوذه إلى جهات مختلفة من الشرق القريب ، لولا ما كان من تألب الدول الكبرى عليه وعلى خلفائه . ثم إليها عادت الإمبراطورية البريطانية فارتكزت آخر الأمر ، لا لتؤمن مواصلاتها مع الشرق الهندى والبعيد فقط ، وإنما كذلك لتوسع سلطانها وتمد نفوذها إلى السودان أول الأمر ، ثم إلى شمال الشرق العربى إبان الجولة الأولى من الحرب العالمية وفى أعقابها ، ثم إلى برقة وطرابلس وحتى إلى بلاد اليونان وجزرها فى الجولة الثانية من الحرب . فكأن الطبيعة قد أرادت أن تكون مصر وأن تبقى على مر الأيام ، مفتاحًا هامًا من مفاتيح الشرق الأوسط وأن يكون مرجع ذلك ومرده إلى موقعها الجغرافى من جهة ، وإلى مواردها الغنية من جهة أخرى .

وموقع آخر هام فى الشرق الأوسط هو منطقة المضايق بين آسيا الصغرى والبلقان . وقد كانت قاعدة تحكم منها الإغريق والروم الشرقيون فى تجارة البحر الأسود ، ونشر منها البيزنطيون نفوذهم فى ذلك البحر وعلى شواطئه ، كما احتفظوا منها بسلطانهم فى أراضى المشرق الرومانى القديم . وعادت أهمية هذه القاعدة إلى الظهور فى عهد الأتراك الذين امتد نفوذهم فى كثير من جهات الشرق الآسيوى القريب وبلاد البلقان . وفى العهد الحديث ازدادت أهمية المضايق بظهور روسيا وسعيها إلى الخروج من البحر الأسود إلى البحر المتوسط خروجًا حرًا لاتتحكم فيه إمبراطورية العثمانيين ولا غيرها من الدول الأوربية البحرية التى قد تضغط على العثمانيين أو توحى إليهم بما يتبعونه من سياسة نحو الروس . فلما جاءت الحرب العالمية الأخيرة لم يكن بد من أن تبرز قيمة المضايق كمنطقة عسكرية ذات خطر ، وكمنفذ للبحر الأسود من جهة ، وباب من أبواب الشرق الأوسط من جهة ثانية . وفعلاً اتجهت السياسة الألمانية منذ عام ١٩١٤ بل قبل ذلك إلى القسطنطينية وما وراءها من أراضى الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت المضايق نفسها منطقة قتال فعلى شديد فى موقعة غاليبولى وما يتصل بها ، واستمر التشاحن بين الدول من أجل تنظيم الإشراف على ممرات الماء خلال الفترة ما بين جولتى الحرب . ويخطئ من يعتقد أن حياد تركيا أثناء الجولة الثانية واستمساكها بموقفها المحايد وبسلطتها الشرعية فى الإشراف على المضايق وتحصينها ، . . . يخطئ من

يتصور أن ذلك سيحول دون التشاحن الدولى من أجل هذه المنطقة العسكرية الهامة .

وفيما بين برزخ السويس ومضايق تركيا هناك منطقة أخرى يمكن أن تنفذ منها القوة إلى قلب الشرق الأوسط ، تلك هى مجموعة الجزر الواقعة فى شرق البحر المتوسط وما يقابلها ويطل على البحر من شواطئ المشرق العربى فى لبنان وسورية وفلسطين . وقد كانت هذه المنطقة ـ لاسيما شواطئ لبنان ـ مجال اتصال واحتكاك فى التجارة والثقافة خلال التاريخ ، كما كانت طريقًا للتوغل السلمى وبعض التوغل المسلح إلى قلب الشرق . وعادت قيمتها فظهرت فى الحرب العالمية بشطريها ، فاقتتل فى ميادينها الحلفاء والأتراك (ومن ورائهم الألمان) أثناء الجولة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، كما اقتتل البريطانيون وقوات المحور وفيشى فى الجولة الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) . بل جاءت فترة خلال هذه الجولة الأخيرة خيل فيها أن المحور يستطيع أن يدور من اليونان وجزرها حول تركيا وأن يكيل ضربة شديدة يصيب بها موقف حلفاء الشرق فى الصميم .

والمدخل الأخير للشرق الأوسط من ناحية الشمال هو طريق القوقاز وشمال إيران وهذه منطقة كانت على الدوام تمثل نقطة اتصال للشرق القريب بداخلية آسيا الرعوية . فمن طريق إيران نفذت جيوش الإسكندر إلى تركستان ، ثم جيوش العرب إلى الإقليم نفسه . وعن طريق ممر تفليس فى القوقاز مرت قوافل العرب واتصلت تجارتهم بجنوب روسيا وأرض بولندة (والبحر البلطى) فى القرون الوسطى . وعن طريق تركستان وقزوين جاءت جحافل المغول والتتر إلى شمال إيران ، ثم أرض الخلافة العباسية فى بغداد عام ١٢٥٨ . وعبر شمال إيران وكردستان مر السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية والبلقان . ومع أن التشاحن خف فى هذا الركن الشمالى الشرقى من الشرق الأوسط فترة من الزمن ، فإنه تجدد فى أواخر القرن الماضى وخلال القرن الحاضر ، عندما ظهرت قوة الروسيا بشكلها القيصرى أول الأمر ، ثم بشكلها السوفياتى بعد ذلك ، وسعت إلى أن يكون لها منفذ نحو البحار الدفيئة فى الخليج العربى . ثم استمرت المسعى فى هذا الاتجاه آخر الأمر ، عندما رأت أن الطريق إلى تلك البحار

غني بموارد الزيت من جهة ، كما أنه يؤدى إلى قلب العالم العربى وإلى البحر المتوسط آخر الأمر من جهة أخرى .

وإلى الجنوب من الشرق الأوسط هناك مدخلان أو مخرجان لذلك الإقليم : أحدهما يمتد مع الخليج العربى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر ، وكلاهما يصل بين قلب الشرق الأوسط إلى شواطئ المحيط الهندى وما وراءه من بلاد الشرق البعيد . وقد كان التسلط على هذين الذراعين من البحر والسواحل المحيطة بهما غاية كل عسكرى يريد السيطرة على الشرق ومسالكه ، منذ بدأ الإتصال بين الشرق والغرب ، وصارت للمسالك البحرية قيمتها فى ذلك . فقد سعى الفرس إلى ذلك وتسلطوا فى أوقات مختلفة على الخليج العربى بشاطئيه ، وعلى طرفى البحر الأحمر فى الشمال والجنوب . وسعى طرفى الرومان إلى ذلك أيضًا فوضعوا أيديهم على رأس البحر الأحمر فى السويس والعقبة ، وعلى رأس الخليج العربى فى ميناء أبلة القديم فى شط العرب . وأدرك العرب المسلمون قيمة هذين الطريقين ، فأنشأوا فيهما الموانى ، وأحكموا السيطرة على طرق البحار خلال فترات منقطعة من العهد الإسلامى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث ظهر التسابق بين الدول الطامعة فى الشرق والمتكالبة على السيطرة على مسالكه ومداخله وبتروله ، فسعت كل منها إلى أن تمكن لنفسها من أحد هذين الطريقين البحريين ، ومن المسالك البرية المؤدية إليه والمشرفة عليه . فالى وحتى فارس والخليج العربى سعت روسيا جهد طاقتها ، ولكن وقفت فى سبيلها بريطانيا ، التى جاءت الخليج من طريق الهند أول الأمر ، فبسطت سلطاتها على عمان والبحرين والكويت ، ونشرت نفوذها فى أراضى إيران وشواطئها الجنوبية ، ثم جاءت إلى نفس الخليج من بعد ذلك وأثناء حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ عن طريق الهند والبحر إلى العراق الأدنى ، وكذلك من طريق الشرق العربى الشمالى ، بعد أن كافحت الخطر الألمانى الذى سعى مع الأتراك نحو العراق . أما طريق البحر الأحمر فقد سعت إليه بريطانيا ، فوطدت أقدامها فى مصر والسودان على شواطئه الشمالية والغربية ، وفى عدن وجزيرة بريم وساحل الصومال فى الجنوب . كما سعت إليه فرنسا فى جيبوتى ، وإيطاليا فى إرترية . واستمر الكفاح بين هذه الدول مكشوفًا أو مستترًا حتى ظهرت مشكلة الحبشة وحربها مع إيطاليا ، فكان نذيرًا بما انتهى إليه الأمر من

نضال مسلح على بعض سواحل هذا البحر خلال الجولة الأخيرة من الحرب العالمية الكبرى .

وهكذا نجد فى هذا الشرق الأدنى كما يسميه الجغرافيون ، أو الشرق الأوسط كما يسميه العسكريون المحدثون ، منطقة كثيرة المداخل ، متعددة المنافذ ، تطل على بحار الشمال وبحار الجنوب ، وتتصل باليابس فى الشرق والغرب . فلم يكن بد من أن تتأثر بالحرب أنى جاءت ، ومن أن يحاول العسكريون والمحاربون أن ينفذوا إلى قلبها من أى طريق . بل لم يكن بد من أن يمتد إلى هذه المنطقة لهب الحرب وأن يكويها سعيرها ، مهما حاولت أن تجنب نفسها موارد التهلكة ومصارع السوء ، أو أن تتقى أهوال الحرب والكفاح المباشر . فهى طرف فى كل حرب عالمية أرادت أو لم ترد ، والشر يسعى إليها عن كل طريق ، ويأخذها من كل جانب ، لايحوله عنها محول ، ولا يرده عنها راد .

بل هكذا قضت الطبيعة أن يكون الشرق الأدنى أو الأوسط ميدانًا من ميادين التسابق والمساومة فى اقتصام مناطق النفوذ بين كبريات الدول ، حتى قبل أن يبدأ النضال المسلح فى عام ١٩١٤ ففى أوائل هذا القرن كان حلفاء الغرب وأنصارهم فى روسيا قد حددوا مناطق نفوذ كل منهم فى الشرق الأوسط ومنافذه ، فأطلقت فرنسا يد بريطانيا فى مصر وقناة السويس باتفاقية ١٩٠٤ ، واقتسمت بريطانيا وروسيا مناطق النفوذ فى الأراضى الايرانية على الجناح الشرقى لهذه المنطقة باتفاقية ١٩٠٧ . ومع ذلك فعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى كانت تركيا العثمانية لاتزال سيدة الجانب الأكبر من قلب هذا الشرق ، ما بين جنوب شرق البلقان وبحر العرب ، فكان طبيعيًا أن تحاول ألمانيا أن تنفذ إلى الشرق عن طريق أرض الخلافة ، فمهدت للوصول إلى بغداد فى طريقها نحوالخليج وبعثت بعملائها ثم بجيوش حلفائها الترك إلى الشام وفلسطين وسيناء وقناة السويس على باب مصر الشرقى فى عام ١٩١٥ ، وكان غرضها من كل ذلك أن تقطع طريق الهند على بريطانيا ، وأن تمنع حلفاء الغرب فى الوقت ذاته من أن يحاولوا تطويقها بالالتفاف حول أراضى تركيا أو شق طريقهم والاتصال بالقوات الروسية فى بعض جهات آسيا الغربية . وكانت بريطانيا قبل ذلك وخلال ذلك قد تفاهمت مبدئيًا مع روسيا

(١٩١٢ ـ ١٩١٣ ثم ١٩١٥) على أن تكون القسطنطينية من نصيب الروس بعد الحرب ، فكان من الطبيعى أن يعقد اتفاق سرى مقابل للدفاع المشترك بين الترك والألمان ، واستطاعت ألمانيا بفضل ذلك أن توطد أقدامها فى منطقة المضايق . فآذن ذلك بدخول الشرق الأدنى كله فى نطاق الحرب ، حتى قبل أن تعلن بصفة رسمية بين العثمانيين والحلفاء .

وفى مطلع الحرب كانت قوة حلفاء الغرب مركزة على الخصوص فى مصر ، التى فرضت عليها الحماية البريطانية ، والتى ما لبثت بريطانيا أن اتخذت منها بالتدريج تلك القاعدة التى طالما استطاع حكامها وسادتها أن يسخروا مواردها ، وأن ينشروا منها نفوذهم ويمدوا سلطانهم فى كل اتجاه . وفعلاً بدأ البريطانيون ينظمون شئونهم فى مصر وإن كانوا كعادتهم فى أمثال هذه المناسبة ، قد بدءوا متأخرين بعض الشىء ، غير مستعدين تمام الاستعداد ، وإنما كانوا معتمدين على مقدرتهم التقليدية على تكييف الأمور ومواجهة الأزمات أولاً فأولاً . لذلك أعلنوا الأحكام العرفية فى مصر فى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وأعلنوا معها أنهم يتحملون وحدهم تبعات الحرب . وأنهم لن يفرضوا على مصر أن تساهم فيها بشىء ، ومع ذلك فلم تمض ثلاثة أيام حتى صدرت أوامرهم إلى المدفعية المصرية أن تشخص إلى القناة لتدافع عنها ! ولعلنا لا نزال نذكر ما قامت به مصر فى عام ١٩١٥ من رد غزوة الأتراك والألمان ، التى جاءت إلى شبه جزيرة سيناء ، والتى استطاعت بعض طلائعها أن تعبر القناة . والحق أن هذا كان أول محك لما تستطيع مصر أن تؤديه فى حرب كهذه . وليس يضير مصر ألا تكون بريطانيا قد اعترفت إذ ذاك أو بعد ذاك بما أدته مصر لنفسها وللحلفاء ، فقد ينصف التاريخ أولئك الأبطال الذين دافعوا عن القناة يومًا ما . ولو وقف البريطانيون وحدهم أمام الغزاة لما ثبتوا لهم ولما ردوهم ، بل لوصل الأتراك والألمان ـ فى رأى كثير من ثقات الحرب ـ إلى القاهرة فى أيام ، ولكان لذلك ، فى أغلب الظن ، من العواقب ما قد يتغير معه بعض وجه التاريخ .

ولكن الصدمة الأولى نبهت بريطانيا إلى خطورة الأمر فى الشرق ، كما نبهتها إلى أهمية مصر كقاعدة عسكرية لتجمع قوات البر والبحر على السواء . وكان طبيعيًا

أن تستغل بريطـانيا ناحية البحر أول الأمـر ، وهى الدولة البحـرية الأولى ، فاتخذت عدتها واستخـدمت مرافئ مصر ومـرافقها كقاعـدة لتجمع بحرى هـائل ، فيما عرف بحملة البحر المتوسط Mediterranean Expeditionary Force التى انطلقت من مصر فى عام ١٩١٥ نحو غاليبولى ، وكانت غايتها قطع الطريق على الألمان وفتحه إلى الـروس . ولكن عـوامـل مختلفة أدت إلى إخفـاق الحملـة التـى كان ينقصهـا عنصر المفـاجأة . وكما أخفقـت جيوش الترك والألمان عنـد قنـاة السويـس لأنها كانـت على مسافـة بعيدة من قواعـدها عندما ثبـت لها المدافعون وردوها على أعقابها ، وكـذلك أخفقت أساطيل الحلفاء فى الدردنيل لأنها كانت بعيدة عن معقلها فى مصر ولاتستند إلى شىء فى الطريق ، فثبت لها الأتراك وبددوا حملتها تبديدًا .

ولكـن البريطانيين كـانوا فى الـوقت ذاتـه يوالـون تنظيم مـوارد مصر ، ويتابعـون إعدادهـا لأن تكون أداة فعـالة فى الحرب ، وإن لم يعترفـوا بمركـزها كشريكـة فيها . حتى ما إذا جاءت المرحلـة الثالثة من مراحل الحرب فى الشرق (بعد مـرحلتى الدفاع عن القنـاة والهجوم على غـاليبولى) بـرزت أهمية مصر وتجلـت مساهمتهـا الفعالـة فى صورة جـديدة ، فتـألفت فى عـامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ القوة التـى عرفـت باسـم قوة الحملة المصريـة Mediterranean Expeditionary Force وتحولت فـرق العمال المصرية التـى أعدت مـن أجل غـاليبولى إلى مصر الشرقيـة ، ثم إلى فلسطين والشـام وأرض العـراق الأعلى ، وارتفـع رقـم المشتركين فى الحملـة مـن المصريين إلى حـوالى ١٥٠,٠٠٠ من الـرجال يعملـون بعقود لمدة ستـة أشهر ، أى بمعـدل ثلثمائة ألف رجـل يشتركون فى الحرب خـلال العام . وفضـلاً عن ذلـك فقـد سخرت بـريطانيـا موارد مصر من الأرزاق فى الحبوب والدواب والأنعام ، جمعت كلها بقبول من حكومة مصر ومعاونـة فعالة منهـا لتغذية الجيش والحملـة نحوالشرق ، مع أن الأمـر فى هذه الحملـة كان قـد انقلـب مـن مجرد الدفـاع عـن مصر إلى التـوسع والفتـح فى أمـلاك الامبراطـوريـة العثمانية والخلافـة الإسـلاميـة ، وهنـا تجلى استغـلال بريطـانيـا لمصر وتسخيرها مـواردها مـن الرجال والأمـوال ، إلى جانب استغـلالها موقعهـا الجغرافى . ومن سخـرية القدر أن تكون بـريطانيا قـد بدأت باستخدام مصر وتسخيرهـا فى فتح الشرق بحجـة تحريره مـن الأتراك فلما استتـب لها الأمـر فيه وتمكنـت قواتها منـه ، لم تزدها مصـالحهـا الجديـدة فى الشرق إلا استمسـاكـًا بهذه الأداة ، وإلا تشبثـًا بهذه

القاعدة ، لعلها أن تفيد مرة أخرى ، وفى يوم قريب أو بعيد ، من هذا البلد الغنى ، ذى الموارد الحاضرة وذى الموقع الجغرافى الفريد . وقد كان !

ولكن مصر والدردنيل لم يكونا المدخلين الوحيدين اللذين تسرب عنهما لهب الحرب إلى الشرق الأدنى ، وإنما نشطت بريطانيا كذلك فى بحر العرب وفى خليج العرب ، وأرسلت الإمبراطورية حملتها على العراق ، فاحتلت البصرة ، ثم دخلت بغداد فى عام ١٩١٧ ، وتقدمت منها فى اتجاه الموصل والجزيرة العليا ، كما واصلت قوات بريطانيا زحفها من فلسطين إلى الشام وصوب العراق الأعلى . وفى أعقاب الحرب تعقد الموقف فى الشام بتسابق بريطانيا وفرنسا إلى اقتسام مناطق الاحتلال ، وبنزول قوات فرنسا فى أرض المشرق ، تم اتفاق الدولتين على اقتسام غنائم الانتداب فى مؤتمر الصلح وعصبة الأمم . كما زاد الموقف تعقداً بمحاولة إيطاليا تحقيق أطماعها فى جنوب غرب الأناضول تلك الأطماع التى لوح لها بها الحلفاء فى معاهدة لندن السرية التى دخلت بمقتضاها إيطاليا الحرب فى عام١٩١٥ ، ولكن هذه الدولة كانت أضعف من أن تحتفظ بقواتها أو بنفوذها فى أراضى تركيا ، رغم أنها كانت تحتل جزر الدوديكانيز منذ عام ١٩١٢ . كذلك انتهت محاولات اليونان ، ومن ورائهم حلفاء الغرب فى التسلط على أزمير، باندحارهم أمام قوات الغازى مصطفى كمال على نحو ما هو معروف .

على أن المهم من كل هذا أن لهيب الحرب قد امتد إلى الشرق الأوسط من أكثر من جهة واحدة ، وكان ذلك أمراً طبيعيًا إذا نحن راعينا كثرة مداخل هذا الإقليم ومآخذه وأهميته الفريدة فى صلات الغرب والشرق . بل كان طبيعيًا أيضًا أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما قد يزيد على تأثر غيره من أقاليم الأرض وشعوبها . فقد أطمعت الحرب الظافرين فى هذا الإقليم ومراكزه العسكرية ، وموارده التى لا ينقصها غير حسن الاستغلال . وكان ذلك فى وقت زالت فيه سلطة الأتراك ، ودال سلطان الخلافة أو كاد ، فتدخلت بريطانيا ومعها فرنسا فاقتسمتا قلب الشرق الأوسط بما جعل للأولى نصيب الأسد وللثانية نصيب النمر . ولولا انقلاب الأحوال فى روسيا وظهور ثورة البلاشفة ، وما صاحب ذلك من انكماش تلك الدولة ثم انطوائها على نفسها ، لكان للروس مطمع فى

جانب من الغنيمة . كذلك لولا تقاعس أمريكا وتخوفها من الشرق ومشكلاته أو ذاك لكانت تلك الدولة شريكًا فى بعض أسلاب إمبراطورية العثمانيين .

وانقضت فترة ما بعد ذلك تلك الحرب فى قلقلة واضطراب ما كان يستقر معهما الشرق الأوسط وأهله على شيء . وقد أغرى اختفاء ألمانيا المؤقت وراء الأفق كلا من بريطانيا وفرنسا ، فلم تنتبها إلى ما تقتضى به الحكمة من إنجاز العهود وإنصاف أهل هذا الإقليم بعد جهادهم فى سبيل هزيمة الأتراك ، بل مضتا أول الأمر فى سياسة أقل ما يقال فيها أنها لم تراع ما استأهله فريق من شعوب الشرق الأدنى من حرية تقرير المصير ، ولو فى ميدان الحكم الذاتى الصحيح . ولم تكن تلك السياسة مما يمكن أن يدوم أو أن يؤدى إلى الاستقرار . وقد جربت بريطانيا بصفة خاصة أن تجمع بين المتناقضات فى سياستها مع مصر إذ منحتها الاستقلال فى ظل الاحتلال ، ومع فلسطين إذ جعلتها للعرب وللصهيونيين فى آن واحد . وطغت فرنسا فى سوريا ولبنان ، فتلاعبت بالعرب وشوهت وحدة بلادهم ، دون رقيب أو حسيب . ولكن انفراد بريطانيا وفرنسا بشئون الشرق لم يكن إلى أجل غير مكتوب ، وظهور ألمانيا أو الشبح الألمانى ، من وراء الأفق مرة ثانية لم يكن إلامسألة ، كما أن استئناف الكفاح بين الجبابرة من أجل الشرق كان أمرًا مفروغًا منه عند من يعرفون بواطن الأمور ، وكانت ساعته آتية لا ريب فيها . وكانت بريطانيا بحكم تجاربها ومصالحها المتشابكة ، أسبق فى إدراك ضرورة ذلك من فرنسا ، فلم تلبث أن فرغت من بعض مشكلاتها مع العراق ، ثم عقدت معاهدتها المعروفة مع مصر ، والتى تعتبر ولا ريب أخطر عمل سياسى أنجزته بريطانيا فى الشرق ، إذ ضمنت به سلامة مواصلاتها ، كما ضمنت استقرار الأمور واستغلال موارد هذه القاعدة وموقعها الجغرافى بما لا يقل عما حدث فى حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ . كذلك عملت بريطانيا على تهدئة الحال بالنسبة للعرب فى فلسطين ، فأصدرت كتابها الأبيض بتحديد هجرة اليهود فى عام ١٩٣٩ . وفى الوقت نفسه اضطرت فرنسا إلى أن تسلك بعض ما سلكته بريطانيا ، فحاولت ــ ولو فى شيء من المداورة والتردد ــ أن تنظم علاقتها مع سورية ولبنان على أساس جديد من بعض الوجوه . وهكذا ترتب على هذه الخطوات من جانب بريطانيا

وفرنسا أن لاحت الحرب الهتلرية ، والشرق الأوسط عند مفترق الطرق . . قد بدأ يستشف طريقه ويتلمس سبيله إلى حياة الاستقرار أو ما يقرب منه ، ولكنه مع ذلك يشفق من المستقبل ولا يطمئن إليه بأكثر مما تسمح به تجاربه خلال ربع قرن كامل .

ولكن التاريخ أعاد نفسه فى الجولة الثانية من الحرب العالمية ، وإن كانت تفاصيل الكفاح وبعض ميادينة قد تغيرت نظرًا لتغير ظروف المحاربين . والشىء المهم أن الهدف الأول من الحرب بقى كما كان ، وهو السيطرة العالمية والتحكم فى اتصالات الغرب بالشرق . وقد سعت ألمانيا فى هذه المرة إلى قلب الشرق كما سعت فى المرة الأولى ، ولكن تغير الأحوال جعلها لا تركز فى طريق واحد كما فعلت فى الجولة الأولى ، عندما اتخذت طريق المضايق دون سواه ، فقد وقفت تركيا الجمهورية على الحياد فى هذه المرة ، ولم تسمح باستخدام مضايقها فى أغراض الحرب لأى فريق من المتحاربين . وترتب على ذلك أن سعت ألمانيا ، أو اضطرت إلى السعى ، نحو الشرق الأوسط من غير هذا الطريق واختارت بالفعل طرقًا ثلاثة : أولها طريق القوقاز ، وكان وعرًا صعبًا ، وقفت من دونه جحافل الروس . وثانيها طريق البلقان واليونان والدوديكانيز إلى سواحل المشرق والشام ، وقد سعت فيه ألمانيا إلى منتصفه ، ولكنها لم تسر حتى النهاية فاستطاع الحلفاء أن يزحفوا إلى سورية ولبنان وأن يطردوا قوات فيشى وعملاء المحور منهما ، كما لم تنجح ثورة الكيلانى فى العراق لأنها كانت حركة منقطعة عن غيرها ، وحركة لا تتصل بسلسلة هجوم دول « المحور » . ويظهر أن الألمان لحسن الحظ لم يقدروا أهمية هذا المدخل من مداخل الشرق الأوسط ، ولو قد فعلوا ذلك ، وحولوا جانبًا من قواتهم الضائعة فى روسيا إلى البلقان واليونان فسواحل المشرق كما فعلوا فى احتلال كريت مثلاً ، لأصبحت لهم قاعدة راسخة فى قلب آسيا الغربية ، ولتغير مجرى الحرب فى هذا القسم من العالم . كذلك حاول الألمان أن يأخذوا الشرق من مدخل ثالث هو طريق طرابلس وبرقة ومصر ، ولكنهم أخطأوا هنا أيضًا فجاءوا متأخرين . ويظهر أن تحالفهم مع الإيطاليين كان عليهم أكثر مما كان لهم ، فإن إيطاليا لم تكن فيما يظهر متفانية فى الحرب ولا مقبلة على التضحية من أجل النصر

المشترك ، فهى مثلاً لم تجازف بأسطولها فى تمكين الصلة بين قاعدة المحور فى طرابلس ومواطن التموين فى إيطاليا وألمانيا . وعلى كل حال فقد تقدمت جيوش المحور نحو مصر ثم تقهقرت أكثر من مرة حتى إذا ما جاءت الواقعة الفاصلة فى العلمين كان النصر حليف الجيش الذى استند إلى مصر . . . تلك القاعدة العظيمة التى ساندت الجيش البريطانى ومكنت له من مواردها وخيراتها ومرافقها ومواصلاتها وجهود أبنائها وإخلاصهم فى العمل ، بما كفل له الأمان ساعة الخوف ، والثقة ساعة الإقدام . . وهكذا ارتد « جيش النيل » وتراجع ، ولكن إلى غير انهيار ، حتى إذا ما دقت الساعة تقدم منتصرًا حتى جاوز إفريقية وبلغ إيطاليا بل وشمالها آخر الأمر .

وفى هذا الكفاح الطويل بين « المحور » والحلفاء فى الجناح الغربى من الشرق الأوسط لم تتجل قيمة مصر فى الدفاع عن نفسها فقط ، وإنما برزت كذلك قيمتها كقاعدة للتموين والإعداد ، وكمركز للتوسع والزحف وانفاذ الحملات بالبر والبحر والجو فى كل اتجاه . ويكفى أن نذكر هنا أن قوات الحلفاء توسعت من مصر (والسودان) نحو إرترية وشمال الحبشة ، ونحو اليونان وجنوب البلقان ، ونحو فلسطين وسورية ولبنان ، ثم نحو برقة وطرابلس وتونس والميدان الجنوبى فى أوربا . وقد تجمعت للحلفاء فى مصر جيوش من خمسة وعشرين قطرًا وشعبًا أو نحو ذلك ، حاربوا جميعًا فى أرض مصر ، أو اتخذوها قاعدة إبان الحرب . ولايكاد التاريخ يذكر أن تجمعت جيوش من مثل هذا العدد الكبير من القوميات والشعوب فى بلد من البلدان خلال تاريخ الحروب الطويل قبل ذلك .

أما فى الجناح الشرقى من الميدان فكانت روسيا فى أبلغ الحاجة إلى أن يسند ظهرها ويشد أزرها فى جبهة القوقاز والسهل الروسى الجنوبى . ولم يكن هناك طريق يمكن أن يبلغها عنه المدد غير طريق الخليج العربى وأرض إيران وكان أن احتل الحلفاء تلك البلاد واستغلوا مواردها وطرق مواصلاتها بما فى ذلك الطريق الحديدى الذى أكمله الشاه بين الخليج وبحر قزوين ، وكأنما أنجز ذلك المشروع لينتفع به المحاربون من غير أهل البلاد قبل أنه ينتفع به أبناء إيران . والغريب ـ أو لعله ليس غريبًا ـ أن إيران قد قاست من جراء حاجة المحاربين إليها مثل ما قاست

مصر وغيرها من بلدان الشرق إبان جولتى الحرب العالمية الكبرى .

ولكن الحق أن هـذه الحروب لم تكن حـرب الجبابـرة وحدهـم ، وإنما شارك فيهـا واكتوى بنارها أبناء الشرق الأوسط وأممه ـ وكـانت مشاركتهم فيها بمواردهم وأرزاقهم بـل وأرواحهم . وإذا نحـن أخذنـا مصر على سبيل المثـال فقد ينفعنـا أن نذكـر أنها أعلنت على نفسها الأحكام العرفية فى مطلع الحرب . وعلى نحو لم تعلنه بريطانيا ذاتها فى بلادها ، وأنها قطعت علاقاتها بالمحور وبلدانه وأصابها من وراء ذلك غرم كثير فى التجـارة والتبادل انتهـى إلى أكثر مـن الحرمان ، بـل إنها قبلت نظـامها الاقتصـادى والانتاجى كلـه لتلائم بينه وبين مقتضيات الظروف واحتيـاجات الحلفاء والجيران فى الشرق ، كما وضعت مواصلاتها كلها تحت تصرف الحلفاء من إنجليز وغير إنجليز . وعلى نحو انطـوى على تسخير نظام المواصـلات كله مـن أجل الحرب ، فضـلاً عن مسـاهمة جيشها مسـاهمة فعـالة فى الـدفاع عـن القنـاة والمدن الكبرى ضد الغـارات الجوية، وفى حـراسة مرافـق البلاد ، كما جندت مصر حوالى ربـع مليون من أبنـائها للعمل فى المصانع الحربية والمعسكرات ، وخصصـت حوالى نصف مليون من العمال الزراعيين لانتـاج المحاصيل والخضر التـى تحتاج إليهـا الجيوش ، واكتوت بـويلات الحرب الشـديدة فى الغـارات وحـوادث الطرق والأمـراض الـوافـدة ، ومنها الملاريـا الخبيثة التـى حصدت حوالى الستين ألفـا هم بلاشـك من ضحايـا الحرب ، والحمى وغيرها مـن الأمراض الـوافدة بسبـب تنقلات الجنـود . . . إلى غير ذلك مـن الآفات الاجتماعيـة ومشكـلات البطـالـة وغيرهـا بعد الحرب ، وهـى كلهـا تـدخـل ضمـن تضحيات مصر فى الحرب ومن أجل النصر ، مما يكشف عـن أن ما قيل عن « تجنيب مصر ويـلات الحرب » لم يكن إلا أمنيـة بعيـدة المنال ، بـل مستحيلـة مـن الناحيـة العملية؛ فهى وإن كانت قد جنبـت مصر كثيرًا من « ويلات القتال المباشر » فإنها لم تجنبها ويلات الحرب بمعناها المعروف . ومثـل هذا يصدق ولو إلى حد ما ؛ على غير مصر من بلدان الشرق فيما عدا تركيا . وليـس كثيرًا أن نسجل أنه لولا هذه المساهمات من جـانب أهل هـذا الإقليم ما كـان ذلك النصر الـذى انتهت إليه الحرب العـالمية الكبرى فى جولتها الثانية .

وفوق ما تقدم كلـه فإن الشىء الذى لاشك فيه أن أعقـاب هذه الحرب ونتائجها

لن تقف عندما أصاب سكان الشرق إبان استعار القتال ، بل هى ستتعدى ذلك إلى المستقبل القريب ، وقد تبلغ المستقبل البعيد .

وسيزيد من شدة مثل هذا النضال مستقبلاً أنه لن يكون من أجل المواصلات والقواعد العسكرية كما كان النضال السابق ، وإنما سيكون فوق ذلك من أجل موارد البترول وغيرها فى هذا الشرق الوسيط .

* * *

أما بعد ، فإن الله يداول الأيام بين الناس . وكثيرًا ما جعل الله ــ جلت قدرته ودقت حكمته ــ من الحروب سببًا لهذا التداول . والشرق الوسيط الذى نحن بصدده الآن إقليم قديم عريق فى القدم ، قد تداولت عليه أمم وشعوب ، ومر به من الحروب ما غير وجه التاريخ أكثر من مرة . ولكن حربًا واحدة من الحروب القديمة قد تستحق أن يذكرها أهل هذا الشرق - لاسيما الجانب العربى منه - فى حاضرهم ، وفيما هم مقبلون عليه من أيام . ذلك أنه أتى حين من الدهر اقتتل فيه الفرس والروم من أجل السيطرة على هذا الشرق ، وكانت هناك أمة غافلة ، أو شبه غافلة ، كان جبابرة الساعة يعتقدون إذ ذاك أنها لم تخلق ليكون لها فى العير أو فى النفير ، بل أنهم حاولوا تسخيرها وتوجيه أقدارها بما يلائم مصالحهم هم . وترددت هذه الأمة العربية أول الأمر بين الفرس والروم ، ثم مالت نحو هؤلاء الأخيرين فى مطلع العهد الإسلامى بحكم أنهم من أهل الكتاب على كل حال . ونزلت فى ذلك الآية الكريمة : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولكن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن أدركوا أنه أولى بهم أن يكونوا لله ولأنفسهم وللإنسانية قبل أن يكونوا للفرس أو للروم . وقد أذن الله أن يئول إليهم الأمر فى الشرق بعد أن اقتتل الفرس والروم اقتتال فناء ، وبعد أن حطم الشر الشر ودوخ الشيطان الشيطان . والآن يقف أهل الشرق الأوسط موقفًا لا يمثل ذلك الموقف القديم ، ولكنه منه على شىء من الشبه ولو من بعيد . وليس أدل على ذلك من أن هذا الشرق فى قرارة

نفسه قلق على المستقبل حائر فى أمره ، يخشى أهله أن ينحرفوا أو أن يميلوا كل الميل فتأخذهم الريح أو يجرفهم التيار ، وقد ينفعهم فى هذا الموقف أن يستجمعوا ثقتهم بأنفسهم ، وأن يذكروا ما يفرضه عليهم موقعهم الجغرافى نحو أنفسهم ونحو الإنسانية جمعاء . بل قد ينفعهم أن يذكروا ما انتهى إليه الأمر مع أولئك الأعراب القدماء الذين ذكروا أنفسهم فكانت لهم العاقبة ، ولو بعد حين .

قد يبدو هذا الكلام وهمًا أو خيالاً، ولكن هذا الشرق الأوسط كان فى تاريخه الطويل مهد المعجزات ، وسيبقى كذلك ما بقى التاريخ . والله سبحانه وتعالى قادر، فى يوم قريب أو بعيد على أن يخرج الواقع من الوهم ؛ وعلى أن يخرج الحقيقة من الخيال وصدق الله العظيم ، وهو القائل فى معرض الكلام عن اقتتال الجبابرة القدماء من أجل هذاالشرق ، اقتتالاً ما كانوا ليقدموا عليه لو أنهم أدركوا عاقبته «لله الأمر من قبل ومن بعد . . وهو العزيز الرحيم» .



« ٨ »

الأمة الوسط والبيت العربي الكبير



الأمة الوسط والبيت العربى الكبير *

قال تعالى وقوله الحق :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ صدق الله العظيم .

إننا نحن العرب . . . أمة وسط . . . . خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف، وتنهي عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتسارع في الخيرات . . . . نحن أمة وسط بين السلالات والأجناس ، ووسط في الموقع الجغرافي بين عالم الشرق وعالم الغرب ، ووسط بين الحضارات .

وإن من ينظر إلى بلاد العرب ، ليجد البحر الأحمر والخليج العربي غير متصلين بالبحر المتوسط . ولو اتصل البحر الأحمر والخليج العربي بالبحر المتوسط ، لعبر الناس منطقة بلاد العرب ، بواسطة هذه البحار ولتأثر الدور الذي قامت به البلاد العربية في الوساطة ونقل السلع والأفكار .

ولكننا نحن العرب أمة وسطاً . . لا مجرد « وسطاء » ، وتلك ميزة تضاف إلى مانتحلى به من مزايا في الثقافة والروح والسلوك والمزاج وكرم الطباع ورحابة النفس وحسن الأخذ والعطاء ، والتحرر في ذلك كله من مركّب النقص ، كما أننا نقدس الحق والخير والتواصى بالبر واحترام العقائد ومناصرة الحق .

وعلى الرغم من «عصبية الجنس » ، إلا أننا نرفض « التعصب » ، وندعو إلى التسامح ، ونفسح للمودة أن تنمو في رحابنا ، وتزدهر بين جنبات وطننا العربى الكبير، الممتد من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا .

---

* خطاب ارتجل (وينشر الآن وبنصه الأصلى مع بعض التعديلات) فى ندوة عقدت بمدينة بنغازي (ليبيا) .

نحن العرب لم نعرف التعصب كما عرفه غيرنا من الأمم ، وإنما امتزنا برحابة إنسانية رائعة .

فعندما ظهرت الأديان السماوية في أراضينا ، وأنزلها الله من عنده ، لم يكن ذلك صدفة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يصدر إلا عن حكمة ، ولو شاء ربك لأرسل النبيين والرسل في الهند أو في الصين أو عند القطب الشمالي أو في أراضي أمريكا أو أستراليا . ولكنه لم يفعل ، وإنمابعث رسل الأديان السماوية الثلاثة إلى الأرض في بلادنا العربية ، ولم يكن هذا إلا لحكمة خاصة ، ذلك أن أرضنا وسط ، وأن شعبنا وسط ، وأن مزاجنا وسط ، وأن روحنا وسط ، وأن عاطفتنا وسط ، وأن ضميرنا أقرب الضمائر إلى ضمير الإنسان .

والله سبحانه حين يتحدث إلى الناس ، وحين يكلمهم إنما يخاطب العقل والضمير معًا ، وإن الإنسان ليمتاز على الحيوان بضميره قبل أن يمتاز بغريزته أو حتى بعقله ، فالغريزة أمر مشترك بين الإنسان والحيوان جميعا ، والعقل يشارك بعض الحيوان الإنسان فيه ، ولو بأقدار قليلة أو متفاوتة . أما الضمير فينفرد به الإنسان .

الله يعرف أن هذا الضمير هو الذى تكمن فيه قدرته وحكمته فى خليقته على الأرض . ذلك الضمير الذي عرفه سكان المشرق العربي منذ قديم ، هو الذي نظم سلوكهم ، ووجهه بحيث يعرفون غيرهم من الأمم ، وبحيث يقدّرون مالدي غيرهم من الأمم من رأى أو من فكر أو من حضارة أو من سلوك ، وبحيث تقوم الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس من السلوك الفردي الذى يمليه الضمير ، والذي يحاسب عليه الضمير كذلك .

وعلى هذا الأساس كان الناس فى هذا المشرق العربي منذ قديم أقدر خلق الله جميعا على أن يدركوا رسالة الرسل ، وعلى أن يعرفوا الله ،وعلى أن يتقوا الله في سلوكهم في الحياة . لذلك فإننا حينما نزلت الكتب السماوية علينا ، عرفنا أننا جزء من الإنسانية جميعا ، عرفنا أننا نتوسط العالم ، ونتوسط الشعوب ، وأننا نخالط الناس في كل مكان وأننا نعطى الناس كما نأخذ عنهم ، وأن حياتنا تقوم على ما نسميه الآن العطاء والأخذ ، لذلك انطلقنا بهذه الرسالات شرقا وغربا ، حتى

أصبح هذا المشرق العربي منذ قديم، وأصبح سكان هذا البيت الكبير « وسطاً بين الناس » .

وفي الحالات التي شذ فيها عنصر من العناصر السامية التى ظهرت في الإقليم في وقت من الأوقات . . . شذ عن هذه السجية ، وهذا الطبع الذي طبع عليه الله سكان هذه الأرض . . . فشل ذلك الفريق من الساميين ، وأظن أنكم تدركون أنني إنما أعني طائفة اليهود . فالديانة اليهودية في أصولها ومبادئها منزلة من عند الله . . . ولكن طائفة اليهود نشزت عما تقضى به طبيعة سكان هذا الإقليم من أنهم جزء من العالم يعيشون لأنفسهم ولغيرهم ، ويعيشون بأنفسهم وبغيرهم ، وتقوم صلات التبادل بينهم وبين غيرهم على أساس من العدل والإنصاف والمحبة . أما اليهود فقد انطووا على أنفسهم ولم يبشروا ديانتهم بين غيرهم ،بل تنكروا في كثير من الأحيان لرسلهم أنفسهم .

وترتب على هذا أن الديانة اليهودية لم تنتشر في الأرض ، وإنما الذي انتشر أو الذين انتشروا هم اليهود ، وفرق بين أن يتفرق الناس وبين أن تنتشر أفكارهم وحضارتهم وديانتهم . . . قارنوا بين هذا وبين ما حدث عندما جاءت المسيحية ، ثم جاء الإسلام .

جاءت المسيحية فأدرك سكان المشرق العربى أنها دين من عند الله أنزله للجميع، وأنها تقوم أساسا على المحبة ، ولذلك انطلقوا بها شرقا وغربا فانتشرت المسيحية .

ثم جاء الإسلام ، جاء ديناً للناس كافة ، سمحا توسع إلى بعض أراضى المسيحية الأولى ، وقام على أساس الإخاء بين الناس جميعا ، وعلى أساس المساواة بينهم ، بحيث لم يفضل العربي على الأعجمي إلا بالتقوي ، وفتح مجال المفاضلة على أساس جديد تماما ، لم يعرف اللون ولم يعرف الجنس ، تساوت الألوان ، ولا غرو فقد خلقها الله متساوية ، ولم يعد النسب ولا الحسب مستقر القيمة الإنسانية للفرد ، وإنما أصبح البر وأصبحت التقوي وأصبح التواصل والتراحم بين الناس ، وأصبحت محاسبة الضمير للإنسان وأصبحت معرفة الله عن طريق العبادة الحقة . . أصبح كل هذا أساس المفاضلة بين الناس ، تعارفت الشعوب ، ودخل الناس في

دين الله أفواجا . وانتشر الإسلام شرقا وغربا .

وإننى لأصدقكم حين أقول : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وإن كانت «سلطة المسلمين » في بعض العصور قد انتشرت واتسعت بالسيف . . إنما انتشر الإسلام لأنه كان يدعو إلى الإنسانية ، ولأنه كان ينطلق على يد دعاة ومبشرين من المشرق العربى طبعت فيهم البيئة روح الإنسانية السمحة . . وتوارثوا عن أجدادهم أنهم وسط بين الناس .

لقد اشتغل العرب والمسلمون بالتجارة ، وهى مهنة شريفة ، تتصل بتبادل السلع، ولكنها تيسر أيضا تبادل الأفكار . والنبى عليه الصلاة والسلام كان تاجرا، كما كان رسولا . .

ولقد انتشر الإسلام شرقا إلى داخلية آسيا ، وكان انتشاره إبان ضعف دولة المسلمين العسكرى ، لا إبان قوتها . فقد انتشر في عهد المغول ، الذين طغوا على المشرق العربي ، وبلغوا بغداد وأحرقوها ، ثم حاولوا أن يبلغوا أرض الشام وأرض مصر ، ولكنهم اندحروا لاسيما فى واقعة عين جالوت ، بفضل جيش مصر الإسلامية وهو الذي أنقذ الإسلام في يومه العصيب .

وهكذا انتشرت العقيدة والثقافة الإسلامية والعربية إلى قلب آسيا . . إلى أرض المغول أنفسهم ، فى وقت لم تكن فيه للمسلمين ولا للعرب جيوش تتوسع نحو قلب القارة أو مشرقها . ثم انتشر الإسلام إلى بلاد ماليزيا واندونيسيا عن طريق البحر والتجارة البحرية . ولم تكن للعرب ولا للمسلمين دولة أقاموها بحد السيف في البحار إلى جزر إندونيسيا ، وكذلك انتشر الإسلام إلى أرض السودان ، وإلى داخلية إفريقية وشرقها ، وانتشر عن طريق هجرة القبائل العربية على طول وادى النيل ، وانتشر الإسلام كذلك إلى شمال إفريقية ، وإلى أرض السنغال ، عن طريق شمال إفريقية وعن طريق الهجرة والتجارة . وانتشرت بينهم الأفكار ، لأن الذين حملوا لواء الثقافة العربية والإسلامية كانوا وسطا بين الناس .

والعرب أيضا كانوا وسطا في صفات أخرى كثيرة ، منها أنهم وسط بين الحضارات . وسط بين حضارة الفرس ، وحضارة الهند فى الشرق ، وبين حضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة القرطاجيين في الغرب ، بل بين حضارات

الشمال القديمة والحديثة وبين حضارات إفريقية في الداخل والجنوب . . . والحق أنهم كانوا منذ قديم رسل ثقافة . . . . ورسل حضارة .

هذا هو الذى حدد دورنا في التاريخ ، وهذا هو الذي جعل بيتنا العربى بيتا كبيرا وعريقا . وهذه الصفة لم تجتمع لغيرنا من الأوطان أو الناس ، فغيرنا كان ينطوى على حضارته ، وكان يزورّ عن حضارات الآخرين ، بل كان يزدرى حضارات الآخرين في كثير من الأحيان . أما نحن فقد كنا نعتز بحضارتنا ، وكنا فى الوقت ذاته نعرف لغير حضارتنا من الحضارات قيمتها ، وهذه صفة انفردنا بها بين الأمم والشعوب ، لاسيما القديمة منها .

فالصين مثلا كانت لها حضارة ، ولكنها بقيت للصين على مرّ العصور ، وانتشرت بعض الانتشار إلى جنوب شرق آسيا ، وانتشرت قليلا فى داخلية القارة ، ولكنها لم تنتشر إلى خارج نطاق الصين الكبرى وما جاورها . وكانت للهند حضارة ، ولكنها اختلطت بما دخل إليها حتى أصبحت الهند مستودعا لسلسلة من الحضارات المتعاقبة والمتعاصرة فى آن واحد ، كاد منها طابع الحضارة الهندية أن يزول ، وحتى عندما انتشرت الحضارة من الهند لم تنتشر على يد الهنود بقدر ما انتشرت على يد غيرهم من الناس . وكانت للفرس حضارة بقيت ضعيفة النطاق تكاد تقتصر من حيث اللغة على أرض الفرس أنفسهم ، وتكاد لا تتسع فى انتشارها إلى أكثر من حضارات مجاورة ، وعادت تلك الحضارة الفارسية فاحتكت بحضارة الإغريق ، واحتكت احتكاكا حربيا وعسكريا بالثقافات وأهل الشواطئ المجاورة لأرض الفرس ، كما حدث حول الخليج العربى ، أو كما حدث على أطراف الهند ، كذلك كانت لليونان حضارة ، ولكنها ضعفت على مر الزمن ولم تستمر ، وكانت للروم حضارة ، ولكنها تمثلت على الخصوص فى نواحى الإدارة أو نواحى التشريع أو فى بعض النواحى المادية كمدّ الطرق ، ولكنها ماتت فى آخر وقتها ، ولم تبق على الزمن . أما العرب فحضارتهم كانت حضارة مستمرة وباقية على الزمن حتى وقتنا هذا .

لغتنا العربية ، لغة بقيت حوالى ستة عشر قرنا حية ، فنحن اليوم لا نزال نقرأ الشعر الجاهلي ونتذوقه ونتعشقه ونتغنى به ، فى حين إننا لو ذهبنا إلى بلد كإنجلترا

أو كفرنسا ، وحاولنا أن نقرأ شعراً مضت عليه سبعة قرون أو ألف عام فإن البريطانى أو الفرنسى لا يكاد يفهم منه شيئا ، وإذا ما فهم شيئـا فإنه لن يتذوقه . أما لغتنا فقد احتفظت بحيوية عجيبة ، فهى قديمة وهى مستمرة على الزمن ، وهى لغة القرآن . . والقرآن حصن اللغة العربية الباقى ما شاء الله .

وثقافة هذا البيت العربى الكبير ثقافة ممتـدة شاملة تشمل البيت كله ، فكلنا نقرأ القـرآن ونرتلـه ونتنشـى بالاستماع إليـه ، كلما رتله المقـرءون ، وكلنـا نتعشق الإنتـاج الأدبى العـربى بصـوره التى هـى بعض نـواحى الخلـود فى اللغة ، وكلنـا فى العهد الحديـث ، وبفضـل التربية والتعليـم ، أصبحنـا فى هـذا البيت الكبير ، نقـرأ لغـة واحدة بكتـابة واحـدة ليس لها ممـاثل فى العـالم كله ، فيما عـدا الصين إلى حد مـا . فالصين هـى البلاد الـوحيدة الكبيرة فى المساحـة ، والتى تقرأ لغـة واحدة . فـأما فى الهند مثـلا فإن الهنود لايقـرأون لغة واحدة ، وإذا أراد هندي جنـوبى أن يتفاهـم مع هندى شمالى فى الـوقت الحاضر فإنهما يستعمـلان لغة غـريبة عن الإثنين وهـى اللغة الإنجليزية .

أما نحـن فى عالمنـا العربـى فننعم بنعمة كبرى ، وبمقـوّم أساسـى من مقـومات الوحدة بين الناس والترابط والتفاهم بين الأفراد ، ، أفراد البيت الواحد ، هذه النعمة هى اللغة العربية .

ثـم إن حضارتنـا حين توسطـت الحضارات احتفظـت بحيويتهـا . صحيح أننـا احتفظنا فى هذه الحضارة ، وفى هذا البيت العربى الكبير ، بـأصولنا العربية القديمة فاتهمنـا بعض الباحثين الغربيين بـأننا قوم جـامدون محافظون على القديـم ، نتعشق الشعر القديم الذى يقـال إنه قد جرى عليه الزمن . ولكن الواقـع أننا إن كنا نحافظ على القديم الطيب من تراثنا فإننا فى الوقت ذاته نجدد فى كل يوم .

فنحن العـرب ، قد اتصلنا بالحضـارات القديمة فى الشرق وفى الغرب ، وأخـذنا عنها ، ولم نستشعر حرجاً فى أن نأخذ عـن غيرنا ، لأننا نعرف أن الحياة أخذ وعطاء ، ولأن الكريم هو الذى يأخذ ، ولا يأنف أن يـأخذ ، لأنه لا يخشى اليوم الذى يرد فيه الجميـل أضعـافـا مضـاعفـة . وهــذه صفتنــا نحـن العــرب ، نــأخـذ مــن غيرنا فى غير حرج ، وفى غير مـركب نقص ، لأننا نعـرف أننا إما أن نكون قـد سبقنا

بالفضل إلى غيرنا ، وإما أننا قادرون بإذن الله على أن نرد الجميل فى حينه وهذه صفتنا . . صفة الكرم ، كرم النفس الحاتمى الذى لا يمكن أن يولد إلا فى مكان يتوسط الأرض ويتوسط الناس ، ولا يمكن أن يولد إلا عند مجموعة من البشر عرفت غيرها من الناس وعاشرت غيرها من الناس ، أعطت غيرها من الناس ، وأخذت عن غيرها من الناس ، وتلك هى الصفه الأساسية فى طبعنا العربي ، امتدت إلى ثقافتنا منذ قديم .

فنحن العرب ، قد اتصلنا بالحضارات القديمة ، ونظرنا ولا نزال ننظر إلى الحضارات القديمة التى سبقت العهد العربى والعهد الإسلامى على أنها أصل من أصولنا . وإذا كنا نعيش فى لبنان مثلا أو فى سورية أو فى اليمن ، فإننا ننظر إلى الحضارات القديمة التى ظهرت فى تلك البلاد جميعا على أنها جذور الحضارة العربية الأولى ، ويجب أن نعرفها ، بل يجب أن ندرسها ويجب أن نحيى الطيب من تراثها ، ويجب أن نستشعر بأننا قدماء فى هذه الأرض ، وأننا حينما جاءت اللغة العربية فوحدت بيننا ، وحين جاءت المسيحية فعلمتنا السماحة والمحبة ، وحين جاء الإسلام فعلمنا الإخاء والمساواة بين الناس ، حين جاء كل هذا فإنه بنى على أساس قديم من الحضارات الماضية .

لقد حاول الغرب للأسف الشديد أن يشوه هذا ، وحاول أن يضعف ثقتنا بحضاراتنا القديمة السابقة على عهد العرب ، وهى حضارات قديمة ، ولكنها تمثل عهد الجاهلية بالنسبة لعهد الوحدة . وواجب علينا ، وقد بلغنا مرحلة الوحدة ، أن ننظر إلى تلك الحضارات الأولى على أنها بدأت متفرقة ثم تجمعت فى حضارة عربية واحدة . وكذلك الحال إذا كنا فى أرض مصر ، وكانت هناك حضارة فرعونية ، هى أصل من أصول حضارتنا ، لا يمكن أن نتنكر له ، ولكن من واجبنا أن ندرسه وأن نعى دروسه ، وإذن فسنعرف مثلا أن مصر الفرعونية كانت دائما على اتصال وثيق مع الشعوب المقيمة فى الشرق الذى أصبح مشرقا عربيا فيما بعد . كما كانت على اتصال وثيق بليبيا التى جاءت من أطرافها إحدى الأسر الحاكمة فى العهد الفرعونى المتأخر فى مصر ، كما جاءت أسرة أخرى إلى مصر من شمال السودان .

وعلينا أن نذكر أن مصر في الدولة القديمة كانت أقوى بلد فى العالم المعروف كله وبقيت كذلك لمدة ثمانمائة عام ، أيام بناء الأهرام ، ولكنها لم تشن حربا واحدة خارج حدودها ، وإنما فضلّ سكان الوادى إذ ذاك أن يقيموا الهرم الأكبر ، وهو الصرح الكبير من الحجارة ، الذى ينظر إليه العلماء فى الغرب الآن ، على أنه صرح كبير ، بددت فيه الجهود ، وسخر فيه الناس تسخيرا ، ولكننا نحن الذين نبحث أصول حضاراتنا فى المشرق العربي ، ننظر إليه على أنه متنفس للطاقة الزائدة ، فبدلا من أن تبدد قوتنا فى حرب ضروس ، وبدلا من أن يساق الناس سوقا إلى الحرب ، وبدلا من أن يحارب الإنسان جاره ، أقام المصرى القديم صرحا كبيرا من الحجر ، وبقى هذا الصرح رمزا لوحدة الجهود ، ورمزا فى الوقت نفسة للإتقان وحسن التنظيم وانصراف الطاقة البشرية إلى البناء بدلا من التخريب .

كذلك الحال فى حضارة ليبيا ، وهى أرض عربية عريقة يحاول الغربيون أن يزعزعوا ثقتنا وأن يصورونا بأننا طارئون على هذه الأرض ، وبأن هذه الأرض كانت لغيرنا من اليونان أو الرومان قبل أن يأتي إليها العربى ، ولكن هذا كله تصوير غير دقيق ، بل تصوير غير منصف ، وهذا الكلام إنما أسوقه إليكم كعالم يعرف أن ضميره يحاسبه على قول الحق ، فهذه الأرض كانت لأهل ليبيا الأولين من أقدم العصور ، وسكان ليبيا لم يتغيروا ، والعرب حين انطلقوا من أراضيهم ، كانوا بذرة طيبة ، ولكنهم خالطوا الشعوب المستقرة من قبلهم فى الأرض التى انطلقوا إليها ، فهم قد خالطوا سكان وادى النيل ، الذين نظروا إلى العهد العربى والفتح العربى على أنه المنقذ من حكم البيزنطيين ، وانتقل العرب إلى أرض ليبيا فخالطوا السكان الأصليين ، ومارسوا سماحتهم وانطلاقهم ، ومارسوا عقيدتهم التى تدعو إلى المساواة وإلى الإخاء ، وإلى محو التفاخر والتفاوت بين الناس على أساس من الجنس أو من السلالة ، فأرضكم (يا أهل ليبيا) ، إذن ، هى أرضكم منذ قديم ، ودماؤكم فيها الدم القديم لسكان البلاد الأصليين ، وفيها الدم العربى الجديد ، وفيها هذه الثقافة التى تربط بين هذه البقعة من البيت الكبير وغيرها من البقاع شرقا وغربا .

ثم إذا ما انطلقنا غربا ، إلى أرض المغرب فى تونس أو فى الجزائر أو فى المغرب ذاته ،

أو فيما وراء ذلك من أرض الصحراء الكبرى . إذا ما انتقلنا إلى هذه المنطقة الغربية، التى تمثل الجناح الغربى من بيتنا العربى الكبير ، وجدنا أنه كانت هناك حضارات ، وأن غيرنا من الناس يدعى أن الأرض كانت لهم ، وأن قرطاجة كانت غريبة عن إفريقية الشمالية ، وأن سكان إيطاليا فتحوا بعض تلك المناطق من قبل ، وأن بعض سكان إسبانيا فتحوها فى عهد من العهود ، ولكن الحقيقة الثابتة ، أن هذه الحضارات ، إنما اتصلت كلها بحضارات المشرق ، الذى يقع فى شرق إفريقية وجنوب غرب آسيا ، فاخواننا البربر أنفسهم ، إنما جاءوا فى الأصل من شرق إفريقية (وكانوا بنى عمومة مع قدماء المصريين الذين كانوا يمثلون بعض الدماء الحامية) وكانوا بنى عمومة لبعض سكان إريتريا وشرق إفريقية وجنوب بلاد العرب فى اليمن وحضر موت .

تلك هى الصلات القديمة ـ صلات الدم ، وصلات العمومة ـ ثم عندما انطلقت الحضارات بعد ذلك من أرض مصر أو من أرض فينيقية ، انتشرت إلى شمال إفريقية ، إلى قرطاجة ، وعمرتها ، ونقلت معها روح المخاطرة ، روح نشر الحضارة ، فانطلقت قرطاجة إلى روما ، ونشرت نشاطها وتجارتها في كل البحر المتوسط .

فحضارة شمال إفريقية إذن ، كان أحد مصادرها الأصيلة ومنابعها إنما هو فى المشرق، وعندما جاء العرب ، جاءوا كموجة جديدة إلى هذا الجناح من بيتنا الكبير ، انطلقوا غربا ، فعمروا شمال إفريقية ، واتخذوا منه قاعدة لنشر الفكر ونشر الثقافة ونشر النور . وانتشروا إلى صقلية ، وانتشروا إلى أرض إسبانيا ، ورفعوا علم الحضارة عاليا ، وكانوا فى انتشارهم يمثلون الروح العربية الجديدة .

طارق بن زياد لم يكن فى أصله عربيا من الجزيرة ، وإنما كان عربيا ، لا بلونه وإنما بحياته وكيانه وروحه ، ثم بشعوره ودينه وثقافته .

* * *

هذا البيت العربي الكبير الذى حاولت أن أطوّف به ، فى عرض الأرض من ناحية إلى أخري . . ، هذا البيت الكبير ، هو الذى بدأ فى عهدنا الجديد ينتفض ،

بدأ يـدرك رسالته ، فهـو بيت كبير تسكنـه أسرة كبيرة ، ومن طبيعة الإنسـان ، ومن طبيعة البشر أن يغفـو أو أن ينام بين حين وحين . . . هـذا البيت الكبير ، حضـارته قديمة ، وسكـانه ذوو أصالة كما كـانوا دائما همزة الوصل بين النـاس ، ورمز التعارف والتآلـف ، وكانوا سبيـل البر وسبيل الخير ، عرفـوا سكان آسيا واتصلـوا بهم اتصال خير، نقلوا إليهم معالم الفكر والثقافة ، وعرفوا أهل أفريقية ، وعاملوهم معاملة الأخ لأخيه ، لم يستعمروا إفريقية ، وإنما نشروا إليها النور ، وحين نشروه عرفوا أن الإنسان أخ لأخيه الإنسـان ، وعرفوا أوربـا فى صقلية وفى الاندلـس وعرفـوها ناشريـن للنور وللفكر وللثقـافة لا سيما فى بلاد الأندلـس ، فأين هذا مـن صلات غيرنا من الناس بعضهم ببعض ؟

نحن بيت عرف سكانه الصلات الإنسانية منذ قديم . نحن شعب يسكن هذا البيت العربي الكبير ، ويعرف أنه صاحب تراث قديم ، صاحب حضارات قديمة نذكرها بالخير ولكننا نذكر معها أننا كنا متفرقين مشتتين فى هذا البيت ، قبل أن تظهر الثقافة العربية ويظهر الإسلام ، كنا أمما متفرقة ، لكل منا حضارة ولكنا تعارفنا لأننا نشأنافى إقليم وسط بين الأرض ، ولأن الله شاءت قدرته أن يكون أو أن ينطبع سلوكنا خلال الزمن كله على أساس المحبة والتعارف والتآلف . ثم انطلقنا من عهد الجاهلية الحضارية ذاك البعيد ، وعهد التفرقة ، إلى عهد الوحدة ، حين جاءت اللغة العربية ، وانطلقت مع الإسلام غرباً وشرقا ، حين جمعتنا ثقافة واحدة ، فى بيت عربي كبير ، حين أصبحنا فى جملتنا أصحاب دينين اثنين متآخيين : الإسلام ، والمسيحية ، حين خرجنا على الديانة القديمة التى تنكر أصحابها لرسالتها الأولى ، فانطووا على أنفسهم ، وهى الديانة اليهودية التى تنكر أصحابها لمبادئ السماحة والتآلف ، وانطووا على دينهم ولم ينشروه بين الناس ، حتى جاءت المسيحية ثم جاء الإسلام فصححنا الأوضاع ، وأصبحنا أمة وسطا ـ حقيقة ـ بين الناس .

ذلك هو التفسير الطبيعي لسلوكنا فى الماضى والحاضر ، ومن الخير لنا حين نبحث هذه النواحى من حضارتنا ، وحين نحاول أن نفسر سلوكنا ، أن نتفهم هذه الأمور ، وأن نتفهم حضارتنا بأنفسنا على غير ما فهمها أهل الغرب . ومن واجب

الباحثين العرب أن يعيدوا النظر فى التاريخ ، وأن يفسروه تفسيره الصحيح ، وعندئذ سنعرف أننا أهل حضارة قديمة أصيلة ، وإننا إن عرفنا « العصبية » ، فإننا لم نعرف «التعصب » ، وأننا نتوسط أرض العالم ، ونمارس وجودنا فى أننا صلة الخيربين الناس جميعا ، فى الشرق وفى الغرب ، وفى الشمال والجنوب .

ونحن حين ندرس حضارتنا العربية العريقة ، فى أصولها الأولى والقديمة قبل أن يظهر العرب وحضارتهم ولغتهم ، وفي مظاهرها العربية الإسلامية ، وفى اتجاهاتها فى العهد الحديث ندرك أننا نملك من مكامن القوة فى حياتنا ، ما يجعل من استقلالنا ووحدتنا فى هذا البيت الكبير ، مصدر خير ، لا لأنفسنا وحدنا ، وإنما للإنسانية جمعاء .

ولكننا حين بدأنا نهضتنا الحديثة فى المشرق العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، كنا ننقل دروسنا عن الغرب ، وكان الغرب يعلمنا أننا أمة مفككة ضعيفة ، وأننا إذا أردنا أن نعيد بناءنا القومي ، فإن من الواجب علينا أن نبحث عن نواحى الضعف فى حياتنا لنقوّمها كما نبحث عن نواحى القوة فى مجتمعنا وحضارتنا فنبعثها بعثا جديدا ، وهى التى تكمن فى تاريخنا الإنسانى ، وتكمن فى سلالتنا وفى دمائنا ، وتكمن فى أننا شعب يؤمن بالله سبحانه ، وتكمن فى أننا شعب لا يعوزه إلا أن يثق بنفسه ويعتز بوطنه ، الذى تكمن أسباب القوة فى كل جزء من أجزائه التى اختص كل منها بدوره الخاص فى بناء الحضارة العربية .

فأرض البادية فى نجد مثلا ، هى موطن البداوة ، والبداوة أصل العروبة ، والبدو هم أصل الحضر ، وإن البداوة التى غشى علينا فنظرنا إليها نظرة استعلاء ، تكمن فيها أصول الفكر والذوق السليم ، واللغة النقية ، وتلك الصفات التى يتحلى بها البدوى ، وأبرزها صفة الكرم رغم الفقر والحاجة ، وصفة البذل والعطاء ولو كان ببذل النفس ، وصفة النخوة والشهامة ، وصفة إجارة المستجير . وهى كلها صفات يمتاز بها البدوى على بساطته ، وهى لا تزال تمثل الأسس التى تقوم عليها حياتنا الجديدة . وإن ذلك لهو النبع ومصدر الوحى الذى نستوحى منه أصولنا الفكرية وأصولنا الثقافية جميعا ، فالبادية والبداوة جزء لا يتجزأ من العروبة كما عرفها التاريخ .

وإذا ما انتقلنـا من أرض البادية فى نجـد وما وراءها ، إلى أرض العراق ، وجـدنا أنها أرض تقـع فى أطرافنـا الشرقيـة ، نلتقـى عندهـا بغيرنـا مـن الناس وبغيرنـا مـن الحضارات ، نلقى الجيوش الغـازية ونتعامل معها ، وقد تستطيـع الجيوش أن تحطم بعض مـراكز حضارتها ، فتصبح العـراق بمثابة الـدرع الذى يقى العروبـة . حدث هذا فى العهود السابقة حين جاء المغول ، وتكرر هذا فى العهد الحديث حين جاء الأتراك فغزوا أرض العراق وعطلوا مسيرة الحياة فيها . وحتى فى العهد الحديث ، حين احتككنا سياسيا أو عسكريا بغيرنا من النظم السياسية والعسكرية المعاصرة فى إيران استطاعت تلك العناصر ، ولو لفترة من الفترات القصيرة أن تنفذ إلى أطراف العراق دون غيرها من أرض العروبة لأن العراق أرضه متطرفة . بل لأنه «كتف العروبة » أو جناحها يتعرض أكثر مما يتعرض غيره للخطر ، ولذلك فإن غيرنا من غير العرب يستطيع أن ينفذ إلى أرض العراق (من الشرق أو من الغرب البعيد) ولكن كان للعراق دوره الخاص وكانت له قدرته على تلقى الصدمات فى القديم أو فى العهد الحديث أو المعاصر ، فهو قد كان على الدوام الشعب القادر على التصدى للعدوان .

ولأرض الشام وسورية من هذا البيت العربى الكبير ، دورها الخاص ، فالبداوة قد انطلقت من أرض الجزيرة ، واستقرت فى أرض الشام . وسورية التى كانت دائما موطن الحضارة العربية فى انتقالها من مرحلة البداوة الأولى إلى مرحلة التحضر الظاهر ، وسورية إلى جانب ذلك ، كانت تلى العراق ، وتتوسط أرض العرب الشمالية وتتصل اتصالا وثيقا بأرض مصر التى اتصلت بها منذ قديم ، وحتى قبل أيام الفراعنة . وحين جاء الهكسوس غازين من ناحية الأناضول الشرقي وما وراءه إلى الشرق ، وانتقلوا إلى الطرف العربي من أرض المشرق العربي فيما بعد ، ترابطت مصر والشام واستطاعت القوة المشتركة أن ترد الهكسوس ، وغيرهم من الحيثيين . وأن ترد الغزاة الشماليين . وتكرر مثل هذا مرة أخرى أيام صلاح الدين ، وفي العهد العربى ، فحين جاء التتر والمغول والأتراك وانتقلوا من داخلية آسيا إلى بلاد العرب الإسلامية تحالفت مصر والشام مرة أخرى . واستطاع العرب فى مصر والشام أن ينقذوا أرض العرب للعرب وللإنسانية جمعاء ، وتكرر

هذا ولا يزال يتكرر فى أيامنا ، وبصورة جديدة عن صوره القديمة ، حتى إنه لقد كان يقال فى الحربين العالميتين الأخيرتين إن جذور وحدة جديدة تنبعث ، وإن من يريد أن يدافع عن مصر إنما ينبغى له أن يدافع عن تلال أرض الشام . وهذا التكامل الطبيعى أمر له مغزاه وليس أمرا طارئا ، ولا أمرا مفتعلا ، وإنما هو يمثل صفوة التاريخ الذى يكرر نفسه بين حين وحين ، ومصر لها دورها الفريد كحجر الزاوية فى البيت العربي الكبير ، فهى همزة الوصل بين العرب فى آسيا والعرب فى إفريقية . ومصر كان لها دورها منذ قديم ، إنها لا تستطيع أبدا أن تعيش بنفسها ولا لنفسها ، وإنما هى لأهل هذا البيت الكبير كلهم .

وإذا كانت مصر قد « أممت » نفسها للعروبة ، وإذا كانت الأمة العربية قد تبنت مصر وأبناء مصر ، فذلك كله أمر يتفق وما تقتضيه حكمة التاريخ .

وإذا ما انتقلنا إلى قسم آخر خاص من هذا البيت وهو لبنان . . . فإننا نجد أن لبنان كان «مطل » العروبة على البحر المتوسط . . . وهو النافذة التى يطل العرب منها على العالم فى هذا البحر وما وراءه . فنحن نتصل عن طريقه بحضارة اليونان وبحضارة الرومان فى القديم ، وبالحضارات الحديثة فى العهد الحديث . . . فمن هنا انطلق العرب إلى المهاجر فى بعيد الأرض ، انطلقوا من لبنان ومن أرض سورية المجاورة، فنشروا ثقافة العرب إلى أمريكا ونشروها إلى بقاع أخرى فى الأرض البعيدة . ولبنان قد عرف منذ قديم أيضا ، بأنه جزء لا يتجزأ من العروبة ، وبأنه هو النافذة التى يخرج منها نور العرب إلى العالم الخارجى ، ولا بأس عند العرب من أن يدخل النور من الخارج عن طريق هذه النافذة ، ولكن النور الخارجى إذا انقلب نارا، فلعل مياه شواطئ لبنان أن تكون كفيلة بأن تخفف لظاه !

وأرض السودان ، امتداد طبيعى لأرض الوطن العربى ، ارتبط منذ أقدم العصور بأرض مصر ، لا لشىء إلا لأن النيل يجرى بين الأرضين ، ويجرى بالصلة بالمعروف ، ولأنه صلة من عند الله ـ وحاشا لله أن تنقطع صلة هى من صنع الله ـ وعندما انطلق العرب من بلادهم ، وانطلقت ثقافتهم إلى السودان ، لم يبلغوا السودان مباشرة عن طريق البحر الأحمر ، إلا فى أضيق الحدود ، ذلك أن العرب كانوا رعاة وكانوا أهل إبل ، وقد وصلت قبائلهم أرض السودان عن طريق مصر ،

وسارت مع النيل إلى السودان . ومصر كانت دائما طريق الثقافة إلى سهول السودان وأراضيه ، وكانت بصفة خاصة طريق العروبة والإسلام إليه ، ولقد انتشر العرب الذين توغلوا على طول مجرى النيل حتى بلغوا قلب السودان ومشارف جنوبه . ولكن الأتراك ظهروا بجحافلهم ، واحتلوا مصر ، فانقطع فيض العروبة ونورها عن داخلية السودان . ولعل هذا أن يكون هو السر فى أن العرب لم يستطيعوا أن يبلغوا أعالى النيل ومنابعه .

فالسودان كان يتأثر بكل ما تتأثر به مصر ، إن جاء مصر خير فهو لمصر وللسودان ، وإن جاء مصر غير الخير فهو على مصر وعلى السودان ، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة ، حقيقة تتصل بأرض النيل وتتصل بالإنسان الذى يعيش على جوانب وادى النيل ، حقيقة لا يمكن أن ننكرها . ولا يمكن أن يتنكر لها أحد ولوحدث ذلك إلى حين .

وإلى الجنوب من السودان ، وامتداداً فى اتجاه « القرن الافريقي » فاننا نجد أن العرب قد انتشروا بثقافتهم ودينهم إلى أرض إيريترية ، وجعلوا منها امتداداً طبيعيا للبيت العربى الكبير . ولعل الزمن لا يطول قبل أن تستقل بشئونها ومصيرها (وينحسر عنها الغزو الإثيوبى) فتلتمس سبيلها إلى جامعة الدول العربية ، كما فعلت كل من جيبوتى والصومال .

ثم ننتقل إلى أرضكم هذه . . فى ليبيا الخضراء وفى ليبيا الصحراء وهى كانت بصفة خاصة نقطة اتصال ، فهى تتصل فى شطرها الشرقى بمصر أوثق الاتصال منذ أيام الفراعين ، وقبل أيام الفراعين ، وهى تتصل (فى شطرها الغربى) أوثق الاتصال كذلك مع بلاد المغرب ، وهى تتصل اتصالا وثيقا بأرض السودان (الأوسط والغربى) عن طريق الواحات ، وسكان ليبيا بينهم وبين سكان سهول السودان نسب عريق أصيل ، وهى قد اتصلت بالبحر المتوسط وبحضارات هذا البحر العريق بين الحضارات . . .

ثم ننتقل إلى أرض المغرب ، فى تونس والجزائر والمغرب وأرض شنقيط (موريتانيا) . وهذه الأرض كانت حصنا من حصون العروبة . كانت مستقرا للحياة العربية منذ قديم ، وعرف العرب أنهم بنو عمومة قديمة مع اخوانهم من

أبناء البربر فى المغرب الداخلى والبعيد ، ولقد حاول الاستعمار أن ينفذ وأن يفرق ، ولكنه لم ينجح . ولقد عرف عن الاستعمار بصفة خاصة ، أنه إذا أراد أن يأخذ بلاد المغرب وحضارتها ، فإنه يجب أن يتجه ناحية الغزو الثقافي ، وأن يحاول أن يضعف الثقافة العربية وأن يباعد بين العرب وبين جذور الثقافة العربية والإسلامية فى المشرق ، ولا يسمح لنور الثقافة العربية المشرقية أن ينفذ إلى تلك الأراضى ليبعث فيها روح الثقة بالنفس وروح العروبة والإسلام ، لعله كان يرمى بذلك إلى أن ينفرد بأرض المغرب العربى . ولكن الثقافة العربية لها حيوية غريبة ، تعرف الهدوء أو السكون المؤقت ، ولكنها بفضل الله لا تعرف النوم . هذه الثقافة استطاعت أن تقاوم وأن تدافع ، وظهرت الجمعيات المختلفة التى تدرس الإسلام وتدرس القرآن وتدرس أصول الدين والثقافة ، والتى تبعث فى الناس علما ينفع كثيرا فى الاحتفاظ بالروح المعنوية ، وإذا كانت بلاد تونس ، وبلاد الجزائر ، وبلاد المغرب ومن ورائها موريتانيا قد اعتراها نوع من الضعف الثقافى المؤقت ، فإن بذرة الثقافة العربية فيها كانت أقوى من أن تخبو ، فهى قد ضمرت فى عهد من العهود ، ولكنها بذرة طيبة فى أرض طيبة لم تلبث أن نفذت من تربتها الطيبة وآتت أكلها بإذن الله .

* * * * *

تلك هى الصورة العامة لبيتنا العربى الكبير . . صورة البيت فى أرضه وقواعده وجدرانه . . . صورته فى حياتنا العربية القديمة ، وفى حضارتنا العربية الشاملة وفى تاريخنا الماضى وتاريخنا الحديث وحياتنا المستقبلة .

هذه الصورة ينبغى أن نعيها جيدا ، وأن ندرك أن الذى أقامها ورفع دعائمها هو هذا الإنسان العربى فوق أرض العروبة من الخليج إلى الميحط . . . بل الإنسان العربى الذى جمع فى زمرته بين كل من تكلم العربية « كلغة أم » أو « لغة فكر» وتراث مجتمع وجماعة ، فكان من حقه ، ومن واجبه أيضا ، أن يتحدث دائما بنعمة الله عليه أن أقامه على لغة الضاد ولغة القرآن الكريم ، بل من حقه وواجبه أن يكرر دائما مقولته الخالدة « أنا العربى » .

ـ نعم أنا العربى . . . أنا صاحب هذا البيت العربى الكبير .

ـ أنا صاحب هذا البيت الذى يمتد من أرض العراق إلى أرض المغرب ، والذى تتكامل فيه الأقطار وتمتد فوق تراب عربى واحد .

ـ نعم أنا العربى . . . الذى جمع فى عروقه بين دماء شعوب قلب العالم ، فتجمعت فيه مواريث تلك السجايا والقدرات والمواهب ، وخرج من أصلابه صفوة الأنبياء وخيرة رسل الله .

ـ أنا العربي . . . فى هذا البيت الذى يتوسط العالم ، يتوسط الشرق والغرب ويتوسط الجنوب والشمال .

ـ أنا العربي . . . صاحب هذا البيت المستقر العريق فى الحضارة .

ـ أنا العربى . . . وارث الحضارات التى سبقت العرب والتى أعتز بها كأصل من أصولى ، ولكننى أنظر إليها على أنها تمثل عهدا قديما سابقا لوحدتى الحضارية الكاملة .

ـ أنا العربى . . . الذى ورث الوحدة الكاملة ، منذ ظهر العرب ، وطلع الإسلام .

ـ أنا العربى . . . الذى عرف المحبة ، وورثها عن المسيحية ، وعرف الإخاء والمساواة والعدل بين الناس ، وورثها جميعا عن الإسلام . .

ـ أنا العربى . . . الذى أعطى غيره من الناس ثمرات ما أنتج فى غير منٍّ ، وأخذ عن غير ه من الناس فى غير حرج .

ـ أنا العربى . . . الذى أعطى فى جود وكرم وإيثار ، وأخذ فى غير طمع ولا جشع ولا أثرة .

ـ أنا العربي الذى حقق حكمة الله فى الأرض ، حين بعث الإنسان ليقيم فيها الأمن ويشيع فيها النور .

ـ أنا العربى . . . الذى نشر نور الله شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

ـ أنا العربى . . . الذى بنى الحضارة منذ قديم ، واحتفظ بالتراث الحضارى على مر العصور .

ـ أنا العربى . . . الذى لم يغلبه طغيان ولا استعمار ، ولن يغلبه حتى يرث الله الأرض وما عليها .

- أنا العربى. . . الذى عرف الوحدة على أنها مستمدة من روح الله، ومن وحدانيته.
- أنا العربى . . . الذى استوحى المثل العليا فى الحياة .
- أنا العربى . . . الذى عرف أن الإنسان يعيش بسجيته وبعقله وبعاطفته وبضميره.
- أنا العربى . . الذى حقق للإنسانية أكثر مما حقق غيره من الشعوب .
- أنا العربى . . . الذى أودعه الله سره وحقيقته .
- أنا العربي . . . الذى سيبقى على الزمن قائما على رسالة الله فى الأرض .
- أنا العربى . . . الذى يحق له أن يفاخر أبدا بعروبته . . . فيقول :
- « أنا العربى . . . لو لم أكن عربيا ، لوددت أن أكون عربيا » .



« ٩ »

تكامل العروبة والاتصالات العالمية في التاريخ



تكامل العروبة والاتصالات العالمية فى التاريخ *

فى موضوع «العرب والسياسة العالمية» يلزمنا أن نستعين بشىء من الجغرافيا ، وبشىء من التاريخ ، لنعرف الوطن العربى ونستعرض المقومات الطبيعية فى هذا الوطن ، ثم لنعرف العرب ، ولنحاول أن نستجلى ما فى أنفسنا من صفات تجعلنا نختلف عن غيرنا من الأمم ، ومن صفات وجهت أفعالنا ووجهت صلاتنا بسائر العالم خلال التاريخ ، وطبعت هذه الصلات بطابع ميزها عن غيرها من الصلات التى تقوم بين الشعوب بعضها وبعض . وفى ضوء هذا العرض الطويل سنصل إلى تفهم موقف العرب الآن من سياسة العالم .

لنبدأ بالوطن العربى وما يمتاز به من صفات ومقومات . وهذا الوطن العربى واسع الأرجاء يمتد فى اتصال من المحيط الأطلنطى غربًا إلى الخليج العربى شرقًا . ولهذا الوطن أجنحة تمتد إمتداداً قريباً أو بعيداً فى أطراف من أفريقية ، لاسيما فى شرقى تلك القارة ، فى ايرتيرية وجيبوتى والصومال وسواحل زنجبار ، وله أطراف متباعدة تقع فيما وراء البحار ، لا سيما فى جنوبى آسيا فى بلاد مهاجر العرب . وقد نتجاوز قليلاً فنقول إن لهذا الوطن بعض أطراف بعيدة جدا تقع فيما وراء المحيط الأطلنطى فى مهاجر الأمريكتين . ولكننا سنقتصر على الوطن العربى فى كتلته الأساسية فى آسيا وإفريقية . وسنجد أن هذا الوطن تتمثل فيه ظاهرتان ، أولاهما «التنوع» ، وثانيتهما «التكامل» . فهو وطن متنوع ، ولكنه وطن متكامل . وقد أخطأ بعض الناس وبعض الباحثين فاعتقدوا أن التنوع معناه التفكك ، ومعناه الاختلاف والتفرق . ولكن الحقيقية أن وطننا العربى على ما عرفناه عليه فى عصور التاريخ المختلفة وعلى ما نعرفه عليه الآن إذا ما درسناه بتعمق ، هو وطن متكامل

---

* هذا حديث ارتجل فى ندوة عقدت بالكويت .

حقاً . والجغـرافيون الآن حين ينظرون إلى ظـاهرة طبيعيـة كالبحر الأحمر الـذى يفصل بين آسيـا وإفريقيـة لا ينظـرون إلى هذه الظـاهـرة على أنها فاصـل بين شقين أو بين قـارتين كبيرتين مـن قـارات العـالم القديـم ، ذلـك أن البحـار ينظـر إليهـا الآن على إنها تصل الشعوب عـن طريق الإتصال المائى أكثر مما تفصـل بينها ، والبحر الأحمر كـان وسيلـة مـن وسـائل النقـل البحـرى التـى يسرت الاتصـال بين شمال الـوطن الـوطـن العـربى وجنـوبـه ، سـواء أكان فى جـانـب شبـه الجزيرة العـربـى أم فى الجانب الأفريقى . وحتى رجال الجيولوجيا عندما يبحثون البحر الأحمر يجدون أنه عبارة عن شق طويل فى الأرض ، يمتد مـن البحر الأحمر إلى خليج العقبة، ثم البحر الميت ، ثم سهل البقاع بين جبال لبنان الغربية والشرقية . وما دمنا ننظر إلى هذا الشق أو هـذا « الفالـق » فى القشـرة الأرضيـة فى بـلاد العـرب الشمالية والشرقيـة فإننـا لانتصور أنـه يفصل الوطـن العربى الشمالى إلى شرقه غـربه ، ولا نتصور أنـه يفصل الجـانب الشرقى من جبـال لبنـان عن الجـانب الغـربى ، ولعـل من الواجب أيضًا أن ننظـر النظـرة نفسهـا إلى البحر الأحمر نفسه . ولحسن الحظ أن الطبيعـة الجغرافية قد يسرت الاتصال بين آسيـا وأفريقية ، إلى حد أن الجغـرافيين يعبرون الآن عن هاتين القـارتين تعبيراً واحداً فيسمونهما فى بعض الأحيـان «أفريشيـا»، أى القـارة الأفريقيـة الآسيـوية . والذى يـدرس شبه جزيرة سيناء فى مصر ، بين آسيـا وأفريقية ، يجد أن الله قد حيـاها بميزة كبرى ، وهـى أن فى شمالها منطقة تمتـد فيها سلسلة مـن الكثبان الرملية على ساحل شبه الجزيرة الشمالى محاذيـة للبحر الأبيض المتوسط، تسقط عليها الأمطار فى الشتـاء فتتسرب المياه فى الـرمال ، وتصبـح أكوام الـرمال هـذه عبارة عـن خزانات طبيعيـة للماء . فيجيء الإنسان ويحفر بين الكثبان آباراً تغـذيه بالماء . وعلى هـذا الأسـاس أصبـح من اليسيـر جدًا أن يعبر الإنسان شمال شبه جـزيرة سيناء ، وأن تمتـد طرق التجـارة وسبل الهجـرات مـن الشرق إلى الغرب أو فى الاتجاه الآخـر ، فالطبيعـة لم تفصـل بين آسيـا وأفريقيـة وإنما يسرت هذا الاتصال ، وكـذلك الحال عند باب المندب فعبور المضيق فى جنوب البحر الأحمر أمر ميسور غاية اليسر ، وحتى فى ذلك المعبر الضيق توجد بعض الجزر ، ومنها جـزيرة «بريم» مما ييسر الانتقال من بـلاد اليمـن إلى شرق إفـريقيـة ، وقـد انتقـل العـرب وانتقـل السـاميـون

من قبل من آسيا إلى إفريقية انتقالاً يسيراً جدًّا عن طريق جنوب البحر الأحمر .

لذلك كله فإن الذى يفحص الوضع الجغرافى فى آسيا وإفريقية لا يلبث أن تبهره هذه الصفة ، وهذه الميزة التى يسرتها طبيعة البيئة الجغرافية ، والتى جعلت من الوطن العربى وحدة متماسكة ، والتى يسرت للعروبة والفكر العربى والثقافة العربية ولنور الإسلام أن تنتشر جميعًا ، وأن تنتقل انتقالاً حرًّا طليقاً بين آسيا وإفريقية .

ولكن هذا الوطن العربى يختلف من جهة إلى أخرى فى مميزاته الطبيْعية . فإذا أخذنا الجزيرة العربية فإننا نجد فى وسطها أرض نجد ، وهى أرض البداوة الأصيلة ، وفيها الحياة البدوية التى تسير على سليقتها ، بل هى الينبوع الأول للطبيعة والسجية العربية . ولها امتداد نحو الشمال ونحو الشرق إلى أرض الخليج ، ولها امتداد عن طريق الواحات المختلفة إلى أرض الحجاز أو أرض عسير أو أرض اليمن ، وتستمر الامتدادات منها شمالاً بغرب إلى شبه جزيرة سيناء ، ثم إلى مصر، ثم إلى شمال إفريقية . فنَجْد وقلب الجزيرة كان لهما وضع خاص فى الوطن العربى ، لأنهما يغذيان العروبة بأصولها البدوية وشمائلها الأصيلة .

وإلى الجنوب من ذلك نجد بيئة مختلفة تتمثل فى اليمن وفى عُمان ، فهى أرض عالية . تتمثل على الخصوص فى هضبة مرتفعة فى اليمن تسقط عليها أمطار صيفية غزيرة نسبيًّا ، والتربة هناك من نوع جيد يحتفظ بالرطوبة ، ولذلك سميت «بلاد العرب السعيدة» . ولقد أصبحت اليمن بيئة يلجأ إليها البدو من داخل الجزيرة فيجدون هناك التربة الصالحة والماء الكافى ، والحياة المستقرة . ويحتفظ العرب هناك بطبيعتهم البدوية من حيث النظام الإجتماعى، ولكن حياتهم المادية تنقلب إلى حياة زراعة واستقرار فوق هذه الأرض الخضراء ، وتصبح اليمن وطناً من مواطن التقدم الحضارى الذى نشأ فى البادية ولكنه استقر فوق الهضاب والجبال .

وإذا انتقلنا شمالاً من قلب الجزيرة ، فإننا نجد المنطقة التى تمتد من بلاد فلسطين والأردن إلى لبنان وسورية . ثم إلى سهول العراق ، وهى منطقة أمطارها شتوية أى أنها تختلف عن اليمن فى طبيعتها ومحصولاتها ، فهى تؤتى ثمارها فى الربيع على حين أن اليمن تؤتى ثمارها بعد الأمطار فى الخريف . وهذا ما قصدناه بالتنوع

والاختلاف من مكان إلى مكان . ولكنه تنوع ينطوى على التكامل ، لأن شمال الوطن العربى يختلف فى إنتاجه عن الجنوب ، مما يستدعى قيام التبادل بين الطرفين .

وشمال الجزيرة موطن آخر للاستقرار والتحضر بالنسبة للبدو إذا ما خرجوا من البادية . ولكنه استقرار فى ظروف تختلف عن الاستقرار فى الجنوب ، واستقرار يتصل بهضاب إيران والأناضول ، وما وراءهما ، وداخلية آسيا ، أو يتصل بالبحر المتوسط وسواحله .

وإذا ما انتقلنا غرباً إلى مصر نجد موطناً اخر من مواطن الاستقرار العربى ؛ خرجت القبائل فى دفعات متتالية خلال عصور قديمة جداً قبل العصر العربى . خرج الحاميون من جنوب الجزيرة العربية ، وخرج الساميون من شمال الجزيرة العربية ، فنزلوا أرض وادى النيل ، حيث وجدوا بيئة تختلف أيضاً عن البيئات الأخرى ، ففى اليمن استقرار فوق الجبال وفى الجانب الشامى من شمال الجزيرة استقرار فى واحات كبيرة أو فى قيعان وبقاع تقع بين سلاسل الجبال ، وفى العراق استقرار من نوع خاص يتصل بنهرين يجريان من الشمال إلى الجنوب ويفيضان فى أشهر الربيع عندما تذوب الثلوج فوق جبال الهضاب الشمالية ، أما فى مصر فنوع آخر من الاستقرار . هى واحة ولكنها واحة كبيرة جداً تمتد فى واد طويل جداً ، وتنتشر فى الشمال فى دلتا واسعة غنية ، وتتصل اتصالاً قوياً بالبحر المتوسط ، كما تتصل إتصالاً قوياً أيضاً بالبحر الأحمر ، وتمتد إلى داخلية إفريقية ، وتعتبر نقطة استقرار وقاعدة صالحة لبناء قوة ولبناء مجد ، ولبناء مدنية واسعة ، وتصلح فوق ذلك نقطة ارتكاز للتوسع فى إفريقية .

ثم إذا انتقلنا غرباً أيضاً وجدنا «ليبيا» ، وهى منطقة تشبه بلاد «نجد» من جهة ، ولكنها تختلف عنها فى سقوط الأمطار الشتوية ، وتختلف عنها فى أنها إلى جانب شريطها الساحلى ذى الأمطار بها واحات داخلية تصلح لأن تستقر فيها بعض القبائل ، حيث تفرغ لنفسها ، وتفكر في حياتها . وتتأمل وجودها ، فتبنى لنفسها كياناً روحيًا خاصًا .

هذا ما حدث فى عهود التاريخ . وهو ما حدث بالنسبة للحركة السنوسية فى العهد الحديث بصفة خاصة ، حين ترك العرب الشواطئ ولجأوا إلى الداخل بعد أن طغى عليهم الاستعمار الإيطالى فى الشمال . فرغوا لأنفسهم فى الداخل واحتفظوا

بكيانهم الروحى وتجمعوا حول فكرة العروبة والإسلام ، حتى جاء الوقت وحان الحين فانطلقوا إلى الشمال من جديد .

ثم إذا إنتقلنا إلى بلاد المغرب وجدنا بيئة جديدة فيها عناصر حاميّة من البربر ، ولكنهم فى الحقيقة أكثر اتصالاً بالعرب مما صورهم العلماء الغربيون . فهم فى الأصل من العناصر الحامية التى خرجت من جنوب الجزيرة العربية (شرق إفريقية)، وانطلقت إلى وادى النيل ثم سارت على طريقها عبر الصحراء الكبرى حتى وصلت إلى بلاد المغرب ، وبقيت هناك حتى جاء العرب فى موجة جديدة فى العهد الإسلامى، ودخل نور الإسلام ، ودخلت اللغة العربية إلى تلك البلاد . وهناك اتخذ العرب قاعدة جديدة لهم ـ قاعدة من النوع الجبلى ـ وانطلقوا من هناك إلى بلاد الأندلس ، فحلوا بها وأقاموا فيها حضارة إسلامية زاهرة .

ولكن الشيء الطريف أن العرب حين حاولوا دخول أوربا دخلوها عن طريق أيبريا فوجدوا إلى شمال تلك البلاد جبال البرانس . وهى جبال تمتد فاصلة بين أسبانيا وبقية أوربا . وكان العرب قد بعدوا عن قاعدتهم الأصلية ، ولذلك توقفت مسيرتهم ، وتألبت أوربا من جديد فى أيبريا حتى خرج العرب من هناك . ولكنهم حين خرجوا من أسبانيا عادوا إلى قاعدتهم فى إفريقية ، وظلوا هناك صامدين حتى جاء الاستعمار الأوربى الجديد ، وطغت فرنسا على شمال إفريقية ، وحاولت أن تميت الحياة العربية والثقافة العربية فيها ، وحاولت أن تقطّع الوطن العربى الإفريقى إرْبًا . ثم استعانت بغيرها من دول الإستعمار ، فانفردت هى بشمال غرب إفريقية ، وتركت ليبيا لإيطاليا ، واحتلت بريطانيا مصر ، وانقسم الوطن العربى الإفريقى شرائح شرائح ، حتى أذن الله للنور أن يطلع ، وللظلمة أن تنجلى من جديد .

هذا العرض العاجل للوطن العربى يبين كيف أنه وطن متنوع فى صفاته ، ولكنه تنوع يؤدى إلى التكامل ، فهذا الاختلاف فى البيئة الطبيعية والمنتجات الزراعية وغيرهما ترتب عليه اتصال قوى لتبادل المنافع ، وترتب عليه أن العرب حين خرجوا من موطنهم الأصلى وجدوا قواعد متعددة ، استقروا فيها . فهم قد استقروا فى شمال الجزيرة واتخذوا منه قاعدة للتوسع نحو الشرق فى آسيا ،

واستقروا فى اليمن وفى حضرموت وعمان واتخذوا منها قواعد للتوسع نحو إفريقية بـالبحـر ، واستقـروا فى مصر ، واتخذوا منهـا قـاعـدة أصليـة للـربط بين الشرق والغرب ، واستقـروا فى شمال غرب إفريقية واتخذوا منـه قاعدة للتـوسع فى جنوب غرب أوربا .

من هذا العرض الجغرافى نتبين كيف أن الوطن العربى يمتد فى إتصال ، وكيف أن كل جزء منه كـانت له مهمة خاصة تختلف عن مهمة سـائر الأقسام . لكن هذه المهام جميعاً كانت كلها متكاملة ، وهـى التى أبرزت الدور التاريخى للحياة العربية على مر العصور .

ولكن هناك ناحية ثانية تتصل بالعرب أنفسهم . فإذا كان الوطن العربى متنوعاً متكاملاً فإن العـرب ـ كما نعرفهم ـ قـد تأثروا بعامل آخر أو بعـوامل أخرى أفاءت عليهم طبيعتهم العربية .

ولنحاول أن نفسر ذلك على أساس علمى ، فقد مضـى العهد الذى كان يكفى فيه أن نفـاخر بما فينـا من سجـايا ، وبما لنا مـن مزايـا مفاخـرة تستند إلى العـاطفة وحـدهـا ، وأنا وإن كنت من أنصـار بعث العـاطفـة ، فإننى أفضل دائماً أن تـزكى العاطفـة بالعقل ، وأؤكد لكم أن من يـدرس طبيعة العرب دراسة علميـة يجد فيها وفى هذه الدراسة ما يزكى إيمانه بالعـرب والعروبة ، وما يقوى عقيدته بأن للعرب رسالة مجيدة فى حياة الإنسانية كلها .

والناظـر إلى خريطة جغرافيـة للعالم العربى لا يلبث أن تبهره حقيقـة واضحة ، هي أنـه على الرغم من أن بحـار الجنوب ــ البحار الحارة ــ تمد ذراعين إحداهما فى الخليج العربى والأخرى فى البحـر الأحمر ، تمدهما إلى الشمال لتصافح بحار الشمال . . فإن المصافحة لا تتم ، وإنما تبقى بحار الجنوب منفصلة عن بحار الشمال ، ولا بد لمن يريد أن يسير بالبحر بين الشرق والغرب أن يعبر الأراضى العربية . فيعبرها فى مصر ، وهى أقصر المعابر وأقربها ، أو يعبرهـا فى شمال البلاد العربية إلى الخليج العربى . ومعنى هـذا أنه لا يمكن لمن يريد أن يقيم اتصـالاً بين الشرق والغرب أن يتجاهل العـالم العربى ، ومعناه من نـاحية أخرى أنه أصبح للعـرب دور خاص فى الـوصل بين الشرق والغـرب ، وفى الوصل بين الشمال والجنـوب ، فأصبحـوا كما

ذكرنا فى فصل أمة وسطًا، حتى فى مكانهم الذى يحتلونه على الأرض ، وقد ترتب على هذا أن العرب برزت فيهم صفة خاصة هى أنهم شعروا بوجودهم فى قلب العالم ، وبأنهم عنصر أساسى فى الربط بين طرفى العالم . وقد غلبت عليهم صفة الربط بين الناس ، لأنهم بحكم هذا الموقع كانوا على اتصال دائم بغيرهم من الشعوب . وكان اتصالهم بريًّا مع آسيا وأفريقية ، وكان اتصالهم أيضًا بحريًّا عن طريق البحر المتوسط من جهة ، وعن طريق الذراعين العظيمتين فى شرق الجزيرة وغربها من جهة أخرى . وأدرك العرب أن عليهم رسالة ، واعتادوا الاتصال بغيرهم وألفوه ، فهم لم يكونوا كأهل الصين مثلاً ، بلادهم بعيدة منزوية تقع فى نهاية العالم، ولهم حضارة قائمة بذاتها لم تنتشر من بلادهم إلى العالم الخارجى إلا انتشاراً ضئيلاً . وبلاد العرب لم تكن حتى كبلاد الهند، فالهند شبه جزيرة لا تنتهى إلا إلى جزيرة سيلان ، والهند كانت نهاية للهجرات التى وصلت إليها ، فليست تقع وراء الهند أية بلاد أخرى غير بعض الجزر فى المحيط .

أما بلاد العرب فكانت همزة وصل حقًّا ، وكانت همزة اتصال بالبر أو بالبحر . وهذا فى حد ذاته طبع حياة العرب ، وجعلهم يشعرون بأن واجبهم أن يصلوا العالم ، وأن يكونوا رباط أمن وسلام بين الأمم والشعوب .

وهناك صفة أخرى أستميحكم فى أن أعرضها عرضًا جغرافيًا ، وأرجو أن تصبروا معى إلى آخر المطاف مهما طال بنا حديث الجغرافيا ؛ ذلك أننا إذا ما درسنا البيئة الجغرافية نجد أن هذه البيئة تمتاز بوجود الجمل فيها ، والجمل حيوان أليف صبور ، ينطوى على صفات كثيرة لابد أننا نعرفها جميعًا . فهو حمال أثقال ، وهو خادم ينقل السلع والمتاجر ، وهو يتنقل فى صبر وأناة بين بحار الجنوب وبحار الشمال . وهذا كان معناه أن البيئة الجغرافية أمدت العرب بحيوان كان معوانًا لهم على أن يحترفوا التجارة ، وهى أشرف المهن ، ومعوانًا لهم على أن يسلكوا الصحارى على طول طرق القوافل ، ومعوانًا لهم على أن يصبحوا بحق همزة وصل بين الأمم والشعوب .

لنقارن ذلك بما كان فى داخلية آسيا فى بلاد الهضاب التى تحفّ بنا من الشمال ، هضاب إيران وما وراءها فى تركستان من مواطن الترك والتتر . فهناك فى آسيا

الداخليـة نجد الحيوان الأصيل هو الحصـان وهو حيوان للركـوب والعدو السريع والغـزو، وليس حيوانًـا لحمل الأثقال . ولـذلك فإن رعـاة داخلية آسيـا من التتر والترك وغيرهـم ألفوا أن يركبـوا هذا الحيوان ، وألفوا أن يعـاشروه ، وتأثروا به فى طبـاعهم ، فانطلقـوا دائماً من مراعيهم غـزاة لـلأراضى من حولهم . كـانوا غـزاة ولكنهم لم يكونوا رسل تجارة ، ولا دعـاة ثقافة ، وامتازت صـلاتهم بالعالم المحيط بهم فى الصين أو فى الهنـد أو فى أوربا أو فى بـلاد الشرق العربى ــ امتازت صـلاتهم بهذا العالم كله بأنها كـانت صلات غاشمة قائمـة على الفتح والغزو الغاشم ، تموت فى أعقابها التجارة ، ويموت الاتصال والتراحم بين الناس .

هـذا هـو الفرق الطبيعـى بين العرب والتتر ، العـرب حـداة إبل . ولئن كـان الحصان العربى قـد ظهر فى بيئتهم فإنه قد ظهر فى أعداد قليلـة ، وظهر لتتميز به فى العربى بعض الخلال الخاصة من الفروسية والنجدة . ظهر ولكنه لم يغلب الجمل ، وإنما بقى الجمل حيـوان العرب الأصيل ، الـذى يصل بين الناس ، والـذى تلائم طبيعته طبيعة العرب ، والذى كان له دور خطير فى الوصل بين بنى الإنسان .

أما التتر ومن البهم فهم فى الأصل غزاة من وسط آسيا ، بعيدون فى نشأتهم عن البحار ، بعيـدون عن الوصل بين القارات ، بعيدون عن طـرق الاتصال البرى أو البحرى ، عدتهم الحصان ، وطريقهم فى الفتح والغزو طريق غاشم مدمر .

على هذا النحو ينبغى أن نفهم الفرق بين بنى العروبة وبين رعاة داخلية آسيا .

بهذا العـرض أستطيع أن أتصـور معكم وطننـا العـربى ، وطنًـا كبيرًا متنـوعًـا متكاملا ، وأستطيع أن أتصـور معكم شعبنا العربى شعبًا أصيلاً فى بيئتـه ، مرتكزًا إلى قواعده المختلفـة فى الوطن العربى ، ولكنه شعب عمـل دوامًا على الوصل بين الأمم والشعوب . كـان شعبًا متاجـرًا ، يعمل فى التجارة ، ولكنـه إلى جانب ذلك كان صـاحب رسالـة . وليس أبرز من تلك الحقيقة الخالـدة أن نبينا عليـه الصلاة والسلام كان تاجراً ثم رسـولاً . أما غيرنا من الشعوب ، لا سيما تلك الشعوب في داخيلـة آسيـا ، فهم غـزاة بعيـدون فى نشأتهم عن الشرق الأوسط ، وهم شعـوب قامت حيـاتهم المادية والثقافية فى أفق محدود . أمـا العرب فهم حيث حلّوا أقـاموا النور ، وبعثوا رسالتـه قوية ، ورفعوا مشعله عاليًـا . والعرب فى كل العهود التى

كانـوا فيها أقـوياء عـرفوا كيف يكـون الربط بين الشرق والغـرب ، وكيف يكون الوصل بين الأمم والشعوب

ولكن موقعنا الجغرافى هذا الـذى يقع فى قلب العالم ، والذى يصل بين القارات ويقرب بين المحيطات ـ هذا الموقع لسوء الحظ لم يكن دائماً ملكًا لنا ، وإنما احتله من وقت لآخر قوم آخرون ، لم يكونوا كالعرب ، فهم لا يعرفون الوصل بين الناس ، وإنما كـانوا غـزاة طـامعين ، استغلوا هـذا الموقع الجغـرافى لا ليصلوا بين أطـراف العالم ، وإنما ليقيمـوا فيه قوة تسيطـر عى العالم ، وتحقق مـا اصطلح الناس على أن يسمـوه «السيطرة العـالميـة» . وتاريخنـا كلـه من النـاحية السيـاسيـة ومن الناحيـة الثقافية ، وحتى من الناحية الروحية ، تمثلت فيه ظاهرة لا تخلو من دلالة ، هى أن العرب فى كل الأدوار التى إنفردوا فيها بالسيطرة على موقعهم الجغرافى كانوا رسل أمن وسلام ونـور للعالم كله ، بخـلاف العهود التى ضعفوا فيهـا ، وسيطر غيرهم على بلادهم ، وبنى فيها قوة سيطر بها على العالم . ولأحاول أن أفسر هذا الإجمال ، وأن أختار لحديثى فى هذا التفسير قلب العالم العالم العربى ، وهو مصر ، لأن موقع مصر تتمثل فيـه بصورة مصغـرة تلك الصورة الكبرى لموقع بـلاد العرب كلـه بين الشرق والغرب .

ونحن إذا نظرنـا إلى تاريخ مصر نجد أنـه امتاز ـ فى العهود الفـرعونية القـديمة التى كان المصريون فيهـا على اتصال دائم بالحاميين والساميين فى بـلاد العرب ـ بأن أرض الكنانة أنشأت مـدنية قديمة قوية ، ولكن مصر لم تنـزع إلى استغلال موقعها الجغرافى فى سبيل إنشاء سيطرة عالمية . وحتى الفراعنة الأقدمون كانوا يفضلون أن ينفقوا جهـدهم الزائد فى بنـاء هرم كبير بـدلاً من أن يشنوا حـروباً مـدمرة على من حولهم من الشعـوب . ولئن كان الباحثون الغـربيون يعتقدون أن هذا كـان مضيعة للجهـد البشرى ، فإن من يتعمق الأمـر من النـاحيـة الأخـلاقيـة ، ومن النـاحيـة الاجتماعيـة ، لا يلبث أن يتفق مع القـائلين بأنه من الأفضل لأيـة أمـة من الأمـم أن تنفق جهـدها الـزائد فى بناء هـرم كبير عن أن تنفقـه فى إثارة حـرب على جيرانها فى الشرق أو الغرب أو فى بناء سيطرة عالمية .

ولكن التاريخ العام ، وتاريخ الاتصال بين الشرق والغـرب بصفة خاصة ، قد

تغير بظهور رجل كان له أبعد الأثر فى تاريخ الإنسانية كلها ، ذلكم هو الإسكندر الأكبر ، الذى كان أول رجل فى التاريخ أثار حربًا عالمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . فقبل عهد الإسكندر كانت هناك مجموعة من مراكز الحضارة والفكر والثقافة منها المركز الحامى السامى الذى يشمل مصر والشرق القريب ، ويشمل نواة ما أصبح يعرف فيما بعد فى العهد الإسلامى بالمشرق العربى بالمعنى الواضح لهذه الكلمة . ومنها مركز آخر فى بلاد الإغريق له حضارة خاصة ، ومركز ثالث فى بلاد الفرس ، ومركز رابع فى بلاد الهند ، ومركز خامس فى بلاد الصين . ولم تكن هناك حروب ولا اتصالات واسعة النطاق ، حتى جاء الإسكندر فخرج من بلاد اليونان وجاء إلى المشرق القريب واتجه نحو مصر ، ثم نحو ليبيا ثم عاد إلى المشرق واتجه نحو إيران ، ثم انتقل إلى بلاد تركستان ومنها إلى أطراف بلاد الصين ، ثم نزل إلى الهند ، ثم عاد إلى المشرق حيث مات .

وهكذا كان هذا القائد أول من أثار حربًا عالمية شملت العالم كله . . العالم المتحضر آنذاك . ولكن هذه الحرب العالمية أبرزت قيمة الموقع الجغرافى لبلاد العرب ، ولمصر بنوع خاص . وقد برزت قيمة هذا الموقع فى أنه همزة الوصل ، وفى أنه القاعدة التى يمكن منها أن يسيطر على العالم ، وانعكست صورة ذلك فى تاريخ مصر الطويل ، وفى تاريخ بلاد العرب كله ، لأن التاريخ فى هذا القسم من العالم تاريخ متكامل كما سأعرض عليكم بعد قليل .

وإذا ما رجعنا قليلاً إلى الجانب الروحى ، وإذا ما ذكرنا أن الله تعالى قد جعل لكل شىء سببًا ، وأنه حين أنزل من السماء هذه العقائد الموحدة وهذه الأديان السماوية ، أنزلها فى مواقيت معينة ، وجعل لكل منها طابعًا خاصًّا ، فهو سبحانه أنزل أول ما أنزل الديانة اليهودية ، وكان ذلك قبل عهد الإسكندر الأكبر ، وقبل ظهور الاتصالات العالمية . وكان معنى هذا أن اليهود الذين أنزل عليهم هذا الدين كانوا يعيشون فى عهد لم تظهر فيه الإتصالات العالمية ، واحتفظ اليهود بروح الإنطواء وحب العزلة ، وفهموا اليهودية هذا الفهم . . . . فهموها على أنها دين خاص بهم ، وفهموها على أنها دين لا يكلف المؤمن به إبلاغ الرسالة . وبقى اليهود على عقيدتهم هذه حتى بعد أن تغيرت الأوضاع فى المشرق العربى ، وحتى

بعد أن برزت قيمة موقعه الجغرافى فى الربط بين الشرق والغرب .

واستمر اليهود على هذا النحو القديم فى فهم الرسالة الربانية التي انزلت للناس جميعا . . . ، استمروا على ذلك حتى اليوم . فإن الذى انتشر فى العالم إنما هم اليهود أنفسهم ؛ أما الديانة اليهودية فإنها لم تنتشر ، لأن أهلها لم يفهموا عن هذا الدين أنه يكلفهم إبلاغ الرسالة إلى غيرهم .

فلما جاءت المسيحية وجاء الإسلام كان وقت إرسالها وإنزالها بعد أيام الإسكندر، وبعد تلك الحرب العالمية الأولى فى تاريخ الإنسانية . وشاء ربك ذلك لحكمة عنده، ولكنها حكمة ظاهرة بالنسبة لمن يدرس الأمور وبالنسبة لمن يريد أن يزكى إيمانه بالعقل والبحث والعلم ، هى حكمة ظاهرة بالغة ، فالمسيحية إنما تقوم أساسًا وفى أصولها الأولى على المحبة بين الناس ، والمسيحيون فى الشرق الأوسط ، الذى هو رباط العالم ، فهموا المسيحية على هذا النحو . فعندما ظهر الإسلام كانت المسيحية العربية نصيرة له ، ولا تزال المسيحية العربية تفهم المسيحية على أنها دين المحبة .

أما المسيحية عندما انطلقت من الشرق العربى ، ودخلت أوربا ، فإنها دخلت أرضًا جديدة ، واعتنقها أناس لم ينشأوا فى المشرق العربى . وكان انتقالها عن طريق الإنتشار والتسرب الخفيف لا عن طريق هجرة كما حدث فى حالة انتشار الإسلام من موطنه الأصلى فيما بعد .

والمسيحيون فى أوربا بحكم موقعهم الجغرافى وبحكم طبيعتهم لم يفهموا المسيحية على أصلها . ولذلك فإن المسيحية فى أوربا لم تمارس كدين محبة . وإنما رأينا المسيحيين فى أوربا يشنون الحروب على غيرهم ، بل يشنون الحروب بعضهم على بعض باسم المسيحية .

وجاء الإسلام فى هذا الوطن العظيم الذى اختاره الله ، وجاء دينًا يقوم أساسًا على الإخاء بين الناس ، وعلى المساواة بين الجميع . كان الله قادرًا على أن يبعث هذا الدين فى الصين ، أو أن يبعثه فى الهند أو فى أوربا ، ولكنه اختار وطننا لأنه كان أصلح أرض الله لينزل فيه الدين السمح الكريم الذى يقوم على العدل والإخاء والمساواة بين الناس .

على هذا النحـو ينبغى أن نبحث فى العلم لأنه يـزكى إيماننا بالله ، ويـزكى إيماننا بـديننا ، ويـزكى إيماننا بأمتنـا وعروبتنـا ، ويزكى إيماننـا بأن الله تعالى حين اختـار أمتنا ، وحين اختار أرضنا إنما فعل ذلك لحكمة بالغة ، وستبقى هذه الحكمة خالدة على مر الأيام .

ولكن لنترك هذا الجانب الروحى ولننتقل إلى جانب السياسة ، ولنركز دراستنا فيما بقى من هـذا الحديث على مصر ، لا لسبب إلا لأنها قلب العالم العـربى ، وإلا لأن تاريخها يعتبر تاريخًا مصغرًا للتاريخ العربى الإسلامى كله .

ومصر منذ عهـد الإسكندر حتى الآن انقسم تـاريخها إلى نـوعين من التاريخ : فإمّا أنها كـانت قوية شديدة الإتصـال بالعالم العـربى من حولها ، قـوية ليس فقط باستغلال مـواردها المحلية ، وإنما بتمكين الصلة بينها وبين سـائر الوطن العربى ، وفى هذه الحالات كان تاريخ مصر ، وكان تاريخ العروبـة كلها ، تاريخًا قويًا حافلا بـالأمجاد . وإما أنها كـانت ضعيفة متخـاذلة مفككـة العرى مع جيرانها وأهلهـا فى الشرق والغرب فطغى عليهـا الغزاة ، وتحكموا فى موقعها ، واستغلـوا هذا الموقع لأمرين : الأمـر الأول هو السيطـرة على العالم العـربى . والأمر الثانـى هو تحقيق السيطرة العالمية . وسأختار لكم أمثلة موجزة لهذين النوعين من التاريخ العربى فى مصر .

النوع الأول هـو عهود القوة ، ولنـذكر منها عهـد صلاح الدين ، هـذا الرجل العظيم الذى نشأ فى شمال الشـام ، وانتقل إلى مصر حيث بدأ يتخذ لنفسـه ولبلاده أسباب القوة . ولو أنه بقى فى سوريـة لما استطاع أن يحقق ما حقق ، لا لأن سورية ضـاقت به وإنما لأن مصر كـانت بحكم طبيعـة أرضهـا ووجود النيـل فيها أرضًـا أخصب ، وكـانت أصلح وأقدر على الإنتـاج ، وإعداد العـدة القوية . لقـد ربط صلاح الدين بين سوريـة ومصر فى حياته ، وكان هذا مقومًا أسـاسيًّا من مقومات عظمته التـاريخية . لم ينس أصله ، ولم يتصـور فى وقت من الأوقات أن انتقـاله إلى جزء مـن الوطن العـربى ينسيه الجزء الآخـر ، وبذلـك تكتل العرب والمسلمـون من حوله ، فخـرج بجيشه وقوته ، واستطاع أن يرد الصليبيين ، وأن ينقـذ العروبة ، وأن ينقذ الإسـلام . ولكن حـروبه كـانت حروبًا إنسانيـة قبل أن تكـون حروبًا دينية ؛

ذلك أنه تمثلت فيه وفى جيشه وفى رجاله ، وفى رأى العالم العربى إذ ذاك ـ تمثلت تلك الصفات ، وهى أن العرب ليسوا قوم سيطرة عالمية ، ولكن فيهم من النخوة والرجولة ، والعزة والكرامة ، ما يجعلهم يثورون للحق ويدافعون عنه . على هذا النحو عبرّ صلاح الدين تعبيراً واضحًا عن روح العروبة الخالدة ورد عن المشرق إثم عدوان سياسى فى حرب يطلق عليها حرب الصليب ، ولكنها فى الواقع كانت حربًا سياسية تهدف إلى السيطرة قبل أن تكون حربًا دينية خالصة لوجه الله .

ومثال آخر من التاريخ العربى أيضًا : جاء التتر والمغول من داخلية آسيا وكانوا مخربين كعادتهم ـ وكانت حروبهم حروب خراب ودمار ، تختلف كل الاختلاف عن حروب العرب التى كانت حروب تعمير ، وحروب نشر ثقافة ودين ولغة .

جاء التتر والمغول ودخلوا المشرق العربى . وحطموا مركزاً عتيداً من مراكز العروبة والثقافة العربية والإسلامية . حطموا بغداد فى عام ١٢٥٨ الميلادى وأحرقوها ، وأحرقوا مكتباتها ، وهدموا دورها ، وأتوا على كل شىء فيها ، وأظلم نور من أنواء الإسلام المتلألئة ، وبدا التاريخ إذ ذاك وكأن العروبة والإسلام قد خبا نجمهما أو كاد فى المشرق العربى . ولكن مصر هبت مرة أخرى . كانت هى القاعدة التى إن صمد العرب والمسلمون فيها ، وإن صمدت وحافظت على قوتها ، فإنها تستطيع دائماً أن تنقذ الموقف ، وخرجت مصر إلى «عين جالوت» التى ينبغى أن يذكرها كل عربى لأنها نقطة تحول كبرى ، ونقطة نور فى تاريخنا المتلألئ ، وفى هذه الموقعة الخالدة دحرت مصر قوات الشر وأنقذت الحضارة والعروبة والإسلام .

وهناك أمثلة كثيرة يتجلى فيها موقف العرب ، ويتجلى فيها ذلك الدور الذى عرفت مصر كيف تقوم به كجزء لا يتجزأ من العروبة . ولكن لأنتقل بكم إلى أمثلة أخرى من ذلك النوع الآخر من التاريخ ، وهى أمثلة إن ذكرناها فإننا سنتفهم الموقف العربى فى الوقت الحاضر تفهماً واضحًا صحيحًا يستند إلى عبرة التاريخ .

لنبدأ بالإمبراطورية الرومانية . جاء الرومان وسيطروا على مصر واتخذوا منها قاعدة أصيلة ، استغلوا مواردها لا لتعود على أهلها بالخير ، وإنما لتكون حقلا ينتج الحبوب لتغذى بها روما جيوشها التى تسيطر على العالم . واستقر الرومان فى

مصر قبل مولد المسيح عليه السلام بثلاثين عامًا أو أكثر قليلا ، ثم اتخذوا من مصر قاعدة أولا للتوسع السياسى والعسكرى فى المشرق العربى ، وثانيًا للتوسع التجارى مع الشرق . انتقل «تراجان» من مصر على طول طريق شبه جزيرة سينا إلى بلاد النبط فى جنوب الأردن . وهم أصل العرب من ناحية الثقافة والكتابة العربية قبل الإسلام . واحتل عاصمتهم «البطراء» . والشىء الطريف أنه انتقل بجيوشه من البطراء شرقاً إلى رأس الخليج العربى . ومعنى ذلك أن الروم ، وقد جاءوا من البحر المتوسط ، عرفوا أنهم لكى يحققوا السيطرة على المواصلات البحرية فى العالم ، فإنه يلزمهم بعد أن احتلوا رأس البحر الأحمر أن يضعوا أيديهم على رأس الخليج العربى ، وذلك فى حد ذاته يبرز أمامنا الاتصال القوى فى التاريخ الحربى والعسكرى بين مصر وبين داخلية البلاد العربية وشمالها ، ثم لم يقف الرومان عند ذلك وإنما انتقلوا بجيوشهم من مصر أيضًا إلى أرض فلسطين ثم منها إلى سورية .

وهذا مثال آخر يبين لنا ذلك الترابط العسكرى القوى القديم الذى عاد فانعكس فى العهد الحديث ، حتى فى الحرب العالمية الثانية ، عندما انتقلت جيوش الحلفاء من مصر إلى الشرق القريب وإلى الشرق العربى ، وسارت على الطرق التى سار عليها الرومان قبل ذلك بألفى عام .

تلك كانت قصة الرومان عندما سيطروا على الشرق العربى عن طريق مصر ، وانتقلوا من مصر أيضًا إلى ليبيا غربًا . وانتقلوا بتجارتهم عن طريق مصر ، وعن طريق البحر الأحمر والخليج العربى أيضًا حتى بلغوا الهند ، وأقاموا معها تجارة مزدهرة .

وهناك مثال آخر من التاريخ هو ما حدث أيام الأتراك ، فالعهد التركى للأسف الشديد يمثل عهد ظلمة خيمت على الشرق العربى خلال بضعة قرون . وعندما احتل الأتراك الشرق العربى مروا سريعًا فى سورية واتجهوا إلى مصر ، فهى مأخذ هذا الشرق العربى ومأخذ العروبة والإسلام . . . استقروا هناك وبنوا مجداً وقوة . ثم انتقلوا من مصر على طول الساحل إلى شمال إفريقية حتى بلاد المغرب . وانتقلوا مع النيل جنوبًا إلى أسوان ومع البحر الأحمر إلى بلاد الحجاز واليمن . ولكنهم

ركزوا قوتهم فى مصر ، واستندوا إليها ، كما أنشأوا قاعدة أخرى فى سورية ، وانتشروا إلى سهول العراق ، بل كادت قوتهم أن تأتى على الجزيرة العربية كلها لولا أن صمد العرب الأمجاد فى بعض بقاع وطنهم العربى ، بقيت مستقرًا للنور وملجأ للعروبة . . . ومنها الوطن العربى الصغير فى بلاد الكويت .

طغى الأتراك (وهم الذين لم يكونوا قوم تجارة ولا ثقافة)فحلوا محل العرب فى المشرق العربى ، ولكنهم إن كانوا قد سيطروا عليه من الناحية السياسية ، فإنهم لم يكونوا أهل رسالة جديدة . وهم فوق ذلك لم يعرفوا كيف يقومون بدور الوساطة بين الشرق والغرب فعجزوا عن حمل عبء التجارة ، ودعوا بعض أهل البندقية ومدن إيطاليا ، إلى الشرق ومنحوهم من الامتيازات التشريعية ما أصبح فيما بعد أساسًا لتلك الامتيازات الأجنبية التى ورثها الغربيون فى العهد الحديث ، وقاسى منها الشرق العربى ، وقاست منها مصر بوجه خاص خلال أربعة قرون .

ولكن لندع هذا العهد التركى ، ولننتقل إلى العهد الحديث . جاء قائد أوربى حديث هو بونابرت ووجد أن مأخذ الإمبراطورية البريطانية ينبغى أن يكون فى الشرق العربى الإسلامى ، وعرف بحصافته العسكرية أن عليه ـ كى يضرب بريطانيا فى الهند ـ أن يختار نقطة يضرب فيها ، فاختار مصر ، وكان حكيما فى اختياره من الناحية العسكرية . جاء إلى مصر لأنه عرف أنها قاعدة السيطرة على المشرق العربى كله ، كما أنها قاعدة السيطرة على المواصلات العالمية ، وخرج من مصر إلى فلسطين ، ولكنه لم يوفق لأسباب مختلفة . وجاءت من بعده بريطانيا التى احتلت هذا الموقع بين الشرق والغرب . جاءت إلى مصر ، نقطة الوصل الخالدة ، فاحتلتها عام ١٨٨٢ ، ثم لم تكد تقيم فى مصر خمسة عشر عامًا حتى انتقلت إلى السودان فاحتلته . ثم لم تلبث أن نظرت إلى الشرق العربى . وعلى الرغم من أننى لا أعتقد أن البريطانيين درسوا تاريخ الرومان وحاولوا أن يقلدوه ، فإننى أرى أن الظروف العسكرية والسياسية نفسها هى التى مهدت للبريطانيين أن يسلكوا الطريق الذى سلكه الرومان . فهم إنما جاءوا إلى مصر لغاية تشبه تمام الشبه الغاية التى من أجلها جاء الرومان .

استغلوا موارد مصر أول الأمر. نشروا فيها الزراعة عن طريق الرى الدائم، وتوسعوا فيها ولكن لتنتج مصر القطن الذى يغذى مصانع لانكشير أكثر مما تنتج من الغذاء ما يتغذى به أهل مصر، وما يرتفع بمستوى المعيشة والرفاهية بينهم. ثم استغلوا هذا الموقع، فجاءت الحرب العالمية الأولى وانطلق البريطانيون أول ما انطلقوا فى مخاطرة بحرية من مصر عام ١٩١٥ إلى «الآستانة» وإلى «غاليبولى». وأخفقت هذه الحملة لكن البريطانيين لم ييأسوا. وما كان لهم أن ييأسوا وهم مسيطرون على موقع مصر الفريد، فخرجوا من مصر عام ١٩١٧ إلى فلسطين. . . إلى هذا القسم العزيز من الوطن العربى الذى كان دائماً على أتم اتصال بمصر من جهة، وبسائر الوطن العربى من جهة أخرى . . . خرجوا إلى فلسطين فاحتلوها وامتدوا إلى شرقى نهر الأردن . . . تماماً كما امتد الرومان قبل ذلك بألفى عام. وامتدوا من هناك بجيشهم مرة أخرى إلى بلاد العراق، وجاءتهم نجدة عن طريق الخليج العربى من الهند، وسيطروا بذلك على شمال العالم العربى، بل حاولوا أن يمتدوا أيضًا إلى أرض الحجاز والأراضى المقدسة.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، واستعان الاستعمار بأحلافه، وأصبحت مصر قاعدة قوية غنية، استند إليها الحلفاء، وأمدتهم بخيراتها. استندوا إليها فاتسعوا من هناك إلى ليبيا، واتسعوا غربًا، واتسعوا جنوبًا عن طريق مصر والسودان إلى أرتيريا وبلاد الحبشة. وتوسعوا بالحرب من مصر إلى بلاد اليونان، وانطلقوا من مصر أيضًا إلى فلسطين وسورية، وتواصلت حلقة القوى الإستعمارية فى الشرق العربى مستندة إلى مصر.

وهكذا نرى أن التاريخ وأن الجغرافيا يعلماننا درساً لا ينبغى أن ننساه ! هذا الدرس هو أن موقع مصر مفتاح الشرق العربى، وأن من يحتل مصر إن كان أجنبيًّا عن العروبة والعرب، فإنه يضمن بغير شك، أن يحتل العالم العربى كله لا قدر الله.

هذا الدرس ينبغى أن نفهمه وأن نعيه تمامًا من تاريخنا الطويل. ومن الخير لنا حين ندرس هذا التاريخ ألا نقتصر على قراءة الصفحات المجيدة من تاريخنا. إنما الخير والعبرة أن ندرس تلك الصفحات القاتمة.

من هذا ترون كيف أننـا إذا مادرسنا موقع مصر ، وتـاريخ مصر ، نجد أن هذا الموقع إنما هو قلب العالم العربى . هكذا تقـول الجغرافيا . وهكذا يقول التاريخ . وما أصدق الجغرافيا ، وما أصدق التاريخ !

على هـذا النحو رأى أهـل المشرق العربـى النور ، وتفتحـت أعينهم عليـه وعلى هذا النحـو عرفـت مصر أن عليها أمـانة كبرى هـى أمانـة التضامـن والتكامـل مع أشقائنا العرب فى كل مكان .

ومصر صـورة مصغـرة من الأمة العـربيـة الكبرى التى ينبغى أن يـؤمن بها كل عربى فى آسيا وإفريقية ، والتى ينبغى أن يعمل لها كل عربى فى آسيا وإفريقية . وقد اختار الله أمتنا وجعلها أمة وسطاً بين النـاس ، كما ميزها بوطن هو مهبط الوحى ، وموقع جغرافى فريد جعل من أبنائها همزة الوصل والأمن ، والتراحم بين الناس .

لنذكـر أيامنـا الماضية عندمـا ظهر الإسلام ، وكـان العرب إذ ذاك أمـة ضعيفة هزيلة وكـانت هناك قوتـان عظيمتان هما قوة الروم وقـوة الفرس ، وكما أوردنا فى فصل سابق وكـان هناك جباران عظيمان يتطاحنان فى الشرق والغـرب ، وأظن أننا لو سألنا عربياً من ذلك العهد : أتظن أن الله سيداول الأيام بين الناس ؟؟ لو سألنا عربياً قبل الإسلام هذا السؤال لما تصور أن العرب ستئول إليهم الأمور بعد قليل . بل إن العرب أنفسهم انقسمـوا على أنفسهـم حين شهدوا صراع الجبابـرة ، ونزلت الآية الكريمة : «ألم ، غلبت الـروم فى أدنى الأرض وهـم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين» . انقسم الرأى العربى ولكن الله قـال بعد ذلك : «لله الأمر من قبل ومن بعد» . وكأن الله كـان يريدنـا أن نفهـم أن الأمر له ، وأنه مهما اصطـرع الروم والفرس ، ومهما انتصرنـا للروم على أنهم أهل كتـاب فإنه من الخير أن نـذكر الله ، وأن نذكـر أن الأمر له آخـر الأمر ، وأن نذكر أن الله عنـدما اختار وطننـا العربى ، وعندما اختار العروبة وضع فى يدها رسالة النور لتكون خير أمة أخرجت للناس .

هكذا ينبغى أن نذكر الماضى ، وأن نذكره فنرى أننا اليوم فى موقف قد لايختلف كثيراً عن ذلك الموقف القديم . ليصطـرع الناس من حـولنا ولكن لنكن نحن خير أمـة إخرجت للنـاس ، تأمر بـالمعـروف ، وتنهى عن المنكر . لنكن نحن العـرب

الـذين يمثلون الإنسـانية فى أوضح صـورها وأقـربها إلى ما أراد الله لها أن تكـون .
لنؤمن بالله ، ولنـؤمن بوطننا ، ولنوقن تماماً أننا إذا مـا احتفظنا بهذه الروح الخالدة فستكـون لنا اليـد العليـا فى يوم لعلـه ان يكـون أقرب ممـا يتصـور من لا يعرفـون التاريخ .

« ١٠ »

مقومات الثقافة العربية ودورها في حياتنا القديمة والمعاصرة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقومات الثقافة العربية ودورها فى حياتنا القديمة والمعاصرة *

فى هذا المبحث عن ثقافة العرب أحب أن أبدأ بمقدمة قد تكون طويلة ، ولكنها ضرورية إذا ما أردنا أن نتفهم عن وعى وبصيرة مرامى هذه الثقافة واتجاهاتها فى المستقبل . هذه المقدمة سأحاول بها أن أعرف الثقافة ومدلولها . وقد تكون أيسر سبيل لتعريفها أن نبدأ بإبراز الفرق بين كلمة «العلم» وكلمة «الثقافة» .

فالعلم هو البحث عن حقائق الأشياء ، والبحث بصفة خاصة عن حقائق الأشياء الطبيعية التى تمس الطبيعة وتمس الكون وتمس الأشياء ، وقد يمتد العلم أحياناً إلى بحث الحقائق التى تمس حياة الإنسان .

والعلم بهذه الصفة ينبغى أن يكون مجرداً ، فالعلم لا يجوز أن يتأثر بالناحية الشخصية فى الباحث . والعلم فوق ذلك ينبغى أن يكون عالميًّا ، وينبغى ألا يكون له وطن ، فهو يطلب فى أى مكان من الأرض ، ويطلب بطريقة واحدة ، وعلى منهج واحد .

فالباحث الذى يبحث عن حقائق الأشياء فى بلد عربى لا يجوز أن يختلف فى غايته ولا فى طريقته ولا فى منهجه عن الباحث العلمى الذى يبحث فى حقائق الأشياء وأصولها فى بريطانيا أو فى فرنسا أو الهند أو الصين . العلم واحد فى كل مكان . وطريقة البحث العلمى يجب أن تكون واحدة فى كل مكان . والعلم ينبغى علينا أن نطلبه فى كل مكان ؛ نطلبه فى بلادنا أو نطلبه فى الصين مثلاً .

هذا عن العلم ، وبهذا التعريف نجد أن الإنسان يزداد علماً كلما انحصر مجال

* هذا حديث ارتجل فى ندوة عقدت بالكويت .

بحثه وكلما تخصص ، وكلما خصص كل وقته وكل فكره وكل عنايته لموضوع صغير يركز فيه جهده ، ويتعمق فيه البحث ، عله يصل إلى حقيقة جديدة يضيفها إلى العلم والمعرفة الإنسانية .

أما الثقافة فتختلف عن كل هذا . فهى تستند إلى المعرفة ، ولكنها تستند إلى المعرفة العامة . والثقافة ليست مجردة ، فنحن لا نكتفى فيها بالبحث عن أصول الأشياء ولا عن الحقائق وحدها ، ولا نبحث فيها بحثًا مجردًا ، لأن الثقافة جزء من الإنسان ، فإذا كان العقل يغذيها فإنها لا تنبع من العقل وحده وإنما تنبع فى النفس البشرية ، وتنبع فى الأحاسيس وتنبع فى التذوق ، وتنبع أكثر من ذلك فى الوجدان ، بل هى أيضًا تتصل بالجانب الأساسى الذى ميز الله به الإنسان عن الحيوان ، ألا وهو الضمير . ذلك الذى لا صلة بينه وبين العلم ، وإذا اتصل العلم به فقد يفسد البحث العلمى ، فالباحث قد يبحث فى حقيقة الذرة مثلا ، ولكنه لايكاد يهمه أن يترتب على البحث العلمى فى الذرة أن تفنى الإنسانية أو يفنى جزء منها ، أو أن يطغى فريق من بنى الإنسان على فريق آخر من بنى الإنسان ، فهو عالم يبحث عن الحقائق وضميره لا يؤنبه كعالم إذا ما تصور أن بحثه العلمى سيترتب عليه فناء جزء من الإنسانية أو استضعافها .

أما الثقافة فتتصل بالضمير ، والضمير أعمق وأروع من العقل ، العقل قد يوجد عند الحيوان ولو بدرجة محدودة ، ولكن الضمير لا يوجد إلا عند الإنسان ، والضمير هو الذى تستند إليه القواعد والنظم الخلقية . هو الذى تستند إليه آداب سلوكنا فى الحياة ، هو الذى تتصل به تلك العواطف الكثيرة التى تميز الإنسان عن الحيوان ؛ حتى أنه ليصدق أن يقال عن الثقافة انها من صميم السلوك الفردى الذى يشمل آداب الخلق ، وضبط النفس ، وتقتضى أن يحاسب الإنسان نفسه عن تصرفاته ، ومنها ما يقتضي فوق ذلك وقبل ذلك وبعد ذلك مخافة الله . فنحن إنما نخشى الله بالضمير ، وان كنا نخافه أحيانًا بالعقل ، ولكن مخافة الله بالضمير هى التى تقرب الإنسان إلى أعمق مراحل الإيمان ، وإذا كان للعقل دور فى الإيمان فهو إنما يأتى ليزكى الإيمان لا لينشئه إنشاء .

هذه الصفات الكثيرة التى تجعل الإنسان إنسانًا إنما تنبع فى الضمير . فالثقافة

لاتصالها بالضمير ، ولا تصالها بأحاسيس التـذوق والفكر العام ، ولاتصالها بالمعرفة العامة ، واتصالها بنواحى الإبداع الإنسانى كالأدب الذى يؤلفه الكاتب أو الشاعر لا باستخدام عقله وإنما بإستخدام خياله ، والشعر الذى نقرؤه فنتذوقه ونتعشقه ونتغنى به لا على أساس الفهم العقلى وحده ، وإنما على أساس الفهـم العاطفى قبل ذلك . والموسيقى التى نسمعهـا فنتعشقها ونعجب بها ونطرب بها ونطـرب لها ، والتى تفسد كل الفساد إن حاولنـا أن نتفهمها بالعقل تفهمًا علميًّا خالصًا . . . الثقـافة بكل هذا تتصل بتكـوين الإنسان كـإنسان بمعناه الكـامل ، وهذه النـواحى الثقافيـة المتعددة لاتستدعـى التخصص المتعمق ، وإنما ينبغى فيهـا الاتساع ، فالثقافـة لا يمكن أن تكون ضيقـة ، وهى بـذلك تختلف بعـض الاختلاف عـن العلم . وإذا كـان العلم لاتمكـن فيه الإجـادة إلا إذا تخصـص العـالم فى فرع مـن فـروع العلـم ودرسه دراسـة متخصصة متعمقة ، فإن المصلحة فى الثقافة تقتضى أن يكون الإنسان واسع الأفق ، قليـل التخصص ، قـادرًا على أن يتذوق نـواحى الإنتـاج الفكرى والإنتـاج الذوقـى والإنتـاج الخيـالى لـلإنسـان ، وقـادرًا على أن يتـذوق أكبر قـدر ممكـن مـن الإنتـاج الإنسانى . فالثقافة هى اتساع للحياة الإنسانية فى اتجاه أفقى ، على حين أن العلم هو تعمق فى اتجاه رأسى .

هذه المقـارنة بين العلـم والثقافة ضروريـة لكى نتفهـم معًا ماذا نقصـده بالثقـافة العربية ، وليس مـن شك فى أن كلاًّ من العلم والثقافـة ضرورى لتقدم الحياة البشرية وإنشـاء الحضارة بمعنـاها العـام . ولكن العلـم يتصل بـاستغلال الإنسـان لخيرات الطبيعة ، يتصـل بالحياة المادية لـلإنسان ، يتصل بمقومـات الحياة وارتباطها بـالبيئة الطبيعيـة ، ولكن الثقـافة تتصـل بحياة الإنسـان كـإنسان ينشـىء الحضارة والحيـاة المتمدينة كما نفهمهـا نحن فى الشرق ، تتصل بحياة الفرد من جهـة ، وبحياة الجماعة من جهـة أخرى ؛ تتصل بـالحياة الأولى وتتصل بـالحياة الآخـرة . فالثقافـة إذن أبعد مدى وأخطر شأنًا مـن العلم ، بل إننا إذا نظرنا إلى التاريخ فـإننا نجد أن الإنسان إذا أراد أن يخلد نفسه فى الحياة فـإن السبيل إلى ذلك هى أن يكون شاعـرًا مثلاً ، فيكتب مـن الشعر مـا يقرأ النـاس من بعـده آمادًا طـويلة ، كما نفعـل الآن حين نقرأ شعـر الجاهلية ، أو يستطيع الإنسـان أن يخلد نفسه بين يدى النـاس بأن يؤلف كتـابًا أدبيًّا

رائعًا ، أو يضع أغنية ، أو يلحن قطعة موسيقية رائعة تبقى بإسمه وتخلده على الزمن .

والذين خُلدوا من رجال الثقافة أكثر كثيرًا من الذين خُلدوا من رجال العلم والبحث العلمى . وليس معنى هذا أن الثقافة أفضل من العلم أو أنها تغنى عنه ، ولكن معناه أن الإنسانية فى مجموعها ، ومن بينها الإنسانية العربية ، والإنسانية الأوربية أو الصينية أو الهندية ، كانت تعرف للابداع الثقافى قدره ، أكثر مما كانت تعرف للإنتاج العلمى قدره ، والسبب فى ذلك هو أن الثقافة تتصل بحياة الناس اتصالاً مباشراً ، فى حين أن العلم يتصل بالطبيعة ، ويتصل بالأشياء ، أكثر مما يتصل بحياة الفرد أو حياة الجماعة .

هناك ناحية أخرى تختلف بها الثقافة عن العلم ، وهى الناحية التى تهمنا نحن فى الوقت الحاضر ، وفى العالم العربى . هذه الناحية هى أنه إذا كان العلم لا وطن له فإن الثقافة لها وطن .

الثقافة لا يمكن أن تتجرد عن المجتمع الإنسانى ولا يمكن أن تتجرد عن الشعب الذى تنشأ فيه ، ولا يمكن أن تتجرد عن البيئة التى تحيا فيها ، وأنا لا أستطيع أن أتصور الثقافة العربية مثلاً دون أن أقرنها مباشرة بالشعب العربى وبالأمة العربية وبالوطن العربى وبالتاريخ العربى وبالآمال العربية . بالماضى وبالحاضر وبالمستقبل فى بلاد العرب . ولا أستطيع أن أتصور الثقافة الأنجلوسكسونية أو الثقافة اللاتينية أو الثقافة الصينية أو غيرها من الثقافات دون أن أقرن كلاًّ منها بوطن معين وجماعة معينة من بنى الإنسان .

فالثقافة إذن تختلف عن العلم . العلم للإنسانية كلها . ولكن الثقافة هى لأمة بذاتها ، ومن هنا ندرك قيمة الثقافة ، فى تكوين أمتنا العربية . وإن كنا ندرك أيضًا أن الأمر أمر اختلاف ثم تكامل بين العلم والثقافة فى حياة أمة من الأمم ولتكن الأمة العربية . ومن هنا ندرك أننا إذا ما أردنا أن يكون لنا كياننا بين الأمم والشعوب ، فإن علينا أن نعد وسائل تربيتنا وتعليمنا على أساس يجمع بين العلم الذى يمدنا بعدة العمل والإنتاج فى الحياة ، والذى يعرفنا بطبيعة الأشياء ، والذى يعيننا على أن نكافح فى ميدان العمل والإنتاج ، والذى يعيننا على أن نسهم فى تقدم الحياة

الإنسـانيـة على الأرض . . . . ينبغى أن نجمـع فى نظـم تـربيتنا وتعليمنـا بين هـذا الجانب، وبين جـانب الثقافة . جـانب الثقافة الـذى يعرفنا بأنفسنـا ، والذى يعين ناشئتنـا العربية على أن تتفهـم كيانها فى العـالم ، وأن تتعرف على وطنها العـربى على أساس المعرفـة والمحبة لهذا الوطن ، وعلى أساس الإيمان الراسـخ بهذا الوطن ، وعلى أساس محاسبـة الضمير فى كل ما يمـس هذا الوطـن ، وعلى أساس كل تلـك المعالم المختلفة التى يمتـاز بها الإنسان عن الحيوان . . . على أسـاس الأخوة ، وعلى أساس المروءة ، وعلى أساس التضحية ، وعلى أسـاس التقدير للوطن وحقوق الـوطنية . بل أكاد أقـول على أساس التقديـس أيضًا . هذه الثقـافة فى تكـوين جيلنا فى مـدارسنا ومعاهدنا هى التـى تجعل منهم رجالاً عربًا أو نساءً عربًا ، يـؤمنون جميعًا بهذا الوطن العربى ، ويخشون الله فى حق هذا الـوطن ، ويخشون ضمائرهم ويحاسبون أنفسهم فى العمـل لهذا الـوطن ، ويحب بعضهـم بعضـاً ، ويقـدر بعضهم بعضـاً ، ويتعـاون بعضهم مع بعض .

على هذا النحو ينبغى أن نسير فى تكوين جيلنـا الجديد ، وينبغى أن نذكر أننا فى نظم التربية والتعليم لا بد أن نهدف إلى غايتين متكـاملتين هما التعليم والتربيةوالغاية الأولى هى أن نمّد الناشئ بقدر من العلم يجعـل منه إنسانًا قادرًا على العمل والإنتاج وهذا هو التعليم ، هـذا هو الإمداد بالعلم وبالوسائل العلميـة ، بحيث يصبح هذا الناشئ ، ولداً كان أم بنتًا ، قادرًا على العمل والإنتاج ؛ ويتسلح بعدّة العلم ليصبح قادرًا على خدمة نفسه ، أو على خدمة غيره ، أو خـدمة أمته عن طريق تسخير العلم فى الإنتـاج . وأما النـاحية الثـانية فى التربيـة فهـى أن نعد النـاشئ ليصبـح مواطنـاً صالحًا ، وكلمـة المواطن الصالح هـذه كلمة عامة يصعـب تعريفها ولكننى سـأختار لكم ما أعتقد أنه أبسط تعريـف :

المواطن الصـالح فى رأيى هـو الشخص الذى يعطـى وطنه أكثـر مما يأخـذ منه ، والذى يصبح ديـدنه فى الحياة ، فى معامـلاته مع أقرانـه وإخوانه أبناء وطنـه ، مقيدًا بذلك الناموس الذى ينبع فى الضمير ، فيعطى كلا منهم أكثر مما يأخذ منه ، أو قبل أن يأخـذ منه ، هذا هو المواطـن الصالح حقًّا ، هـذا هو المواطن الذى ثقـف ورُبّى

بحيث أصبح قادرًا على أن يضبط نفسه ، ويكبح عواطفه الحيوانية الغريزية التى تحد من رغبته فى أن يعطى قبل أن يأخذ ، هذه الناحية فى غاية الأهمية وهى التى يقوم عليها بناء الوطن ، وهى التى تقوم عليها نهضة الأمة ، بل هى التى امتازت بها أمتنا العربية المجيدة فى صدر الإسلام ، عندما جاء المؤمنون وعرفوا أن الموت فى سبيل الله هو أشرف الغايات ، وأن هذه التضحية الكبرى ، التى هى تضحية النفس ، ينبغى أن ترخص من أجل إعلاء كلمة الحق . هذه الروح هى التى ميزت العرب ، وهى التى ميزت تاريخهم ، وهى التى ميزت أفعالهم خلال القرون ، فالعرب عندما جاء الإسلام قامت حياتهم على هذا التهذيب الروحى ، على هذه الثقافة الإسلامية التى جاء بها النور الجديد ، قامت حياتهم ومعاملاتهم مع الأمم جميعًا ، وليس فقط مع أنفسهم ، على أساس العطاء قبل الأخذ . على هذا الأساس عامل العرب العجم ، وعامل العرب العناصر الأفريقية السوداء فى بلاد الحبشة وفيما وراء الحبشة ، وعاملوا العناصر الهندية ، وعناصر الملايو ، وعناصر الصين . بل بهذه الروح التى امتازت بالتسامح ، وامتازت بالإخاء وامتازت بأن التقوى هى أساس المفاضلة بين الناس ، وامتازت بالمروءة والشهامة والنجدة . . بهذه الروح اتسمت أفعال العرب ، حتى فى عهود الكفاح والحروب الطاحنة . والأمثلة كثيرة : فمن هذه الحروب ، الحروب الصليبية ، فهناك تجلت هذه الروح التى لا يمكن أن تنبع إلا فى الضمير ، والتى تمثل فيها تهذيب العرب وثقافة العرب ، والتى دفعت الأمة العربية ممثلة فى شخص محاربيها ، من طور الهمجية الأولى إلى طور الإنسانية الرفيعة ، وهى التى يتمثل فيها جانب الخلود فى حياتنا العربية ، وهى التى ينبغى أن نذكرها دائمًا فنفخر بأننا بين الأمم كنا دائمًا أقرب إلى الإنسانية الكاملة ، فكنا بحق خير أمة أخرجت للناس .

هذه هى الثقافة التى جعلت نفرًا من أبناء العروبة فى أيامنا هذه والمشتغلين بالعلم وبالبحث العلمى المجرد يميلون شيئًا فشيئًا إلى جانب الثقافة ، هذا الجانب الذى ينبغى أن نعترف بيننا وبين أنفسنا بأننا أهملناه فى نظمنا التعليمية فى مختلف البلاد العربية ، فقصّرنا فى جانب التربية والتثقيف ، فعلمنا أبناءنا من العلوم ومن المهارة العلمية ما جعلهم أصلح للعمل ، وأقدر عليه ، وعلمنا نفرًا قليلاً مختاراً من المبرزين من أبناء العروبة تعليماً راقيًا وبعثنا بهم إلى أوربا ينشدون العلم ويتخصصون فيه

فبرزوا بل تفوقوا على كثير مـن أقرانهم فى أوربا ، ولكنهم جميعًا كانـوا علماء ولم يكونوا مثقفين بـالقدر الكـافى ، كـانوا علماء لـلإنسـانية ، ولكنهـم لم يكـونوا ، أو لم تكـن غالبيتهم على كل حال مثقفـة ثقافة قومية عربية . وانتهى علـم نفر منهم إلى أن تولد فى نفوسهـم شىء مـن مركب النقـص ، فنراهم مثـلا ، حين يتكلمون أو يتحـدثون يفضلون بطريقة آلية لا شعورية أن يتحدثوا بلغة أجنبية أو يتشدقون ببضعة ألفاظ أو مصطلحات أو عبارات من إحـدى اللغات الأجنبية ، ونراهم يتهمون اللغـة الغربية بما هـى منه بـراء؛ وبأنها لغـة قاصرة عـن أن تبلـغ بالإنسـان مظهر الحيـاة التقدميـة الحديثة . وهذا كله مغـالطة غير صحيحة ، وتهمة باطلة ، وليـس أدل على ذلك من أننا نستطيـع أن نتفاهم باللغـة العربية فى كل شـىء وأن نستخدمها فى كل مـا يمس الثقافة قطعـًا وفى أكثر الأشياء التى تمس العلـم . واللغة العربية ، وهـى المقوم الأول من مقومات ثقافتنا ، لغة حية مضى على حيـاتها المتصلة ستة عشر قرنًا ، وهى بذلك أقدم اللغات الحيـة جميعًا ، فنحن إلى الآن نقرأ الشعر الجاهلى ونتذوقـه ، ونقرأ القرآن الكريم ونتأثر بـه إلى أبلغ حدود التأثر . وهذه اللغة بقيت على الـزمن ، وهى تجاهد الآن لتجارى تقدم العلم الحديث ، وتجاهد بتوفيـق كبير . وإذا ما قارناها بغيرها من اللغات ، فـإننا نجد مثلاً أنـه إذا حاول فرنسى فى الـوقت الحاضر أن يقرأ كتابـًا أُلف باللغة الفرنسية فى القرن العـاشر أو الحادى عشر أى منذ عشرة قرون أو أقل ، فإنه لا يكاد يفهم منه إلا النذر اليسير. وكذلك الحال فى اللغة الإنجليزية ، واللغة الألمانية ، وأغلب اللغات الأوربية الحديثة . فاللغة العربيـة كانت أقدر على الحياة من غيرها . واللغة العربية بها مـن المرونة واتساع الأفق ما يعتبر مكمنا من مكامـن القوة والحيوية فيها . واللغة العربيـة حفظها الله عن طريق القرآن الكريم وسيحفظهـا أبد الدهر ، وعلى العـرب أن يذكـروا هـذه النعمة الكبرى عليهـم ، نعمة اللسـان العـربى ولغـة القرآن .

بعض أولئك الذين تعلموا من أبناء العروبة فى الخارج خلال الجيل الماضى أورثهم تعليمهم فى الخارج مـركب النقص فلـم يستطيعوا للأسـف الشديد بعـد عودتهم إلى بلادهم أن يشاركوا مشاركة فعالـة فى تنمية النهضة العربية الصحيحة . ولكن الجيل الجديد مـن أبناء العـروبة نُشِّئوا على نحـو عربـى قومى . فـأبناء الجيـل الحاضر من

الناشئة فى معاهدنا يربون على أساس تقدير تراثهم وثقافتهم الأصيلة ، وعلى أساس أننا إذا أخذنا عن الغرب فينبغى أن نأخذ من العلم أكبر قدر نستطيع أن نأخذه ، وأن يكون هذا الأخذ عن الغرب غير مقترن مطلقًا بأى مركب نقص ، لأننا إذا أخذنا عن الغرب شيئًا من المعرفة الآن فإنما نسترد بعض ما سبقنا به إلى الغرب من فضل كبير فى الإنتاج العلمى والعقلى . نحن إذن نسترد بضاعتنا أو بعضها ، ولا بد أن نفعل ذلك دون أن نحس أدنى حرج ولكن ينبغى ألا يطغى هذا الذى نستعيره من الغرب على أصول حياتنا الفكرية والروحية والثقافية ، كما ينبغى حين نتعلم أن نذكر أن لنا أمجادًا عربية خالدة ، وأن لنا فضلاً على الإنسانية سابقًا ، وأننا قد كان لنا فضل كبير على الإنسانية وإنتاجها الروحى والثقافى ، وأن من تقاليدنا القديمة ما ينبغى أن نحتفظ به ، لا على أساس أن نكون محافظين على القديم ، وإنما على أساس أننا نعتز بهذا الجانب الطيب من إنتاجنا القديم . نعتز بثقافتنا ، ونعتز بتراثنا ، ونؤمن بأن ماضينا يتصل بحاضرنا ومستقبلنا ، فنجمع عن طريق ذلك ، بين المحافظة على الطيب من حياتنا القديمة من جهة ، وبين التجديد والاقتباس وبعث حياتنا على نحو جديد عن طريق الاستعارة من جهة أخرى . فحياة العرب إذن وتربيتهم وتنشئة جيلهم الجديد ينبغى أن تتجه فى هذين الاتجاهين ، فنأخذ من الجديد أطيبه ، ونحتفظ من القديم بخير ما فيه ، ونحن إذا لم نفعل ذلك فإننا سنخسر كثيرًا . وإذا ما حاولنا أن ننبذ تراثنا ، فإننا سنجد أنفسنا معلقين فى الهواء ، مع أن لنا أصولاً تتصل بتربتنا الطيبة الخالدة ، وتربطنا بماضينا وبنظمنا الأخلاقية ، وبحياتنا الروحية وبديننا الحنيف . لا بد أن نفعل هذا كله ، حين ننقل عن الغرب كل ما يتقدم بنا إلى أمام ، وكل ما يزيد من قدرتنا على أن ننافس الأمم الحديثة .

ونحن فى هذا سنختلف اختلافًا ظاهرًا عن الأمم الغربية فالأمم الغربية سواء أكانت فى جنوب أوروبا أم فى شمالها أم فى أمريكا ، هذه الأمم تستطيع أن تتناسى الماضى أو تغض الطرف عنه ، لأنه لا يكاد يكون لها ماض يذكر ، فحياتها كلها فى العهد الحديث ، أما نحن فى المشرق العربى فإننا نتصل بالإنسانية القديمة ، نتصل بالإنتاج الثقافى الإنسانى ، وبالأمجاد الروحية للإنسانية عامة ؛ فقد اختار الله تعالى أرضنا لتكون مهبط الوحى ، وهو بهذا الاختيار قد وضع على عاتقنا أمانة كبرى ، هى

أن نذكر هذا الماضى ، وأن نستوحيه ، وأن نعتز به ، وأن نحييه ، وأن نغـذيه بإنتاج الحياة الجديد . على هذا النحو وحده نستطيع أن نبنى أمجادنا فى المستقبل ، وعلى هذا النحو وحـده نستطيع أن نؤدى الأمـانة . وليس أفضـل فى هذه الحياة ، ولا بـالنسبة للحياة الأخرى ، من أن يؤدى الإنسان أمانته نحو الله .

وحديث الثقـافة حديث يصـح أن يطول ، ولكن هناك جـانباً من جوانـب الحياة الثقافيـة العربية ، لا أستطيع أن أنهى الحديـث دون أن أعود إليه . هذا الجانـب هو مقومات هذه الثقافة العربية . فإلى عهد قريب كان المصلحون العرب فى مجال التربية والتعليم والثقافة ، أو فى مجال الإصلاح الإجتماعى أو غيره ، يرون أن سبيل الإصلاح بالنسبـة لهذه الأمة العـربية هـى أن يبحث كـل منا عـن نواحـى الضعف فى حيـاتنا ليقويها . كنا ننظر إلى الأمة العربية فنقـول إن بها من العيوب كذا وكذا ، ثم نحاول أن نصـف الدواء لهذه العيـوب . ولكن هـذا النحو مـن الإصلاح هـو فى الحقيقة نحـو ناقص ، وينبغى أن يكون مذهبنا الحديث فى الإصلاح هو ألا نكتفى بتلمس العيوب والبحث عـن الأدواء وإنما يلزم أن نبحـث عن مكامـن القوة فى حيـاتنا ، ثـم نشحذ العزائم لبعث هذه المكامن ، ولبعث القوة منها . فيكون سبيلنا إلى الإصلاح أن نقول إن الأمة العـربية فيها مـن مكامن القـوة كذا وكذا ، ثـم نحاول أن نبعث هـذه القوة ونفكها من عقالها ، وبـذلك لا نكتفى بالبحث عن النواحـى السلبية فى حياتنا وإنما نبحث عن النواحى الإيجابية التى تبنى النهضة وتدفع بها إلى أمام .

على هذا النحو عرف العرب قديماً أن يبعثوا أمتهم ، عند ما جاء الإسلام فوجد فى الأمة العـربية حيـوية كـامنة ، كانـت لا تعرف كيـف تتجه الاتجاه السليـم ، ولكن الإسلام بعثها مـن مكمنها ، فخرج العرب مـؤمنين برسالتهم الجديـدة ، عاملين من أجل تعميمها فى مختلف أرجاء العالم .

هـذا فيما أرى هـو مـذهـب المصلحين الجديـد سـواء فى مجال التربيـة أو فى مجال الإصلاح الاجتماعـى . فلابد أن نبحث عـن نواحى القـوة فى الثقافة العربيـة ، وعن المقومات التى تقوم عليها نهضتها الجديدة ، وأول هذه المقومات ـ كما ذكرت منذ حين ـ هو اللغة العربيـة ، التى ينبغى أن تكون نقطة البدء فى إحياء حياتنـا القومية . ومن حسن الحظ ، أن هذه اللغـة قادرة على أن تحيا ، ففيها مـن الحيوية ومن الصـلاحية

للبقاء مـا يضمن لها الخلـود . فقد شـاء الله تعالى لهذه اللغـة أن يشرفها وأن يكـرمها فجعلها لغة القرآن . ومن حسن الحظ أن بهذه اللغة من المرونة ما سمح لها بأن تجمع بين الماضى والحاضر . وبين القديـم والجديد . فهى لغة فيها من الألفـاظ ما يتصل بالبادية القديمـة ، والبادية هى أصل الحياة العربية مـن غير شك. وبها من الألفاظ ما يتصل بحيـاة الشرق من الفرس أو الهند أو غيرهـم . وبها من الألفاظ ما جـاء من ناحية البحر المتـوسط وبلاد الروم . والباحثون والعلماء والمتعلمـون العرب فى الوقت الحاضر يعملون جاهدين لينحتوا ألفاظاً عربيـة جديدة تساير العلم الحديث ، وهم موفقون فى ذلـك كل التوفيق . والعربية لغـة مرنة ، والمرونة هى أصـل الحياة ، ثم إن هذه اللغة بها عنصر الجمال وعنصر الـروعة . هذه الناحية الجمالية فى اللغـة هى التى تجعل منها لغـة فصيحة موسيقية يتعشقهـا الذوق ، وتألفها الأذن . هـذه اللغة التى تجمع بين اللين والقوة ، وتجمـع بين كل ما هو رقيـق فى مشاعر الإنسان وكـل ما هو قوى فى أحاسيسـه . هذه اللغة قادرة من غير شـك على أن تكون مقوماً أسـاسيًّا من مقومات حياتنـا الثقافية . والذى أراه هو أن أول ما ينبغى أن نعنى بـه فى نظم تربيتنا وتعليمنا إنما هـو هذه اللغـة ، فنتعلمها ونتعشقهـا ، ونحاول فـوق ذلك وفى الشرق العربى كله أن نصل إلى المرحلة التى يتكلم فيها الجميع أقرب لهجة ممكنة إلى ما يمكن أن نسميه بالعامـى الفصيح ، بحيث يستمع العربى فى المغـرب إلى العربى فى المشرق فيفهم عنه ، ويتعشـق ما يقول ، ويتذوق أدبـه وإنتاجه الأدبى واللغـوى . وبذلك تصبح التربية والتعليم وسيلة إلى تحقيق التقـارب اللغوى بين مختلف أرجاء بلاد الأمة العربية .

ولن نصل إلى تحقيق حلمنا العظيم ، حلمنا الـذى سيتحقق من غير شك بإنشاء الأمـة العربيـة الموحـدة ، إلا إذا وصلنا إلى تحقيـق هذه اللغـة المشتركـة ، هذه اللغـة العلمية من جهة والثقافية من جهة أخرى . ولعلها أن تكون المقوم الأول فى بناء وحدة الأمة العربية .

هناك مقومات أخرى منها : الإيمان بالأمة العربية والثقة بها ، وهذا الإيمان لابد أن يستمد قوته من الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله هـو الأصل ، وهو الينبوع الذى ينبغى أن تبنى عليه العقيدة . ومن أوجه العقيدة ، أن يؤمن الإنسان بأمته وأن يؤمن العربى

بأن أمته خير أمة أخرجت للناس . والإيمان فى كـل من المسيحية والإسلام قد دعا إلى المحبة والإخاء . وهو فى الإسـلام بصفة خاصة يعلم المساواة بين النـاس والعطاء قبل الأخذ . فهـذا الدين الحنيف يهذب النفـس ويثقف الفرد ويجعـل منه إنسانًا بـالمعنى الكامـل الصحيح . فتربيتنـا الدينيـة ينبغى أن تكـون أساسًـا من الأسـس الأولى فى تكوين الجيل الجديد .

كنا منـذ جيل ننظر إلى التعليـم على أنه إما أن يكـون تعليماً دينيًّا خالصًـا وإما أن يكون تعليماً مدنيًّا خـالصًا ، وهذا خطأ أفسد التعليمين الدينـى والمدنى ، وأدخل فى حياتنا تلـك الثنائية فى تكوين الفرد وجعـل الجيل المتعلم من أبناء العروبـة يعتقد أنه لاصلة واقعيـة بين الدين والدنيـا ، مع أن الإسلام يـأمرنا بغير ذلك ، وهـو يكاد أن ينفرد بأنه العقيدة التى تأمر بالجمع بين الدين والدنيا .

التربية الدينية بمعناها الروحى العميـق ينبغى أن تكون أساسًا ، ولا يصح مطلقًا أن نفكر فى تـربية أو تعليـم مدنى لا يستنـد إلى الجانب الروحـى ، فإن ذلـك يفسد التعليم المدنى كما أفسد إهمال العلوم الحديثة التعليم الدينى أو كاد .

هناك مقوم آخر مـن مقومات تربية الجيل الجديد المثقف ، هـذا الجانب هو الثقة بالنفس . هذه الثقة التى كدنا أن نفقـدها بسبب الاستعمار . هذه الثقة التى زعزعها حقًّا عهـد الحكم التركى عندمـا جاءت النظرة التركية إلى العـرب على أنهم ليسوا خير أمة أخـرجت للناس ، وإنما هـم فئة مستضعفة من الإنسـانية . وهى نظـرة أعجبت الغرب فسار عليها . ويبدو أن فئة من العرب ـ فئة قليلة لحسن الحظ ـ استكانت إلى هذا الاستضعـاف ، وسعـت فى ركاب الاستعمار ، أو فى طريقه ، فـاستعان المستعمر على الغالبية المطلقة من الشعب العربى بأقلية ضئيلة مستضعفة من أبنائه . ظهر من العرب من لا يثق بنفسه ، ومن لا يعرف تاريخه ، ومن لايؤمن بأن الأمة العربية قادرة على أن تحيى نفسهـا من جديـد . ظهر بيننا المتخاذلـون وحاولوا أن يسيروا بـالشعب العربى فى طريق الاستكانة والضعف . ولكن الله كان قد شاء لهذه الأمة أن تبقى على الزمن ، وها هى ذى تلك القلة القليلة مـن أبناء العروبة تسير إلى غروب ، وها هو ذا الفجر الجديد يطلع علينا ، فجر الثقة بالنفس ، وفجر الثقة بأننا نحن العرب كنا أمة ذات مجد كبير فى الماضى ، وسنحيى أمتنـا وقوميتنا وحياتنا وثقافتنـا ونبعث أمجادنا فى

المستقبل لنحمل أمانة التاريخ بين الأمم من جديد .

ولكن هناك مقومًا آخر أذكره آخر الأمر ، لا لأنه أقل من غيره من المقومات ، ولا على أنه ينبغى أن يأتى كآخر المقومات ، وإنما أذكره لأنه يمثل الناحية التى تجمع بين كل ما تقدم من المقومات . هذا المقوم هو الوحدة .

والوحدة فى هذه الناحية ينبغى أن تكون مستمدة فى أصلها من الإيمان والتوحيد ، فالله تبارك قد خلق هذه الأمة لتسير موحدة . وقد سارت على أمره وبركته فى أول أدوار حياتها ، ولكنها للأسف خرجت عن طريق الحق ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل . هذه الأمة تفككت ، وكان تفككها فى مجال الثقافة بصفة خاصة ، وكان هذا التفكك هو أساس الضعف ، كان هو أصل الانحلال السياسى الذى أصاب الأمة العربية ، فإذا ما أردنا اليوم أن نبعث الوحدة السياسية ، فإن رأيى فى ذلك هو ألا نقف بجهودنا على المحاولات السياسية وإنما ينبغى أن نبدأ من حيث يجب أن نبدأ وهو أن نوحد ثقافتنا ، ونوحد اتجاهات الفكر واتجاهات الروح واتجاهات الضمير بين أبناء الأمة العربية . وإننا إذا ما نظرنا إلى ماصنعه بنا الاستعمار ، فإننا نلمس كيف أن هذا الاستعمار قد استطاع أن يدرك أن الأمة العربية يمكن أن تؤخذ عن طريق الثقافة وعن طريق الانحلال الثقافى . فهذا الاستعمار أصاب الثقافة العربية فى صميمها . وقد ذكرت لكم فى مطلع هذا الحديث أنه إذا كان العلم لا وطن له فإن الثقافة لها وطن . والثقافة العربية لها مجال حيوى ينبغى أن تعيش فيه ، وهو مجال يمتد من المحيط الأطلنطى إلى الخليج العربى . وله أطراف تمتد فى ناحية شرق إفريقية ، وفى تلك الجهات الكثيرة التى انتشر فيها العرب فيما وراء البحار . هذا المجال الحيوى ينبغى أن نوحده فى ميدان الثقافة . وهذه هى السبيل الأكيدة التى ستأتى لنا بالوحدة السياسية فى يومها .

والاستعمار قد قطّع هذا المجال إرباً ، فانفردت فرنسا بشمال إفريقية ، وحاربت اللغة العربية لأن فرنسا كدولة استعمارية كانت تعرف كيف تؤكل الشعوب ، واللغة هى سبيل أكل الشعوب وسبيل إضعافها وسبيل زعزعة ثقتها بنفسها ، وسبيل قطعها عمن يستطيعون أن يمدوا إليها يد الأخوة ، فأضعفت فرنسا اللغة العربية وأضعفت الثقافة العربية ، وانفردت حيناً من الدهر بذلك الجزء الغربى من الوطن العربى

وحاولت أن توجهه فى غير ما أمر به الله .

وبريطانيا حاولت بعد تركيا ، أن تنفرد بمصر ، ونجحت إلى حد ما أن تنفرد بالسودان . وحاولت أن تقطع السبيل بين أبناء النيل وبين أن يثقفوا أنفسهم ليؤمنوا بعروبتهم وليؤمنوا بأنهم همزة الوصل بين المشرق العربى والمغرب العربى ، وليؤمنوا بأن مجد مصر إنما قام على أنها موطن عريق قوى من مواطن الثقافة العربية والثقافة الإسلامية .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى المشرق العربى وجدنا دولة استعمارية أخرى نجحت لوقت ما ــ مع الأسف الشديد ــ فى أن تقتطع أجزاء من هذا الوطن ، ومن هذا المجال الحيوى للثقافة العربية . فنجحت فرنسا فى أن تجتذب فريقاً كبيرًا من أبناء لبنان العزيز ، وجاهد أولئك الأبناء الأعزاء فى لبنان ، جاهدوا من أجل عروبتهم ، ونجحوا بحمد الله فى ذلك ، وكان أولئك المجاهدون فى ميدان الثقافة بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية ، إذا ما وجدوا أن المجال قد ضاق بهم فى بلادهم ، وأن الاستعمار لا يسمح للثقافة العربية فى لبنان أن تزدهر ـ كانوا ينزحون ، وينزحون إلى المهاجر البعيدة أو إلى مصر التى احتضنت الثقافة العربية والفكر العربى الذى ضاق بالاستعمار ، واحتضنته فى مجال الثقافة ، وفى مجال الصحافة ، وفى مجال التأليف ، وفى مجال إحياء اللغة العربية . وبذلك أتيحت لذلك النفر من أبناء لبنان والشام الأعزاء غير المسلين أتيحت لهم الفرصة أن يجدوا فى مصر ملجأً ، لثقافتهم العربية ، وموطنًا لهم يشاركون فى إضاءة أنوار العربية من جديد .

وكذلك انفردت بريطانيا بأجزاء أخرى من العالم العربى فى جنوب بلاد العرب وفى العراق ، وبدا الاستعمار وكأنه قد نجح فى تقطيع المجال الحيوى للثقافة العربية ، وحال بيننا وبين أن نقوم بدورنا التقليدى فى الإنسانية ، كما حال بين العالم العربى وبين أن يجدد حياته بعد أن انقشع عنها ظل الاستعمار التركى المظلم . ولكن الأمة العربية كما ذكرت ، أمة قادرة على أن تبعث نفسها ، وهذا البعث ينبغى أن يبدأ من حيث الثقافة ، وينبغى أن يكون هدفنا الأول هو أن نعيد إلى المجال الحيوى للثقافة العربية وحدته . هذه هى نقطة البدء ، فنعيد هذه الوحدة عن طريق توحيد الفكر ، والاتجاهات الفكرية ، وإحياء اللغة العربية ، وبعث الثقة بالنفس والتمهيد بكل

ذلك للوحدة العربية الشاملة .

هذه هى سبيل الحق ، وهذا هو طريق بعث الأمة العربية من جديد .

ولحسن الحظ أننا نجـد بلدًا عربيًا قـد يكون صغيرًا بحجمه ، أو بعدد سكـانه ، ولكنه نموذج مصغر لما أحـب أن أرى عليه الأمة العربية فى المستقبل ، هـذا البلد هو الكويـت . هذا البلـد الذى يجتمع فى صعيـده العرب من مختلـف أرجاء العـروبة ، يتعاونون فى العمل من أجل بعث الأمة العربية . هذا الوطن الصغير الذى شاء الله فى الوقت نفسه أن يلهم أهله أن يسيروا فى طريق وحدة ثقافة العرب .

« ١١ »

مقومات الحضارة الاسلامية وسماتها في التطبيق العربى



مقومات الحضارة الإسلامية وسماتها في التطبيق العربي

مقدمة : الدين والحضارة :

يمتاز الإسلام بين الديانات الأخرى بأنه دين حضارة ، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة لله ودين معاملة بين الناس ، وأنه أنشأ لوناً من الحضارة عرف باسمه ، وهو «الحضارة الإسلامية» على حين أن غيره من الديانات السماوية لم يبلغ هذه الدرجة ، ولا هذا المستوى من الأثر الانسانى والتاريخي . فاليهودية مثلا لم تنشىء حضارة يهودية بالمفهوم الحديث لكلمة الحضارة ، وكذلك المسيحية لم تنشأ عنها أو تصاحبها حضارة مسيحية ذات طابع مميز أو موحد ، وكذلك الأديان غير السماوية ، وعقائدها ذات الانتشار الكبير ، لم تقم لأى منها حضارة خاصة مميزة ، وإن كان بعضها قد علق بحضارات أقدم منه أو معاصرة له ، ومن ذلك الكونفوشية التى اتصلت بالحضارة الصينية . والبوذية التى اتصلت أولا بحضارة الهند . ثم رحلت عنها إلى داخلية آسيا الوسطى وأطراف الصين ، أو إلى جزيرة سرنديب (سيلان) أو جنوب شرق آسيا حيث الحضارة هندية صينية ، بل كذلك عقائد الهند ذاتها ، وهى التى اتصلت بألوان من الحضارة الهندية على أساس اقليمي ، ولكن واحدة منها لم تنشىء لوناً شاملاً من الحضارة المتكاملة ، إلا على نطاق محلى محدود لم يستطع أن يعم الهند كلها فى يوم من الأيام ، بل كذلك أيضاً عقائد إفريقية الفطرية فى مناطقها الحارة والاستوائية ، حيث لا يمكن أن توصف الحضارة التى صاحبت بعضها بأنها حضارة مشتقة من العقيدة أو الديانة أو حتى مصطبغة بالطابع الدينى إلى الحد الذى ينسبها

إلى تلك العقيدة ، وإن كـان تداخل الأساطير والخرافـات قد أوجـد نوعاً من الـرباط المشترك بـين ديـانات إفريقيـة الوسـطى ، وبـين مـا يتصل بها من نظم اجتماعية أفريقية .

مفهوم الحضارة :

ولا بد لهذا الاختـلاف بين الاسلام ومعظم الديـانات والعقائد الأخـرى ، سماوية وغير سماويـة ، من أسبـاب . ولكننـا قبل أن نحاول استجـلاء مثل هـذه الأسبـاب والعلل يجدر بنا أن نتفق على مفهـوم كلمة «الحضارة» وهـو مفهوم تطـور مع الزمن ، لاسيما فى تاريخ حيـاتنا العربية والإسـلامية . والمفهوم الأصيل لكلمـة «الحضارة» فى لغتنا أنها تعنى حياة الحضر ، والإقامة الثابتة فى القرى والمدن . وعكسها «البداوة» ، وهى حياة التنقل فى البادية . ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منـذ كانت بـادية وكـان حضر . ولكن أول من تصـدى لهذا التمييز على أسـاس من الدراسة والتسجيل والتحليـل العلمى هو عبد الرحمن بن خلـدون . بل ان هذا العالم العربى كان أول من عالج شئون الحضـارة بطريقة علمية تحليلية ، على الرغم من أن البداوة والحضارة فى مختلف صورهما وأنماطهما فى الحياة كانتا قائمتين منذ أقدم العصور التاريخية .

على أنه إذا كان ابن خلـدون قد بلور مفهوم الحضـارة عند العرب ، على أنها ذلك النمط من الحيـاة المستقـرة ، والـذى يناقض البـداوة ، فينشىء القـرى والامصـار ، ويضفى على حياة أصحـابه فنـوناً من العيش والعمل والاجتماع ، والعلم والصنـاعة وإدارة شئون الحيـاة والحكم ، وترتيب وسائل الدعـة وأسباب الرفاهـة . إذا كان ابن خلدون قـد بلور هـذا المعنى التاريخي ، وفصل الفـوارق بين البدو والحضر ، واعتبر الحضارة غـاية العمران ، فإن مفهوم الحضـارة فى عصرنا قد امتـد إلى ألوان من المعنى هى أبعـد وأوسع ممـا رآه ابن خلـدون فى عصره ، وفى بيئتـه العـربيـة ، فى انتقـالها الاجتماعى والسياسى والمدنى من البادية الى الحضر . ولئن كان بعض العرب القدامى قـد استعملوا لفظ «مـدنى» (بمعنى اجتماعى) ، فإن مفهـومـاً آخر ظهـر واتصل بما أصبح الآن يعرف «بالمدنية» ، بل إن ابن خلدون ذاته كـان سباقاً أيضاً فى هذا المجال

اللفظى، فاستعمل مفهـوم «التمدن» وكان يعنى بـه «التحضر» . ولقد ورد فى بعض عباراته «ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى إليها» .

على أن تلك المفاهيم اللغويـة ، إنما نشأت فى بيئة عربية كـانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية . . . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا فى جهات قليلة جدا خـارج عالمنا العربى . ولذلك فان لفـظ الحضارة فى مفهومه العالمى ، ومفهومـه الحديث المعاصر بصفة خاصـة ، قد أصبح أكثر اتساعـا مما كان يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغوى التقليدي . وقد يكون من المفيد أن نقابل فى لغتنا الحديثة بين ألفاظ ثـلاثة هى «المدنية» و«الثقافـة» و«الحضارة» . وان نتفق ، ولو على سبيل الاصطلاح على مفهوم كل واحد من هـذه الألفاظ . وقد اتصل لفظ المدنية فى مفاهيمنـا الجارية بـالجانب المادى والمظهرى من الحيـاة ، وذلك من حيث مقـوماتها الطبيعية ، ومنشآتها الملموسة . وكـذلك من حيث الأنماط المعيشية فى أسسها المادية وفى صورها المحسـوسة فى حياة المجتمع ، وما يتصل بهذه المظاهر الماديـة والمحسوسة فى حياة الجماعة من قواعد ونظم وأعراف .

أما «الثقافـة» فنستطيع أن نصطلح على أنها تشمل ما يقابل «المدنيـة» من الناحية المعنـويـة فى حيـاة الناس ، بما فى ذلـك ما يتصل بـالـروح والفكـر والعقل والـذوق والمشاعر. وهى حصيلة الحياة الإنسانيـة فى هذه المجالات كلها ، وتجمع أنماط الحياة الروحيـة والفكرية واللغـوية والأدبية والفنيـة ، ولها صورها التى تتعـدد وتتلاقى بين الشعـوب . والتى يتصل بعضها بتراث مشترك لـلانسانيـة ، ويتصل بعضها الآخـر بحياة جماعات بذاتها دون سواها . وامـا «الحضارة» بمفهومها الحديث فهى الحصيلة الشـاملـة للمدنيـة والثقـافـة معًا ، وهى مجمـوع الحيـاة فى صـورها وأنماطهـا الماديـة والمعنويـة، وهى الخط العريض الـذى يسير فيه تاريخ كـل شعب من الشعوب على الأرض . ومنها الحضـارات القديمة والحضـارات الحديثة والمعاصرة، ومنهـا الاطوار الحضاريـة الكبرى التى تصور انتقـال الانسان أو الجماعـات الخاصة من مـرحلة الى مرحلة وهم يحققون كلمة الخالق على الأرض .

على هـذا الأساس نستطيع أن نتحـدث عما يمكن أن نصطلح على أنه «الحضـارة الاسلاميـة» . وهى حصيلة تاريخ حياة المسلمين على أرضهم ، وفى أوطـانهم المتصلة

فى النطاق الأوسط من قارات العالم القديم ، بين المنـاطق الباردة التى تقطنهاكثرة من المسيحيين وغيرهم ، وبين المناطق الاستوائية ، التـى يقطن أغلبها كثرة من أصحاب الديانات الاخرى أو من الوثنيين ـ وسيكون بحثنا عن «الحضارة الاسلامية» ومقوماتها فى نطاق العصر الذى نعيـش فيه منعكسا عن الماضى ، منذ أن ظهـر الاسلام وخلع طابعه الاسلامى على حضارة الشعوب التى دخلت فيه . أى أننا سنعنى أكثر العناية بـالعهد الحديـث ، مكتفين من الـرجوع إلى الماضـى بالقـدر الضرورى لتفهم معـالم حضارتنا الاسلامية ومقوماتها فى أوضاعها التاريخية .

المقومات الدينية للحضارة الإسلامية :

ولئن كان الإسلام قد امتاز ، بأنه ديـن بناء حضارى ، فان واقع الأمر فى الحضارة الاسلامية انها استمدت مقوماتها الأولى والأساسية من الإسلام ذاته . واذا كان ظهور الإسلام قد سبقته فى جزيرة العرب وما جاورها حضارات أقدم منه كما سبقته أيضاً فى البلاد التى انتشر إليها ألوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلى أو الاقليمي ، فإن الإسلام استطـاع أن يضفى على البلاد التى شملهـا جميعاً لوناً مشتركـاً من الفكر الدينـى والحياة والمعامـلات والعلاقات الإنسـانية الإجتماعيـة بل والسياسيـة ، حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين فى مختلف أقطارهم وديارهم . وهذا القدر المشترك لم يتحقق مثله لأبناء أية ديانة أخرى من الديانات ذات الانتشار .

واذا نحن حاولنـا أن نستجلى علة قيام هذا الطـابع الإسلامي العـام للحضارة فى بلاد المسلمين ، فإننا نستطيع أن نورد العوامل الدينية الآتية :

١ ـ أن الإسلام قد انطوى منذ يومه الأول على طاقة روحية (قوة دفع دينى) جعلت منه ثورة حقيقية . بـل إن ثورته من هذه النـاحية شملت حياة الأفـراد والجماعات من جوانبهـا كافة . فهـى ثورة روحية ، وثـورة فى العبادة والطقوس ، وثـورة فى الحياة العملية والمعامـلات ، وفى النظم الاجتماعية ، بل وفى نظم الحكـم وصلة الحاكم بالمحكوم ، وكـذلك فى تشريعات الأسرة والجماعة . والشىء المهم فى هـذا الدفع الثائر أنه كان اصلاحاً جذرياً يمس أساس الأوضاع فى حياة الناس ، وأنه لم يكن مستندا إلى ما جاء به الكتاب وحده ، وإنما صاحبته السنة النبوية الشريفة ، التى

أصبحت هى أيضاً منذ المراحل الأولى للإسلام مصدراً للاسترشاد والفهم والتفسير والقياس فى حياة المجتمع الإسلامى . وكان من المهم أيضاً أن الدفع الثائر كان يستمد قوته من معينه الأصلى الذى لا ينضب ، وانه لم يهدأ فى يوم من تاريخ الإسلام ، وإن كان قد اعتورته دورات من الهدوء النسبى . ثم إن الدفع لم يكن يستمد القوة من العقيدة وحدها ولا من الإيمان وحده ، وإنما كان يستند بحكم العقيدة إلى «العمل» ، والله تعالى يقرن العمل بالإيمان : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . » ومن هنا كان الإمان وحده غير كاف ، وكانت الايجابية الدينية فى الاسلام لا تتم بغير العمل . بل من هنا اصبح الدفع الدينى عاملا أساسيا فى بناء الحضارة الإسلامية وتجديدها على مر العصور .

٢ ـ إن الإسلام كان منذ يومه الأول أيضًا دين « دعوة » ، أى دينا تبشيريا له رسالة يجب على المسلم أن يبلغها ، وأن يبشر بها بين غير المسلمين . وهو من هذه الناحية يختلف عن ديانة كاليهودية لم يعن أصحابها بنشرها بين الناس ، وإن كانوا هم قد انتشروا فى الأرض محتفظين بعقيدتهم لأنفسهم . وقد يكون من المفيد فى هذه المناسبة أن نذكر أن العصر الذى ارسل فيه محمد عليه الصلاة والسلام ، ليكون بشيرًا ونذيرًا بين الناس ، كان أنسب العصور ليأتى فيه خاتم النبيين بالرسالة الإنسانية الكاملة ، بل كان أنسب العصور ليتم الله فيه على الناس نعمة الدين فى شموله العالمى . ذلك أن فكرة « العالمية » التى لم تكن موجودة فى عهد أنبياء بنى إسرائيل ، كانت صورتها الأولى قد اكتملت قبيل ظهور الإسلام ، عندما اتصلت حضارات الشرق الأوسط بحضارات الهند والصين ، وكانت حالة الشعوب واتصالاتها قد أهلتها لأن تتلقى الرسالة الإلهية ، التى فرضت على أصحابها أن يبشروا بها بين الناس شرقًا وغربًا . وكان هذا من أهم الظروف التى مهدت لرسالة الإسلام العالمية من أن تنتشر على نطاق لم يتحقق لرسالة غيرها من حيث اتساع الرقعة الجغرافية فى العالم القديم .

ومن الخير أن نذكر أيضًا أن فكرة « الدعوة » فى الإسلام ، وقد واتتها ظروف «الإنتشار » فى النطاق العالمى ، قد مكنت للإسلام ذاته من أن ينتشر طابعه الحضارى كعقيدة ، وكنمط للحياة الإجتماعية فى نظمها المادية والبشرية . ومن

هنا أصبح الدين مقومًا أساسيًا من مقومات الطابع المشترك فى الحضارة الإسلامية .

٣ ـ كان الإسلام دينا « بسيطًا » : غير معقد ولا مركب فى عقيدته ونظمه . وكان فى الوقت ذاته دينا « مباشرًا » يتصل فيه العبد بخالقه دون وساطة كهنية أو كنسية . وقد كانت البساطة فى العقيدة شاملة للعبادات والمعاملات جميعًا . وما نظن دينا يطلب إلى الفرد شهادة أبسط من شهادة الإسلام على عمقها وجلالها : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وقد نزل الإسلام بهذه الشهادة التى تصوغ أعمق فكرة فى أبسط عبارة . كما نزل بآيات محكمات وتشريعات تكملها سنة قائمة على البساطة ، بعيدة عن كل تعقيد أو تركيب ، ومن هنا كان الموقف على عتبة الإسلام موقفًا سهلاً ، وكانت القاعدة الثابتة لدى من يبشر بالإسلام أن الدين يسر لا عسر . ومن هنا أيضًا كان الاطمئنان الروحى والفكرى أول ما يستشعره من يدخل فى دين الله وإسلامه ، خصوصًا وأن اعتناق العقيدة الجديدة كان لابد أن يأتى مباشرة ، دون وساطة أو وكالة عن طريق كاهن أو كنيسة ، وأن التكليف فى الإسلام كان فرديًا ، وأن روعيت فيه ظروف الفرد والنفس البشرية ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[1] .

على أنه من الحق أن نذكر أن هذه البساطة ، وإن كانت قد يسرت انتشار الإسلام ومهدت لاحتفاظه بطابعه الحضارى الموحد (ولو من الناحية الروحية والدينية) ، إلا أنها لم تنته بالضرورة إلى ذلك القدر من « المرونة » الذى قد يشوه التطبيق ، ولعل المقوم الاساسى الذى لم يجعل البساطة تنقلب إلى مرونة مشوهة ، هو أن القرآن كان وعاء للعقيدة ، حفظها على مر العصور، واضفى عليها الطابع المشترك فى مختلف البيئات ، وتحت مختلف الظروف . ومن هنا فإن المجتمعات الإسلامية على تباين بيئآتها الطبيعية والاجتماعية استقت كلها من معين روحى ودينى واحد ، واستطاعت فى تنوعها أن تحقق للحضارة الإسلامية وحدة لا نجد لها نظيرًا بين الحضارات الأخرى ، التى استمدت طابعها أو بعض مظاهرها المميزة من عقيدة دينية .

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ .

٤ ـ كان الإسلام دينا رحبا ، يقبل الاجتهاد ، بل ويدعو إليه فى حدود أصول العقيدة كما كان إلى ذلك دينا يدعو إلى سبيل العقل والحقيقة كما يدعو إلى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر وإلى المعرفة أساسًا من أسس الدعوة الإسلامية ، وكان التفتح العقلى الذى يقوده الضمير مفتاح الدعوة الحضارية كلها فى الإسلام . وعندما خرج المسلمون من بلادهم ووجدوا حضارات أخرى لم يجانبوها لمجرد أنها حضارات سابقة على عهد الرسالة ، وإنما أخذوا منها ما وجدوا فيه الخير ، وما لم يتعارض مع خطوط العقيدة الجديدة . بل إن الإسلام ، وقد جاء فى بيئته الأولى ختامًا لرسالات السماء قد أعاد للفكر التوحيدى فى المشرق القريب أصالته، واستطاع بهذه الاعادة والتثبيت أن يجلى بعض معالم الفكر والحضارة فى هذه المنطقة ، وأن ينطلق بها جميعًا إلى الشرق والغرب ، ومن فوق الأرض ، وإلى ماوراء البحار . وكان الإسلام فى ذلك كله باعثًا ، كما كان منقبًا ومجليًا للفكر والحضارة .

وبالاضافة إلى ذلك فإن الإسلام فى رحابته الحضارية استطاع أن يمتص ألوان الحضارة فى البلاد التى انتقل إليها ، على مختلف بيئاتها ، وأن يسبغ عليها طابعه الإسلامى الشامل والمميز .

٥ ـ كان الإسلام دينا للآخرة وللدنيا فى آن واحد . وهو فى هذا قد اختلف عن كثير غيره من الديانات والعقائد ، التى ينبع بعضها فى ماديات الحياة ، ثم يضفى عليها مسحة من العبادة أو الفلسفة السطحية ، وينبع بعضها الآخر فى مجال الروحيات التجريدية التى بقيت منفصمة عن معاملات الحياة الواقعية . وقد ترتب على ما اتصف به الإسلام من جمع بين الروح والمادة أنه أصبح دينا حيًا يلائم الحياة ، مهما اختلفت ظروفها البيئية أو التاريخية . كذلك أصبح الإسلام أكثر التصاقًا بالحياة فى مفهومها الحقيقى وصورتها الواقعة . وفى الوقت ذاته أصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضارى فى مجال المدنية المادية من جهة والثقافة الروحية والعقلية ، بل والاجتماعية من جهة أخرى . وكان تقبل الدين الجديد ايسر يسرًا بالنسبة لكل من الجماعات التى عرفت الحضارة فى صورها المغرقة فى المادية ، وتلك التى عاشت من قبل فى نطاق أقرب إلى

الروحيـات . ومن ذلـك كله أصبح الإسـلام أكثر اتصـالاً بالبنـاء الحضارى فى البيئات التى انتشر إليها ، على اختلاف تلك البيئـات . وكان ذلك من العوامل التى حققـت ولا تزال تحقق ذلك القـدر المشترك من المظهر الحضـارى فى مختلف بلاد المسلمين .

٦ ـ كـذلك كان الإسـلام بطبيعته دين « وصل » بين النـاس . ولقد كان النبـى عليه الصلاة والسـلام تاجرًا ، ولم يكن صـاحب حرفة أخـرى مما يفصل صاحبـه عن المجتمع ، أو يجعلـه فى جانب خـاص أو ضمن فئة منعـزلة عن النـاس . ولقد كـانت التجـارة كذلـك فى كل العصـور وسيلة انسـانية تـربط بين النـاس حين يتبادلون السلع ويتبادلون معها ألوان الفكر وأسباب الحضارة . والشىء الطريف أن التجـارة كـان لها دور كبير فى انتشـار الـديـن الجديـد ، حين حمل التجـار والملاحون رسالة الإسلام إلى أقطار بعيدة لم يفتحها العرب بالسيف ، وانما فتحتها التجارة والاتصالات الحرة ، فنقلـت إليها شهادة الدين الحنيـف ، كما كانت فى الوقـت نفسه وسيلة لانتقـال لون الحضارة الإسـلامية فى مظهره المادى والـروحى والاجتماعى . وليس من شك فى أن التجارة والملاحة كانتا وسيلة الربط المكين بين أقطار المسلمين خلال أعصر التـاريخ ، على نحو شارك فى بنـاء الطابع المشترك للحضارة الإسلامية .

٧ ـ وأخيرًا فإن الإسلام كان دين « قيم » وضوابط سلوكية مادية ومعنوية ، وهذه القيم يتصل بعضها بحيـاة الأفراد ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعـات . وإذا نظرنا إلى الحضارة على أنها لابد أن تقترن بنمط معين من الحياة فإن الإسلام عاون بقيمه وضـوابطـه على أن يعطـى حيـاة أهله وحضـارتهم بعـض مميـزات ذلـك النمـط المشترك ، بل إن الإسـلام امتاز بـأن أعطى نظامـًا متكامـلاً للحياة ، سـواء أكان ذلك من وجهة نظر الفرد أم من وجهة نظر الجماعة ، وهذا النظام شمل علاقات الأفراد ، وكثيرًا من نواحى الحكم ذاته ، وقد يكون من أبرز القيم التى استند إليها نظام الحيـاة الإسلامية فكرة القيمـة الذاتية لـلإنسان الفرد ، واستنادهـا إلى فكرة المسئولية الفرديـة فى نطاق الحرية . ثم فكرة الإخاء التـى تجعل المسلم فى أى قطر يشعر بأنه ينتمـى إلى جماعة المسلمين على أساس من المساواة ، والتى كـانت من

وراء « حس المشاركة » الذى تستشعره جماعة المسلمين على اختلاف اللغة أو الجنس ، أو حتى الولاء الوطنى أو السياسى . وقد يوجد مثل هذا الحس المشترك بين جماعات من أهل الأديان الأخرى ، ولكنه لا يبلغ قوة « حس المشاركة » بين المسلمين . ثم منها فكرة العدل ، الذى ينبع من قاعدة المساواة أصلاً بين الأفراد، ويجيز التفاوت بينهم على أساس العمل ، وهذه قاعدة تشعر المسلم بروح الإنصاف ، وهى أساس التماسك الاجتماعى المستند إلى الاقتناع . ومنها كذلك فكرة السماحة وعدم التمييز على أساس من العنصر أو الجنس أو المال ، وذلك جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا على أساس التكافؤ والإندماج ، ومهد لأن يكون نظام الحياة والحضارة فى الإسلام نظامًا جامعًا رحبًا ، راسخًا فى معاييره ، التى لا يغيرها الزمن ولا تشكلها الظروف . ثم منها ما يمكن أن نسميه التكافل الإنسانى الإسلامى . ذلك الذى أرسى للجماعات التى تحيا الإسلام وتمارسه قواعد الحياة الدنيوية فى ارتباطها بالدين ، ومكن لها من أن تبرز بطابع حياتها الإسلامية ، عقيدة ونظامًا وحضارة فى آن واحد .

المقومات البيئية للحضارة الإسلامية :

وإذا كان الدين ذاته قد أعطى حياة المسلمين وحضارتهم تلك المجموعة من المقومات الأصلية ، فإن البيئة بعواملها المحلية وبموقعها الجغرافى ، قد ساعدت هى أيضًا على اعطاء الحضارة الإسلامية ما كان لها من طابع ، بل ومن مكانة ، فى النطاق العربى الذى يتوسط العالم القديم ، ويمتد فيه من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق عبر الجزيرة العربية .

ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها ـ موطن الإسلام الأصيل ـ منطقة « وصل » بين أطراف العالم ، عندما تلتقى القارات الثلاث فى العالم القديم ، ومن شواطئها ومفارقها تمتد بحار الشمال بادئة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر والخليج العربى . وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سببًا فى أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير فى وسائل المواصلات ، وفى ظهور دور « الوساطة » الذى كتب للعرب أن يقوموا به ، بل دور « الرسالة » الذى كتب الله بنزول الإسلام فى

بـلادهـم أن يضطلعـوا به . والـواقع أن الحكمـة الإلهّية مـن نزول الإسـلام فى الأرض الوسـط ، لا يمكن أن يعادلها إلا حكمـة الأمانة التـى حمّلها تعـالى للأمة الـوسط : «وكذلـك جعلناكم أمة وسطـًا لتكونوا شهـداء على الناس ، ويكون الرسـول عليكم شهيدًا » [1] . ولم يكن الأمر فى ذلـك بالطبع مجرد التوسـط الجغرافى على أهميته ، وأنما كان الأمر أوسع وأعمق ، فهـو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ومـن ناحية السلوك الإنسانى ، ومن ناحية الإعتدال فى كل ما يتصل بالمادة والمعنى فى الحياة . وهى أمور اتصلت كلهـا بطبيعة البيئة العـربية الإسلاميـة فى ظروفهـا وقت نزول الإسـلام وبعد نزوله .

ومن هذه البيئة الوسط انتشر الإسلام شرقـًا وغربًا ، بالبر والبحر على حد سواء . ولعلنا نستطيع أن نـرى كيف أن عاملاً قويًا مـن عوامل ذلك الإنتشار تمثـل فى موقع شبه الجزيرة العربية ، وفى سهولة اتصالها عن طريق البرازخ والمعابر البرية من جهة ، والمفارق والخلجان البحـرية من جهة أخـرى . ثم إن هذه الظروف الجغـرافية لم تكن مقومـًا وعاملاً ميسرًا لانتشار الطـابع الإسلامى فى الحيـاة فقط ، وانما كانت كـذلك عامل تـواصل بين أطراف العالم الإسلامى ، بحيـث إن جماعات المسلمين ، حتى فى الجهات النائية من جنوب شرق آسيا مثلاً ، لم تنعزل فى حياتها أو ثقافتها وتاريخها عن الـوطن الأم لـلإسلام ، لا فى التجـارة ولا فى الحج ، ولا حتى فى الهجـرات وتواصـل الأرحام . ومـن هنا كان التماسـك الحيوى والحضـارى العام بين المسلمين فى مختلف أقطارهم حتى فى العصور التى لم يكـن هناك فيها أى تواصل سياسى أو اقتصادى . بل مـن هنا كان « التفاعـل » بين المسلمين ، تفاعلاً أصبـح قوامًا للطابـع الحضارى الإسلامى على مر العصور .

وفوق ذلك فإن الوطن الأصيل للإسلام فى بلاد العرب ، إن كان يمثل منطقة ربط بين أقطار المسلمين وبيئـاتهم ، فإن الوطـن الإسلامـى الكبير فى مجموعه كـان يمثل نطاقـًا متوسطـًا من العـالم ، بين المناطـق الحارة والمناطـق الباردة وبين الجهـات التى تقطنها العنـاصر البيضاء والشقراء وتلك التـى تقطنها العناصر السمـراء والسوداء ،

---

(١)سورة البقرة : ١٤٣ .

ومن هنا كـانت « مكانة » العـالم الإسلامى فى استنادهـا إلى « موقع » ذلك العـالم من جهة ، وإلى تكوين سكـانه وسطا بين الشعوب من جهة أخـرى . وظاهر أن حكمة الأمة الوسـط إن كانت تنطبق على الأمة العـربية فى خصوصها ، فإنها تنطبـق كذلك وبصفة عامة على الأمة الإسلامية ، فى مجموعها الكبير بين أمم العالم .

المقومات التاريخية والبشرية للحضارة الإسلامية :

على أنه إلى جانـب المقومات الدينيةوالمقـومات البيئية للحضارة الإسلاميـة كانت هنـاك مقومـات تاريخيـة وبشرية تتصـل بـالعصر الذى ظهـر فيه الإسـلام وانتشرت عقيدته، ثم بالعنصر البشرى والتكوين السكانـى للمجتمعات الإسلامية . فأما عن العصر ، فإن الإسـلام كان ختـام الديـانات السماوية ، وكـان بذلـك رباطـًا لها من الناحيـة التاريخية ، كما كـان فى الوقـت ذاته يمثل تصـديًا روحيًا جـديدًا لصـور من الديـانات السماوية السـابقة التى شـوهها الـزمن ، وكان على الإسـلام أن يصححها وينقيها ويـرد إليها أصالـة الفكر التوحيـدى . ولقد كـان هذا التحدى الـذى واجه الإسلام منذ يومه الأول ، ولا يزال يواجهه فى معـرض المقابلة مع الأديان السـابقة له ، مصدر القوة والدفع بـالنسبة للفكر الإسلامى ، وما اتصل به مـن حضارة . وكذلك كان الأمـر بالنسبة لتصـدى الإسلام لمعتقدات أخـرى غير سماوية ، وجدهـا فى بيئة الجزيرة العربية أولاً ، ثم فى البيئات الآسيوية والإفريقية التى انتقل إليها الدين الجديد من جهة أخرى . فهذا التصدى كله كـان الحافز للفكر الإسلامى والنظم الاجتماعية الإسـلامية فى أن تحتفـظ بأصـالتها مـن جهة ، وأن تجدد حيـويتها ، وتـوسع نطـاق رحابتها الحضـارية من جهة أخـرى . ومن هنا انطوى التفـاعل الإسلامى مـع ألوان الحضارة التـى التقى بها فى بـلاده الجديدة على قـوة غلبت كـل التحديـات . فانتشر طابع الحضـارة الإسلامية فى فعاليـة لم تعرفها أية ديـانة أخرى ، حاولـت أن يكون لها طابـع حضارى . وظـاهر مـن هذه النـاحية أن تـأخر ظهـور الإسلام عـن كل مـن المسيحية واليهوديـة مثلاً ، ثم عن ظهور ديانـات أخرى كالبوذية أو ديـانات الهند أو أطراف الصين وجنوب شرق آسيـا . . . . كان هذا التأخر الـزمنى عاملاً مـن عوامل نجاح الإسـلام وتفوقه فى التـوسع والانتشار ، وعـاملاً مـن عوامل احتفـاظ الإسلام بحيويته فى مواجهة التحديات .

ولنذكر مرة أخرى أنه عندما ظهر الإسلام كانت فكرة « العالمية » ، واتصال الشرق بـالغـرب سواء أكـان بـالتجـارة والـوسـائل السلمية ، أم كـان بـالاحتكـاك العنيف «والحروب العالمية » التى بدأها الأسكندر الأكبر لأول مرة فى التاريخ . . . . لقد كان ظهور فكـرة العالميـة واستقرارها قبل نـزول الإسلام عـاملاً ممهـدًا ، فتح مجال التوسع والانتشار على نطـاقه العالمى أمام دين الله الجديـد . وتلك فرصة أتيحت غير كـاملة للمسيحيـة ، التى لم تحقق فى عهـودهـا الأولى (وقبل عصر الاستعمار الحديث) مثل انتشار الإسـلام ، ولم تتح لا لليهوديـة ولا لأديان جنـوب آسيا وشرقهـا ، التى بقيت محصـورة فى نطاقهـا الجغرافى الآسيـوى ، ولم تصبح فى يوم من الأيـام ديانـات عالميـة الانتشار .

على أن قوة الإسلام فى انتشـاره ، وترسيخ معالم حضارته الروحيـة ، قد تضاعفت بفعل مقوم انسانـى آخر ، هو تنوع السلالات التى دخلـت فى الإسلام . فهو لم يكن منذ أيـامه الأولى دين عنصر أو جنس أو سـلالة معينة من النـاس ، وانما جمع الناس وسـاوى بينهم . وربط بـربـاط الأخوة الإسـلاميـة والتكـامل الإنسـانى بين الأبيض والأسمر والأسود ، واستمـر فى انفتاح أفقه إلى العناصر الصفـراء وغيرها من العناصر المختلطة الـدماء حين انتشر بعيـدًا عن بيئـة شبه جزيـرة العرب . وهـو من النـاحية الاجتماعية أيضًا جمع بين الناس وساوى بينهم على جميع المستـويات . ومن هنا كانت « جماعة المسلمين » قـادرة أبدًا على التـوسع واستيعاب كل من يـدخل فيها . ولم يكن الأمر فى المجتمع الإسـلامى أمر بلـد أو منطقة أو جنس أو طبقـة اجتماعية أو عنصر سيـاسى أو لون ثقـافى ، أو غير ذلك ممـا يعرقل التكـامل الحضـارى بين مجموعـات السكـان . ومن هنـا كتبت لـلإسـلام الغلبـة فى مـواجهـة كل الظـروف التـاريخيـة والاجتماعية ، وكتبت لحضارته وحدة الطابع الروحى والفكرى والإنسانى العام فى كل منطقة انتشرت إليها من الوطن الإسلامى الكبير .

ثـم أن هناك ظاهرة أخرى تـرتبت على كل هذه الجوانب والعوامل الإنسانية ، هى ظـاهرة الاتصـال والاستمـرار الزمنى فى الحضـارة الإسـلامية . ذلك أنـه رغم فترات الضعف السيـاسى ، محليًا أو على نطـاق واسع . . . تلك الفترات التى انتـابت الإسلام وحيـاة المسلمين ، فإن هذا الدين احتفـظ بكيانه وحيـويته وقدرتـه على بناء

الحضارة ونشرها . بل إن مما يستحق أن نسجله أن فترات الضعف السياسى والعسكرى للمسلمين كانت من أبرز فترات انتشار الدين الحنيف . فقد حدث مثلاً أنه أيام غزوات التتر والمغول ، وغلبتهم على قواعد المسلمين فى المشرق الأوسط ، استطاع الإسلام بروحانياته وقيمه الإنسانية أن يغزو قلوب الغزاة والفاتحين ، وأن ينتشر بين قبائل آسيا الداخلية إلى حدود منغوليا فى المشرق البعيد .

مستقبل الحضارة الإسلامية :

وإذا كان ذلك تاريخ دين الله ، وما اتصل به من طابع حضارى اتسع نطاقه ، واستمر اتصاله على مر الزمن ، وامتاز بالشمول الإنسانى الاجتماعى ، والتماسك والوحدة الروحية ، رغم كل الظروف المكانية والتاريخية والبشرية ، فما هو المستقبل بالنسبة للحضارة الإسلامية فى عالمنا المعاصر ؟ إن هذا المستقبل مرتبط أشد الارتباط وأقواه بأمرين : هما طبيعة الإسلام الذى أعطى الحضارة طابعها المميز ، ثم طبيعة الحضارة ذاتها وقدرتها على البقاء والاستمرار والتجدد والنمو . وإذا كان الله تعالى قد قال وهو أحكم القائلين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [1] فإن المفهوم الشامل لهذه الآية الكريمة أن الله يحفظ الذكر قولاً ومدلولا ورسالة . وما دام هذا المعين باقيا على الأرض ، فإن مصبه الحضارى فى حياة الناس لا يمكن أن يجف أو يغيض . والواقع أن شريعة الإسلام قد أثبتت قدرتها على البقاء وملاءمة العصور والمراحل الحضارية رغم اختلاف الظروف . وهذه الحيوية ذاتها هى سر القوة فى الإسلام وتعاليمه ، وفى كل ما يتصل بالإسلام من بناء حضارى ، لاسيما فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، وهى أعز ما فى المفهوم الحضارى من تراث . وبالإضافة إلى ذلك فإن الإسلام دين يمكن أن تميزه بين الأديان بأنه دين « توق حضارى » ، يدفع من يمارسه ، لا إلى العمل وحده ، وإنما إلى ما هو أهم من ذلك وهو «الاتقان» : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » . وهذا الاتقان هو مفتاح الإجادة والتجويد والبقاء والاستمرار الحضارى . بل هو أساس التطلع إلى ما هو

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

أحسن وأفضل وإلى التوق إلى بلوغ الإبداع فى العمل الحضارى . والتاريخ يعلمنا أن المسلمين كلما خلصوا لدينهم ، ومارسوه بمفهومه العميق الذى يجمع بين الإيمان والعمل ، نجحوا فى إقامة الحضارة ، وإحياء تراثها ، والانطلاق بها إلى آفاق المجد التاريخى . ومن هنا كانت جماعات المسلمين دائمًا تجد فى المقومات الدينية دافعها إلى العمل الحضارى المجيد ، وحافزها عليه .

فأما عن طبيعة الحضارة الإسلامية ذاتها ، فأنها حضارة متكاملة يعيش أصحابها لدنياهم ولآخرتهم جميعًا . والتاريخ يعلمنا أيضًا أن الحضارات التى تجمع بين المادة والروح ، والتى يكون الدين فيها متكاملاً مع حياة اليوم المادية وحياة الغد الروحية . . مثل هذه الحضارات هى أقرب الحضارات إلى البقاء والخلود . ومن الخير أن نذكر هنا أنه حتى حضارة المصريين القدماء تلك التى عرفت التدين فى صورته الساذجة المختلطة قبل التوحيد ، قد استطاعت أن تبقى على وجه الزمن فى حالتها المزدهرة خلال بضعة الآف من السنين شبه متصلة ، وهى فترة أطول كثيرًا مما بقيته حضارة اليونان أو حضارة الرومان ، وهى أضعاف أضعاف ما مارسته حضارة أوربا فى صورتها الحديثة والمعاصرة . وقد يكون السبب الأكبر فى استمرار حضارة الفراعنة تلك القرون الطوال أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لآخرتهم، كما تصوروها ، بقدر ما يعيشون لدنياهم . ولقد أقاموا معابدهم ومقابرهم من الحجر ، بناء أو نحتا، فبقيت على الزمن ، كما تركوا آثار عملهم المادى اليدوى فى الأرض والرى والحياض التى لا نزال نزرعها بعدهم حتى اليوم . وتلك صورة من الخير أن نذكرها ، لأنها تلقى الضوء على ما يمكن أن يكون من مستقبل لحضارة الإسلام ، تلك التى تجمع بين الدين فى صورة من التوحيد والعمق والضياء الروحى الذى أتم الله به نعمته على الناس ، وبين الدنيا فى صورة من العمل الذى يبنى الحضارة ويقيم دعائمها ويحقق كلمة الله بالعمران فى الأرض .

ومجال المقابلة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى ، قديمة وحديثة ، مجال يمكن أن ينفتح لكثير من القول الذى يقوى إيماننا بمستقبل حضارة الإسلام . ولكننا حتى إذا ما نظرنا إلى بعض نواحى الضعف فى حضارتنا الإسلامية ، فإننا لانلبث أن نجدها من النوع الطارىء ، أو الذى يمكن أن ينقلب إلى مصدر قوة .

ولنأخذ ظاهرة « الجمود » على سبيل المثال . فقد كانت حياة المسلمين توصف فى القرن الماضى بأنها حياة جامدة غير متطورة ، ولكن من يتأمل تلك الحياة لا يلبث أن يرى فى جمودها إذ ذاك نوعًا من الانطواء على الذات فى مواجهة تحديات الفكر الأوربى الاستعمارى وفى مواجهة تيارات التغلغل الأجنبى ، التى كانت تعمل من أجل زعزعة إيمان المسلمين بقيمهم الحضارية . ولا شك أن روح الجمود إذ ذاك كانت نوعًا من الدفاع عن الذات ، وأنها حفظت على المسلمين وحضارتهم كيانها ، ولو فى حالة توقف حضارى ، صان الحضارة من الانحراف فى تيار حضارات دخيلة ، وحفظ عليها شخصيتها وسط الانواء والعواصف الفكرية ، حتى تجمع للمسلمين من العزة الذاتية ، ومن عوامل اليقظة الفكرية والروحية ، ما مكن لهم من أن يقفوا على أقدامهم ، قبل أن ينطلقوا قدمًا وفق إرادتهم ، وفى هدى من قيمهم الروحية والاجتماعية والحضارية على طريق الغد المرموق .

لقد صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم فى ظل الدين الحنيف منذ نزول الإسلام وجددوا هذه الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل ، وهم قادرون بإذن الله على أن يعيدوا صياغة التاريخ فى غدهم القريب والبعيد .

ختام :

وبعد : فهذا بحث لم يقصد به أن يكون دراسة مفصلة لمقومات الحضارة الإسلامية ، بقدر ما قصد به أن يعطى إشارة إلى أهمية هذا المنحى من الدراسة والبحث ، بالنسبة لماضى الحضارة الإسلامية ومستقبلها . كذلك فإننا لم نحاول أن نضمن هذا البحث تفصيلاً لمظاهر حضارتنا فى صورها التى ملأت التاريخ خلال أكثر من أربعة عشر قرنًا ، والتى عمرت الأرض وامتد ضياؤها إلى خارج العالم الإسلامى بحدوده الجغرافية المعروفة . ولكننا نأمل أن نكون قد وفقنا لاسترعاء النظر إلى أهمية هذا اللون من الدراسة ، لعل فيما ذكرنا ما يستثير الاهتمام ويدعو إلى مزيد من البحث والاستقصاء ، وإلى توجيه البحث العلمى نحو استجلاء دور الإسلام فى بناء حضارة أشرق بها وجه الزمن ، واشرقت بها حياة الأمة العربية بصفة خاصة ، ولم تكن من أجل المسلمين وحدهم ـ وإنما كانت كذلك ـ وستبقى ، من أجل الإنسانية جميعًا .



« ١٣ »

خطط الإصلاح الإجتماعى والأوضاع التاريخية والثقافية فى المشرق العربى



خطط الإصلاح الإجتماعى والأوضاع التاريخية والثقافية فى المشرق العربى

يسير الإصلاح الإجتماعى فى البلاد المتقدمة على أساس دراسة المجتمع ونظمه فى أوضاعها الحالية ، ومحاولة رسم الخطة للإصلاح فى ضوء هذه الدراسة ، ويحاول بعض من يتناولون الإصلاح هناك أن يتتبعوا بعض النظم الاجتماعية من حيث تاريخها وتطورها على الزمن وقابليتها للتجديد والإصلاح . ولكن هذا المنحى من الدراسات التى تتصل بالتاريخ الإجتماعى فى بلاد الغرب لا يؤخذ به إلابقدر محدود . ذلك أن النظم والأوضاع هناك معظمها مستحدث نسبياً ، لايكاد تاريخه يرجع إلى أكثر من قرون قليلة . بل إن كثيراً من تلك النظم لا يرجع إلى أبعد من عصر النهضة الصناعية الحديثة فى تلك الأقطار . وبعبارة أخرى ليس للنظم الاجتماعية التى يراد تناولها بالإصلاح هناك تاريخ طويل معقد ، فضلا عن أن أغلبها نظم متجانسة لأنها نشأت فى عصر حضارى واحد .

ويسير المشرق العربى الآن نحو دراسة الأحوال الإجتماعية ومحاولة تناولها بالإصلاح ورسم الخطط العملية لذلك . والاتجاه السائده هو أن نقتفى أثر أمم الغرب وأمريكا فى هذا الميدان ، فندرس المجتمع فى أوضاعه ونظمه « الحالية » ، ونرسم خطة الإصلاح فى ضوء الدراسة . ومع ذلك فإن للمشرق ظروفه الخاصة التى تجعل اتباعنا هذه الطريقة واكتفاءنا بدراسة الأحوال الراهنة غير كافيين لرسم خطة حكيمة ومستنيرة للإصلاح الإجتماعى .

ولبيان ذلك نود أن نستعرض بعض ما انتهت إليه الدراسات خلال السنوات الأخيرة . وانصب أغلبها على البحث فى مقومات الحضارة وحياة المجتمع ونشأة نظمه

الأساسيـة فى مصر وبعض بلـدان المشرق العربـى . وكان طبيعيـاً أن يتبين من هـذه الدراسة أن كثيراً من أوضاعنا ونظمنا الحالية إنما هى تراث الماضي فى أدواره المتعاقبة . فأمم المشرق تجمع فى حياتها ونظمها القائمة بين الماضى والحاضر ، بل إنها من بعض النواحى تعيش فى الماضى بقدر مـا تعيش فى الحاضر أو فى المستقبل . ومع ذلك فإن استمساكنا بـالقديم ونظمه ليس معنـاه بالضروة أننا محبون للمحافظـة على القديم ، وإنما الصحيح أن كثيراً من نظمنـا الإجتماعية قد نشأ فى بيئاتنا نشـأة طبيعية أصيلة ، ولم يكن مستعاراً من الخارج كما هى الحال فى غير قليل من النظم الإجتماعية والثقافية والدينية فى غرب أوربا أو فى أمريكا . ولما كانت تلك النظم فى بلاد المشرق قد نشأت فى البيئة وتغذت بلبـانها ، فقد عاشت وعمرت لانها كانـت صالحة للبقاء والتعمير . ولذلك فـإن أهل المشرق ، لا سيما جماعاتهم الزراعيـة فى بلد كمصر ، لم يجدوا ضرورة ملحة إلى أن يغيروا كثيراً من تلـك النظم . وليس من المقبـول أن نفسر استمرار النظم واستقرار الأوضاع وصعـوبة تناولها بالاصلاح والتغيير فى بلاد المشرق العـربى على أنه راجع إلى حب المحـافظة على القديم ، فذلـك تعليل ، إن صح من بعـض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر مـا حدث فى تاريخنا الطويل ، وما اكتنف ذلـك التاريخ من أحداث جسـام ، اهتزت لها وتغيرت بسببها جوانـب أخرى من حيـاة أبناء المشرق . وإذا نحن اتخذنـا مصر على سبيل المثـال ، فإننـا نجد أن مـن الصعب أن نسلـم بأن المجتمع المصرى مجتمع جامد محافظ على القديم ، ونحن نعرف أن المصريين قد غيروا لغتهم التى يتكلمون والتـى يكتبون أكثر من مرة خلال تاريخهم ، واستبـدلوا بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ، وجمعوا بين القديم والحديث فى كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم ، واتصلـوا بالعالم الخارجى واقتبسـوا عن أهله وحضاراتـه فى الشرق والغرب على السـواء . بل إن المصريين كـانـوا مجدديـن حتى فى الجانـب المادى والعملى مـن حياتهم وحضارتهم ، فالزارع المصرى فى الحقل جدد أدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ، وجدد أنواع محصولاته فأضاف إليها نباتات جديدة من وقت لآخر ، لاسيما بعد إدخال نظام الرى الدائم وظهور ما يمكن أن نسميه الثروة الزراعية المصرية فى القرن التـاسع عشر ، كما جـدد أنواع الحيوان المستـأنس وأضـاف إليها مـا لم يكن معروفاً من قبل . وكل ذلك قلب نظام العمل والاقتصاد الاجتماعى فى الريف والحقل

المصرى وكاد يغير معالمه تغييراً شاملا . وحتى القرية ذاتها قد تغير فيها كثير من الأوضاع ، لا سيما فى العهد الحديث . فبعد أن كانت القرى مركزة متجمعة ، تقام فوق كومات صناعية من التراب يتضافر أفراد المجتمع القروى ويتعاونون فى إقامتها والمحافظة عليها لتبقى القرية بمأمن من غوائل الفيضان ، جاء نظام الرى الدائم وتضاءل خطر الفيضان وانعدم رى الحياض أو كاد، فتفرقت القرى وظهرت «العزب» الصغيرة المتناثرة ، ولم تعد بالمجتمع القروى المصرى حاجة إلى أن يتضافر أفراده ويتعاونوا من أجل إقامة كومات التراب والمحافظة عليها . وبذلك كله تغيرت أوضاع القرية واهتز كيانها كوحدة للمجتمع الريفى فى مصر ، وظهرت مشكلات اجتماعية وقومية خطيرة ، هى التى نحاول الآن أن نتناولها بالإصلاح ، ولكن تشخيص الداء فيها يحتاج ولا شك إلى دراسة عميقة فى الماضى وفى تاريخنا الإجتماعى الحافل بالتغيرات والأحداث .

ومع ذلك فنحن إذا توسعنا فى الدراسة من نطاق مصر الضيق إلى نطاق المشرق العربي عامة ، فإننا نستطيع أن نلمس عدداً من النواحى الأساسية فى تاريخ المجتمع أو المجتمعات البشرية فى هذا القسم الخطير من العالم القديم . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى كل من هذه النواحى إشارة مجملة لنتبين مبلغ قيمتها بالنسبة لمن يريد تفهم التاريخ الإجتماعى والثقافى لهذا المشرق ، وقيمة ذلك بالنسبة لرسم خطط الإصلاح الإجتماعى فى المستقبل .

وأول ما نلاحظه عن تاريخ المشرق أنه تاريخ طويل ، امتاز بالقدم والاستمرار وإن كانت ظاهرة الاستمرار تختلف من حيث مدى انطباقها على مختلف جهات المشرق العربى ، فهى فى مصر واضحة تماماً ، إذ أن المجتمع الريفى مثلا تابع حياته فى القرية وعمله فى الحقل والزراعة دون انقطاع خلال فترة تقارب السبعة آلاف سنة ، أى منذ العصر الحجرى الحديث ، ولذلك فإن نظمه استقرت وتبلورت على مر الزمن . أما فى جهات أخرى من الشرق العربى ومراكز حضارته القديمة كالعراق الأوسط مثلا فإن ظاهرة الاستمرار لم تكن بمثل ما كانت عليه الحال فى مصر ، فالغزوات المختلفة وعهود الأضمحلال كثيراً ما أدت إلى انقطاع الحياة الزراعية المستقرة فى بعض جهات العراق . ولذلك فإن التاريخ الاجتماعى للعراق الأوسط لم يكن

مطرداً ولا مستمـراً ، وإنما هو قـد تشكلت نظمه وتغيرت بعـض أوضاعـه من عصر لآخر ، مما يجعل الدراسة عسيرة على من يريد أن يرسم خطة للإصلاح فى ضوء دراسة تاريخ النظم التى تحكم حياة المجتمـع . وهناك مناطق أخرى فى المشرق العربى تبين من الأبحاث الحديثة أن نشـأة الحياة المستقرة والمدنية لم تكن فيها مـن القدم بما كانت عليـه الحال فى مصر أو فى العـراق ، ولكنهـا مـع ذلك اتسمـت بـاستمـرار نظمهـا واستقرارها وتبلورها فى بيئتها المحلية على مرور الزمن . ومن تلك البلاد هضبة اليمن التى تمتعت بتربـة صالحة ومناخ ممطر مناسـب ، فانتقلت إليها القبائل البـدوية من قلب الجزيرة ومن الشمال ، ثم استقرت فيها واشتغلت بالزراعة دون انقطاع ، ولكنها مع ذلك احتفظت بغير قليل من نظمها البدوية والـرعوية . وقد تتيح دراسة التاريخ الحضارى وتـاريخ الإقتصـاد الإجتماعى بين قبائل اليمـن المستقرة مـا يفيد المشتغلين بالإصلاح الإجتماعى وبـرسم الخطط فيما يتصل بتوطين القبائل البـدوية والإنتقال بها من حـالة البداوة إلى حالـة الإستقرار فى جهات أخـرى من المشرق العربى فى الـوقت الحاضر . فتجربـة اليمن من هـذه الناحية كـانت تجربـة تاريخية نـاجحة ، زاوج بها أصحابها بين مجموعتين مختلفتين من النظم فى حياة البداوة وحياة الإستقرار . ولاشك أن لنجاحهـا أسبابـاً طبيعة وبشريـة يحسن الإلمام بها عنـد التفكير فى تجربة ممـاثلة فى بعض جهات المشرق العربى فى الحاضر أوفى المستقبل .

وثانى ما نـلاحظه فى تاريخنا الحضارى والثقافى والإجتماعـى أنه ، وإن كان تاريخاً مستمراً وحافلا بالتجـديد ، ولو بدرجات تفاوت مداها مـن منطقة إلى أخرى ، فإن «الجديد» فى ذلـك التاريـخ لم يكن دائماً لينسخ « القـديم » . وإنما جمع سكـان هذا المشرق العربى فى حيـاتهم المتجددة بين كثير من النظم القديمة والنظـم الجديدة التى عاش بعضهـا إلى جانـب بعض . وقد تـرتب على ذلك ، وعلى التـوفيق بين القـديم والجديد ، أن أصبحت نظمنا الإجتماعية فى جملتها معقدة بعض التعقيد ، رغم ما قد يبدو مـن بساطة ظـاهرة . بل إن بعض مجتمعـات المشرق العربى الحديـث ، ومنها مجتمعات المدن فى مصر مثلا ، يعيش فيها أكثر من جيل واحد . فالمجتمع الحالى هنا يأتلف مـن مجموعة من الأجيال المتعـاصرة ، وذلك من حيث النظم ومنـاحى الفكر والإتجاهات والنزعـات بين أفراده . وقد أدى هذا إلى تفـاوت كبير فى النظرة إلى الحياة

وغاياتها ووسائلها المشروعة ، مما يعقد مهمة المشرع أو المصلح الاجتماعى، بل مما قد يجعل نقطة البدء فى أية حركة جدية للإصلاح فى بلدان المشرق أن نعمل جاهدين للتقريب بين مختلف الأجيال ، التى يعاصر بعضها بعضاً فى الوقت الحاضر ، وفى أغلب بلدان المشرق الحديث ، وذلك حتى يمكن أن نهىء الرأى العام لتلقى رسالة موحدة للإصلاح ، يؤمن بها ، وتعمل فئاته وأفراده على تحقيقها بوسائل متجانسة وبجهود متكاملة . وهكذا يبدو أن المشكلة الإجتماعية فى المشرق العربى ، وإن لم يكن أساسها اختلاف الطبقات وتعددها كما هى الحال فى جهات أخرى من العالم كالهند مثلا ، فإن أساسها ذلك التفاوت بين « الأجيال » التى تعيش فى وقت واحد ، ولكن بتقاليد أو بعقليات وثقافات متفاوتة ، ولا شك أن تعميق دراسة مدى ذلك التفاوت وسرعة تجديده ضروريان لتأتى خطتنا للإصلاح الإجتماعى متسقة مع احتياجات هذا المجتمع المعقد التكوين ، ولئن نحن سلكنا هذه السبيل من الدراسة فستتجه خططنا بالضرورة أول ما تتجه نحو الحد من ذلك المدى وتضييقه ، لاسيما فى ميدان الثقافة والتعليم وبث الروح الاجتماعية السليمة ، وغير ذلك من وسائل التقريب بين « الأجيال » ، على غرار ما يعمل غيرنا فى التقريب بين « الطبقات » .

وهناك أمر ثالث نلاحظه ونسجله فى تاريخنا الطويل . ذلك أن المشرق العربى امتاز بالاتصال الثقافى والحضارى الشامل بين مختلف أجزائه وأقطاره . وكثير من النظم التى نشأت فى إحدى جهاته انتقلت إلى بقية أرجائه . فالبادية كثيراً ما أثرت بنظمها وتشريعاتها فى أرض الحضر والاستقرار . والمناطق الزراعية المستقرة كثيراً ما نفذت منها معالم المدنية وألوان الفكر والثقافة إلى قلب البادية . والجهات الداخلية كثيراً ما طردت عناصرها وسكانها وقذفت بهم إلى السواحل . والسواحل ذاتها كثيراً ما نفذ أهلها إلى جوف الجزيرة العربية ، يمدون الطرق ويمهدون للأتصال ، أو يسعون بالتجارة بين البحار المعتدلة فى الشمال والبحار الدفيئة فى الجنوب . لذلك كله فإن انتقال المؤثرات والنظم من جهة إلى أخرى فى داخل نطاق المشرق العربى كان ظاهرة قديمة متجددة ، قد أثرت فى تاريخنا الإجتماعى وكيفته وطبعته بطابع عام هو الذى يجمع اليوم بين أقطار هذا المشرق ويؤلف منها إقليما واحداً كبيراً من الوجهتين التاريخية والإجتماعية ، أو الثقافية على أقل تقدير . ولئن فرضت هذه الظاهرة على

المشتغلين بالإصلاح الإجتماعى شيئا ، فإنها تفرض التعاون فى دراسة تلك التيارات الثقافية والمؤثرات الإجتماعية التى نفذت عبر المشرق العربى من جهة إلى أخرى، والتى قربت بين أقطاره تقريباً يتحتم معه أن تنسق الخطط عند ما نتناول هذا المشرق ومجتمعاته بالإصلاح . فضلا عن أن هذا المشرق كان على الدوام إقليما تتجاوب فيه الأصداء ، فما من حركة للإصلاح فى أحد أقطاره أو إحدى جهاته إلا وكان لها شىء من الصدى فى الجهة المجاورة أو المقابلة . كان هذا شأن المشرق فى تاريخه القديم والوسيط ، وسيبقى هذا شأنه فيما نحن مقبلون عليه من أيام .

والأمر الرابع والأخير الذى نود أن نسجله عن تاريخنا الإجتماعى والثقافى العام هو أن أقليم المشرق العربى يقع برمته فى قلب العالم القديم ، ويحتل بأقطاره بقعة هامة عند التقاء قارات ثلاث لكل منها مكانتها فى تاريخ البشر ، وعند مفرق بحار تختلف فى أوضاعها وسكانها ، فمنها بحار الشمال التى تقع فى المنطقة المعتدلة وتبدأ بالبحر المتوسط ثم تتجه إلى ماوراءه فى بحار الغرب والشمال . ومنها بحار الجنوب والمنطقة الدفيئة والحارة التى تبدأ بذراعين فى الخليج العربى والبحر الأحمر وتتجه إلى بحر العرب والمحيط الهندى وما وراءه فى أقصى الشرق . ولذلك كله تعرض المشرق العربى فى تاريخه الحافل لتيارات وهجرات ومؤثرات حضارية وثقافية أتته من هضبة ايران وما وراءها من بلاد الهند وتركستان ، ومن هضبة الأناضول وأرمينيا ، ومن البحر المتوسط وجزره وشواطئه اليونانية واللاتينية ، ومن شمال إفريقية ، أو حتى من قلب إفريقية السوداء ـــ كما أتت أيضاً فى فترات معينة من بحار العرب الجنوبية وشواطىء المحيط الهندى . وقد أثرت تلك العوامل والتيارات الخارجية فى الشرق العربى بدرجات متفاوتة ، فتركزت فى بعض أطرافه ، ولكنها بلغت فى بعض الأحيان قلب الجزيرة الصحراوى ، ونفذت خلاله من جانب إلى الآخر . وقد يكون مفيداً فيما نحن بصدده أن نميز أهم مناطق الإحتكاك بالخارج ، ومنها العراق الذى اتصل فى تاريخه بهضبة ايران وكردستان وما وراءهما وتأثر بذلك فى نظمه وحياة سكانه تأثيراً أدى إلى تعقيد تاريخه فى أكثر من جانب واحد ، خصوصاً وأنه تلقى مؤثرات كثيرة أخرى عن طريق حدوده الغربية الملاصقة لبادية الشام أو عن طريق الخليج العربى والبحر . ومن مناطق الإحتكاك كذلك ساحل لبنان الذى يصح أن يعتبر من أهم

مناطق الإحتكـاك الثقافى وأشدها طرافة بـالنسبة للباحث . ففى هـذه الشقة الجبلية الساحلية التقت حضارات البر وحضارات البحر ، وزاوج أهل هذا الساحل والجبل بين ألوان مختلفة من الثقافة بل ومن النظم . وظهر أثر ذلك التزاوج منذ أيام الفينيقيين الذين اتخذوا من هـذا الساحل ومرافئه الصالحة مقراً وقاعـدة نشروا منها ثقافة الشرق إلى الغرب ، ونقلوا إليها بعض ما كسبوا مـن إحتكاكهم التجارى والفكرى . كذلك تلقى هذا الساحل غير قليل من مؤثرات الفكر الأغريقى ثم الفكر اللاتيني بعد ذلك إلى جانب ما كان يتلقا دائماً من ظهيره الإقليمى فى داخل أرض سورية والجزيرة ، بل وما كان يتلقاه من وقت لآخر من هضبة الأناضول وبلاد الحيثيين القدماء فى الشمال . لذلـك كله كان لبنان مثـالا للجمع بين المؤثرات الثقـافية والتوفيق بينهـا ، على نحو يعتبر أنموذجاً لما تسعى إليهـا الإنسانية من مزاوجة بين ألـوان الفكر البشرى . ولكن تـرتب على ذلـك أن أصبح هـذا البلـد على صغر حجمـه جـامعاً مـن حيث نظمـه الإجتماعية واتجاهاته الثقافية ، ومن حيـث تنوع ألوان الفكر ومذاهب الطوائف . ولا شك أن هـذا مما يجعـل أمر الـدراسة التاريخيـة معقداً وعسيراً ، ولكـن نجاح مـا قد تتكشف عنه تلك الـدراسة من خطط الإصلاح قد يكون فى لبنـان أكثر ضماناً منه فى غيره من البلاد ، ذلـك أن أهله قد طبعوا بحكـم صلاتهم الواسعة على رحـابة الفكر واتساع الأفق والاستعداد للأخذ بوسائل التجديد .

ومثال آخر مـن مناطق الإحتكاك الثقافى والإجتماعى فى المشرق العـربى هو مصر، أرض الزاوية التـى التقى عندها اليابـس وافترق الماء . وقد قام تاريـخ مصر الطويل على الأخذ والعطاء ، فتأثـرت بالعالم المجاور بل والعالم البعيـد وأثرت فيهما ، وظهرت المؤثـرات الخارجية فى مصر وتـركـزت فى بعـض جهاتها على وجـه الخصـوص . فعلى حافـات الدلتـا مثلا التقـت نظم البـداوة ونظم الإستقـرار ، وعلى الساحـل الشمالى ظهرت المؤثـرات البحريـة التى بدأت بـالأتصال بالعـالم الأغريقـى ، ثم تجددت فى العهد الحديث بالأتصـال بالعالم الأوربى ، وتسربت تلك المؤثـرات من الساحل إلى الداخـل لاسيما فى المدن حيث التقـت ثقافـة الغرب بثقـافة الشرق . وحتـى الريـف المصرى الذى يبـدو لأول وهلة بعيداً عـن المؤثرات الأجنبيـة لم يكن فى يوم مـن الأيام بمعزل عن تلك المؤثرات ، حتى فى أيام الإغريـق والرومان . وها هو قد أخذ يشارك

الآن فى تلقى مؤثرات التجديد والإحتكاك بالعالم الخارجى إحتكاكا يمس حياة الريفيين وفكرهم مساساً بالغاً وعميقاً من بعض الوجوه ـ وظاهر أن دراسة مثل هذه المؤثرات فى المجتمع المصرى لا تقل أهمية عن دراسة الأسس والمقومات الأصيلة فى البيئة المصرية ، وما كان لها من أثر فى طبع الحياة والحضارة فى مصر بطابعهما الخاص الذى ميزهما على مر الأيام .

تلك كلها أمور ومسائل عامة نلاحظها فى تاريخ المشرق العربى ومختلف أقطاره . وهناك مسائل أخرى عديدة نستطيع أن نجرى فى سردها وتتبعها ، ولكنها كلها تشهد بأن « الحاضر » فى هذا المشرق لا يمكن أن ينفصل عن « الماضى » ، وبأن دراسة هذا الحاضر ونظمه دراسة عميقة لا يمكن أن تتم ولا أن تثمر إلا إذا عدنا بتلك النظم إلى أصولها الأولى ، وعند ذلك تتكشف لنا الأوضاع الصحيحة لتلك النظم ، فنقبل على رسم خطط الإصلاح عن بصيرة ونور . ومع ذلك فيحسن بنا أن نسجل هنا نتيجة مبدئية وصلت إليها تلك الدراسات لاسيما فى مصر وبعض جهات العراق ، وهى نتيجة قابلة لشىء من التعديل بعد أن تتسع الدراسة وتزداد عميقاً ، ولكنها على كل حال تنير السبيل أمامنا إذا نحن أردنا أن يجىء رسمنا لخطة الإصلاح متمشياً مع الأوضاع التاريخية والثقافية فى بلدان المشرق العربى وفى بلد كمصر أو كالعراق بالذات .

وهذه النتيجة هى أن دراسة تاريخنا الإجتماعى والثقافى تتيح لنا أن نميز فى خطط الإصلاح بين ما يتناول منها النظم « الأصيلة » فى البيئة المصرية ، وما يتناول النظم «الدخيلة » عليها . فبعض النظم الإجتماعية فى مصر أصيل فى بيئتها الطبيعية ، فيها نشأ وعلى مقوماتها استند وعاش خلال العصور . ومثل هذه النظم عريق فى القدم ، وقد يرجع بعضها إلى أعصر ما قبل التاريخ . ومن ذلك ما يتصل بالحياة الريفية وأوضاعها القروية ، ومنها ما يتصل حتى بالمدن وحياة مجتمعاتها المدنية . وإذا نحن درسنا فترات التحول الإجتماعى فى تاريخنا المصرى الطويل فسنجد أن مثل هذه النظم الأصيلة لا تقبل التحوير والتغيير إلا فى رفق وفى حدود معينة ، وهى على كل حال لاترضخ للتحول السريع ولا للثورة العنيفة . ولذلك ينبغى أن نرسم الخطط ليأتى إصلاحها عن طريق التطور البطىء والتقويم الرفيق ، فضلا عن أن بعضها قد يمثل

مصدراً من مصادر القوة والحيوية فى حياة المجتمع ، مما يحسن معه الاحتفاظ به أو بعثه وتقويته إن كان قد جرى عليه الزمن ، فالإصلاح كثيراً ما يقوم على إعادة البناء بمثل ما يقوم عن الإنشاء والتجديد .

ومن أمثلة هذه النظم الأصيلة ما أشرنا إليه من روح التضامن والتعاون بين سكان القرية المصرية التى نشأت فى الأصل على كومة من التراب يتعاون أهل القرية جميعاً على رفعها فوق مستوى الفيضان ، كما يتعاونون فى المحافظة عليها وإقامة الجسور حول حياض الزراعة من حولها وترتيب المواصلات المائية بين القرية وما جاورها إبان ارتفاع ماء الفيضان وغير ذلك من المرافق التعاونية التى عاشت بها القرية المصرية على الزمن آلاف السنين . وعندما جاء الرى الدائم وحل محل رى الحياض تغيرت الأوضاع ، ولم تعد هناك حاجة إلى أن تقام القرية فى مستوى أعلى من مستوى الأرض الزراعية ، بل لم تعد هناك حاجة إلى أن يتجمع السكان فى قرى كبيرة ، وظهر نظام «العزب» الصغيرة المتفرقة التى أشرنا إليها من قبل . وبذلك كله دخلت القرية المصرية الكبيرة فى دور من الانحلال يرجع فى أصله إلى زوال الدافع الأصلى إلى التعاون والتكاتف والتماسك بين سكان القرية الواحدة ، فانحلت الروابط وتضعضع نظام الإدارة القروية وطغت الإدارة المركزية العامة عليه ، وظهرت على الجملة مشكلة إجتماعية هى من أعصب ما تعرض له ريف مصر خلال تاريخه الطويل . وقد يكون طريق الإصلاح ، إذا ما نحن فهمنا علة الداء على هذا الوجه ، أن نعمد إلى القرية فنعوضها عما فقدت من دوافع التعاون ، ونضع مشروعات قروية تدفع بأهل القرية الواحدة إلى التضامن والترابط والعمل المشترك فى إقامة مركز إجتماعى للقرية مثلا أو فى ردم البرك إن وجدت أو تحقيق مشروعات قروية مشتركة أو نحو ذلك . ويكون انجاز هذه الأعمال بمثابة وازع إلى الوحدة يقوم مقام ذلك الوازع الذى اختفى وتوارى بدخول نظام الرى الدائم إلى مصر .

ثم مثال آخر للنظم الأصيلة العريقة التى يصعب تغييرها تغييراً شاملا وسريعاً ، والتى تخفق فى وجهها التشريعات والقوانين المستحدثة مهما اشتدت . تلك هى العادات الجنائزية التى ترجع فى مصر إلى العهد الفرعونى أو حتى إلى ما سبقه من عهد ما قبل الأسرات . ولقد حاول المصلحون أن يتناولوها عن طريق التشريع

العنيف فلم ينجحوا فى ذلك الا بقدر يسير . ولعل من الطريف أن نذكر أن القضاء على هذه العادات الجنائزية لم يبلغ غاية النجاح حتى بين الفئة المثقفة والمستنيرة استنارة عالية فى مصر . وغاية ما حدث أن تلك العادات قد اتخذت صورة مخففة ومهذبة ، فصارت نعياً يطول فى الجرائد على نحو لا يكاد يكون له مثيل فى غير صحف مصر ، أو انقلبت إلى حفلات تأبين طويلة ومؤثرة ، هى فى واقع الأمر استمرار معدل للعادات الجنائزية التى جرى عليها شعب مصر خلال العصور .

كل هذا عن النظم الأصيلة فى البيئة المصرية . ولكنّ هناك نظما أخرى كانت دخيلة عليها ومستعارة من الخارج . وهذه إنما دخلت مصر فى أوقات مختلفة ، وكثيرا ما حل بعضها محل بعض . وإذا نحن رجعنا إلى فترات التحول فى تاريخنا المصرى ، فاننا نجد أن هذه النظم الدخيلة كان يسهل على المجتمع دائماً أن يغيرها أو أن يستبدل بعضها ببعض . ولذلك فإننا نستطيع ، إذ نرسم خطط الإصلاح الحديث ، أن نتناولها بالتجديد واثقين أن المجتمع يتقبل ذلك دون غضاضة أو ممانعة . وقد يكفي أن نذكر هنا من أمثلة هذه النظم حجاب المرأة ، فهو غريب عن البيئة المصرية ، ويكاد ألا يكون له أثر فى البيئة الريفية . فلما بدأت حركة الإصلاح من هذه الناحية نجحت ، وكان نجاحها فى صورة سريعة ظاهرة ، تكاد تشبه الثورة من بعض الوجوه . وكذلك الحال فى بعض النظم المصرية المستحدثة ، فهى كلها يمكن التحوير والتعديل فيها فى صور شاملة سريعة .

ولكننا قبل أن نختتم يصح أن نشير إلى أمثلة أخرى من بلد كالعراق . وقد تبين من الدراسة المبدئية أن النظم الأصيلة فى العراق ، على العكس من مصر ، قليلة نسبيا ، ولا تتمثل بوجه غالب إلا فى بعض بقاع العراق الأدنى ، فى أرض سومر القديمة وفى بلاد المستنقعات التى يصعب التوغل فيها واقتحامها بجماعات ونظم جديدة من الخارج . أما باقى العراق فتكاد تغلب عليه النظم الدخيلة والمستعارة من المناطق المجاورة . وربما كان مرجع ذلك إلى أن العراق يختلف عن مصر فى أن الجهات المحيطة به ليست صحراوية قاحلة قليلة السكان كما هى الحال فى صحارى مصر ، وإنما هى مناطق رعاة خرجت منها الهجرات بكثرة ، واستوطن أهلها بلاد العراق فى موجات متلاحقة . ولكن الشيء الطريف أن مصادر الهجرة إلى العراق

متعددة . فهناك بادية الشام وبلاد العرب وأهلها من الساميين فى ثقافتهم ونظمهم الإجتماعية ، وهناك هضبة كردستان فى الشمال وأهلها لهم ثقافتهم وحياتهم الخاصة ، ثم هناك هضبة إيران فى الشرق ولأهلها نظمهم وتقاليدهم وتاريخهم الخاص . ولذلك فإن من يريد تتبع نظم العراق الدخيلة ، ومن يريد بصفة خاصة دراسة حياة القبائل البدوية والمستقرة استقراراً جزئياً ، سيجد أنها نظم متباينة بحسب الجهة التى نزحت منها كل قبيلة . ولا يمكن أن يتناول المصلح الإجتماعى مثل هذه النظم عن طريق وضع تشريعات عامة وشاملة تنطبق على جميع هذه الألوان من النظم القبلية فى العراق . ولذلك كله فإن تجربة تحضير البدو وتوطينهم واستقرارهم تحتاج إلى دراسة وافية ومحلية لكل جهة يراد أن يتناولها الإصلاح فى أرض العراق ، خارج المنطقة التى استقربها السكان منذ أمد بعيد .

تلك كلها أمثلة ومختارات أردنا بها أن نكشف عن أهمية هذا الاتجاه الخاص فى دراسة المجتمع قبل أن نعالج مشكلاته الإجتماعية أو نتصدى لتناولها بالإصلاح . وقد تبين لنا ، فيما أرجو ، كيف أن دراسة التاريخ الإجتماعى والحضارى العام للمجتمع فى منطقة كالمشرق العربى هى ضرورية لنفهم مايسوده الآن من نظم ، بعضها صالح وقوى ، وبعضها الآخر يكاد يتصدع أمام ضغط الأحداث وتطورها فى عهدنا الحديث . وظاهر أن دراسة المجتمع وأوضاعه التاريخية تعيننا فى الحالة الراهنة من جهة ، وفى رسم خطط الإصلاح على أساس من الإستنارة والتوجيه السليم من جهة ثانية . ذلك أن تلك الدراسة ترد النظم إلى أصولها وتنير السبيل أمامنا ، لاسيما إذا ما نحن عنينا بدراسة فترات التحول والتغيير الإجتماعى فى الشرق وتاريخه . فقد لا تختلف حالنا الآن عما مر به الشرق فى بعض أدواره من تحول وتغير أمام اختلاف الظروف وضغط العوامل الخارجية التى أتته من العالم المجاور فى أحيان كثيرة ، والتى أتته حتى من العالم البعيد فى بعض الأحايين .

إن محاولة الإصلاح الإجتماعى أمر خطير لا يجوز أن يكتفى فيه بمجرد النقل عن الغير ، أو الدراسة العارضة التى تتناول المظاهر والأعراض دون العلل والأسباب . وليس يكفى فى بلدان المشرق أن ندرس الحالة الراهنة ثم نضع الخطة لإصلاحها ، لأننا فى هذه الحالة قد لا نتعدى القشرة إلى النواة ، وقد ينتهى الأمر إلى نكسة

تضعضع الأمل عند من يقومون على الإصلاح وتضعف الثقة عند من توضع الخطط لخدمتهم وإصلاح حالهم . ولذلك فقد لا يكون كثيراً أن نطالب فى المشرق بضرورة الأهتمام بدراسة الأوضاع التاريخية والثقافية لنظمنا الإجتماعية القديمة والمستحدثة ، وأن تكون تلك الدراسة أساساً لما يوضع للإصلاح من خطط .

« ١٣ »

تاريخ يعيد نفسه فى منطقة شرق نهر الأردن



تاريخ يعيد نفسه فى منطقة شرق نهر الأردن

يتفق الجغـرافيون والمؤرخـون فيما بينهم على كثير من الأشياء ولكنهم يختلفـون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاتـه الأساسية . فهل البيئة الجغـرافية بمظاهرها المختلفـة هى المسئولة الأولى عن تـوجيه نشـاط الإنسان ، أو تحديـد مجرى التـاريخ ، أو اتجاهاتـه ؟ أم إن الإنســان ، فردًا كـان أو جماعة ، هـو سيـد الطبيعة ، والمسيطـر الأول على الحوادث والتاريخ . وأصحـاب الجغرافيـا مهما اختلفت نزعـاتهم ميالـون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثـر البيئة ، بل يـذهب بعضهم إلى إقـرار ما يسمـونـه « بالحتم الجغـرافى » ، فـالجماعـات البشريـة فى نظـرهم مسيرة بحكم مـا تعيش فيـه من ظـروف طبيعيـة ؛ والإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هى الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوِّر بعض مظـاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحـوير لم يخرج بها عن قواعدها الثابتة وقوانيها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذكائه أن يستغل موارد الطبيعـة الصالحة ، فبدا كأنـه المتحكم فيها؛ مع أن الأمر قـد يكون غير ذلك ؛ فالطبيعة ذاتها كثيرًا ما توحى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التـاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئـة ، أو يسلم لها بأكثر من تأثير ثانوى . وكثـرتهم تفضل بحكم الدراسة أيضًـا ، أن تبدأ بالإنسان على أنـه كائن حر التصرف ، فى حدود ما تقضى بـه القوانين والنظم الوضعية ، أى التى تـواضع عليها النـاس . بل إن حوادث التـاريخ فى نظر كثير مـن هؤلاء المؤرخين إنما تـرتبط ارتباطـًا مباشرًا بـأعمال الناس ، التـى توجههـا فى الغالـب إرادة نفر قليـل هم قـادة المجتمع وكتَّاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغـرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعًا ؛ وإنما

هناك فئة من أولئك وهؤلاء ترى فى هذا الاختلاف لونًا من ألوان التعصب الفكرى لامسوّغ له ، ولا نفع فيه ؛ بل هو يناقض ما تقضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دوامًا للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقنـــاع والاقتنــــاع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أشر على البحث والباحثين، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة فى حد ذاتها أمرًا لا مسوّغ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهما لا وجود له فى الواقع . فالإنسان عنصر أساسى من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولايكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلاً أن نتصور تاريخًا يجرى فى الطبيعة لو أنها عقمت من الإنسان ، ولا أن نتخيل أن الإنسان يستطيع أن يخلق تاريخًا لو أنه عاش فى الفضاء . وإذن فقد يكون عبثًا أن نفصل بين الاثنين ، أو حتى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هى العنصر الغالب فى مكان ما، وفى زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى فى حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الإنسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حينًا ، ويستجيب لها بمحض إرادته حينًا آخر . ولكن الشىء المهم أن النشاط البشرى فى جملته إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيرًا أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالبًا ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا ذلك على تلمس ما قد يكون هناك من حقيقة فى الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لا يخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا فى بطء شديد ، ولا تتحور إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلابد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، فى المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى فى إقليم ما ، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك

الأقاليم التى يطول فيها التاريخ . وقد يكفينا أن نبحث منه منطقة واحدة صغيرة لنتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى مناطقه الداخلية ، والتى كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب . . . . تلك هى المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن ، التى كان تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطًا شمل نواحى الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعًا .

وتقع منطقة شرق الأردن فى قلب القسم الشمالى من الشرق الأدنى ؛ وتحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهى مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوبًا فى بلاد إدوم القديمة ووادى العرابة ، وشمالاً فى شعاب اليرموك وروافده التى تنتهى إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهى تتلقى الرياح الغربية الممطرة فى الشتاء ، فتنصرف مياهها فى أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفى أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى . وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب فى أشهر الشتاء والربيع ؛ وتجود فى أوديتها وأحواضها التربة ، ويطيب الغرس والزرع ولو فى بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة لحياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حمتها البادية والفيافى من الشرق ، فتمت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبى من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالاً منتظمًا عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافى جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقدت أواصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكًا لم يخل من عنف فى بعض الأحايين، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات .

وإلى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتى الطرق من نواح متفرقة ؛

فيأتى طريق من الخليج العربى وشمال نجد والجوف ودومة الجندل ، ويأتى طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين فى شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف فى الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك)، ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ، ويأتى طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سيناء أو من ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادى عرابة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتى طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ، وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعَمَّان ، وطريق ثالث من سورية الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ، وطريق رابع من شمال فلسطين عبر الأردن حتى يلتقى بطريق الشام ويمتد إما جنوبًا وإما شرقًا وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التى أسلفنا جميعًا يلاقى بعضها بعضًا ، أو تتقاطع على الأقل، فى أراضى شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجتمعون فى الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتآلف فى كثير من الأحايين . كذلك سلكت الغزوات والحملات هذه الطرق ذاتها، وهى التى قامت عليها الحاميات ، وأقيمت فوق روابيها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمى المسافرين وتنظم اتصال البادية بالحضر ، واحتكاك الرعاة والبدو بوسطاء التجارة والقائمين على نقط التبادل والأسواق .

وهكذا كانت الأرض شرق نهر الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القدم ، واستمرت كذلك على مر العصور . نفذت إليها السلطة المصرية من وقت إلى آخر، وامتد إليها النفوذ العراقى أحيانًا أخرى ، وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشمالية وما وراءهما أن يفرضوا سلطانهم عليها بين حين وحين ، بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا فى أطرافها الجنوبية واستقر بهم المقام فى أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصورًا على هذه العناصر جميعًا ، وإنما امتدت الأيدى إلى شرق الأردن من أقاصى الأرض ، لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ، فنفذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبَّدت طرقها فى ربوعه ،

ثم اهتمت به بيـزنطة فتدخلت فى شؤونه العسكرية والسيـاسية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤون هذا الإقليم إلى أهلـه وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء الصليبيون من جديـد إلى بعض قلاعه فأقاموا بها ، وكانـت حامياتهم هناك شوكة فى جنب العرب والمسلمين . فإذا ماجاء الأتـراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفـذ إلى الأرضى المقدسـة . وأخيرًا جاءت الإمبراطـورية البريطانيـة ، فاتخذ رسلها ومبعوثوهـا إبان الحرب العالمية الأولى قيادتهم فى فيافى هـذا الإقليم الداخلى . وانتهى الأمر فى أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكريـة الهامة ، التى غدت قاعـدة حربية من الدرجـة الأولى ، وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان الحرب العالمية الثانية .

ولن نستطيـع هنا أن نسوق أكثـر من أمثلة محدودة تبرز لنـا قيمة هذه المنطقـة من مناطق المشرق العربى ، تبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد فى عهده الحديث بعض صوره واتجاهاته الأساسية فى بعض أعصره القـديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذه المنطقة كـواسطة اتصـال ونقطة سيطـرة على طرق الشرق الأدنـى وعلى منافـذ أقطاره المختلفـة كانـت قيمة دائمـة لا طـارئة ، وكانـت عـاملاً أسـاسيًا بـاقيًا ، أفاد منـه واستجـاب له سكـان المنطقة نفسهـا ، كما أفـاد منه واستغلـه كثير من الطـامعين فى السيطرة العـالمية ، وممـن امتدت أيـديهم إلى الشرق الأدنى فى تـاريخه القديـم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفينـا فى هذا الصدد أن نعنى عنـاية خاصـة بالموازنة بين عهد الإمبراطـورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانيـة . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لها يد أى يد فى تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتا الإمبراطوريتين كانت لها مصالح مادية فيها وراء ذلك الإقليم ذات اليمين وذات الشمال . وكلتاهمالم تقنع بأن تكل أمر الوسـاطة التجاريـة بين المشرق والغرب إلى العـرب وغيرهم من سكـان هذا المشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضًا ، وتدخلت فى شؤونهم بما يضمن لتجارتها الشرقية مرورًا آمنـًا ورواجًا مضمونًا . وإذا كان التـاريخ قد استعاد بعـض فصوله فى هذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين، فإن ذلك لم يكن لمجرد المصادفة أو محض الإتفاق ، وإنما هو قد ترتب على إجتماع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المتماثلة فى الحالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغى أن نشير إلى من سبق الرومان فى منطقة شرق الأردن ، أو فى جانب كبير منها على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهارًا ذلك القرن الذى يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم فى سلاع أو بطراء التى تقع على الحافة الشرقية لوادى العرابة ، والتى لا تزال آثارها باقية منحوتة فى الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهى التى أشارت إلى أصحابها بعض آيات القرآن الكريم . وكانت البطراء هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التى أشرنا إليها من قبل ، فكانت سوقًا هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية فى الشرق ، وأصابهم من اتصالهم بالعالم الخارجى خير كثير ، تمثل فى تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التى امتازت بها مدينتهم العتيدة ، حيث انعكست فى بيوتها المنحوتة مؤثرات الفن الآشورى والفن المصرى البطلمى والفن الإغريقى ، بل حيث تأثرت الحياة العامة فيها بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعى ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الدينى ، بعضها سامى خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء فى بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامى غير خالص أخذوه عن الآشوريين فى الشمال وعن السبئيين والحميريين فى أقصى الجنوب وفى مستعمرة عين صالح فى شمال الحجاز ، ثم بعضها مصرى قديم أو بطلمى مختلط ، وأخيرًا بعضها إغريقى أو إغريقى رومانى أتى عن طريق شرق البحر المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن ينتقص شيئًا من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التى يمكن أن تلتقى فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساسًا من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التى ظهرت فيما بعد . والثابت الآن أن الخط العربى المعروف قد تطور عن الخط النبطى القديم .

وعندما ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية فى الشرق القريب ، واقترنت تلك الأطماع بمصالحها التجارية فى الهند ، ومصالحها الأخرى فى بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة فى مصر وشمال البحر الأحمر ، وإنما أدركوا أن حماية المصالح حماية كاملة تقتضى أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط

وشمال بلاد العرب ، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة ، وليمدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج العربى ويشرفوا على بعض موانيه من جهة أخرى ـ والخليج العربى كان إذ ذاك ، كما هو اليوم ، أحد الطرق المؤدية إلى الهند ، بلاد الثروة والغنى ، ومورد كثير من النفائس والطيبات ! ـ وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط ؛ فغزا بلادهم فى عام ١٠٦ الميلادى ، واستولى على عاصمتهم ثم على مينائهم فى أيلة ؛ ومد يده آخر الأمر إلى طرف الخليج العربى .

وتحولت بلاد شرق الأردن إلى ولاية رومانية ؛ وبقيت كذلك ، أو فيما يشبه ذلك ، بضعة قرون . وعُنى الرومان بشأنها خاصة ؛ لأنهم أدركوا قيمتها العسكرية والتجارية إدراكًا كاملاً صحيحًا . وقد وطدوا نفوذهم فيها وحافظوا على سيطرتهم عليها بعدة وسائل : منها أنهم أقاموا الحاميات القوية فى عدد من مواقعها الهامة ، حيث بنوا القلاع والثكنات ، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائمًا فى جَرَش شمال عمّان ، وفى فيلادلفيا وهى عمّان نفسها ، ثم فى بترا وهى سلاع أو البطراء التى تعرف الآن بوادى موسى . ومن وسائل الرومان أيضًا أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفًا جيدًا يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند ونقل العتاد وغير ذلك ، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم . ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو ، واتخذوا منهم جنودًا مرتزقة ، هم أقدر على العمل ، وأقوى فى الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب فى البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب . ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة ، فحفروا الآبار وبنوا الصهاريج ، وشجعوا الملكية الصغيرة ، فاستوطن البدو ، وبنوا بيوت الحجر الثابتة بدلاً من بيوت الشَّعر المنقولة ؛ فسهل بذلك حكمهم ، وسلس قيادهم . ثم منها كذلك ، وقبل ذلك ، تشجيع الرومان لعناصر « التمدن » وألوان الثقافة الجديدة فى أن تتوغل فى حياة الأعراب ، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية فى القرن الرابع ، فانتشرت هذه الديانة بين أعراب البادية تدريجيًا منذ أواخر ذلك القرن ، وانتشر معها شىء من روح المسالمة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكرًا ، وكان مراسهم شديدًا . كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان

الغربيون والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هذا القسم من بلاد العرب . ولكن الشيء الغريب - أو لعله ليس غريبًا - أنها كلها تذكرنا ببعض ما اتبعته الإمبراطورية البريطانية فى الإقليم نفسه من مسالمة للبدو كان القصد منها أن تؤدى إلى غاية رمى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون .

ولكن الرومان لم يلبثوا أن أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يثابروا على حكم البلاد كولاية رومانية ، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبسادتهم فى حكم البلاد . وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتنوخ من قضاعة ، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى الخليج العربى ثم حدود الفرس فحدود الروم حيث نزلوا فى أواسط القرن الثالث الميلادى ، كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الغساسنة ، وتأسيس ملكهم على حدود الإمبراطورية ، وفى ظل حكم بيزنطة الاسمى . وقد وجد الروم فى إمارة الغساسنة ومملكتهم بعد ذلك أداة طيبة تحمى حدودهم من ناحية البادية ، وناحية الفرس وعملاء الفرس فى أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام . وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملكًا على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادى . . . ولكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم ، وإنما هى كانت راجعة أيضًا إلى العرب أنفسهم إذ ذاك . فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف ، وتحكموا فى تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقية ، وأفادوا من موقعهم الجغرافى إلى حد بعيد ، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة فى مظاهرها المختلفة ، لا سيما ناحية الفكر والثقافة . فكان بلاط غسان مركزًا تطور فيه الأدب والفكر العربى قبل الإسلام ، وكان صنوه فى ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخميين على حدود إمبراطورية الفرس فى العراق .

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد ، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر ، وظهور نفوذ الإمبراطورية البريطانية فى هذا القسم من الجزيرة العربية ، وجدنا صورة من التاريخ امتدت فصولها ، وتطور مظهرها النهائى ، ولكنها قريبة الشبه بما حدث فى عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين . وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب فى أعقاب حملة نابليون . وحاولوا أن يمدوا يدهم إليه ، ولكنها كانت محاولات مترددة . فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين فى مطلع القرن التاسع عشر ، ولكنهم ردوا عنها أو ارتدوا

عنها ؛ لأنهم لم يكونوا فيما يظهر جادين فى أمرهم ، كما كان الرومان تمامًا أيام جاء بوليوس قيصر إلى مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى فى أيام الثورة العرابية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، فعقدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ! وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم! وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ، وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جدية فى أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج العربى . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح البطراء والوصول إلى الخليج العربى طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وحانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هى التى استعجلت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربية ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان فى ذلك ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقًا لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكرى فى شؤون العالم العربى بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الأتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورانس الشهير ، فجندوا البدو وسلحوا الأعراب فى قلب البادية ، وهاجموا مؤخرة الجيوش التركية فى جنوب شرق الأردن ووسطه، وكأنهم بذلك قد دللوا على حصافة هيئة قيادتهم، وحسن استقرائها للظروف الجغرافية العسكرية ، عندما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف فى الشرق العربى الشمالى . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورانس وأصحابه فى قلب البادية، فليس من شك فى أن أقل ما فعلته أنها نفخت فى أعراب البادية ، وألهبت فيهم روح الثورة والكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الأتراك من الأساس .

وعندما استقر الأمر لبريطانيا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد

الجوية فى كثير من مواقعه ، لا سيما عمّان نفسهـا ، التى لم تلبث أن برزت قيمتها من جديد عندما جعل منها الأمير عبـد الله عاصمة للإمارة . ولا يملك من يزور عمان ، خليفـة فيلادلفيـا ووريثـة موقعهـا ، إلا أن يلحظ على إحـدى ربـوات المدينة مـوقع الحصن والحاميـة الرومـانيـة القديمـة ، وأمـام آثارهما بـأسفل الوادى مـدرج الملعب الـرومانى القـديم ، وكنيس كـان الجند فيما يظهـر يـؤدون فيه بعض مـا عليهم من عبادة . فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوى وجـد قاعـدة قوة الطيران (البريطـانيـة إذ ذاك) ، ووجد قبل ذلك معسكـر الجيش العربى ، وإلى أسفلـه مسجد هـذا الجيش . فإذا دقق الزائر استطـاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية ، وهى الطرق التى حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى، ولا تزال الطرق الحديثـة تتبع الاتجاهات القديمة ، فتشخص إلى الشام وبغـداد ، أو تأتى من فلسطين أو تتجه نحو الجنـوب إلى رأس خليج العقبة . وقد مد البريطـانيون من الطرق العسكريـة مثل ما مد الرومـان من قبلهـم . وكثيرًا ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الرومانى المرصوف تجرى فى محاذاته . ولم يكن الرومان فى إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيين ، بل إنهم ربما كـانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الـذى عاشوا فيه ، وهـذه بعض طرقهم لا تـزال قائمـة بعد أن مضى عليهـا ما يكـاد يقارب ألفى عام .

كـذلك لم يقف البريطـانيـون عنـد شرق الأردن ؛ وإنما مـدوا نفـوذهم إلى الخليج العربى كما نعلم ، وكـذلك إلى خليج العقبة نفسه ، حيث مكنـوا لإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة ، لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطانى ، وكذلك لأنه قاعدة لتهريب الأسلحة بـالبحر إلى البدو فى الصحراء . وربما كان هذا هو السر فى أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عندمـا طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأ على أنه تابع لساحـل الحجاز ومملكته السابقة .

ثم إن بريطانيـا قد استعانت بالبدو فى حراسـة الطرق وتأمينها ، وفى تمكين الأمن ونشره ، كما فعل الرومـان تمامًا . وهداها ذلك إلى تأليف الجيش العـربى ، والإنفاق

على تسليحه من الخزانة البريطانية . وتولت قيادته هيئة من الضباط البريطانيين . كما يقال إن بريطانيا استخدمته إذ ذاك وأفادت منه فى إخماد ثورة العراق فى الشرق ، وفى احتلال سورية والشام فى الشمال ، وفى حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود ، كما أنجدت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن فى مصر يوم تحرجت الأمور فى الحرب العالمية الثانية . ولعل هذا فى حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع منطقة شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء المشرق العربى الشمالى فى كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا ـ أو لعله بدأ معها ـ لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية ـ بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية منطقة شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ، فالعرب وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا لمثل ذلك ، ويظهر أن الله لم يجبلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدينة والحياة الناعمة ، فهم لا يتقبلون الضيم ولا يرتضون الحكم الخارجى المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداءة إلى ما لم يعمد إليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلى لأمير شرق الأردن وسيده الجديد ، ومدت إليه يد المعاونة فى أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم فى هذا الوطن الناشىء الصغير ، الذى لم يزد سكانه أول الأمر على ثلث مليون . وفوق ذلك فإن العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ، وإنما أخذوا كثيرًا من أسباب نهضتهم بأيديهم ، واستطاع أميرهم إذ ذاك أن يشيع فى بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها من يزور هذا القطر العربى . والطريف أن هذه النهضة التى تابعها أخلافه تشبه من وجوه كثيرة ما سبقها من نهضات فى عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفى سنة سبقت بنوع خاص . فالأراضى الزراعية بدأت تتسع على حساب الفيافى والقفار، لا سيما فى وادى الأردن نفسه ، وفى بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة فى كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تعم على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلأ والمراعى ، وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوبر . وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تروج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ

البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافى كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها ودلائلها لكل زائر ، حتى لو كان سائحًا لايعنى بغير المظهر . ويكفى أن يسير المرء فى شوارع عمان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض نجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة فى هذا القطر الداخلى من العالم العربى لا يقل عنه فى نظرائه من أقطار بلاد العرب بما فى ذلك مصر [١] . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يبشر بخير كثير .

أرأيت معى يا صاحبى القارئ كيف أن التاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن ؟ وكيف أن الحاضر ، وما يلابسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضًا ، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان فى الماضى البعيد من صور ومن فصول ؟ ثم أرأيت معى أيضًا أن تجدد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعى فى كل هذا المشرق القريب ذى الحضارة العريقة والتاريخ الطويل ؟ إن كان ذلك فلعلك توافقنى على أن من المفيد أحيانًا أن ندرس بعض تاريخنا ، وأن نراجع صفحاته ، فقد يكون فى ذلك ما ينير السبيل أمامنا فى استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل ! وماأشد حاجتنا فى هذا المشرق العربى كله إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل ، ولومن بعيد! [٢]

---

(١) أمضى كاتب المقال أيامًا متنقلاً فى شرق الأردن فى عام ١٩٤٥ ؛ ولمس فيها استطاع أن يلمس هذه الناحية بالذات . ويكفى أن نذكر أن متوسط أجر العامل العادى فى عمان لا يقل إذ ذاك عما يعادل ضعف الاجر فى بلد قريب كمصر . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد فى ذلك ؛ فارتفاع الأجور فى شرق الأردن إذ ذاك يمثل ارتفاعًا حقيقيًا فى مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة فى بلد كمصر .

(٢) هذا البحث كان قد كتب فى عام ١٩٤٧ مستندًا إلى دراسة ميدانية أجريت عام ١٩٤٥ ثم جاءت بعد ذلك نكسة حرب فلسطين التى ترتب عليها هجرة الأعداد الكبيرة من أبناء فلسطين حيث أقاموا فى ربوع شرق الأردن ، وحيث اندمجت الحياة الاقتصادية فى كل من الضفة الغربية ومنطقة شرق الأردن، مما كان بداية لنهضة اقتصادية كبرى فيما أصبح يعرف بالمملكة الأردنية الهاشمية .

« ١٤ »

الكويت وأخواتها الخليجيات
معطل العروبة على البحار الجنوبية



الكويت وأخواتها الخليجيات
مطل العروبة على البحار الجنوبية

تشغل العروبة موطنًا جغرافيًا فسيحًا يقع فى قلب العالم القديم ، ويمتد من الخليج العربى وجبال زاجروس فى الشرق إلى شواطئ بحر الظلمات القديم (المحيط الأطلنطى) فى الغرب ، ومن البحر المتوسط فى الشمال إلى المحيط الهندى وشرق إفريقية وداخليتها وراء الصحراء الكبرى فى الجنوب . ويطل هذا الوطن الفسيح بمطل كبير على شواطئ البحر المتوسط وما يتفرع عنه من بحار صغيرة ، وبمطل آخر أصغر منه اتساعًا ، ولكنه يعتبر فى واقع الأمر مكملاً له بالنسبة لصلات العروبة التاريخية بالعالم الخارجى . وهذا المطل الثانى هو مطل الخليج العربى ، وما يقع وراءه من خليج عمان وبحر العرب وخليج عدن الذى يعتبر امتدادًا للبحر الأحمر . . . ومن الخير أن نذكر دائمًا أن هذين المطلين هما فى حقيقة الأمر متكاملان ومترابطان من حيث مكانة العروبة وموطنها الكبير (بجناحيه فى آسيا وإفريقية) ، ومن حيث الدور التاريخى للعرب كأمة وسط بين العالم الآسيوى والعالم الإفريقى والعالم الغربى بمفهومه الأوربى الحديث . وقد كان دور العرب وأسلافهم الأقدمين دورًا تاريخيًا حضاريًا منذ كان استقرار العناصر البشرية فى هذا الجزء الخطير من قلب العالم القديم . ولعل بدايات ذلك وأصوله الأولى أن ترجع إلى العصر الحجرى الحديث على أقل تقدير ، عندما ظهرت حرفتا الزراعة والرعى ، واتخذت الحياة والحضارة طابعهما المميز فى قلب العالم القديم ، كما اتخذت الشعوب ، «السامية» وشقيقاتها « الحامية » صورتها العتيقة التى تمثلت فى اللغة وبعض ألوان الفكر والنظم الاجتماعية التى سادت تلك الجماعات لأجيال طويلة ، خرجت بها من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخى ، بل خرجت بها كذلك من النشاط البرى الخالص إلى

نشاط بحرى امتد إلى ما وراء البحار . وكان ذلك الامتداد على الجبهتين البحريتين فى البحر المتوسط والخليج العربى . فأما عن جبهة البحر المتوسط فإن نشاط العروبة فيها اختلط بنشاط أمم أخرى ، لاسيما من الشاطئ الشمالى للبحر . وكان هذا الشاطئ الشمالى أصلح للنشاط البحرى وادعى إليه بحكم طبيعته وبحكم تعرج ساحله وانقسامه إلى أشباه جزر ، هى البلقان (اليونان) وايطاليا وأيبريا ، وقد كان لها جميعًا نشاطها البحرى الكبير خلال فترات متعاقبة من التاريخ . أما الجبهة الخليجية فقد كان النشاط « العربى » (غرب الخليج) فيها أظهر منه فى الشواطئ المواجهة فى إيران التى كان شاطئها الجنوبى غير صالح للنشاط العام والنشاط البحرى بصفة خاصة ، كما أن العرب كانوا أسبق إلى التوسع نحوالشاطئ المقابل ، فدخلوا أرض عربستان عند طرفه الشمالى واستقروا فى بعض الموانى فى وسطه مثل ميناء « سيراف » فى القرن العاشر الميلادى وما بعده ، وذلك قبل أن يتوسع الايرانيون بالهجرة إلى الشاطئ العربى فى القرون الأخيرة بصفة خاصة ، وفوق ذلك فلم تلبث الجبهة العربية من الخليج أن أثبتت قدرتها على نشر الحضارة العربية والإسلامية إلى ما وراء البحر والمحيط . . . إلى الهند والشرق البعيد ، و إلى شرق إفريقية ، ثم أثبتت قدرتها بعد ذلك على بناء التعاون التجارى والحضارى العام مع الغرب فى عهد البترول ، بل إن نشر الحضارة الإسلامية العربية فى المحيط الهندى بصفة عامة كان الفضل الأول فيه لتجار الجزيرة العربية فى جبهاتها الشرقية والجنوبية ، فى حين لم يبلغ النشاط الإيرانى (الفارسى) فى نشر الحضارة والفكر الإسلاميين إلا قدرًا محدودًا فى هذا الاتجاه .

ولعل هذه الاعتبارات التاريخية والحضارية أن تكون مبررًا لأن نختار الجبهة البحرية الشرقية والجنوبية الشرقية لأرض العروبة لكى نتناولها بشىء من العناية ، كنموذج للتوسع العربى الحضارى عن طريق البحر . وسنكتفى فى هذا المجال بأن نختار مجموعة من المواطن الشاطئية التى امتزج فيها النشاط العربى التقليدى فوق البر بالنشاط البحرى المتوسع فيما وراء البحار . وقد تكون أرض الكويت نقطة البدء الصالحة فى هذه الدراسة ، لاسيما وأن هذه البقعة من الأرض قد اختلطت فيها أصول البادية بنشاط البحر منذ كانت الحياة فى الكويت . ذلك أن أصول الحياة التى استقرت فى الكويت إنما ترجع فى بداياتها الأولى إلى اختيار هذه البقعة فى ركن اليابسة

كمطل على الخليج العربى وعلى خليج الكويت الصغير . . . . اختيارها لتكون نقطة استقرار يستند السكان فيها إلى البادية من جهة وإلى الشاطئ من جهة أخرى ، كقاعدة للنشاط البحرى فى صيد الأسماك وفى الغوص من أجل اللؤلؤ ، ثم تبادل بعض منتجاتهم مع أهل الجزر المواجهة ، وأهمها جزيرة فيلكة التى كانت بعض العناصر قد استقرت فيها منذ أيام اليونان واتخذتها نقطة للتجارة ، فى جزيرة تحميها المياه من كل جانب . ولكن فيلكة هذه ما لبثت أن أضمحلت وأخذ النشاط يدب على شاطئ الكويت المواجه ، حيث أصبحت البادية ظهيرًا إقليميًا للميناء يتسع فيه مجال التجارة والتبادل بين البر والبحر . حتى أصبحت الكويت مقرًا لنشاط برى وبحرى وتجارة متنامية ، بل أصبحت فى وقت من الأوقات مقرًا لتجارة عبور ونقطة توزيع تجارى للطرف الشمالى من الخليج العربى . وقد أصبحت الكويت فيما بعد مدينة شاطئية يحيط بها سور كبير يحمى حياتها وتجارتها ، ويخرج منها تجار البر إلى داخلية البادية وقلب الجزيرة أو إلى أطراف العراق الجنوبية ، كما يخرج منها صيادو السمك واللؤلؤ إلى مياه الخليج ، ويخرج الملاحون ورجال التجارة البحرية إلى أعماق الخليج وما وراءه من بحار الهند . واتخذت الكويت مكانتها فى شمال الخليج وعند رأسه كنقطة اتصال تجارى ذات موقع له قيمته الاستراتيجية التى لم تلبث أن أغرت بعض الطامعين . فسعت بريطانيا إلى أن تكون لها يدها فى هذا الموقع البحرى الفريد من نوعه ، وقامت علاقة استعمارية مخففة بين الكويت وبريطانيا استمرت حتى جاء عهد البترول ، فأضفى على الكويت أهمية مضاعفة ، لأن الأسطول البريطانى تزايد اعتماده على بترول الخليج ، الذى ساهمت فيه الكويت بنصيب تنامى على مر الأيام حتى أصبحت الكويت من أهم مراكز إنتاجه على نطاق لم ينقص منه تزايد إنتاج إيران إلى الشرق والسعودية إلى الجنوب والعراق إلى الشمال ، وإن كان احتياطى البترول فى الكويت لا يكاد يضارع غيره من البلاد المشار إليها ، والتى فاقت الكويت فى كميات الإنتاج ولكنها لم تكد تنتقص من قيمته النسبية فى التجارة العالمية المتزايدة . وقد استمرت ظروف الصلة بين الكويت والقوة البريطانية حتى استطاعت الكويت أن تستقل بشئونها ، وتم ذلك بطريقة سلمية تتفق وطبيعة الكويت التى قامت حياتها على التجارة وصلات السلام . فبدأت تبنى مكانتها واستقلالها القومى والعسكرى وتوثق صلاتها بجيرانها العربيات وغير العربيات . ثم دعمت هذا

الاستقلال المادى والاقتصادى والمالى ببناء نهضة ثقافية وتعليمية . . . بل وعلمية أيضًا ، حتى اتخذت طريقها إلى أن تقوم منارة عالية للفكر والثقافة العربية ، ونشرت نورها إلى بقية شقيقاتها العربيات فى الخليج وما وراءه (فى اليمن وجامعة صنعاء مثلاً) بعد أن كانت قد استكملت أسباب استقلالها السياسى والاقتصادى فى وقت مبكر. وهكذا تكرر فى الكويت تقليد العروبة فى أنها تجمع دائمًا بين التجارة وبين الثقافة والنمو الحضرى والحضارى معًا . بل إن ريادة الكويت لم تلبث أن امتدت إلى أوسع من النطاق الخليجى أو العربى العام . . . فامتدت إلى النطاق الإسلامى، فكان لها دورها المرموق فى العالم الإسلامى ومنظماته الفكرية والحضارية والسياسية العامة ، ولا غرو فإن مثل هذا الدور « الإسلامى » كان العرب يعتبرونه دائمًا مكملاً للدور «العربى » الخالص.

وإلى الجنوب من الكويت يمتد ساحل المملكة العربية السعودية القديم فى التاريخ ، وهو ساحل كان له دوره الحضارى كمطل على البحر وكنقطة ارتكاز تربط البحر بالداخل فى منطقة الاحساء والهفوف قديمًا ثم منطقة الظهران ومنابع البترول فى العهد الحديث . وقد كانت « القطيف » القديمة قاعدة اتصال بحرى وبرى واسع النطاق . ويبدو أنها لاتبعد كثيرًا عما يرى بعض الباحثين أنه القاعدة القديمة لنشاط يبدو أنه كان على اتصال بالنشاط الفينيقى العتيق الذى قامت قاعدته التاريخية على شواطئ « ليبنطة » والبحر المتوسط . فظاهر أن بعض النشاط العربى القديم كان عن طريق يقطع الجزيرة العربية بين الشرق والغرب ، ويربط عالم البحار الشرقية والجنوبية بالبحار الشمالية وما وراءها . ولعل القواعد القديمة على ساحل السعودية الشرقى أن تمثل السند الإقليمى القديم الذى كان من وراء ظهور الموانئ والمرافئ السعودية الحديثة فى عهد البترول ، وذلك من أمثال موانئ الخبر والدمام ورأس التنوره ، وهى كلها مخارج ومداخل لإقليم البترول فى الظهران ، وما يشهده هذا الإقليم كله من نهضة فى مجال التعدين والتصنيع والزراعة ، ثم الخروج إلى العالم الخارجى بعيدًا فيما وراء البحار .

ولقد صمدت هذه الواجهة السعودية على الشاطئ الغربى للخليج أمام كل المواجهات الإيرانية من الشاطئ الشرقى للخليج ـ وعندما اتجه بعض سكان هذا الشاطئ الإيرانى فى العهد الحديث نحو الشاطئ العربى فى غرب الخليج فإن

محاولاتهم قد توقفت عند جزر البحرين ، حيث كانت هجرات الإيرانيين قد استقرت فيها ولم تكد تتجاوزها إلى الشاطئ السعودى إلا فى أضيق الحدود . والحق أن هذا الشاطئ السعودى قد وقف فى العهد الأخير فى وجه محاولات العدوان ، وصمد فى موقفه ، بل تعدى ذلك إلى ربط نفسه مع البحرين عن طريق جسر برى لم تكن إقامته إلا تعبيرًا وتوكيدًا للرباط التاريخى المكين مع البحرين . . . بل توكيدًا لرباط آخر أقامته الطبيعة (حتى قبل العهود التاريخية ، ومنذ ما يعرف بالعصر المطير فى الزمن الجيولوجى الرابع) ، ذلك أنه فى رأى بعض أهل العلم من الباحثين فى المياه الجوفية أن الأمطار التى تسقط على هضبة نجد وما يقع إلى الشرق منها تتوغل فى الصخور الجوفية (لاسيما طبقات الحجر الرملى) وينحدر جانب منها نحو الشرق وتسرى على عمق تحت المياه الضحلة للخليج العربى ، حتى تصل أرض البحرين ، فتعود تلك المياه الجوفية إلى الانبثاق إلى الطبقات السطحية فى أرض البحرين . . . وبذلك تكون هناك صلة طبيعية وحيوية تربط ما بين البحرين والشاطئ العربى القريب . وهذه ظاهرة تعرف باسم ظاهرة الأوانى المستطرقة للمياه الجوفية ، ويتكرر حدوثها فى أجزاء أخرى كثيرة من الوطن العربى الكبير . فهناك مثلها فى الصحراء العربية المصرية ، حيث أن الأمطار الساقطة (والتى كانت تسقط فى العصر الجيولوجى المطير فى الزمن الجيولوجى الرابع) على الجبال الواقعة شمال شرقى تشاد تتسرب فى طبقات الحجر الرملى النوبى حتى تصل إلى واحات مصر وليبيا ، فتنبثق من جديد فى هيئة عيون أو آبار ارتوازية . . . وهذه ظاهرة تتكرر كذلك فى جهات أخرى من الصحراء الكبرى العربية حيث يوجد خزان جوفى «حفرى» يرجع إلى العصر المطير المشار إليه ، ولا يزال يمد واحات العرب بمخزونه حتى الآن . ويبدو أن جانبًا من مياه الخزان الجوفى فى شرق الجزيرة العربية هو كذلك خزان « حفرى » من العصر المطير ، الذى كان يمتد ليشمل كل الجزيرة العربية بل الصحراء الكبرى الأفريقية ـ العربية . . . وهذه ظاهرة تميز الوطن العربى الكبير وتؤكد التشابه فيه بين الظروف الطبيعية والتاريخية هنا وهناك .

كذلك فإن البحرين كان لها دورها الخاص كمطل على بحار الشرق والجنوب ، وهى كانت فى هذا الدور مرتبطة أشد الارتباط بالشاطئ العربى ذى النشاط التاريخى المتجدد . وإذا كان الجانب الإيرانى قد حاول التوسع والضغط فى العهد الحديث على

البحرين فإن الرباط الطبيعى والتاريخى والاقتصادى والسياسى بين البحرين والشاطئ العربى السعودى وسائر المنافذ العربية على الخليج ، كان أقوى من أن تهزه مثل هذه الأحداث الطارئة والدخيلة .

وهناك إلى الشرق والجنوب من البحرين نقطة ارتكاز عربى أخرى ، ومطل عربى على البحار الشرقية والجنوبية الشرقية . . تلك هى شبه جزيرة قطر التى كان لها أيضًا دورها الخاص ، وإن كان هذا الدور قد تأخر بعض الشىء عن الجزر التى تقع كلها فى مياه الخليج . وكذلك عن بعض النقاط الأخرى على الشاطئ العربى . ويبدو أن صلة قطر بالبادية كانت أقل نسبيًا من صلتها بالبحر واتجاهها نحوه ، ذلك أن البرزخ الأرضى الذى يفصل شبه الجزيرة عن داخلية البر قد ساعد أيضًا على أن يجعل توجيه قطر الجغرافى نحو البحر أظهر منه نحو البر أو نحو داخل البادية . وعندما جاء العهد الحديث وظهر البترول ارتبطت مصالح قطر أكثر وأكثر بتصدير هذه المادة التى غير ظهورها توجيه الحياة المادية والاقتصادية والتجارية نحو البحر وما وراءه إلى المحيط .

وإلى الجنوب من ذلك نجد أن اتجاه شاطئ دولة الامارات يتغير فيصبح من الغرب إلى الشرق فى ساحل طويل تقع الجزر إلى شماله . وبذلك تتداخل حياة البادية وبعض واحاتها مرة أخرى مع حياة الجزر البحرية المقابلة . وفى عهد الاستعمار وقبل ظهور البترول كان تدخل بريطانيا شاملاً لهذا الساحل كله ، وهو الذى أسموه شاطئ الإمارات المتصالحة . وقد بقى الدور التاريخى لهذا الشاطئ محدودًا نسبيًا حتى جاء عهد الاستقلال ، فشعر أهل الامارات بأن الدفاع عن كيانهم ودفع الأطماع عنهم لا يتحقق بصورة مأمونة إلا فى ظل التكتل والتجمع ، لاسيما وأن الطامعين فيهم وفى موقعهم على الطريق إلى مضيق هرمز جاءوا من مصدرين ، هما أصحاب الاستعمار السابق الذين يهمهم الحصول على البترول والسيطرة على طريق تصديره إلى خارج الخليج العربى ، ثم الإيرانيون الذين اتسعت أطماعهم لتشمل المنطقة الحساسة بالنسبة للنقل البحرى وللسيطرة على مخرج الخليج وجزره الحاكمة . ومن هنا فقد كان الترابط والاتحاد هو السبيل الحق إلى حماية الاستقلال والحفاظ على الكيان العربى لهذه المنطقة الهامة من الشواطئ العربية .

ونصل أخيرًا إلى شاطئ عمان المطل على خليج هرمز إلى خليج عمان . . ثم إلى شواطئ بحر العرب وما وراءه فى المحيط الهندى ، الذى يجمع بين شواطئ الهند

وشواطئ إفريقية الشرقية . . . ومنطقة عمان هذه منطقة لها شخصيتها الجغرافية المميزة فى جنوب شرق شبه جزيرة العرب ، ولها أوضاعها فى التاريخ الحضارى للعروبة ، حتى قبل أن يظهر العنصر العربى بمدلوله التاريخى . وهناك دلائل على أن المنطقة كانت معمورة فى العصور الحجرية القديمة والحديثة ، ولكن أول الدلائل المعروفة والموثقة بالآثار يرجع إلى عصر النحاس فيما يبدو أنه الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن كانت العلاقات قد قامت قبل ذلك بين عمان ورأس الخليج فى أرض العراق وما وراءها . ويقال أن بعض الهجرات قد خرجت من جبال العراق الشرقية وربما من قرب أرمينيا فوصلت إلى أرض عمان عن طريق توسع بحرى قديم ، أدخل إلى عمان سلالة ذات قامة طويلة وأنف أشم مستقيم ، لا يزال يميز بعض سلالات شواطئ عمان وبعض قبائلها حتى الآن . وقد استقرت تلك العناصر فى الركن العمانى وأنشأت حضارتها المميزة ، مستفيدة من بعض مظاهر النشاط البحرى القديم . وما لبث هذا النشاط المتجدد على شواطئ عمان أن أنتقل بالملاحين العمانيين مع الشاطئ الجنوبى للجزيرة العربية وجزره فى اتجاه شاطئ ظفار القاحلة وشواطئ حضرموت ، التى قامت بها قواعد بحرية وصل إليها (من جهة أخرى) ملاحو الشمال من اليونان، وعملاء الرومان ، وهم الذين استعانوا بملاحى حضرموت وعمان فى الكشف عن بعض أسرار الرياح الموسمية الهندية ، والتى ركبها أولئك الملاحون جميعًا إلى بلاد الهند وشاطئ بلوخستان (جنوب باكستان) فى الطريق . كذلك فإن ملاحى بحر العرب وخليج عمان عادوا فى العهد الأوربى الحديث وعهد الملاحين البرتغاليين فكان لهم دورهم فى إعادة الكشف عن طريق الهند الملاحى . والواقع أن ملاحى عمان كان لهم نشاط خاص تجدد فى القرن الثامن عشر الميلادى وما بعده ، حيث نقلوا تجارة العرب وفكر الإسلام وعقيدته ، وثبتوها على شواطئ بلوخستان والهند الغربية، بل إن سلطان عمان بقيت له السيطرة والسيادة على جانب من شواطئ بلوخستان حتى أوائل هذا القرن . ومن جهة أخرى فإن ملاحى حضرموت وتجارها خرجوا بالإسلام وتجارته وحضارته وعقيدته إلى الملايو وأندونيسيا والعالم الجزرى فى أقصى جنوب شرق القارة الآسيوية . وإذا كان الحضارمة قد ساروا فى ركب التوسع الأوربى (لاسيما من جانب هولندا وإنجلترا وأسبانيا) فإن من الطريف أن نذكر أن أوربا إنما حملت إلى جنوب شرق آسيا السيطرة الاستعمارية وما سار فى ركبها من تجارة

واستغلال . ولكن إضافة الأوربيين إلى الفكر والثقافة كانت فى بدايتها محدودة نسبيًا . . . وبقى الجانب الأكبر والأظهر من الفضل فى نشر الثقافة والفكر والدين لأولئك الملاحين المسلمين المسالمين، ممن فتح الله عليهم جنوب شرق آسيا دون أن يكون لهم سلطان مادى كبير أو قوة عسكرية تذكر.

وهناك اتجاه آخر أطل به ملاحو شواطئ عمان على العالم الخارجى ، ونقلوا إليه معالم الفكر والحضارة . . . ذلك هو الاتجاه إلى شاطئ شرق إفريقية وجزره وبعض البقاع فوق سطح هضبته . ومن المعروف أن سلطان عمان قد امتد بنفوذه إلى جزيرة زنجبار وبعض الجزر والشواطئ المجاورة والمقابلة . وقد بدأ التوسع فى القرن الثامن عشر (وربما قبل ذلك) واستمر السلطان خلال القرن التاسع عشر والقسم الأول من القرن العشرين حتى بدأ ذلك النفوذ ينحسر مع بداية حركات الاستقلال الإفريقى وظهور دولة تنزانيا التى شملت زنجبار ومستعمرة تنجانيقا السابقة . ولكن الشىء الطريف أن السر فى ذلك قد يكون راجعًا إلى أن النور الذى انبعث من المطل العمانى ووصل إشعاعه إلى شرق القارة الإفريقية . . . كان نورًا بعيد الجذور فى التاريخ ، ويرجع إلى الأصول الأولى لاتصال أهل جنوب الجزيرة العربية عامة بمنطقة القرن الإفريقى وهضاب إفريقية الشرقية من أيام الهجرات الحامية القديمة ، ثم الهجرات السامية التى جاءت فى أعقاب ذلك . فهو إذن انتشار سلالى وحضارى قديم ومتصل على الزمن .

تلك إذن هى قصة المطل الحضارى لبيت العروبة فى جبهته الشرقية والجنوبية الشرقية الممتدة من رأس الخليج العربى القديم إلى الكويت وأخواتها الخليجيات على شاطئ السعودية الشرقى وجزره وأشباه جزره ، ثم شاطئ الإمارات ثم شواطئ عمان وهضابها ومرافئها الممتدة على خليج عمان وبحر العرب إلى أرض حضرموت وأطراف اليمن وخليج عدن . وهى قصة حاولت الجغرافيا الحضارية هنا (وهى المنحى الجديد عن المنظور الجغرافى الحديث) . . . حاولت أن تبرزها فى عجالة تخطت التفاصيل لتخرج بالدرس العام الذى يجمع بين الأصول الجغرافية والاتجاهات العامة للتاريخ الحضارى على هذا المطل العربى الشرقى والجنوبى الشرقى العظيم . . . ولعلنا أن نكون قد خرجنا من هذا الاستعراض العام بأن هذاالمطل كان له دوره الحضارى العتيد فى تاريخ الانتشار الحضارى، والصلات التى حملت التجارة والفكر

والدين فى رباط واحد إلى ما وراء البحار فى كل جنوب آسيا وجنوبها الشرقى وجزره إلى جنوب الفلبين من جهة ، ثم إلى القرن الإفريقى وشرق إفريقية وشواطئه وجزره وبعض مواقع هضبته من جهة أخرى . وكان هذا الانتشار الإفريقى مسيرة متصلة منذ عهود ما قبل التاريخ إلى حاضرنا المعاصر. ومن الخير أن نذكر أن هذا الوجه الجنوبى من الانتشار العربى والإسلامى الحضارى قد امتاز على الدوام بأنه انتشار «سلمى » قام به التجار والملاحون الذين وهبوا بعض أنفسهم لنشر الفكر والثقافة والدين . ولم يسمع التاريخ عن أية « حملات » بحرية أو عسكرية تذكر صحبت هذا الانتشار أو أدت إليه ، وإنما كانت هذه الحركة التاريخية خالصة لله وللفكر والدين والاتصال الحضارى السمح . . ولعلها بذلك أن تكون فريدة من نوعها فى التاريخ .

ولكن من الحق أن نعترف أن هذه الصفحة من صفحات الانتشار العربى الإسلامى من المطل الشرقى والجنوبى لبيت العروبة على بحار الهند وآسيا وإفريقية . . . هذه الصفحة لا تزال مجهولة بين جماهير العلماء والجغرافيين بعامة . وقد غطى عليها ما هو معروف عن تاريخ المطل الشمالى للعروبة على البحر المتوسط وما وراءه من أرض أوربا والغرب . والسبب الظاهر فى ذلك أن حوض البحر المتوسط بشواطئه الآسيوية والإفريقية والأوربية كان مركز اهتمام علمى منذ قديم ، فى مجالات الآثار والتاريخ والدراسات الحضارية بعامة . ومن هنا فقد أدى الاهتمام به إلى توافر المعلومات التى تجمع بين كل العهود الحضارية تقريبًا ، ابتداء من عصر ما قبل التاريخ إلى فجر التاريخ ثم قيام الحضارات التاريخية المتعاصرة أو المتعاقبة حول حوض البحر المتوسط ، فضلاً عن أن الاتصالات الحضارية فى الحوض لم تكن كلها من النوع « المسالم » الذى يمر دون أن يلحظه الناس وأن يسجلوا عنه ملاحظاتهم وتعقيباتهم، وإنما كانت بعض صفحات ذلك الاتصال عنيفة المشاحنات والمنافسات والحروب ، وهى كلها مظاهر تركت طابعها على صفحة التاريخ، ويذكرها الناس فى كل عصر وزمان . ومن هنا فقد كان اهتمام الباحثين والمدققين فى شئون الجغرافيا الحضارية والتاريخ الحضارى فى البحر المتوسط أمرًا مفروغًا منه ، ولايحتاج إلى استرعاء النظرة الفاحصة من جديد . ولعل هذا كله أن يكون من وراء اهتمامنا بأن نسترعى النظر ـ ونظر الباحثين والجغرافيين العرب بخاصة ـ إلى الأهمية التاريخية والحضارية لهذا المطل الشرقى والجنوبى الشرقى للعروبة على بحار الجنوب .



« ١٥ »

بين الجغرافيا والتاريخ فى أرض العراق وما جاورها



بين الجغرافيا والتاريخ فى أرض العراق وما جاورها

الوطن العربى من أكبر أوطان الشعوب فى العالم . وهو يشغل قلب العالم القديم ، ويمتد فوق مساحات شاسعة من القارتين الكبيرتين فى هذا العالم . فيغطى شمال إفريقية كله ، وكل الصحراء الكبرى تقريبًا مع امتدادات تتوغل فى أطراف إفريقية المدارية ، لاسيما فى السودان الشرقى وبعض أطراف ايريتريا وبعض مناطق القرن الإفريقى . وهو يشمل كل الجزيرة العربية فى جنوب غرب آسيا ، مع امتدادات منها إلى قواعد جبال طوروس وجبال زاجروس فى غرب إيران ، وكذلك امتداد عربستان فى غرب هضبة إيران . . وهو يطل على كل جنوب البحر المتوسط وجنوب شرقيه ، وكانت له امتدادات فى جنوب هضبة إيبريا (بلاد الأندلس) بل وامتدادات حضارية إلى بعض جزر ذلك البحر فى صقلية ومالطة وغيرها ، ولكنها امتدادات أصبحت خارجة عنه الآن . ثم إن المشرق العربى كان مقرًا لحضارات قديمة يرجع أساسها إلى العصر الحجرى القديم ثم العصر الحجرى الحديث الذى بدأ فيه الإنسان يستقر فى الزراعة ويتعلم فنون الرعى ويقيم الحضارات التى اكتملت مع اقتراب فجر التاريخ . وكانت حضاراته القديمة متقاربة فى بداياتها ، فالعصر الحجرى الحديث وما كان فيه من استقرار ربما رجعت مقدماته الأولى مع بداية الألف التاسعة (أو الثامنة) قبل الميلاد ، وإن كانت بعض حضاراته المستقرة لم تبدأ إلا بعد ذلك بألفى عام أو نحو ذلك . وقد استندت فى جنوب غرب آسيا إلى زراعة القمح أول ما عرف الإنسان زراعته ، واستندت فى جهات كشمال شرق إفريقية إلى زراعة الشعير ، كما اتجهت فى حوض البحر المتوسط إلى زراعة أشجار الفاكهة القابلة للتجفيف أو العصير والتخزين ، كالكروم (العنب) والتين والزيتون وما يصاحبها فى الأطراف الدفيئة من النخيل المثمرة . وقد كانت معظم تلك الزراعات مما يعتمد على مياه الأمطار ، وإن كان بعضها من النوع الذى يحتاج إلى السقيا ، فيقتصر على بطون الأودية أو قيعان منخفضات الواحات .

على أن الشيء المهم هو أن تلك الحضارات جميعًا لم تلبث أن تكاملت واتصل بعضها ببعض ، وأصبحت فى مجموعها تحتل منطقة حضارية كبرى فى قلب العالم القديم . بل لعلها أن تمثل أقدم تلك المناطق الحضارية كلها فى العالم إذا ما اعتبرنا أن « الاستقرار » هو البداية الحقيقية للحضارة التاريخية المعروفة . وقد كانت هذه المنطقة المتوسطة فى العالم التاريخى القديم هى وما جاورها مباشرة من شمال حوض البحر المتوسط بمثابة « المنطقة النواة » فى عالم الحضارات القديمة . ولكن الشيء الذى يجب أن نذكره أن منطقة النواة هذه كانت فى حقيقتها منطقة « مركبة » ، لأنها كانت تأتلف من مجموعة من المناطق الإقليمية التى كان لكل منها دورها التاريخى فى نشأة الحضارة وتطورها القديم ، وفى صلات العالم القديم كله بعضه ببعض .

والمنطقة الإقليمية التى نحن بصددها الآن هى منطقة العراق ، وتقع عند الطرف الشمالى الشرقى من الوطن العربى . ويطلق عليها بعض الجغرافيين « كتف العروبة » أو « جناحها » ويقابلها فى الطرف الشمالى الغربى « الجناح الغربى » للعروبة . وإن كان هناك فارق واضح بين الجناحين ، ذلك أن الجناح الغربى كان عرضة لمؤثرات وغزوات جاءت من جهات بعيدة عن العالم العربى ، كما كان فى غزوة الفندال القديمة من شمال أوربا ، أو فى توغل البربر الذين أتوا فى الأصل من شرق إفريقية وعبروا الصحراء الكبرى عن طريق جبال تبستى إلى الأطلس الأعلى وأطراف المغرب . وبذلك كان اختلاط عرب المغرب بعناصر دخيلة جاءت فى الأصل من بعيد ، ولكنها هُضمت فى النهاية واندمجت مع سكان المغرب . ولكن المهم أن الضغط الآتى فى الأصل من بعيد كان قد ضعف عندما وصل فى النهاية إلى المغرب ، وعلى ذلك فإن العروبة قد غلبته ولو فى صعوبة أو عسر . ولم نسمع بمعارك طاحنة أو مخربة كتلك التى تعرض لها الجناح العراقى للعروبة . خصوصًا وأن العراق كانت تجاوره إلى الشرق منه مباشرة أرض حضارية عريقة أخرى هى أرض فارس القديمة ، كما أنه كانت إلى الشمال الشرقى من إيران منطقة حضارية أخرى ذات حضارة رعوية فى داخلية آسيا (بما فيها تركستان) خرجت منها موجات متلاحقة من الرعاة أيام الهون ومَن تلاهم من التتر والمغول والأتراك السلجوقيين ثم الأتراك العثمانيين . وقد استطاعت تلك العناصر الرعوية جميعًا أن تتوالى فى موجات متلاحقة خلال التاريخ القديم والوسيط ،

فضلاً عما كان يجاور العراق من الشمال والشمال الغربى من قبائل الحيثيين القدماء ثم الأكراد بعد ذلك بقرون ، وكذلك الأتراك أنفسهم فى الأناضول ، وهؤلاء جميعًا استطاعوا أن يطغوا فى فترات متلاحقة على أرض العراق . . . بل إن الجناح العراقى لم يسلم فوق ذلك من بعض توسعات سكان البحر المتوسط الشرقى وأرض اليونان القديمة ، وذلك كله على خلاف الجناح المغربى للعالم العربى ، الذى كان ما يقع إلى الغرب منه هو بحر الظلمات وعالمه الذى يكاد أن يكون فارغًا من الحضارة المستقرة أو القادرة على الانتشار فى اتجاه العالم القديم . وهكذا فإن بعض الجغرافيين يرى بالمقارنة أن جناح العراق كان فى الحقيقة جناحًا مكشوفًا ، وإن كان له من القوة الذاتية ما جعله يصمد فى وجه غزوات العالم المجاور وما وراءه . . . وذلك كله جعل بعض الجغرافيين يفضل أن يصف العراق على سبيل المجاز بأنه « كتف العروبة » التى لايستطيع أحد أن يأخذ العروبة منها بسهولة . وما هذا المثال الذى لمسناه فى السنوات الأخيرة حين نشط العداء الفارسى القديم والدفين فى نفوس أهل إيران ذوى المذهب الشيعى الذى عادى العروبة وأهل السنة منذ أيام مطلع الإسلام ـ وحتى قبل أن يطلع الإسلام . . . لقد استطاعت « جبهة العروبة » الشرقية أن تثبت وأن تصمد ، رغم ما أصابها من تدخل مشرقى فى عهود سابقة . .

وينقسم الأثر الجغرافى فى أرض العراق قسمين أساسيين : هما أثر « البيئة الجغرافية » فى الحضارات التى قامت فوق أرض العراق ، ثم أثر « الموقع الجغرافى » فى علاقات العراق وحضاراته بالحضارات المجاورة من جهة ، والحضارات البعيدة من جهة أخرى . . فأما عن أثر البيئة الجغرافية فإننا نلحظ أن العراق فى جملته سهل كبير مستطيل تحفه الجبال العالية إلى الشرق والشمال ، وينفتح على السهوب والصحارى العربية إلى الغرب والجنوب الغربى . ولكن هذا السهل يجرى عليه نهران كبيران بخلاف أرض مصر مثلاً . وهى التى كان يجرى فوقها نهر واحد هو النيل وله « واديه» الواضح المحدد ودلتاه الواحدة الفسيحة والمثلثة الشكل والتى تحدها جبهة شاطئية طويلة ، قامت عليها المرافئ الواقعة على البحر مباشرة . أما العراق فقد كان يجرى عليه كل من نهر الفرات ونهر دجلة ، وروافدهما التى كان من أبرزها من الناحية التاريخية الخابور بالنسبة للفرات وقارون بالنسبة لمنطقة شط العرب . ويلاحظ أن

النهرين وروافدهما فى العراق تجرى جمعيًا من الشمال إلى الجنوب ، وتفيض فى أشهر الربيع حين تذوب الثلوج فوق الجبال العالية عند المنابع . وقد كان لهذا الجريان ومواعيده أثره فى قيام الحضارات القديمة وفى حركات الاتصال بين المجتمعات والمناطق الحضارية القديمة فى العراق . ويحسن أن نقارن بين أنهار العراق ونهر النيل وفروعه فى مصر . فالمجارى النهرية فى العراق كان أثرها محدودًا نسبيًا كشريان للاتصال وتكوين « وحدة شاملة » وواسعة النطاق بين الحضارات الأولى فى العراق - أما نهر النيل فقد كان يجرى «من الجنوب إلى الشمال » فى حين أن نظام الرياح السائدة فى مصر كان من الشمال إلى الجنوب . وبذلك أصبح نهر النيل ونظام رياحه السائدة سبيلاً وسببًا قويًا فى قيام الوحدة القديمة بين سكان مصر فى الصعيد وفى الدلتا ، فالنهر فى حالة مصر كان شريانًا للاتصال والربط بين الوجهين القبلى والبحرى فى مصر منذ أقدم العصور ، وبذلك كانت الوحدة الأولى بين وجهى أرض مصر . . بل هكذا قامت فى مصر أقدم وحدة بين سكان الجنوب وسكان الشمال ، لأن انتظام جريان المياه وسريان الريح كانا عاملين « متكاملين » فى مصر قبل أن يبدأ التاريخ ، بل وخلال التاريخ كله ، بخلاف العراق حيث قامت عدة مناطق لحضارات الاستقرار القديم ، ولم يتيسر قيام « دولة واحدة موحدة » فى أرض العراق القديم ، فكانت هناك منطقة « أور » القديمة قرب المصبات السفلى للنهرين (لاسيما الفرات)، ثم تليها منطقة « أكاد » إلى الشمال منها ، وكانت الحضارة فيها مختلطة تجمع بين حياة الاستقرار قرب النهر وحياة البادية المجاورة والتى لم تنقطع صلتها بأرض الاستقرار وأرض « السواد » . وإلى الشمال من ذلك كانت حضارة « بابل » التى تركزت فى منطقة اقتراب النهرين الواحد منهما من الآخر . ولكن حضارة بابل هذه كانت أحدث من حضارة « أور» أو « أكاد » (أو عقاد) . ولم تأخذ زينتها وقوتها الحضارية إلا بعد أن دالت دولتا الجنوب أو كادت الحياة فيها أن تندثر ثم إلى الشمال مرة أخرى وعلى ضفاف روافد دجلة التى تجاور الجبال الشمالية الشرقية ، حيث قامت حضارة آشور التى تأخرت فى ظهورها وبلوغ شأوها بعض الشيء عن حضارات الجنوب . وخلاصة الصورة فى العراق القديم أن مراكزه الحضارية لم تأتلف فى حضارة واحدة كالحضارة الفرعونية . بل قامت فى العراق مجموعة « متتابعة » من الحضارات

القديمة . وحتى بعد ذلك عندما ظهرت مراكز حضارية صغيرة تحت النفوذ الدخيل إلى العراق قامت منطقة بغداد على انقاض منطقة « المدائن » التى استقر فيها الأثر الإغريقى أيام « كتيزيفون » القديمة التى تأثرت فى مرحلة لاحقة بالأثر الفارسى أيام كسرى (ومنطقة « طاق كسرى » إلى الجنوب قليلاً من بغداد الحالية) . وكذلك الحال فى منطقة شط العرب الذى أطلقت عليه هذه التسمية لأن المنطقة عمرتها بعض العناصر العربية حتى قبل أن تجئ العناصر الاغريقية القديمة التى أنشأت ميناء «شاراكس سبازينو » التى أصبحت فى العصور اللاحقة ميناء «المحمرة » . كذلك فإن النشاط الإغريقى استقر فى بعض الجزر القريبة من الساحل ، ومنها جزيرة «فيلكه » (التابعة للكويت) ، وقد عثر فيها على آثار للتجار الإغريق الذين استقروا فى الجزيرة التى كانت بعيدة وآمنة من غزوات البدو من الناحية الغربية ، أو من العناصر الفارسية . التى كان يصح أن تأتى من جهة الشرق . كذلك كانت هناك منطقة استقرار عربى فى المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقى من الشط ، وهذه هى المنطقة التى نعرفها الآن باسم « عربستان » وهى تسمية مركبة من « عرب » و «ستان» (ومعناها بلاد) . وقد بقيت هذه المنطقة خلال التاريخ موضع نزاع بين العرب والفرس . ولئن كانت الثقافة والقومية العربية قد غلبت عليها ، فإن إيران كانت فى موقع يعين على التمسك بهذا الإقليم رغم ملامحه العربية الظاهرة ، والتى كان ينبغى أن تحفظ للإقليم الصغير صفته الحضارية العربية .

ولننتقل الآن إلى الموقع الجغرافى وأثره فى حياة العراق عبر التاريخ . ولقد كان للعراق أربع جبهات يطل منها ، ويؤثر ويتأثر بما جاوره بل وما يقع وراء كل جبهة من اصقاع قريبة أو بعيدة . فأما الجبهة الأولى (ولعلها أن تكون أهم الجبهات من ناحية الأثر الحضارى) فهى الجبهة العربية إلى الغرب من سهول العراق . وهى جبهة مفتوحة ليس لها حدود ظاهرة أو مميزة ، لأن الصحراء هنا لم تكن صحراء جافة ، كما كانت الحال بالنسبة للصحارى المجاورة لوادى النيل الأدنى ، وإنما كانت منطقة رعى وأعشاب وسهوب تقطنها القبائل المتحركة ، وتجتازها قوافل التجارة التى تربط القرن العراقى بالقرن الشامى من الهلال الخصيب . بل إن هذه السهوب العربية الشمالية كانت المصدر الأساسى الذى زود العراق بجانب كبير من سكانه الذين

استقروا فى « أرض السـواد » . كذلك فإن هـذه السهوب (وامتـداداتها إلى الجنوب) كانت معبرًا لكثير من القبائل النازحة من بعيد من داخل الجزيرة العربية ، وحتى من جنوبها ، حيث يقال إنه بعد أن تحطم سد مأرب (فى شرق هضبة اليمن) فإن بعض القبـائل التى كـانت تعمـر اليمن الشرقى وأطـراف حضرمـوت انتقلت عبر الجزيـرة العربية حتى دخلت أرض العراق واستقرت فيها ، وهى علامة ربط قديم بين العراق وأقاصى داخلية الجزيـرة العربية ، وهى الرباط الذى أضفى على العـراق « عروبته » العتيـدة التى انطبعت فيـه منـذ العهد الجاهلى البعيـد ، ولا تـزال معـه حتى الآن . وظاهر أن « الوجـه القَبَلِى العربى » للعراق هوالوجه الـذى ميزه خلال أعصر التاريخ وحتى أيامنا المعاصرة . كذلك فإننا إذا ما رجعنا إلى عصر ما قبل الإسلام ، فإننا نجد أن استقـرار « اللخميين » على الجبهـة الغـربيـة للعـراق قـد عـادلـه استقـرار جبهـة «الغساسنـة » على الواجهة الشاميـة للهلال الخصيب . فكان اللخميـون هم واجهة دولـة الفرس ، وكـان الغسـاسنة هم واجهـة دولـة الـروم ، وكان لكل من الامـارتين العـربيتين دورها التـاريخى فى صلات القـوتين العظميين فى ذلك الوقت ، سـواء من ناحيـة تاريخ التجـارة وتبادل السلع أم من نـاحيـة الحرب . وما كـان من تصادم بين الفـرس والـروم ، استمـرت إشـاراتـه حتى مطلـع العصر الإسـلامى ، وحتى انتهى التصارع بين العمـلاقين إلى أن أورث الله الموقف كلـه للعرب المسلمين أيـام الأمويين على الجانب الشامى والعباسيين على الجانب العراقى .

كذلك فإنه من النـاحية الفكرية والثقافيـة والحضارية العامة فإننا نجـد أنه كانت للعرب مدائنهم ومراكز حضاراتهم وفكرهم على الجانب الشامى (وأهمها بطراء النبط وبصرة القديمـة ثم دمشق العاصمة الأمويـة) كذلك كانت لهم مدائنهم ومـراكزهم الفكرية والحضاريـة على طول الواجهة العراقية ، ومن أبرزها الحيرة والكـوفة وكربلاء حتى نصل إلى البصرة الحديثة . وقد ورثت هذه المراكـز كلها مدائن العصر السابق فى أور ومدن الفرات القديمة ، والتى كانـت كلها مراكز اتصال بين أرض العراق وأرض باديةالشام . وهكذا كانت الواجهة الغـربية للعراق واجهة اتصال حضارى وتواصل بين أرض الاستقرار وأرض البداوة . وهى ميزة أضفت على العراق « عروبته » البدوية المختلطة التى تمثلت فى الأطـراف الغربيـة من أرض العراق بأكثـر مما تجلت فى بعض

جهات الـوطن العربـى الأخرى التى غلبت عليهـا صفة الاستقرار الخالـص أو صفة البداوة الخالصة . ولكن العراق (فى القسم الغربى والأوسط منه) قد جمع أهله بين ما فى الحياة المستقرة وما فى حياة البداوة من وصفات عرف بها العرب منذ قديم .

وتأتى بعـد ذلك الواجهة الثـانية لأرض العـراق ، وهى الواجهـة الشرقية ، حيث كان العـراق يواجـه الحافة الغـربية لهضبـة إيران . وهـى منطقة أعجميـة فى سكانها وحضارتها وفكـرها القديم بل واتجاهاتها الفكـرية المعاصرة . وقد كـان خط الاتصال هنا خط صراع حضارى ، كـان العراق يسعى من وقت لآخر كى ينفذ خـلاله بأهله وحضارتـه ، كما كان أهل إيـران يسعون خلال التـاريخ ليفرضـوا سلطانهم على أهل السهول المجـاورة من أرض العراق . . ولعلنـا نذكـر خروج سكـان السهول العـراقية بحضـارتهم القديمـة حيث استقرت الحيـاة فى أرض آشـور ، ونشأ لون من الحضـارة يجمع بين بعض معالم حضارات العراق القديمة ، وبعض مظاهر حضارة الهضاب . ولكن طريق آشـور ذاته استمر بعـد ذلك حين تجدد على طوله خروج حضـارة العهد الإسـلامى ، وانتشر المسلمـون عن طريق همدان إلى شمال إيـران ومـا وراءه إلى أرض تركستـان وسيحون وجيحـون ، بل وإلى أبواب تـركستان الـوسطى والشرقيـة وأبواب الامبراطـورية الصينيـة . كما تفـرع انتشـار العرب المسلمين من شمال إيـران إلى شمال غرب الهنـد وأفغانستان ، فكـان العراق بذلـك كله وبفضل مـوقعه الجغرافى طـريق انتشـار الإسلام إلى قلـب القارة الآسيـوية ، بـل وحـامل الفكـر العربـى الإسلامـى الخصيب وناشره إلى مواطن الحضارات الآرية والهندية والتركية القديمة ، بل والصينية القديمة أيضًا على أطراف تلك الاصقاع .

ولكن هذا المخرج الحضارى للعراق عاد فى بعض عهـود التاريخ فأصبح مدخلاً إلى العراق ، انـدفعت عن طريقـه تيارات الغزو وعـواصف السلطان من الهضبـة وما وراءها إلى أرض شمال العراق وسهوله . وكانت بدايـات ذلك التوسع الشرقى القديم قبل الهكسـوس ومن سبقهم مـن رعاة آسيا الـداخلية وهضابها إلى أرض العـراق وما وراءه من أرض الشـام وحتى أبواب مصر . ثـم تكررت أيام التـوسع الفارسـى الذى جاء من فـارس الوسطى والجنوبية وأقـام سلطانه على بعض تراب العـراق القديم فى أجزائه الوسطى . ثم تجدد الغزو فى العصور الـوسيطة ، ولكنه جاء فى هذه الحالة من

داخلية آسيا البعيدة ، حين تقدم التتر والمغول ونـزلوا إلى عاصمـة دنيا المشرق إذ ذاك وهى بغداد ، فاحـرقوها عام ١٢٥٨ الميلادى . . . وحتى إذا ماجـاء عهدنا الحديث جـاءت محاولة أخيرة مـن هضبة إيـران ذاتها وحاولـت الجبهة الشيعيـة أن تخترق درع العراق من هـذه الناحية ، بل وعلى طـول الجبهة العراقية الشرقيـة . . . ولكن العراق أثبت أنـه ليس درع العـروبة الـذى يسهل اختراقـه أواجتياحـه ، ولكنه تلـك الجبهة القوية التى حفظت للعروبة صمودها التاريخى .

كذلـك كان للجبهـة الشرقية للعـراق منفذ آخـر هوالـذى يصل بين شـط العرب وأرض عربستان التى كانت منذ قديم امتـدادًا حضاريًا وطبيعيًا لدنيا العرب . ولكن الشيء الطريف أن هـذا الجزء الجنوبى من الجبهة الشرقية للعـراق لم يتصف فى عهده القديم بالعنف وإنما كانت هذه الجبهـة جبهة توسع وانتشار حضارى وسلمى بصفة عامة ، وكـان طبيعيًا أن تغلب فيه الحضارة العـربية بعد أن قويت بـالإسلام وحملت كتابه بالحسنى وبالتجارة المسالمة عبر أبواب الخليج العربى كله . . . وتجلت فى ذلك سماحة الفكـر العربى والنـزعة العربيـة القائمـة على أخوة الإسلام والفهـم الصحيح لدوافع رسـالته ، فكان استقرار العـرب المسلمين على هذا الجزء الجنوبى مـن الجبهة استقـرارًا حضاريـًا مسالمًا فى جملتـه فى وبصفة عـامة . . . حتـى إذا ما جـاء عهدنـا المعاصر ، وجاء المفهـوم الإيرانى المتطرف للإسلام تغيرت طبيعـة الاحتكاك على طول الجبهة كلها ، بل وحاول الإيرانيون أن ينكروا عروبة شط العرب كله فحاولوا الاستقرار على شاطئ «الفاو » وحاولوا أن يدقـوا أبواب البصرة ذاتها ، وهنا أثبتت هذه الواجهة مرة أخرى إنها الكتف التى تحميها مستنقعـات شط العرب، وأنها درع الأمان بالنسبة للعرب والعروبة فى هذا الجزء العتيد والخطير من أرض المشرق العربى .

أما عن الواجهة الثالثة للعراق ، وهى الواجهة الشمالية ، فقد كان الوضع فيها من بعض نواحيه أكثر تعقيدًا من الواجهة الشرقية . ذلك أنه ، إلى جانب الجوار الإيرانى فى الركن الشمالى الشرقى والجوار التركى فى الركن الشمالى الغـربى ، كانت هناك جبهة كـردية فى وسـط الشمال مع امتـداد وتداخـل فى الركنين . وكـانت لـلأكراد صفتهـم الخاصة فى السلالة والثقـافة والاتجاه القومى . بل إن مشكلتهم كـانت تمتد إلى ثلاث جبهات فرعية ، فهم أصحاب مشكلة قوميـة مع إيران ، وهـم أصحاب مشكلة مع

تركيا ، ثم هم أصحاب مشكلة ثالثة مع العراق . وهم رغم إسلامهم المشترك مع الجميع ، فإنهم إذا أرادوا أن يتأقلموا مع القوميات والثقافات المجاورة فإن جهدهم فى هذه الناحية لابد أن يتفرق اشتاتًا ثلاثة ، وهو ما انكروه ولم يسلموا به إلا عن غير رضى منهم . ولقد مرت صلتهم بالعراق فى عدة أدوار خلال المرحلة التاريخية المعاصرة ، ومنذ استقلال العراق بشئونه . وكان موقف أكراد العراق يتأرجح بين المسالمة والاندماج فى فترات قصيرة ، تلتقى فيها الثقافة الكردية بالثقافة العربية ، وتلتقى فيها المشاعر الوطنية التقاء « مترددًا » بالمشاعر العربية فى سائر العراق ، ويقوم نوع من التهادن بين الأكراد والعرب فى عراق يهدف جهد طاقته لاقامة الوحدة الوطنية العراقية فى نطاق الوحدة القومية العربية . ولكن هذا السعى إلى الوحدة الوطنية كثيرًا ما اكتنفته ثورات التمرد الكردى على هذه الوحدة. وكان مثل هذا التمرد تزداد حدته تعقيدًا فى فترات النزاع بين العراق وجارته الشرقية ، كما حدث فى أيام الحرب المعاصرة مع العراق ، وإن كان العراق وتركيا من ناحية أخرى قد استطاعا أن يوفقا الأمور بينهما ، فقام تعاون مؤقت بين جارتين عتيدتين سبق أن جمع بينهما الإسلام وظروف التاريخ فى صورة مختلفة عما قام بين العراق وإيران من نزاع تضرب جذوره بعيدًا فى التاريخ .

وأخيرًا نصل إلى الواجهة الجنوبية لحدود المستطيل العراقى ، وهى الواجهة المطلة على الخليج العربى . وهذه الواجهة كانت مطلاً ومخرجًا للعراق على الخليج وما وراء مياهه أكثر منها مدخلاً إليه . فنحن لا نعرف عن هجرات واسعة دخلت إلى أرض العراق عن هذا الطريق . وكان وجود المستنقعات والأهوار المائية فى جنوب العراق حاجزًا حماه من أى احتمال لدخول الهجرات عن هذا الطريق . والذى حدث هو أن العناصر البدوية جاءت من الجزيرة واستقرت فى أطراف العراق الجنوبية الغربية ونفذ بعضها عبر شط العرب إلى أرض عربستان التى يبدو أن بعض العناصر العربية جاءتها أيضًا من شمال الخليج ذاته . كذلك فإن الواجهة الشاطئية لجنوب العراق قد كانت موطنًا أيضًا لاستقرار بعض العناصر الإغريقية القديمة ، لاسيما فى منطقة المحمرّة القديمة . ومعروف كذلك أن شط العرب ذاته كان طريقًا مائيًا لوصول التجارة إلى العراق وخروجها منه . واستمرت الحال على ذلك خلال العهد القديم ثم

العهد العربى كله وحتى وقتنا الحاضر ، وقد عرف عن شط العرب أنه كان موضع خلاف قائم بين العراق وجارته إيران ، كما أنه كان مدخلاً للغزو البحرى بالنسبة للعراق الحديث كما حدث فى غزو بريطانيا له قادمة باسطولها من الهند فى اعقاب الحرب العالمية الأولى . ثم تكرر هذا الغزو بصورة قاصمة عقب الغزو الطاغى وغير المبرر من جانب العراق لجارته الكويت حين جاءت أساطيل الحلفاء الغربيين وطيرانهم المحمول فدك أعماق العراق وأجبره على الانسحاب مدحورًا إلى خارج الكويت .

وفوق ذلك فإن الواجهة الجنوبية للعراق كانت واجهته «البحرية» الوحيدة . ولولا وجودها لتغير تاريخ العراق وصلاته الخارجية ، ولكان العراق بلدًا بريًا داخليًا لا يكاد يعرف البحر ونشاطه البحرى فى التجارة والثقافة والحضارة بعامة ، ولولا هذه الواجهة البحرية لانعزل العراق عن جاراته الجنوبيات من بلاد الخليج القريب والبعيد على حد سواء . بل لما كان لحضارات العراق القديمة والوسيطة دورهما التاريخى فى النشاط البحرى وامتداد الاتصال إلى ما وراء البحار .

ولنحاول الآن أن نرسم الصورة العامة للعراق القديم والعراق الحديث بالنسبة لهذا الجزء العتيد من أرض العروبة ، وكيف كان تفاعل العامل الجغرافى والعامل التاريخى نموذجًا طيبًا لتكامل هذين العاملين وتداخلهما فى رسم الشخصية الإقليمية والحضارية للعراق فى حد ذاته ، ثم لكل ما جاوره واتصل به اتصالاً مباشرًا فى البر أو البحر ، بحيث إننا لا نستطيع أن نتفهم دور الجغرافيا فى الأرض العراقية دون الرجوع إلى المعالم الكبرى لمسيرة التاريخ ، والعكس صحيح بالنسبة لتفهم مجرى التاريخ فى هذه البلاد . ولقد رأينا أن العامل الجغرافى قد جمع كلا من أثر البيئة المحلية والموقع الجغرافى ، كما رأينا أن البيئة الجغرافية المحلية للعراق قد أضفت عليه شخصيته الحضارية المركبة المظاهر ، فلم تكن للعراق فى عهده القديم الأول دولة واحدة تشمل أراضيه كلها كما كانت لمصر التى ظهرت فيها الوحدة الشاملة منذ فجر العهد الفرعونى فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد . أما العراق فقد اشتمل على عدد من المناطق الحضارية المستقلة فى سومر وأكاد وبابل وأشور وغيرها من مراكز الاستقرار والسلطة التى تعاقبت على التاريخ ، الواحدة منها تلو الأخرى . وعلى الرغم من أن

كل واحدة من هذه الكيانات الإقليمية القديمة (إن جاز لنا أن نستخدم مثل هذا التعبير) كان لها دورها الخاص فى بناء الشخصية الحضارية التاريخية للعراق ، فإن المهم أنها كانت الأصل فى « تنوع » الطابع الحضارى التاريخى للعراق ، ومثل هذا التكوين المركب يدل من جهة أخرى على «تنوع» المصادر الحضارية الاقليمية ، مما «اثرى» حضارة العراق القديم وجعل منها حضارة جامعة تأثرت بحضارة البادية ، واحتفظت بكل ما اتصل بها من شيم البادية وأهلها ونظمهم الاجتماعية ومعالم ثقافتهم العربية القديمة ، كما كانت حضارة العراق الأوسط جامعة لمعالم الحياة القديمة كما نشأت فى أرض « الرافدين » بكل ما أضفته على الحياة والحضارة من أصالة الطابع السومرى والاكادى ثم البابلى ذى المدنية المتميزة فى مدائنه القديمة . وكانت حضارة الحافة الشرقية للعراق مزيجًا من حياة أهل « السهل » وحياة أهل «الجبل» وإن كان أثر السهل أقدم فى أصوله التاريخية ، وتميز بانتشار المدنية والثقافة من سهل الرافدين إلى شعاب الأودية المتوغلة فى جبال زاجروس وهضابها ، كما حدث مع الحضارة الآشورية . فضلاً عن أن الجبهة الشرقية كانت هى جبهة «التوسع الحضارى » بالنسبة لتاريخ العراق ، وهو التوسع الذى أثمر انتشار الحضارة والفكر الإسلاميين إلى ما وراء هضبة إيران ، وإن كان قد صاحبه كثير من مظاهر الصراع الحضارى ، الذى لا نزال نلمس بعض آثاره فى الوقت الحاضر من تاريخ العراق المعاصر .

وهكذا كان تداخل العوامل الجغرافية المحلية وعوامل الموقع الجغرافى من وراء الدور التاريخى الذى اضطلع به العراق فى صلات العالم العربى بالعالم الإيرانى وعوالم آسيا الداخلية إلى مشارف تركستان والهند والصين جميعًا . بل هكذا كان التكامل بين الجغرافيا والتاريخ من وراء الدور الذى قام به القرن العراقى من الهلال الخصيب خلال العهد العربى الإسلامى ، حين أصبح العراق قاعدة للخلافة العباسية بعد أن دالت دولة الأمويين فى القرن الشامى من الهلالى الخطيب . ولقد بقى العراق لفترة طويلة ، قاعدة للوحدة الرمزية للخلافة الإسلامية ، وذلك على الرغم من قيام قواعد محلية صغيرة لبعض مظاهر سلطة الخلافة العباسية فى بلاد أخرى . ولكن المهم أن الخلافة حين قامت بالعراق ، كانت قاعدة لما حققته

الخلافة الإسلامية من قوة حضارية تمثلت على الخصوص فى تلك النهضة العلمية والفكرية والحضارية التى ترجم العرب خلالها أروع معالم الحضارة اليونانية ، وأضافوا إليها ما أثرى الفكر والعلم والفلسفة جميعًا ، وترك للعالم العربى والإسلامى ، بل وللعالم الأوربى آخر الأمر ، ما جمع للإنسانية بين تراثها اليونانى القديم وبدايات تراث عهد النهضة الأوربية الحديثة .

ولكن ما عِبْرة كل هذا الدور التاريخى لحضارة العراق القديم والوسيط ؟ إنها عبرة يجمل بأن يتذكرها العرب فى يومهم الحاضر . ذلك أن العراق كان بحكم الجغرافيا والتاريخ معًا ، قاعدة العروبة فى المدنية والحضارة والفكر والسياسة والحرب جميعًا . ولكن من الخير فى هذا المقام أن نذكر ما أكده التاريخ فى أن إقامة الوحدة الحضارية الشاملة بين اصقاع العراق كانت على الدوام تستلزم قدرًا كبيرًا وأساسيا من الجهد القومى للربط بين المراكز الحضارية المختلفة والمتفرقة فى أرض العراق . فضلاً عن أن العراق وإن كان فى العهد الإسلامى قد أصبح قاعدة للمذهب السنى (والأمام أبى حنيفة) إلا أنه وقع تحت التأثير الشيعى منذ اتخذ الإمام على وأخلافه واتباعه أرض العراق ملاذًا لهم . ومن هنا قام بالعراق نوع من الثنائية بين السنة والشيعة ، لا يزال أثره باقيًا حتى الآن .

« ١٦ »

أزمة الخليج (١٩٩٠ ـ ١٩٩١) : رؤية جغرافية تحليلية



إزمة الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) : رؤية جغرافية تحليلية (*)

الندوة التى نجتمع من أجلها اليوم هى خاصة بمنظور جغرافى لأزمة الخليج - عشنا كلنا أزمة الخليج وعشنا حرب الخليج ، ولكن المهم هو أن هناك رؤية جغرافية أو منظورا جغرافيا للأحداث المؤسفة التى مررنا بها . هذه الرؤية الجغرافية تنبه لها بعضنا ، فالقى بعض المحاضرات ونشر فى المجلات والصحف أو غير ذلك . انما الشىء الباقى هو أن المنظور الجغرافى لا يتكشف فى العادة إلا بعد أن ينتهى الحدث فى مظاهره الملحوظة لنا - بحيث يكون الحدث قد انتهى ظاهرياً وشكلياً ، ويكون هناك اتفاق على توقف الحرب ومحاولة النظر للاصلاح ، فيما حدث أو اصلاح جانب منه ، ثم بعد ذلك يكون النظر الى المستقبل . ثم ماذا ؟ - وأنا فى الحقيقة لى نصيب فى الندوة محدود لأن النصيب الأكبر سيأتى من جانب طائفة كبيرة من زملائنا الجغرافيين اعضاء الجمعية وأعضاء اتحاد الجغرافيين العرب، سيتحدثون فى هذا الموضوع من وجهات نظر مختلفة - ولكن يهمنى ألا أفوت هذه الفرصة لكى اعطيكم انطباعى ، لا لشىء إلا لأنى عاصرت مقدمات هذه الأزمة قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، ربما بلغت الاربعين أو زادت عليها ، وكانت بعض معالم هذه الأزمة تختمر، وأنا كنت شاهداً عليها، بخلفياتها التى لانستطيع ان ننكرها، بل ولايجوز لمثلى أن يسكت عنها، لأنه وقد شهد العصر وشهد عليه أو أصبح بعبارة أصح «شهيداً» عليه .

(*) هذا حديث عام ارتجله صاحبه عفو الساعة فى ندوة اقامتها الجمعية الجغرافية المصرية فى يومى ٢٣ ، ٢٤ من ابريل ١٩٩١ . وهو ينشر الآن بنصه كما ارتجل ولذلك فإن أسلوبه يختلف بعض الشيء عن أسلوب الكتابة فى سائر فصول الكتاب .

والشهيد هو المشارك فى الأحداث ، أما الشاهد فهو الذى يلحظ الأحداث فقط . أى أن الشهيد يكون له دور إيجابى ، وأنا كنت شهيدا ، أى كان لى دور فى مناقشات كثيرة فى عالمنـا العربـى : فى الكويـت وفى العراق ، وفى الجامعـة العربيـة وفى اجزاء أخرى مـن العالم العـربى لها صلة وثيقـة بأحـداث الخليج . ولا استطيـع أن اسكت لأنى للأسف الشديد بحكم صلاتـى ، قد استدرجت استدراجًا إلى أن يكون لى رأى معلن فى الموضوع الذى انتهى إلى الأزمة . وما دمت قد دخلت فلابد أن أشهد قبل ان يفوت الـوقت والعمـر . من هنـا فانـى استميحكم فى ان الموضـوع كما سأعـالجه أنا سيكون شبه نموذج لإسلوبى الشخصى فى النظر ــ ذلك ان الشىء الواحد ينظر إليه أكثر مـن شخص ، ولكـن كل شخـص له نظـرة ينفذ بها إلى عمـق معين . بحسب خلفيته الفكرية . وفى حـالتى أنا كان نفاذى للأحداث عـن طريقين : الطريق الأول هو نفاذ الدارس العالم المتجـرد ، الذى يدرس الأشياء بطريقة موضوعيـة ، فلا يتأثر ولا ينفعل بـأكثر من اللازم ، وانما ينظـر إلى الحقائق كما هى : المر مر والحلـو حلو ، وإنما المذاق قد يختلف من حالـة إلى حالة . أما الطريق الثانى فهـو أنى عربى مثقف والحمـد لله ، لى حظ مـن الثقـافة ، أو انـى محاول فى مجال الثقافـة العـربية والفكـر العربى . من هنا فانى لا استطيع أن انظر إلى هذه الظاهرة الخطيرة تاريخيا نظرة المؤرخ فقط لأن هذه قد تكـون نظرة موضوعية وليست شخصية ـ انما النـاحية الخاصة بى ، وهى الناحية الفكرية والقومية فى آن واحد ، بل هى ناحية الثقافة وليست ناحية العلم المجرد . واذا كـان العلم لا وطـن له فـان الثقافـة لها وطن : الفكـر الثقافى لـه وطن والثقافة هى السلـوك الشخصى والوطنى بل والقومى معًا . العلـم هو السلوك العام المجرد الذى لا ينحاز ولا يتـأثر بشىء ويزن بميزان معين ، يعنى لا اختلـف فيه عن أى عالم آخر يدرس هـذه الظاهرة . انما عندما آتى من المنظور الثقـافى فلابد ان تكون لى نظرة شخصية تتأثر بعاطفتى ، وتتأثر بتاريخى ، وتتأثر بسلوكى فى الحياة . وسلوك العربـى مختلف عن غيره : سلوك العـربى الأساس فيـه [وهذه نقطة هامـة ينبغى ان اذكرهـا لاننا سنعود إليهـا بعد ذلك عنـدما نحلل الظـاهرة نفسها] . . . العـربى ، خصوصـاً البدوى أو مـن له أصل بـدوى ـ ومعظمنـا لنا أصول بـدوية فى البـادية ـ فالبادية لها تأثير فى انها تجعل من العربى شخصا لا يقبل أمرين أبدا : فهو حر الفكر

والسلوك والعاطفـة ، لا يقبل ابدا أن «يقُاد» ، ولا يقبـل أن «ينقاد» لغيره مهما كان ، فرجل البـادية انسان حر ، بل إن النمـوذج الحق للانسان الحر هو العـربى البدوى . وغيرنا قد ينتحـل الحرية ، وهناك بلاد كثيرة تكـون الحرية فيها مطلبا عـاما بمعنى ان كل النـاس تطمع فيهـا . فى الغرب مثلاً كـل الناس يتصرفـون كاحـرار يستمسكون بـالحرية كحـق مكتسب فى الحيـاة المعاصرة ، ولكـن الحريـة لدى البـدوى العربـى «سجية» ، وأصل من أصول الحياة ، وهذا هو الاصل الذى ورثه العرب عن البادية ، كل منـا ورث نصيبا منهـا : قد يكـون متواضعـا وقد يكـون كبيرا . إنها « الأصل » فى فكرنا هو الحرية ـ والحرية لا «تنقاد» وفى الوقت نفسه إذا كنتَ فى مجتمع لا يقبل احد فيه أن ينقـاد ـ وما دمت لا تقبـل لنفسك ان تنقاد ، فلا يجوز أن تقبـل هذا لغيرك ، وبـالتالى فـلا يجوز أن «تقـود» . . . والذى يقـود فى العالم العـربـى يكون فى العـادة شخصا متأثرا بالعـالم الخارجى : نوازع خارجية تنتهى إلى الدكتاتـورية ، وهى ليست من طبيعة العرب ، حقيقة أنه قد وجد اشخاص دكتاتوريون من عصر إلى عصر أو فى مكان أو آخـر فى العالم العـربى ، ولكـن هؤلاء كـانوا يمثلـون «النشاز» ، أى «حـالة ناشزة» . والذى يطمع فى أن يقود دائماً يكون متأثـرا بعوامل غير عربية ، لأن العربى الحر الذى لا يقبـل لنفسه أن ينقاد لا يجوز أدبياً أن يقبـل ان ينقاد له شخـص آخر ، خصوصـاً إذا كان من بنـى جلدتـه . من هنا فـان فكرة الدكتـاتوريـة فكرة مرفـوضة بالنسبـة للأصـل العربـى . لا أقبلها ، ولا يقبلهـا أى عربـى فى أى ركن مـن أركان الجزيرة وامتداداتها ، خصوصاً بالنسبة لأهل البادية أو من هم من أصل بدوى . ومن المعروف عـن الحكومـات العربيـة أن أهل البـادية يستمسكـون فى العادة بحـريتهم كاملة ، فكل بدوى هو «ملك زمانه» ، ولايكاد يعترف بـالحكومة إلا مجاملاً أو مضطراً أو مسايـراً لرأى القبيلة ، مـن هنا فـان هذه الناحيـة بالذات مهمـة جداً فى تصـورنا للموضوع الذى نتحدث فيه ـ وأحب ان اضيف شيئاً آخر إلى هذا ، وقد درجت عليه أنا شخصياً منذ حوالى أربعين عاماً وبالـذات منذ عام ١٩٣٨ ، عندما كنت أول من درّس موضوع «القومية العربية» فى كلية الآداب (بجـامعة القاهرة) . وفى ذلك الوقت كـان للسفارة البريطـانيـة عيون فى الكليـة ، فبلـغ الخبر السفير البريطـانى فى ذلـك الوقت . وكانـت مصر قد استقلت استقلالها الجديد بمعاهـدة سنة ١٩٣٦ ـ فخشى

السفير أن يكون أمر تدريس القومية العربيـة سببا فى فتنة . فهذا شاب جديد يدرس فى كلية الآداب ، وهو مدرس يتكلم كلامـاً حراً وصريحاً أكثر من اللازم ، بخصوص «الوحـدة العربية» ، فيثير هـذا النوع من الفكـر الذى كان فى ذلـك الوقت فى بـداية جذوره بـالنسبة لتفكير الناس السيـاسى ، وانتهى الأمر بـأن قامت أزمـة بين السفارة البريطانية وبين الحكومة ووصلت إلى مستـوى رئيس الوزراء ، بأن هناك اتجاهات بين الشباب . وكنا قد بدأنا عصراً «جديدا» فى التعاون مـع بريطانيا بعد المعاهدة ـ فهناك اراء جديـدة فيها شىء مـن المساس بـالناحية السيـاسية . وهى تثير شجـوناً سـابقة بالنسة لما مارستـه مصر مثلاً فى أيام إتصالها بالعالم الغربـى وأيام الاستقلال الأول عن الأتراك : الثورة الأولى على الأتراك فى عام ١٨٠٥ حين كان الشعب المصرى هو الذى اختار محمد على لينصبه واليا على مصر . حين لم يرض بأن ينصـب الأتراك واليا على مصر . لقد انتهى ذلـك العصر ـ وكانت تلك بـذوراً جديدة من الفكـر، وكان ذلك الفكر متوارثاً أصـلاً عن الفكر العربى المستقل ، ومنقولاً أصـلاً عن روح «البادية» .
وعلينا أن نذكر أننا دخلنا إلى مصر من الصحارى المجاورة لنا من الشرق : فالغزوات كانت تـأتى بعادات قديمة ولكنهـا تحمل منها إلى وادى النيل الزراعـى المستقر بذور الحياة الرعوية أو حياة البادية ، بكل مـا فيها من شيم وقيم : شيم الحرية والنجدة ، الحرية المطلقـة والفردية . نحن نـؤمن تماماً بما جاء فى القـرآن الكريم من أن كـلاً منا سيأتـى ربه فـرداً ـ فـلا نلقى الله تعـالى جماعات ، بـل ننقلب إليـه أفراداً وهـذه سنة الخليقة : الحرية هى للفرد أساساً والشخصية هى للفرد . نحن مجموعة أفراد : والميزة الكبيرة فى الشعب العربى أنه مجموعة أفراد من الأحرار كل منهم حر ، إذا كان زعيماً فإن الزعيم يُنَصَّب شيخاً بحكم أن الفردية فيه أقوى . ولكن « الفردية » ليس معناها الأنانية ، أبداً ، على العكس : فالفرد هو الذى يضحى لأن التضحية جزء من كيانه ـ هو المستعد لأن يضحـى بحياته من أجـل المجتمع ومن أجل الجماعـة . وفى القبائل الآن هناك الشاب البدوى المستعد لأن يضحى بأى شـىء من أجل القبيلة وليس من أجل نفسه ، فالفردية هنا لا تفهم اطـلاقاً بعيداً عن روح التضحية . الفرد هو الذى يضحى بنفسـه ـ يضحى بـالمال ـ يضحى بـالروح ، بنفسه فى القتـال ، أو يمكن أن يهب حياتـه كلها للعلم مثـلاً إذا كان عالماً أو استاذاً فى الجامعـة ، فحياته كلهـا من

أجل هذا ـ لأمته وليس لمجد شخصــه ، بل إن العالِم الحق بين العرب هو الذى يعمل ويكون عمله فى الدنيا وأجره فى الآخرة ـ أجـر الدنيا هذا للعيش والأجر الحقيقى عند الخالق سبحـانه وتعالى فى الآخـرة . معنى هذا أن الـزعيم عنـدنا كنا نسميـه بصراحة «الزعيم المزعوم» ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الإنسان لا يجوز أن يتزعمه إنسان مثله ، فهو لا يـوجهه إلا الله ، المصـدر الأصلى للخليقة كلهـا . من هنـا كانـت الفكرة أن الزعيم الذى يوجهه الشعب هو أقرب الزعماء إلى الشعب ، والزعيم السياسى لابد ان يراعى الشعب ولا يفرض رأيه عليه ، والحق أن هذه الصفة ظاهرة فى بعض من البلاد العربيـة ، فكان بعض زعمائنا مـن هذا النوع ــ يستجيبون « لواجب القبيلـة » الذى ورثوه عـن البداوة . وعندمـا يأتى زعيم فى العصر الحالى ويقيـم لنفسه قوة وسلطـاناً وسيطرة وجبروتا . . . فإن ذلك لا يكون مـن طبيعة العرب . وإن الشخص الذى لا يقبـل أن ينقاد ويقبـل أن «يقـود» ، هـو شخص خـارج ومنـاقـض لطبيعة العـرب والعروبة . وهذه صورة لا بد ان تكون واضحـة قبل أن نتطرق إلى أزمة الخليج وحرب الخليج وما دار فيها .

وأحب أن أكـرر ـ بعد هذه المقـدمة المتصلة بفلسفـة الموضوع ـ أن حديثى إليكم ليس حـديث معلومـات . إنما هو حديـث «تأملات» ، أنـا أتأمل الأحـداث وآخذ الدرس منهـا ، وأحاول أن أنقلـه إليكم ، فإننـى واحد أفـاء الله عليه بنعمـة أن يرى النور. وإذا هو لم ينقل كل ماعنده يكون قد قصر فى حق الله سبحانه وتعالى ، ويخشى أن يكون حسابه عن ذلك عسيرًا .

فإذا ما عدنا إلى موضوع الندوة ، وهو أزمـة الخليج من منظور جغرافى ، فإننا نجد أن الأزمة تركزت فى منطقة الخليج وامتدادها إلى أرض العراق . وهذه معًا تمثل جبهتنا العربية الشرقية . ويجمل بنا أن نميز فيها بين العـراق الذى جاء منه العدوان من جهة وبين رأس الخليج حيث وقع العدوان على الكويت من جهة أخرى . فأما عن القسم الأول من واجهتنـا الشرقية وهو العـراق ، فقد يكون مـن المفيد أن نلحظ الفـرق بينه وبين منطقة عربية أخرى مشابهة له من الناحيـة الظاهرية والناحية التاريخية ، ولكنها مختلفة عنه فى مسيرتها الحضـارية العامة ، ألا وهى أرض مصر . فـأرض العراق فيها نهران كبيران (بخلاف الروافد) فى حين أن أرض مصر ليس فيها غير نهر واحد .

الطبيعة فى مصر . والنهر وحده عامل كان فى صالحنا ــ فجاء الإنسان وأقام الحضارة . من هنا فان ..ر الانسان مهم جدا فى الحياة . فاذا ما انتقلنا إلى العراق فاننا نجد ان التطور لم يكن كذلك ، كان جريان الماء فى العراق مذبذباً : فيضانًا أقل انتظامًا ، أما الفيضان فى مصر فكان دائماً فى آخر الصيف وكان منتظماً بصورة غريبة : الصيف حار جاف ثم الفيضان فى آخر الصيف بعد انحسار الفيضان فى أول الخريف وهو موسم انبات القمح والشعير ثم يأتى المطر فى ديسمبر ويناير فيغذى هذه النباتات بالماء بعد انحسار الفيضان ، معنى هذا أن هناك تكاملاً بين عناصر البيئة . وقد استفاد الإنسان من ذلك ، إذ دخل فى الدورة بعمله واستكملت الدورة: عناصر طبيعية وعناصر بشرية وقامت الحضارة وقامت الوحدة . لكن العراق ليس كذلك ، فى العراق يأتى الفيضان عندما تذوب الثلوج فى جبال زاجروس وجبال تركيا . عندما يذوب الثلج فى الربيع يأتى الفيضان آخر الربيع أو أول الصيف حين يكون القمح قد قارب النضج فيطغى عليه الفيضان ويدمره . ففيضان العراق مدمر للزراعة ولا يزال مدمراً ومن يدرى فلعل فيضان سيدنا نوح قد حدث فى مثل هذه الأرض أو فى منطقة قريبة منها؟ ، وربما كان الفرات معرضاً للفيضان أكثر لأن سهله منبسط أكثر من سهل دجلة ، فمن هنا كان للفيضان أثره الأكثر تدميرًا . من أجل ذلك قامت الحضارة ولكنها كانت متقطعة فى العراق وليست مستمرة . معنى هذا أن العراق كان أرضًا يصعب فيها انشاء حضارة مستقرة ومستمرة ، بخلاف مصر. فإذا رجعنا إلى العراق فاننا نجد أن الذى تكون فى العراق من حضارات قديمة ليس بحضارة واحدة مثل مصر التى توحدت حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م تقريباً عندما جاء رجال مثل مينا (نامر) وأهل الصعيد ووحدونا ــ لكن العراق ليس كذلك . العراق نشأت فيه حضارات فى الجنوب ، ولم يكن شط العرب موجودًا فى العصر الذى أكلمكم عنه ـ ومن أجل ذلك سمى « شط العرب » ، عندما جاء العرب وعبروا منه إلى عربستان التى هى ليست ايرانية ، والحقيقة أن بادية الكويت وما فى شمال الكويت هى التى عبر منها العرب إلى شط العرب ، وهذه نقطة مهمة من الناحية التاريخية ــ نأتى فى شمال شط العرب فنجد منطقة اسمها «سومر» وكان فيها سكان اسمهم الكلديون وأقاموا بها بلدا اسمه «اور» وغيره . وإلى شمالها حضارة

«أكاد» أو «عقاد». إلى الشمال من «سومر» مستقلة عنها ولها شخصيتها ولا تزال إلى الآن لها شخصيتها ، ثم إلى الشمال من هذه تأتى «بابل» وعندها يقترب النهران أحدهما من الآخر ـ ثم فى الشمال الشرقى «آشور» وهى مركز آخر للحضارة فى التاريخ المتأخر . فهذه حضارات ليست متعاصرة ، وإنما هى « متعاقبة » ، سلسة من الوحدات المتعاقبة . من هنا كان العراق الأوسط (والذى هو العراق الحقيقى) . . . كان هو «أرض الفُرقة» التى تعددت فوقها الحضارات . ولم تعرف الوحدة التاريخية بينها إلا فى العصور التاريخية المتأخرة . .

كانت هذه «الفُرقة» موجودة بصفة خاصة فى هذه المنطقة . فكيف تنتظر من هذه المنطقة العراقية الوسطى أن تنشأ فيها زعامة وقوة «توحد» وهى لم تستطع أن «تتوحد» إلا متأخرًا فى التاريخ ــ والخلاف لا يزال قائماً فى بعض أجزائها : المدن المختلفة ومراكز الحضارة المختلفة فى الكوفة والبصرة وغيرهما كلها حضارات وأفكار غير مترابطة . فلن تكون نموذجاً يرسم الوحدة العربية التى ننشدها فى كل عالمنا العربى . فى الوقت نفسه أدى هذا الشقاق إلى نوع من التعصب أو العصبية الأقليمية بحيث إنه إذاظهر زعيم فإنه ينتسب إلى إقليم واحد من هذه الأقاليم ـ يرتبط به ويتزعم وحدته ، ويكون له عصبية متصلة به . فإذا كان من إقليم معين فى الشرق أو إقليم على حافة الجزء الأوسط ــ فهذا يكون له نوع من التعصب الفردى هناك فى موطنه . ومن هنا نجد أن العراق فى تاريخه الطويل نشأ فيه أفراد لهم زعامات فردية أقليمية . سمها «شعوبية» إذا أردت ، أو سمها «إقليمية» ـ هذه الزعامة أولا تسير على غير المفهوم العربى العام الذى قلته من قبل ، وهو أن العربى الحق لا «ينقاد» ولا «يقود» ـ العربى له شيء آخر انا سميته ــ فى السنوات العشر الأخيرة بصفة خاصة ـ «الريادة» فهو يرود بالمبادئ التى يدعو لها والتى يضحى من أجلها ـ هذه هى «الريادة» ـ المطلوبة فى العالم العربى . وهى ليست «قيادة» ولا «زعامة» ولكن «ريادة» . واذا حاول أى قطر فى العالم العربى أن يتصدى للزعامة . ولو فى العراق كما ظهر أخيراً . فهذا شيء ـ فى تفسيرى أنا ، وفى اسلوبى الذى أتبعه معكم فى تأصيل الوحدة العربية وتأصيل الحياة العربية . . . هذا معناه أن العالم العربى ليس من صالحه أن يسعى وراء «زعامة» أو ينقاد وراء زعامات أو يخلق زعامات قوية فردية من هذا

النوع، انما يسعى إلى ان يحقق «ريادات» . من هنا فعنصر القوة فى الوحدة العربية التى نحن بصددها ليس هو الزعامة وليس القيادة وانما الريادة (بل الريادة الفكرية). فعلماء الأمة العربية ومثقفو الأمة العربية ومفكرو الأمة العربية . . . هؤلاء هم الذين سيبنون عنصر الريادة الذى تسير فيه الأمة العربية نحو أهدافها . والوحدة العربية اذا تحققت فى مستقبل نرجو ألا يكون بعيدًا فهى اما أن تتحقق باسلوب خاطىء وهو أسلوب القوة وهو اسلوب الفرض ، ولن نقبله نحن كعرب ـ فاى واحد تجرى فى عروقه نقطة دم بدوية ترده دائماً إلى أصله البدوى الذى يجعله لا يقبل الانقياد ويرفض القيادة وان كان مستعداً لأن يقبل «الريادة» ـ لاسيما «ريادة التوجيه» . ومن هنا يجئ دور المثقفين ودورنا بالنسبة للأزمة الحالية .

هذا هو التحليل الجغرافى . نتصورولقد تعقدت الأمور أكثر بأن ظهرت هناك ادعاءات تاريخية غير علمية . كأن نتصور ان شط العرب والكويت جزء من العراق، هذا تصور غير مؤصل تاريخياً والتصور الصحيح هو أن هذه المنطقة لا كانت خارج العراق فى التاريخ القديم ، شط العرب ورأس الخليج عُمرا أساساً بعناصر بدوية قادمة من الصحراء . واذا كان هناك من يدعى لنفسه مثل هذا الحق فان أهل البادية أولى بأن يكون لهم هذا الحق . بل انه قد يكون حقاً شارك فيه غيرنا بعض المشاركة . فأول تعمير قديم لرأس الخليج كان على يد تجار وملاحين من اليونان . ولعلكم ستستغربون لهذا الكلام ، ولكن اليونان ورثوا النشاط الفينيقى . والفينيقيون ، انفسهم اما انهم بدءوا فى شواطىء الخليج وامتدوا إلى البحر الأبيض أو بدءووا فى البحر المتوسط وامتدوا إلى الخليج ، وكونوا علاقات مع شواطىء الخليج ، انما من جاء بعدهم فى هذا الموقع لم يكونوا عربا خالصين وانما كانوا هم الاغريق الذين اختلطوا بالعرب ، وذهبوا إلى منطقة المدينة التى تسمى الآن «خرم شهر» ــ واسمها العربى «المحمرة» ـ واسمها قبل ذلك «شاراكس سبازينو» . وقد انشأها اليونان ، وكان لليونانيين أيضاً نشاط مختلط بالعرب فى جزيرة « فيلكة » وهى اقدم فى العمران من الكويت نفسها . واختلط اليونان هناك ببعض العناصر العربية التى جاءت من البادية وكان ذلك على الشاطىء وفى بعض الجزر وهى هذا نشاط تاريخى لا نستطيع أن ننكره وما زالت الآثار موجودة فى «فيلكه» . أنا اعرف الكويت منذ عام ١٩٥٣

وكنت دائماً أحـرص على زيارة فيلكـة ـ اذكـر نفسى بالتـاريخ العـربى الاقـدم الذى اختلطنا فيـه بعناصر حضـارية . أقـدم منها ، والميـزة الكبرى للحضارة العـربية انها حضارة متعاونة مع غيرها ـ ليست لـديها مركبات نقص ، لا تستنكف أن تقتبس من الخارج ، حتى ألفاظ اللغـة العربية فيها مثل هـذا والعربى لا يستنكف أن يـأخذ من غيره فى غير حرج ، وهو يعطـى غيره من غير منّ ويأخذ عـن غيره من غير وجل وفى غير شعور بمركـب النقص ـ وفوق كل هـذا ربما كان الإنسان الوحيـد الذى سما فوق الشعور بمركب النقص هو الانسان العربى ، خصوصاً الإنسان العربى المسلم الذى وصل إلى الإسـلام ، لأن هذه الأصول كلهـا عربـت وقننت فى الشريعة الإسـلامية ـ أصبحت قـواعد مؤسسـة فى حياتنا . وإذا كنـا نخرج عنهـا من وقت لآخـر ، فهذا خروج على طبيعتنا . من هنا فان ذكر هذه الأشياء كلها يذكرنا بالحقائق التاريخية التى يجب أن نذكرها .

وبهذا الشكل ننتقـل من منطقة العراق إلى منطقـة الخليج ، المنطقة الثانيـة ، وهى التى حدث عليها العدوان ـ ولا تصدقوا أن الخطة كـانت بالنسبة للكويت وحدها ، فأنا عـاصرت هذه المرحلة منذ سنوات طـويلة ـ منذ أوائل الخمسينيـات وعشت هذه التجـربة مـع الحضارة والحيـاة العـربية فى الكـويـت ، والحضارة والحيـاة العربيـة فى العراق ، ليس مع الافراد فقط . وأنا سعدت بعـلاقة طيبة مع اخواننا العرب جميعًا ، إنما نحن فى هذا ينبغـى ان نعود بصدق وصراحة إلى أصولنا . ولا ينسينـا هذا سجيتنا العربية . يبدو ان الخطة كانت ستمتد إلى الظهران وإلى مناطق البترول ، بل وربما إلى أطراف اليمن ولقـد كانت هناك صلة قـديمة جدا بين عمان والعراق ـــ والعمانيون هم ناقلون للفكر والحضارة للخارج . هؤلاء هم الـذين نقلوا الفكر العربى الاسلامى إلى شرق إفريقية والذين نقلوه أيضاً إلى الهند وانـدونيسيا ، وإنما شرق إفريقيه أساساً كان مجال حركتهم . لاشـك أن العراق كان سيستغل هذا الموقف كلـه لينتقل منه إلى شرق الجزيرة العربية وإلى المحيط الهندى ـ انما العيب فى أن الإنسان يجب أن يعلم قدر قوته واقعياً . . . ما هى قدرته؟ هـل أنت تستطيع أن تتحكم فى موارد البترول فى العالم ؟ ـ بعـض هذه الأفكـار متخلفـة عن زمنهـا ، فكـرة التـوسع هـذه لـو أنها جاءت مـن ٢٠٠سنة أو ١٥٠ سنة ، قبل أن تظهر قيمة البترول ، فيمكن أنها كانت تنجح . إنما

هى لا يمكن أن تنجح الآن ــ بعد أن ظهرت مصالح مستقرة بـالنسبة للبترول الذى أصبح هو أساس القوة العسكرية . ولقد كـان الإنجليز أول من أنتبه لذلك . فسفن الأسطول بـدلا من أن تحمـل الفحم بكميـات ضخمة ، تحمـل الآن بترولا بكميات تكفى فترة أطول ، وتزود نفسها بالبترول من سفن فى البحر تقترب من السفن الحربية وتزودها بـالبترول فى سهوله . والبترول الآن تقوم عليه الصناعـات فى أوروبا . فكيف اغفل عـن كل هـذا وادخل فى عملية عسكـرية كهـذه . واسلحتى مستـوردة وكلها مشتراة لا تصنع هنا . يجب اذن أن نفهم العصر ، ونفكـر على مستوى العصر . لقد كاد هـذا التفكير أن يكلفنا الكثير والكثير ، بل إنـه كاد أن يكلفنـا الكويت ــ وهي جوهرة بنينـاها بمجهود أكثر مـن ٤٠ سنة من عمل العـرب . ولا نستطيع فى العصر الذى نعيش فيه أن نتصور أن نقيم الحضارة ونوجه التاريخ وحدنا مستقلين عن غيرنا ـ لأننا لا ننفـرد بالموقف . هذا الموقف أدركتـه مصر منذ قديم . لأن مصر كـانت قد أدركت منذ أيام الاسكنـدر أنها لا تملك مصيرها وحدها . وأول حرب عـالمية ظهرت هى حرب الاسكندر وقبل ذلك كانت مصر مـركزاً حضارياً وكان الشرق الأدنى مركزاً حضاريـا وكانت اليـونان مركـزاً حضارياً آخـر ـ وكان شرق إفـريقية مركـزاً آخر وإلى الشرق من ذلـك كانـت إيران مـركز حضارة ــ والهند مـركز حضـارة ـ والصين مـركز حضارة ـ وتركيا مركزاً مستقلاً . وكانت الصلات بين هذه المراكز أن كل مجموعة تتصل بما جاورها فقط ـ اقصى ما حدث مـن حروب قديمة عندما كانت الحروب بين مصر والفرس فجاء قمبيز هنـا ـ ومع ذلك استطعنا بمعونة الصحـراء أن ندفن جيشه تحت رمال الصحراء ، لأننا كنا عند نهاية المشوار مـن إيران إلى حدود مصر الغربية فانقطع «نَفَسُهم» ، كما يقال . . . هكذا كانت الاتصالات القديمة . مناطق متجاورة يتصل بعضها ببعض بحكم الجوار . أما فى العصر الحديث فالأمر ليس كذلك . ونذكر أنه عندمـا جاء الاسكنـدر عبر من اليونـان إلى آسيا الصغـرى ثم إلى الشـام ثم إلى مصر ووصل إلى حدود ليبيا (سيـوة) ـ ثم عاد شرقاً إلى إيران وتركستـان والهند ووصل حدود الصين ، فاحتكـت كل هـذه المناطق بعضهـا ببعض ، فكـانت صحـوة . هى أول صحوة عالميـة فى التاريخ . وانقسم تاريخ مصر بعـد ذلك قسمين كبيرين هما عصر مصر الفـرعـونية . والعصر اليـونـانـى والـرومـاني والعصر الاسلامـى بعـد ذلـك .

وانعكست صورة ذلـك على تاريخ الشرق العربى كلـه . وحتى فى عصرنا الحاضر ، فان العـرب لا يستطيعون أن يعتبروا المشكلة عـربية / عربيـة وفقط ، فهناك عـالم له مصالـح ومصالـح حيويـة وهو مستعـد لأن يحارب من أجلهـا . والذيـن ساعـدونا ساعدونا لسببين : السبب الأول أننا طلبنا ذلك والسبب الثانى أن مصالحهم تقتضى ذلك . ولو لم نكن قد دعوناهم لكانت المصالح قد أتت بهم إلى موقعنا .

بهذا الشكل اعتقـد اننى درت حول الموضـوع ولكننى لم اذكـر معلومات بقـدر ما سردت لكم بعض الانطباعـات فى الجغرافيا العامة . ونحن هنـا فى هذه الجمعية بل وفى اتحاد الجغرافيين العرب نكون مدرسة متكاملة ، ليس فيها نشاز فى الفكر الجغرافي العربى .

نحن نحس ان علـم اجغرافيا هو أقـرب العلوم إلى الفكر الإنسانـى ، وهو الذى يجمع بين العلـم والثقافـة ، ففيه كـلام يميز بين «الصـواب والخطأ» وكـلام يميز بين «الحق والباطل» . نحن فى هذه المدرسة وهذه الندوة مطلوب منا أن نقلب أوجه الأمر بالنسبة للمنظور الجغرافى لأزمة الخليج ــ والصورة التى سننتهى إليها ستنشر ويقرؤها الناس وأرجو أن يقرأها الساسة فى البلاد العربية كلها .

ونحن فى ذلك كله طـلاب «ريادة» ونرجو أن يكون الساسة فى العـالم العربى كله طلاب «ريـادة» لا طلاب «زعامـة» ولا طلاب «قيادة» ولا طـلاب «راى مفروض» ـ فالشعب العربى لا يحب أن «يقاد» وانما يرحب دائماً بأن «يراد» إلى سبيل الحق وسبيل الخير . والله يوفقنا جميعا ويسدد على درب التاريخ خطانا .



« ١٧ »

فى بلاد اليمن السعيد



فى بلاد اليمن السعيد (*)

يعرف الناس عن بلاد العرب أنها بلاد صحراوية جافة ، يندر بها المطر ولا ينتظم سقوطه ، وتقل فيها النباتات ، ويصعب استنباتها إلا حول العيون والآبار ، ويشتغل أهلها بالرعى والانتقال وراء الابل والأنعام ، سعياً إلى مواطن الكلأ والمرعى ، ويعمل فريق منهم فى النقل التجارى على طرق القوافل ، حيث تتباعد المسافات ، ويشق السفر والانتقال إلا على الجمال مع حداتها من رجال البادية الأشداء . والصورة العامة التى تحضر الذهن عندما نسمع اسم الجزيرة العربية أنها بيداء شاسعة ، تنتشر مواطن الكلأ لاسيما فى بطون أوديتها ، ولا تثمر تربتها الرملية غير النخيل وقليل من الحب أو الثمر ، ويعيش أهلها عيشة البدو والأعراب ، في بيوت من الشعر أعدت لينتقل بها أصحابها خفيفة فوق ظهور الجمال ، ولا تستقر الحياة فيها ولا تتركز إلا فى واحات قليلة هنا وهناك .

ولكن الذى يدرس الجزيرة العربية يجد أن هذه الصورة لا تصدق إلا على مناطق معينة من تلك البلاد الشاسعة . وهى تصدق بصفة خاصة على المناطق الداخلية والوسطى من شبه الجزيرة . أما فى الشمال فهناك ما يعرف بالهلال الخصيب ، وقد اشتهر بأنه موطن المدنية المستقرة منذ أقدم العصور ، ويشمل بلاد العراق والشام بمعناهما الأوسع . وأما فى الجنوب فهناك عمان وحضرموت واليمن ، وكلها من مواطن المدنية والاستقرار القديم . واليمن وحياة أهلها هى موضوع هذا المبحث .

ولابد لنا إن نحن أردنا أن نتفهم الحياة فى بلاد اليمن من أن نستعرض شيئا عن ظروفها الجغرافية العامة . فالبيئة الجغرافية كما نعرف هى مسرح النشاط البشرى .

(*) هذا مبحث فى الجغرافيا التاريخية والمقصود «باليمن السعيد» هو ما أطلق عليه كتاب الرومان Arabia Felix أو بلاد العرب السعيدة وهو ما يعرف الآن باليمن الشمالى أو الجمهورية العربية اليمنية قبل ان تتوحد مع اليمن الجنوبية (عدن والمحميات سابقا) .

وكثيراً ما تتكيف حياة الناس وأعمالهم بظروف هذا المسرح الطبيعى . ولذلك وجب علينا أن نشير إلى عوامل البيئة الأساسية التى أثرت ، ولا تزال تؤثر فى حياة الناس وتاريخهم فى ذلك الركن من الجزيرة العربية .

وتختلف بلاد اليمن عن بقية البلاد العربية بأمور أساسية . أولها أنها هضبة عالية تسببت فى الأصل عن انكسار البحر الأحمر وارتفاع حافتيه فى بلاد العرب من جهة ، وفى الحبشة وشمال شرق إفريقية من جهة أخرى . وكان الارتفاع ظاهراً فى بلاد اليمن بصفة خاصة ؛ لأن السطح أضيفت إليه طبقات من اللابة (اللافا) والتكوينات البركانية ، التى زادت من سمك الطبقات وارتفاعها . ويتراوح متوسط ارتفاع هضبة اليمن العليا بين ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ متر ، وإن كانت بعض جهاتها ، كمنطقة جبل النبى شعيب الواقعة إلى الغرب من صنعاء ، تزيد على ٣٥٠٠ متر ؛ وربما كان هذا الجبل أعلى القمم فى بلاد العرب كلها ما عدا بعض الجبال غير المعروفة فى بلاد عسير ؟ وقد ترتب على ارتفاع بلاد اليمن أن امتازت بمناخها المعتدل ، رغم أنها تقع فى منطقة حارة . فضلاً عن أن هذا الارتفاع أدى إلى ازدياد الأمطار الموسمية الصيفية ، التى تزيد فى بعض جهات الهضبة ، لاسيما ركنها الجنوبى الغربى ، على أكثر من ٥٠سنتميتراً فى العام ، ولا تقل على الجملة فى مختلف جهات الهضبة العليا عن ٤٠سنتيمتراً ؛ وهو قدر يكاد يوازى عشر أمثال متوسط الأمطار فى الجهات الصحراوية الحارة من شبه الجزيرة ؛ بل هو قدر يكفى لنمو النباتات والأشجار التى تكسو معظم الهضبة ، ما عدا أطرافها الشرقية الداخلية ، حيث يقل المطر ، وما عدا منطقة تهامة ، وهى سهل ساحلى ضيق يمتد على طول شاطىء البحر الأحمر، ويختلف فى مظهره الطبيعى وحياة سكانه عن الهضبة اليمنية بالمعنى الصحيح .

وهناك عامل جغرافى آخر ميز اليمن السعيد عن غيره من جهات الجزيرة العربية ، وذلك أن معظم صخوره من المواد البركانية التى تسربت من باطن الأرض فى شقوق عدة حتى بلغت السطح فغطته بطبقات سميكة (مما يسميه الجيولوجيون باللابة الغطائية) ؛ أو التى ظهر بعضها فى هيئة براكين مخروطية الشكل تكونت فى آخر الأعصر الجيولوجية ، ولم يزل بعضها ثائراً مضطرباً حتى خلال العصر التاريخى . ولقد تفتتت هذه المواد البركانية بفعل العوامل الجوية والأمطار ، فكونت تربة صالحة

للزرع والانبات ، بل صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية النبات بها ، حتى بعد أن ينقضى موسم المطر . وتلك التربة الغنية تشبه التربة التى توجد فى الجهات المقابلة من الهضبة الحبشية ؛ بل تشبه إلى حد ما التربة الغنية التى يجلبها النيل إلى مصر ، وفى ذلك يمتاز اليمن عن معظم البلاد العربية ، حيث تسود التربة الرملية أو الجيرية أو التربة المتبلورة الجرداء ، ما عدا مناطق قليلة هنا وهناك .

فخصب اليمن السعيد وإيناعه وغناه بالنبات والخضرة والخيرات الزراعية يرجع إلى ارتفاعه وكثرة أمطاره وتربته الصالحة . وتلك كلها قد جعلت منه «بلاد العرب السعيدة» كما كان يسميه قدماء الكتاب من الجغرافيين فى عهد اليونان والرومان . ولقد ساعد على تميزه بصفة خاصة سقوط أمطاره فى الصيف أى فى الفصل الذى يشتد فيه القيظ وتقسو الطبيعة على ما قد يكون بالأرض من نبات ، فيأتى المطر ليسعف النبات بالماء فى الوقت المناسب ؛ وذلك بخلاف الحال فى شمال بلاد العرب مثلا حيث تسقط الأمطار فى أشهر الشتاء ، ويمتاز الصيف بارتفاع الحرارة واشتداد الجفاف فى آن واحد . فضلاً عن أن التربة فى بلاد اليمن كانت كما ذكرنا من النوع الذى يحتفظ بالرطوبة ، ويختزنها بين ذراته من فصل إلى فصل . ولذلك لم يكن غريباً أن يمتاز هذا الركن المطير الخصيب من الجزيرة العربية بأنه كان موطن حياة زراعية مستقرة منذ أقدم العصور ، تختلف عن تلك الحياة الرعوية المتنقلة ، والتى عرفت عن معظم أنحاء الجزيرة العربية . بل لم يكن غريباً أن يصبح اليمن موطناً للحضارات والمدنيات القديمة والمستقرة ؛ والتى عرفت منها حتى الآن الحضارات المعينية والسبئية والحميرية . وقد استمرت كلها خلال ما يقرب من ألف وخمسمائة سنة قبل أن يظهر الاسلام ؛ كما بقى اليمن خلال العهد الاسلامى موطنا لحياة متقدمة ، ومدنية لا تقل عما نعرفه من بقية العالم الاسلامى العربى الشمالى . وتابع اليمنيون حياتهم ونشاطهم فى استغلال بيئتهم وتربة أراضيهم ؛ فاستقروا على سفوح الجبال ، وانشأوا على منحدراتها مدرجات منتظمة تحفظ التربة وتمنع الأمطار من أن تجرفها فى انحدارها إلى الأودية ، وغرسوا أشجار البن والفاكهة ونباتات الحبوب المختلفة التى أهمها القمح والشعير والذرة ؛ وارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطاً قوياً ، واستقرت كل قبيلة من قبائلهم فى بقعة من الأرض تفلح تربتها وتستمسك بها

وتتخذها موطناً ومستقراً . وبذلك كله امتازت حياة اليمنيين على مدى العصور بأنها كانت حياة مستوطنة مستقرة ، بل كانت حياة قرى وحضر أكثر مما هى حياة رعى وتنقل وارتحال .

وكان هناك عامل جغرافى آخر ميز الحياة فى بلاد اليمن ؛ ذلك هو موقعها الجغرافى فى ركن من الجزيرة العربية ، تحيط به الصحارى والمناطق الجافة الوعرة فى الشرق (والشمال الشرقى) ، أى فى اتجاه صحراء الربع الخالى ، حيث الرمال والكثبان والأرض الوعرة الجرداء ؛ وفى الشمال أى فى اتجاه بلاد عسير والحجاز ، حيث تسود الصخور البلورية القديمة وتقل الأمطار كلما اتجهنا بعيداً عن الركن اليمنى . ولقد ساعد موقع بلاد اليمن واختلافها عما جاورها من أرض الجزيرة على أن تحتفظ تلك البلاد بطابع وكيان خاص . فضلاً عن أن وقوعها فى أقصى الجنوب الغربى ، وفى مواجهة بلاد الحبشة وشرق إفريقية قد وجهها توجيهاً خاصاً ، فاتصلت حياتها بالبحر الأحمر وتجارته منذ أقدم العصور . وكانت تؤلف جزءاً مما نسميه بلاد « بونت » ، وهى البلاد القديمة التى اتصل بها قدماء المصريين ، والتى يرى الباحثون أنها تشمل إلى جانب بلاد اليمن بلاد الحبشة والصومال . ولقد توثقت الصلات القديمة بين اليمن وشواطىء أرتريا والحبشة . والثابت الآن أن كثيراً من عناصر اليمن القديمة قد هاجرت إلى شرق إفريقية واستقرت هناك ؛ وأن الساميين القدماء إنما هاجروا إلى الحبشة وسكنوها عن طريق بلاد اليمن وباب المندب ؛ وأن بعض ملوك اليمن الأقدمين لاسيما فى العهد الحميرى قد وسعوا ملكهم فى الشواطىء الافريقية المقابلة ؛ كما أن الأحباش بعد ذلك غزوا اليمن واستقروا فيه حيناً قبل أن يظهر الاسلام . ولاتزال صلات التجارة والثقافة والمهاجرة قوية بين الشواطىء اليمنية والافريقية على جانبى البحر الأحمر وخليج عدن .

كذلك تمثلت قيمة الموقع الجغرافى لبلاد اليمن فى أنها كانت تشرف على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وعلى الصلات البحرية التى تربط بين أهل الشمال والبحر المتوسط والمناطق المعتدلة من جهة ، وأهل البحر الأحمر وبحر العرب وما يليهما من المحيط الهندى والمناطق الحارة من جهة أخرى . وكان ذلك الموقع مصدر خير لليمن وموانيه القديمة فى الأعصر التى كان اليمن فيها قوياً ، فخرج ملاحوه إلى البحار

ونقلوا المتاجر بين الشرق والغرب ، وأفاد اليمن من ذلك إلى حد كبير ، كما حدث فى أواخر العهد الاغريقى الرومانى ، وفى بعض أدوار العهد الاسلامى . ولكن هذا الموقع نفسه كان مصدر بلاء فى أعصر ضعف اليمن ، عندما طمع العالم الخارجى فيه أو فى بعض موانيه على الأقل . ولقد حاول الرومان أنفسهم أن يغزوا قلب اليمن ؛ ولكنها كانت غزوة قصيرة محدودة النجاح . كما طمع الغزاة فى بعض الموانى والنقط الساحلية فى الأعصر القديمة والحديثة على حد سواء . وكان آخر الأمثلة استقرار البريطانيين فى عدن ؛ لأنها تقع على طريق الهند وتصلح قاعدة للأسطول فى تحكمه وحمايته لطرق التجارة مع الهند من جهة ، ومع شرق إفريقيه من جهة أخرى . كذلك طمع البريطانيون واستقروا فى بعض الجزر الهامة التى تواجه سواحل اليمن وأهمها جزيرة بريم . كما طمع الفرنسيون فى نقطة الشيخ سعيد الواقعة فى ركن باب المندب اليمنى بالذات .

إلى هذه العوامل الجغرافية المختلفة ، والتى لم يكن الموقع الجغرافى إلا واحداً منها ، نستطيع أن نرجع ما امتازت به بلاد اليمن عن بقية الأقطار العربية من أنها لم تكن صحراء ولا منطقة بدو ورعاة ، وإنما كانت هضبة عالية ، غزيرة الأمطار الصيفية غنية التربة ، مكسوة بالنباتات الطبيعية والمزروعة ، يعيش أهلها عيشة الاستقرار يفلحون الأرض وينشئون المدنيات العريقة المستقرة ، ويشرفون من هضبتهم وموانيهم على طرق النقل والتجارة ، ويهاجر ملاحوهم بعيداً عن بلادهم ، ينقلون معهم ثقافتهم السامية أول الأمر ، ثم ثقافتهم العربية الاسلامية بعد ذلك ، إلى شرق إفريقية أو إلى بلاد نائية بعيدة فى الشرق الآسيوى الأقصى .

على أن هذه العوامل الجغرافية قد ميزت بلاد اليمن من ناحية أخرى ، فأعطتها طابعاً خاصاً من الحياة ، يختلف عما نراه فى بقية أرض الجزيرة ، بل أضفت عليها شخصية إقليمية متميزة ، تمثلت على الخصوص فى ميدان الثقافة . وهى الشخصية التى احتفظ بها اليمن حتى بعد أن دخل إليه الاسلام ، وبعد أن صار للجزيرة العربية كلها دين واحد ولغة واحدة وثقافة موحدة إلى حد كبير . وليس من شك الآن فى أن اليمن قد استطاع بموارده العظيمة وتراثه العريق فى الثقافة أن يؤثر فى بناء الثقافة الإسلامية نفسها قبيل ظهور الإسلام وبعده . ولكن اليمن وقد أعطى بلاد

العرب ما أعطى من ألوان الثقافة قبل أن يظهر الإسلام ، أبى فى العهد الإسلامى إلا أن يحتفظ بحياته الخاصة ، وشخصيته التى كانت فى واقع الأمر مشتقة من بيئته الجغرافية المميزة ، ومدنيته التى ارتبطت منذ أقدم العصور بتلك البيئة . ولذلك فإن اليمن قد استطاع بموارده العظيمة وتراثه العريق فى الثقافة أن يؤثر فى بناء الثقافة الإسلامية نفسها قبيل ظهور الإسلام وبعده . ولكن اليمن وقد أعطى بلاد العرب ما أعطى من ألوان الثقافة قبل أن يظهر الإسلام ، أبى فى العهد الإسلامى إلا أن يحتفظ بحياته الخاصة ، وشخصيته التى كانت فى واقع الأمر مشتقة من بيئته الجغرافية المميزة ، ومدنيته التى ارتبطت منذ أقدم العصور بتلك البيئة . ولذلك فإن اليمن لم يلبث أن أصبح قاعدة لجماعة الزيديين ومذهبهم الذى اشتق فى الأصل من المذهب الشيعى ، ولكنه سرعان ما اتخذ صبغته الاقليمية الظاهرة ، فأصبح يميز حياة اليمنيين ومذهبهم فى الدين والسياسة حتى يومنا الحاضر .

ولقد نشأ المذهب الزيدى أول ما نشأ فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، أى فى أيام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأسس مذهبه الذى ينتسب إليه أتباعه الزيديون حتى الآن . وقد توفى فى عام ١٢٢ الهجرى ، وخلفه مع فترات انقطاع ، عدد متلاحق فى الأئمة من أهل الشيعة والزيود من سلالة على رضى الله عنه . واختار أغلب هؤلاء الأئمة بلاد اليمن مقاماً لهم حتى تركز المذهب وأتباعه فى بلاد اليمن ، واقتصر عليها بالتدريج ، وأصبح الزيود فى الهضبة اليمنية يختارون إمامهم ويبايعونه ، كما تقضى به الشريعة الاسلامية ، وكما جرى عليه العمل فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويركزون فى يديه السلطتين الروحية والمدنية . ولا يزال العمل جارياً على هذا التقليد فى هضبة اليمن العليا حتى الآن .

وقد انتشر المذهب الزيدى فى بلاد اليمن ، لاسيما المناطق الجبلية العالية منها . ويتبعه الآن أكثر من مليونين ونصف مليون من سكان اليمن الذين يبلغون حوالى أربعة ملايين أو أكثر . ويتركز الزيود وتشتد عصبيتهم لمذهبهم فى الجهات الجبلية ، لاسيما فى شمال اليمن وقلبه . ولكن الزيود أقل تركزاً وأقل استمساكاً بمذهبهم كلما اتجهنا نحو الشرق أو الغرب أو الجنوب . ويتبع باقى سكان غرب اليمن ، ويقدرون بأكثر من بنحو نصف مليون أو أقل ، المذاهب السنية ، وأهمها مذهب الإمام

الشافعى ، الذى ينتشر على الخصوص فى منطقة تهامة المنخفضة ، التى تقع على ساحل البحر الأحمر بما فيه ميناء الحديدة ، كما يوجد أيضاً فى بعض أطراف اليمن الجنوبية الشرقية . وذلك كله بخلاف سكان اليمن الجنوبى (عدن وحضر موت) .

على أن الشىء المهم والطريف أن اختلاف الهضبة اليمنية وتميزها من بقية الجزيرة العربية فى الحياة والفكر والثقافة والدين كان فيها يبدو صورة منعكسة من تميزها واختلافها من الناحية الجغرافية الطبيعية ؛ ذلك الاختلاف الذى امتدت آثاره وبرزت نتائجه واضحة جلية فى حياة اليمن فى العهد الحديث . فقد امتد سلطان الخلافة العثمانية إلى المشرق العربى كله ، ولكنه كان فى اليمن ضعيفاً متضائلاً ، رغم ما امتازت به تلك البلاد من غنى وثروة وجودة فى الطبيعة والمناخ . ولقد بقيت سلطة الخلافة العثمانية اسمية على اليمن ، وكان ذلك بالطبع راجعاً إلى بعد تلك البلاد وصعوبة الوصول إليها عن طريق الحجاز البرى الشاق ، أو عن طريق البحر الأحمر الذى لا تملك تركيا القوة البحرية للاشراف عليه ؛ ولكنه كان راجعاً أيضاً إلى نفور أهل اليمن وهضبته من نظام الخلافة السنى ، واستمساكهم بنظامهم الزيدى بل اعتزازهم به . وقد احتفظ أهل اليمن خلال العهد التركى بامامهم الخاص ، وإن كان نفوذه لم يتعد الناحية الروحية ، وبعض شؤون الدنيا فى جهات خاصة ومحدودة من هضبة اليمن . وقصة كفاح الإمام يحيى بن حميد الدين هى صورة مصغرة من كفاح اليمن ليحتفظ بكيانه وشخصيته المميزة ، بل ليحتفظ باستقلاله وليسير على طريقته الخاصة مهما اختلف فى ذلك عن بقية أجزاء العالم العربى وأقطاره . وقد ولد الإمام فى صنعاء سنة ١٢٨٦ هجرية ، وأخذ فنون العلم والدين بتلك المدينة حتى اضطر أن يهجرها مع والده الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى فى سنة ١٣٠٧ هجرية . ولما توفى المنصور بالله فى سنة ١٣٢٢ هجرية بايع العلماء الإمام يحيى ، واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين الإمام المتوكل على الله رب العالمين يحيى بن حميد الدين . وكانت مبايعة الإمام يحيى فى ظروف تحفزه إلى أن يتزعم الحركة الدينية والقومية فى البلاد ضد الأتراك ونظامهم فى الخلافة والحكم . فلم يلبث أن ألب القبائل وجمعها من حوله ، وناصب الأتراك العداء ، واستطاع سريعاً أن يدخل صنعاء بالذات وأن يستقر بها إلى حين ، واضطر الأتراك إلى أن ينقلوا مركز قوتهم ومعسكرهم وسلطانهم إلى قلعة مناخه فى

الجبال الواقعة إلى الغرب من صنعاء . على أن الأتراك ما لبثوا أن جمعوا قواتهم وأخرجوا الإمام من صنعاء ، فتراجع نحو الشمال واتخذ مركزه وقاعدته بين الجبال لاسيما حول صَعْدَة فى شمال اليمن . حتى إذا ما شبت الحرب العالمية الأولى ، وشغل الأتراك بكفاحهم فى الشمال من جهة ، وانقطعت مواصلاتهم فى قلب الجزيرة وفى البحر الأحمر الذى يشرف عليه البريطانيون من جهة أخرى ، نجح الإمام وأتباعه من الزيود فى أن يدخلوا صنعاء مرة أخرى فى عام ١٣٣٧ الهجرى أى فى أواخر تلك الحرب . ومنذ ذلك الحين مهدت السبيل لأن يستتب الأمر بالتدريج للإمام وقواته فى المناطق الجبلية والداخلية ، حيث يسود المذهب الزيدى ، ثم فى المنطقة الساحلية حيث يسود المذهب الشافعى .

ومع ذلك يمكننا أن نقسم جهاد الإمام يحيى بن حميد الدين فى سبيل إقامة دولة اليمن الحديثة إلى مراحل ثلاث : أولاها مرحلة الكفاح ضد الأتراك ، وقد بدأت بتولية الإمام يحيى فى أوائل القرن الحالى ، واستمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى . . وكان ختامها أن طرد الأتراك وحل الإمام محلهم على رأس السلطة المدنية المركزية فى صنعاء . ولكن الشيء الطريف أن جهاد اليمن فى هذه المرحلة كان جهاداً قائما بذاته ، ومستقلاً إلى حد ظاهر عن جهاد بقية الأقطار العربية ضد سلطان الأتراك ، وفى ذلك صورة منعكسة من شخصية اليمن ومقوماتها الجغرافية التى أشرنا إليها . والمرحلة الثانية فى الجهاد هى التى قضاها الإمام ورجاله ومعاونوه فى توحيد البلاد داخلياً والقضاء على العناصر النافرة والقبائل التى اعتادت الفوضى والتى أفسدت وحدتها نظم الحكم أيام الأتراك . وقد استمرت هذه المرحلة قرابة خمسة عشر عاما ، جاءت فى أعقابها المرحلة الثالثة التى أراد فيها الإمام أن يجدد مملكته ، وأن ينظم علاقاته بالعالم الخارجى ، ولكن فى أضيق نطاق ممكن . وكان الإمام فى هذه المرحلة ممثلاً صادقا لروح اليمن الذى عاش أهله أجيالاً متلاحقة خلال العهد التركى بمعزل عن العالم ، بما فى ذلك البلاد الإسلامية العربية نفسها . وكان طبيعيا مع ذلك أن يحتك الإمام الراحل أول ما احتك ببريطانيا التى كانت قد وطدت أقدامها خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على سواحل بلاد العرب الجنوبية ، واتخذت عدن قاعدة لأسطولها وميناء لسفنها التى تجرى بالتجارة بينها وبين الهند وشرق

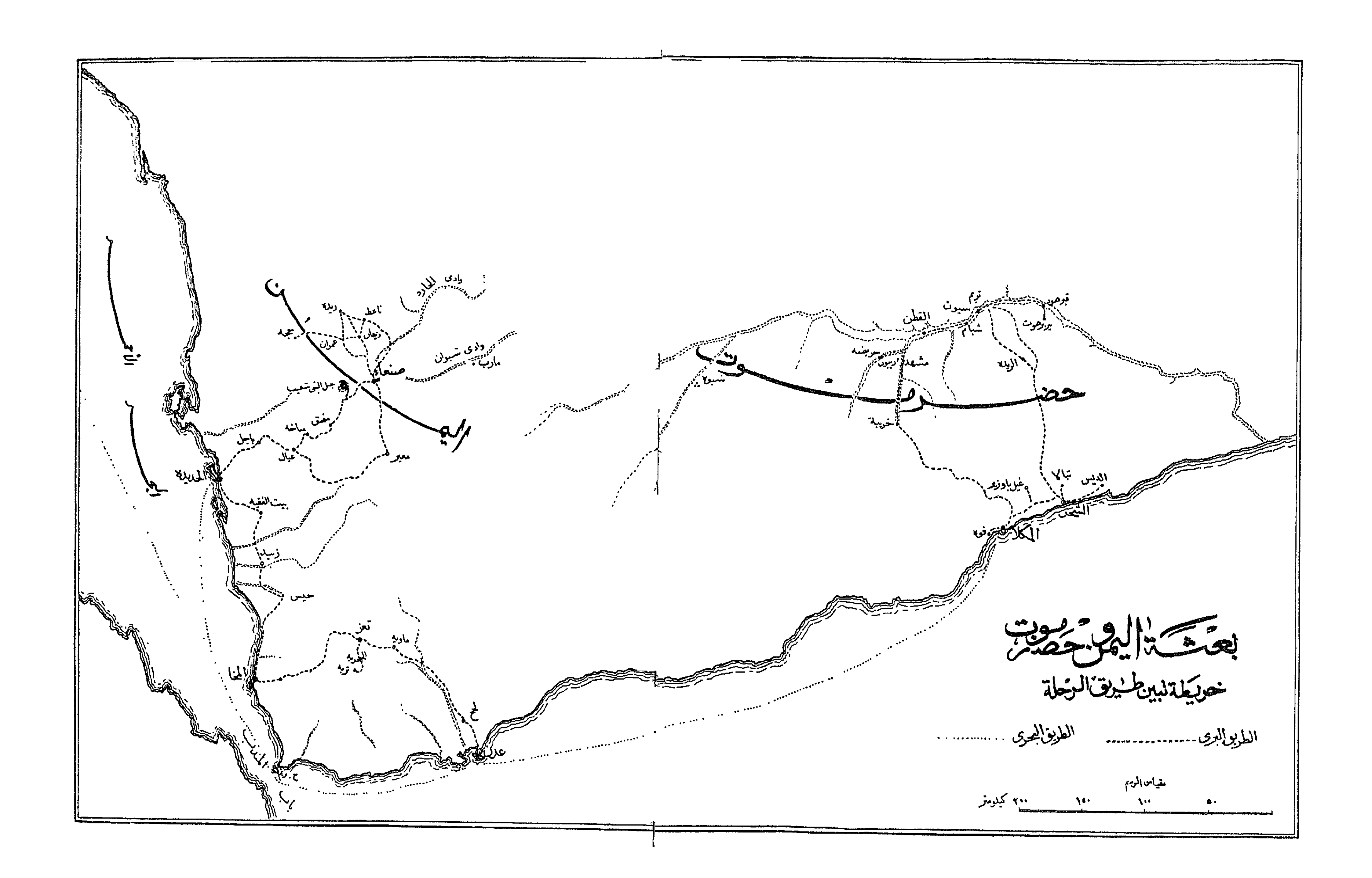
إفريقية ، كما وسعت نفوذها فيما أصبح يعرف بمناطق المحميات ، وهى التى تقع إلى شمال عدن وتمتد إلى أراضى سلطنة لحج وسلطنات حضرموت القديمة ، وهى توحدت فيما بينها وكونت اليمن الجنوبى ثم تمت وحدتها جميعاً مع سائر اليمن السعيد وأصبحت جميعاً جمهورية اليمن الموحدة .



« ١٨ »

بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت (١٩٣٦)

تقرير عن دراسة ميدانية رائدة


بعثة اليمن وحضرموت
خريطة تبين طريق الرحلة
الطريق البري
الطريق البحري
مقياس الرسم
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠ كيلومتر
اليمن
حضرموت
صنعاء
الحديدة
وادي الجارد
وادي شبوان
مارب
ناعط
ريدة
ذيبان
عمران
حجة
جبل النبي شعيب
منقد
مناخة
باجل
عبال
معبر
بيت الفقيه
زبيد
حيس
تعز
ماوية
المخا
لحج
عدن
باب المندب
تريم
سيون
القطن
شبام
قبر هود
بروهوت
حوره
مشهد
الريدة
شبوة
خريبة
غيل باوزير
تبالا
الديس
الشحر
المكلا



بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضر موت(١٩٣٦)
تقرير عن دراسة ميدانية رائدة (*)

هذا تقرير عن النتائج العلمية والثقافية التي توصلت إليها بعثة اليمن وحضرموت، وهي البعثة التي اشتركت في إيفادها كليتا الآداب والعلوم بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) وكانت مكونة من أربعة أعضاء، هم صاحب هذا الكتاب (رئيسا) والدكتور خليل يحيى نامى، عن كلية الآداب، والدكتور نصر شكرى والأستاذ محمد توفيق الدسوقي، عن كلية العلوم، كما كان لها غرضان أساسيان: الأول اجراء بعض البحوث العلمية الخاصة بالجيولوجيا، والجغرافيا، والآثار القديمة، ودراسة الأجناس (الانثروبولوجيا)، وعاداتها، ولهجاتها، ثم علم الحشرات. والثاني تمكين أواصر الصلات الثقافية بين مصر وهذا الجانب من الجزيرة العربية، وتعريف أهل اليمن وحضر موت ببعض نواحي النهضة المصرية الحديثة (**).

ولدى عودة البعثة تشرفت فى العام التالى بتقديم تقرير إدارى ومالى إلى إدارة

---

* فى عام ١٩٣٥ حصل المؤلف على درجة الدكتوراه من جامعة مانشستر بإنجلترا عن دراسات عربية ومصرية ومنحته الجامعة جائزة «لانجتون» لاجراء بحوث لاحقة بالدكتوراه، وكان ثاني طالب غير بريطاني يحصل على هذه الجائزة. وعندما عاد صاحبكم إلى مصر أول يناير ١٩٣٦ رأى المغفور له أستاذنا أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية أن ذاك (جامعة القاهرة فيما بعد) تخصيص مبلغ ألف جنيه مصري (وكانت قيمته أن ذاك تعادل ألف جنيه استرليني أو تزيد) ليرأس العضو الجديد في هيئة تدريس كلية الآداب بالجامعة بعثة علمية نحو سبعة أشهر (أبريل ـ نوفمبر ١٩٣٦) لاجراء بحوث ميدانية فى اليمن وحضرموت وكان ذلك ردًا على ما قررته جامعة مانشستر. وهكذا كانت هذه البعثة أول تجربة لاجراء بحوث ميدانية مصرية في أرض العرب.

وقد رأينا من المناسب (ولو على سبيل التذكار التاريخي) ان نعيد إثبات هذا التقرير في ختام كتابنا عن «أرض العروبة». سليمان حزيّن.

(**) كانت هذه من أوائل بعثات البحث العلمية الميدانية التى أوفدتها الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) إلى بلاد العرب. وقد سبقتها قليلاً بعثة بحرية أخرى هى بعثة الباخرة «مباحث» إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى. وكانت تلك سنة حميدة للجامعة فى عهدها الأول.

الجامعة ، مفصلاً بـرنامج الرحلة وأوجـه الانفاق في سبيل انفاذه ، ومبينـاً فى الوقت نفسه بعـض التفاصيـل المتعلقة بـاستقبالنـا فى كل مـن اليمن وحضرمـوت وفى ولاية عدن ، وما لقينا من مساعدات من الحكومة والهيئات هناك . والآن وقد تمت مراجعة المواد والمجموعات الـدراسية التى عادت بها البعثة ، وأمكن حصر النتـائج العامة ، فاننى أتشرف بـأن اسجل الخلاصة الآتية عـن الناحيتين العلمية والثقافيـة من نشاط البعثة ، تاركا التفاصيل إلى البحوث الأخرى التي سأشير إلى بعض نتائجها فيما بعد .

استغرقـت الرحلة قـرابة سبعة أشهـر ما بين أبـريل ونوفمبر سنـة ١٩٣٦ . وكان طريقنا ، كما هو مـوضح بالخريطة المرافقة لهذا ، من عـدن إلى لحج ثم إلى تعز واقليم الحجرية فى جنوب اليمن ، ثم من تعز إلى المخا على ساحل تهامة الغربى لليمن ، ثم إلى ميناء الحديدة فى شمال تهامة ، ثم من الحديـدة اتخذت البعثة الطريق الجديد فوق الهضبة العليا إلى صنعـاء ، مارة بباجل وسـوق العبيد والمعبر ، ثم من صنعـاء قامت برحلتين إلى شمال اليمن ، واحدة إلى وادى الخارد وناعط وريدة ، والأخرى إلى عَمران وكحلان وحُجة . ثم عادت من صنعاء إلى الحديدة عن طريق القوافل القديم ، مارة بجبل النبى شعيب ومفحق والمناخة وحجيله ثم باجل والحديده . و من هذه الأخيرة اتخذت البعثة طريـق البحر إلى جزيرة بريـم ثم عدن ثم المكلاّ ، ثـم بالبر إلى الشحر التابعـة لها ، ثم اتخذت قافلـة البعثةطريق السيـارات الجديد فوق هضبـة الحموم إلى وادى حضرموت حيـث زارت تريـم ، ثم سارت شرقـًا على طول الـوادي إلى قبر هود وبئر برهوت ، ثم عادت إلى تريم ، ومنها غربًا إلى سيون وشبام والقطن وحريضة ثم المشهد وخرائب ريبـون ، ثم على طريق القـوافل في وادى دوعان إلى الخريبة ثـم فوق هضبة الجول إلى كور سيبان ثم المكلا مرة أخرى ، ومنها بالبحر إلى عدن ومصر .

وقد قطـع الأعضاء أثناء هذه الـرحلة حوالى ٢٥٠٠ كيلو مترًا ، منهـا نحو الثلثين بالسيـارات والباقى على ظهور الـدواب أو سيرًا على الأقدام . وعادت البعثـة بكمية وفيرة من المواد الـدراسية والمجموعـات العلمية التى تحتاج دراستهـا إلى توافر الـوقت ووسائل البحث ، وقـد أمكن حتى الآن حصر النتائج العلميـة العامة بصفة مبـدئية يمكن تلخيصها فى الأبواب الآتية (*) :

(*) كان هذا وقت كتابة التقرير لأول مرة فى عام ١٩٣٨ انظـر كذلك: مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٣٨ .

وقد نشرت بعد ذلك بعض النتائج الأخرى فى مقالات ونشرات متفرقة .

الجيولوجيا والفزيوغرافيا :

كان من بين الأغـراض الأولى للرحلة اجراء بعض البحوث الخاصـة بعلم طبقات الأرض ، خصوصـًا وأن الجامعة أوفـدت قبل ذلك بعثـة علمية بحـرية إلى شـواطئ البحر الأحمر ، فكان مـن المرغوب فيه أن تستمر بعثتنا الجديـدة فى هذه البحوث على شواطئ البحر الأحمر الجنوبية . وفعلاً تـم ذلك ، وتوصلنا إلى تتبع خط الانكسارات الجيولوجية على طول شواطئ تهامة الغربية لليمن وفي منطقة لحج العليا خلف عدن ، وينتظر أن تلقى دراستنا فى هذه المناطق غير قليل مـن الضوء على التاريخ الجيولوجي للبحر الأحمر وعصور تكون انكساراته . كذلك زارت البعثـة جزيرة بريم عند مدخل باب المندب ، وحددت تاريخها الجيولوجى بـوجه أقرب كثيرًا إلى الدقة مما كان معروفًا من قبـل . كما استطاعت أن تـدرس بالتفصيل تكـوينات الـلابا الغطائيـه ، وأنواع الصخور النـارية المختلفـة التي تكـون هضبة اليمـن نفسها ، وقـد جمعت مـن هذه الصخـور بضعة آلاف مـن العينـات الجيـولوجيـة . كـذلـك جمعنا كميـة كبيرة مـن الحفريات وبقايا الكائنات البحرية القديمة التى وجدت فى طبقات الصخور الراجعة إلى العصر الجوراسى (الزمن الجيولوجى الثانى) بشرق اليمن ، خصوصًا من المناطق التى لم يزرها جيولوجى من قبل . وفوق هذا فإن البعثة عنيت بدراسة جيولوجية الزمن الرابـع (أوعصر البلايستـوسين) ، واستطاعـت أن تثبت وجـود دورين مطيريـن ، تفصلهما فترة جافـة أثناء هـذا العصر ، وقد امتـازت هذه الفترة الجافـة باضطـرابات بركانية كثيرة في شرق اليمن ، خصوصًا جهات همدان وما إلى شمالها . وهذه الابحاث الأخيرة يمكن أن تعتبر فـريدة في بـابها ، وهى تسـاعد على ربـط الأحداث الخاصـة بذبـذبات المناخ واضطـرابات القشرة الأرضية في ذلك العصر مـع ما هو معـروف من شرق إفريقية وشمالها من ناحية ، ومن الهند من ناحية أخرى .

أما في حضرمـوت فقد درسـت البعثة المنطقة السـاحلية وبقايـا الأرصفة البحـرية هناك ، كما جمعـت منها كمية مـن القوائع . ثم انتقلـت إلى الهضبة الداخليـة حيث تسود الـرواسب الجيريـة التي ثبـت أنها ترجـع إلى أوائل عصر الأيوسين (أول الـزمن الجيـولوجـي الثالـث) ؛ ولو أنها تـرتكـز في كثير من المواضـع على رواسب رمليـة أو

كوارتسيه ترجع ، على ما يظهر إلى أواخر العصر الكريتاسى (آخر الزمن الثانى) . وقد توصلت البعثة هنا إلى اكتشاف بعض آثار يرجح أن تكون لثوران بركانى فى بداية الايوسين ، وينتظر أن تسفر الدراسات التفصيلية لعينات الصخور التى جمعناها من حضرموت ، ومقارنتها بعينات اليمن إلى تحقيق بعض النقط الهامة فيما يختص بتاريخ الثورات البركانية فى هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال الأعصر الجيولوجية .

أما فيما يختص بالجيولوجيا الاقتصادية فإن البعثة لم يكن فى برنامجها أن تبحث عن الثروة المعدنية . ولكنها مع ذلك أجرت بعض الابحاث بصفة عرضية . وتستطيع مما جمعته من الأدلة أن تجزم بأن ما يشاع عن الثروة المعدنية الهائلة لجنوب غرب بلاد العرب عمومًا ، وجبال اليمن على وجه الخصوص لا ينتظر أن تثبت صحته الأبحاث التفصيلية فى المستقبل ، إذ أن الجهات التى تحتوى على صخور ينتظر أن تطوى معادن فى المناطق التى مررنا بها محدودة المساحة للغاية ، ولا توجد المعادن بها بكميات تجعل من الممكن أن تستغل استغلالاً اقتصاديًا مجديًا . وفي اعتقادنا أن منطقة عسير الواقعة داخل حدود المملكة السعودية ربما كانت أغنى ثروة من اليمن وحضرموت . على أننا قد وجدنا فى بعض جولاتنا أدلة على وجود معدن الجرافيت بكميات متوسطة فى شمال اليمن ، كما أن هناك أدلة على وجود بعض آثار للبترول فى جهات مختلفة من اليمن وحضرموت ، ولكنها لا تزيد على كميات محدودة نسبيًا(*) . و مع هذا فإنه يمكن القول بأن اليمن تستطيع أن تزيد من ثروتها القومية كثيرًا إذا ما عملت على استغلال الأملاح الكثيرة الموجودة على شواطئ تهامة الغربية ، والتى كان الأتراك يستغلونها بكميات وفيرة أيام احتلالهم لليمن ، وقد يكون الملح من أسهل معادن اليمن استغلالاً ، نظرًا لوفرة ملاحاته ، وقرب بعضها من ميناء الحديدة (كملاحات الصليف) ، مما يسهل أمر النقل والتصدير .

(*) ولكن تكوينات البترول أمكن استغلال بعضها فيما بعد وهى توجد إلى الشمال من الحديدة ، كما ينتظر أن يوجد بعضها قرب الحدود مع المملكة العربية السعودية .

الجغرافيا العامة :

عنيت البعثة من هذه الناحية بدراسة البيئة الجغرافية للمناطق التي زارتها ، وتأثير هذه البيئة في الحالة العمرانية العامة . فلقد اشتهر الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية بثروته الطبيعية وموارده التى تجعله يختلف اختلافًا ظاهرًا عن داخلية بلاد العرب ، وكان على البعثة أن تتتبع أوجه هذا الاختلاف على أساس دراسة البيئة الجغرافية ، وقد استطاعت من هذه الناحية أن تجمع من المعلومات ما يمكنها من تقسيم الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب إلى الأقاليم الجغرافية (الطبيعية) الآتية :

١ ـ إقليم تهامة الساحلي . وهو سهل منخفض أقل من مائة متر فوق سطح البحر ورملى يمتدعلى السواحل الغربية على وجه الخصوص ، ويتراوح عرضه ما بين الشاطئ وقاعدة الجبال بين ٦٠ ، ١٠٠ كم . والتربة هنا إما رملية أو ملحية ، وفى مناطق محدودة جدًا تعلوها طبقة من الطمى جلبتها السيول المتدفقة من الجبال أيام كان جريانها أكثر انتظامًا مما هو الآن ، أي أثناء العصر المطير الذى حدث فى(البلايستوسين) (راجع القسم السابق الخاص بالجيولوجيا والفزيوغرافيا) . وقد تبين أن جانبًا كبيرًا من أراضي تهامة كان يقع تحت سطح البحر إلى عهد جيولوجي قريب ، بدليل وجود القواقع البحرية فيما يشبه الأرصفة البحرية . و الظاهر أن الشاطئ كان يمتد على حساب البحر بواسطة تكون حواجز مرجانية على مسافة معينة من الشاطئ ، ثم تحمل الرياح الآتية من ناحية الأرض الرمال وتلقي بها ما بين الشاطئ والحاجز المرجانى ، حتى تردم الشقة الواقعة بينهما ، وبذلك يزداد عرض سهل تهامة الساحلى . . . . وهكذا .

٢ ـ منطقة قاعدة الجبال (أو البيدمونت) . وهى التى تمثل منطقة المرور بين تهامة والجبال . وتربتها مكونة من رواسب هائلة حملتها مياه الوديان القديمة من الهضبة ، وارسبتها عند قاعدة الجبال ؛ وهذه الرواسب على نوعين : (أ) الحصباء والرمال التى تكون المصاطب النهرية القديمة ، والتى تصل إلى ارتفاع ٣٠ مترًا أو أكثر فوق مستوى قاع الوديان الحالية ، وهي كلها عبارة عن أراض

غير صالحة للاستغلال إلا في أغراض الرعى العامة . (ب) التربة الطميية التى تكون مدرجات داخلية لا يزيد ارتفاعها على ٨ أمتار فوق مستوى قاع الوديان الحالية ، والتى تمتد أحيانًا على شكل دالات فوق سهول تهامة . وعلى هذه الرواسب الطميية تقوم الزراعة وهى تعتمد على المطر وعلى الرى في بعض الجهات المحدودة ، ويمكن زيادة الأراضي المنزرعة إذا أدخل نظام خزن المياه ببناء سدود ولو صغيرة عبر بعض الوديان ، حيث يمكن أن يتجمع الماء من موسم المطر إلى موسم الجفاف .

٣ ـ منطقة الجبال نفسها . وهى تمتاز بتنوع الطبيعة والمناظر فيها بدرجة عظيمة ، ويختلف ارتفاعها من ٥٠٠ إلى أكثر من ٣٠٠٠ متر فوق سطح البحر . وهي مكونة من قمم الجبال العالية ، ومنحدراتها والهضاب الواقعة بينها والتي تقطعها وديان يتبع بعضها الانكسارات الجيولوجية ، وإن كان أغلبها من النوع التحاتى العادى . وأهم ما يلاحظ في منطقة الجبال عامة الثروة الزراعية الكبيرة ، التى لها أثر بالغ في الحياة العمرانية ، فالسكان هنا يعيشون على الزراعة التى أهم محاصيلها البن والحبوب بأنواعها (خصوصًا الذره) وبعض الفواكه . وقد ساعد على تقدم الزراعة خصوبة التربة ، التى هى من الصخور البركانية المفتته بفعل عوامل التحات ، وهى توجد ليس فقط فى بطون الوديان وإنما أيضًا على منحدرات الجبال ، ولكى يحافظ الأهالى على هذه التربة ضد السيول الجارفة فإنهم يدرجون منحدرات الجبال وسفوحها بواسطة مدرجات صناعية تعرقل سير السيول ونقل التربة . وفى دراسة منطقة الجبال عنيت البعثة بملاحظة الفروقات المحلية بين مختلف أجزائها ، خصوصًا الغرب من ناحية ، والشمال والشرق من ناحية أخرى .

٤ ــ مناطق القيعان الداخلية . ولفظ قاع يطلق فى اليمن على الجهات السهلية المستوية السطح ، والتى تكون عادة محاطة بالجبال من أغلب جهاتها ، وهي إما أن تكون مستديرة على شكل حيضان أو مستطيلة على شكل سهول رسوبية أو وديان عريضه ، وتمتاز بها الجهات الوسطى والشرقية من اليمن ، وتغطى سطحها رواسب ترابية دقيقة الذرات عظيمة الخصوبة ، جلبتها السيول أو

الرياح ، وتقـوم عليها الزراعة التـى تروى بواسطة الأمطـار أو الآبار . والحياة بها مستقـرة ، وتشبه إلى حـد كبير الحيـاة الزراعيـة في منطقـة الجبال نفسهـا ، إذ أن أغلب القيعان يقع عل ارتفاع يزيد على ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر .

٥ ــ إقليم الجوف والمشرق . وهـو منطقة منبسطـة تقـع فى شرق اليمن ؛ وتبـدأ على شكل هضبـة مكونـة من صخـور جيرية مـن العصر الجوراسي ، تتاخـم الجبال اليمنية وتنحدر منها إلى الشرق ، كما تقطعها بعض الـوديان التى لابد وأن كانت أكثر ماء وأقدر على النحت ونقل الرواسب أثناء الزمن الجيولوجي الرابع ، ولو أن بعضهـا لايـزال يجري بقليل مـن الماء وبصفـة شبـه دائمة إلى الـوقـت الحاضر . وتنتهي هـذه الوديان فى الشرق الأقصـى بمناطق سهليـة أو دلتاوية ، هـي التى قامـت عليها حضارات اليمن الأولى فى عهـد معين ثم عهد سبأ ، ويـلاحظ أن أغلب الآثار اليمنيـة القديمة توجـد فى هذه المنطقة التى تتراوح فى ارتفـاعها بين ١٢٠٠ ، ١٨٠٠ متر .

٦ ــ الأحقاف وحـدود الـربع الخالى . وهـى تمثـل مناطـق رمليـة وملحية فى بعـض الأحيان . ومع أن أحد طرق القوافل القديمة يقطعها من الشمال إلى الجنوب فإنها تكـاد تكـون الآن خلوًا مـن السكـان ، فيما عـدا بعـض القبائل التـى تعمـل فى استغلال الملح ، أو فى الرعى المؤقت عقب موسم المطر .

كل هذا عن الأقاليم الطبيعية العامـة في اليمن نفسها . أما حضرموت فقد أمكن التمييز فيها بين ثلاثة أقاليم أساسية :

(أ) الشاطئ والمنخفضات المتصلة بة . وهنا يلاحظ أن حافة الجزيرة العربية الجنوبية عبارة عن انكسـار جيولوجى هائل ، يصـل احيانًا إلى الشاطـئ نفسه، ويبتعد عنـه احيانـًا أخرى بمقـدار ٥٠ كيلو مترًا أو أكثـر ، فيحصر بينه وبين البحـر منطقة ساحلية منخفضـة ، كثيرًا ما تأتيها الوديان من الـداخل فتقطع سطحها في بعض الجهات أو تغطيها بالرواسب في البعض الآخر فتحولها إلى شبه سهول رسوبية . والحياة فى هذه الجهات الساحلية خليط بين الأعتماد على صيد البحر، والقيام بقليل من الـزراعة ، وقد كان لتنـوع موارد الحياة على هذا النحـو أثره فى

الحالة الصحيةالعامة ، بالرغم من تفشي بعض الأمراض ، خصوصًا بالجهات التى توجد بها المستنقعات .

(ب) المناطق المعروفة بالجول . وهو لفظ يطلق هناك على الهضاب الصخرية المنبسطة والمكونة من حجر الجير (الإيوسينى؟) . وتقطعها الوديان العميقة الجوانب ، على نحو ربما كان من أفضل الأمثلة المعروفة للهضاب الجيرية المقطعة . ويبلغ إرتفاعها فى بعض الجهات أكثر من ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، ولكنها لا تزيد فى المتوسط على ١٢٠٠ متر ، ويصل عمق الوديان التى تقطعها إلى أكثر من مائة متر؛ وقد استطاعت البعثة أن تدرس فى سطح هذه الهضاب ووديانها عدة دورات فزيوغرافية للتحات والأرساب ، يرجع بعضها إلى العصر المطير فى الزمن الجيولوجى الرابع ، والبعض الآخر إلى ما قبل ذلك . والأمطار فى الوقت الحاضر قليلة بجهات حضرموت ، خصوصًا فى الشرق والداخل ، ويزيد على الجفاف فوق هضاب الجول ان طبيعة صخورها الجيرية المسامية تساعد على تسرب المياه الساقطة من السطح إلى الطبقات السفلى و إلى قيعان الوديان ، ولذلك فإن سكان الجول من نوع القبائل الرحل ، ولو أن لكل قبيلة منها أرض خاصة بها ومراكز تفئ إليها للتزود بالماء أو لجمع المحاصيل كثمر النارجيل وبعض النخيل المتفرقة في شبه واحات بالوديان .

(جـ) وادى حضرموت وفروعه ، وأهمها وادى دوعان (دوعن) ووادى عمد . وهذه الوديان عبارة عن مجارى هائلة يبلغ عرضها فى بعض الأحيان خمسة كيلو مترات أو أكثر ، كما يبلغ عمقها فى وادى حضرموت نفسه ، نحو ٣٠٠ متر ، وقد حفرتها المياه الجارية (والمجارى السفلية عن طريق الأذابة) في الصخور الجيرية الايوسينية ، ووصلت إلى الصخور الكوارتسية ، التى لم توجد بها حفريات ، ولكنها ترجع فى الغالب إلى نهاية العصر الكريتاسى . وقد ردمت قيعان الوديان بالحصباء الغليظة في أعالى الوديان والدقيقة نسبيًا فى أسافلها ، وتعلو الحصباء طبقة سميكة من الطمى الناعم خصوصًا فى أسافل الوديان وعند ملتقياتها .

والوديان جميعها جافة فى الوقت الحاضر لا يجرى بها الماء إلا فى موسم السيول ، على أنه قد ثبت وجود تيار مائى دائم يجري تحت السطح فى طبقة الحصباء المشار

إليها ، وهذا التيار يرجع فى أصله إلى الأمطار الساقطة فوق الهضبة والسيول التى تجرى متقطعة فى فصل المطر . ولجريان المياه تحت الأرض فائدة كبرى ، إذ أن ذلك يقلل من تبخرها وضياعها بسبب التعرض للشمس والهواء ، كما يساعد على توزيع مواردها على طول السنة بدلاً من قصورها على فصل واحد . وتحفر الآبار فى طبقة الطمى حتى تصل إلى طبقة الحصباء التى يستمد منها الماء . ويلاحظ أن الوديان والروافد الجانبية تنحدر إلى وادى حضرموت الأساسى ، وأن هذا الأخير ينحدر من ارتفاع ١٠٠٠ متر فى الغرب إلى مستوى البحر فى الشرق ، ولذلك فإن المياه الأرضية تتجمع فى مجرى وادى حضرموت الأسفل ، وتظهر هناك على السطح بصفة دائمة ، ولقد زارت البعثة بعض هذه المناطق السفلى من الوادى ، ودرست مجراه إلى قبر النبى هود . والحياة فى الوديان بحضرموت زراعية مستقرة ، إذ تزرع المحاصيل الدفيئة والحارة وأهمها النخيل والذرة وبعض الفواكه . بالأضافة إلى هذه الموارد المحلية هناك عدة مدن هامة يقطنها كبار التجار من الحضارمة الذين يهاجرون إلى الشرق الأقصى ، فيجمعون ثروات طائلة ، ثم يعودون للحياة الهادئة فى وطنهم الأصلى ، حيث ينفقون ما جمعوا فى جهادهم الطويل ، وحيث يزيدون من مظاهر العمران فى هذا الوادى الذى تطول غيبة بعضهم عنه أربعين عامًا أو أكثر فى بعض الأحيان .

دراسة المناخ :

وبالاضافة إلى الدراسات الجغرافية العامة كان على البعثة أن تقوم ببعض التسجيلات الخاصة بالمناخ ، نظرًا لأن هذا الأخير يكون عنصرًا هامًا من عناصر البيئة الجغرافية ، كما أن الحالة المناخية لهذاا الجانب من الجزيرة العربية مسئولة إلى حد كبير عن الفرق الهائل بينه وبين وسط بلاد العرب وشمالها ؛ فلقد كان من المعروف دائمًا أن الجنوب أكثر مطرًا ، وإن تساقط الأمطار فيه له صفة موسمية ، فهو يقع فى أشهر الصيف وأوائل الخريف ، أما وسط بلاد العرب وشمالها فالمطر فيه من النوع الطارئ غير المنتظم ، كما أنه فى اقصى الشمال يسقط فى أشهر الشتاء دون الصيف . ولقد كان من خطة البعثة المرسومة أن تتفق زيارتها وموسم المطر فى الجنوب ، نظرًا لأن أغلب البعثات الأجنبية كانت تختار فصل الشتاء الجاف لملائمته من الوجهة

الصحية ، وقد استطاعت البعثة أثناء الأشهر التى أقمناها باليمن وحضرموت أن تجمع من المعلومات ما يساعد على اعطاء صورة صحيحة بقدر الإمكان عن الحالة المناخية إبان هذا الفصل الهام من السنة ، والذى يتركز فيه أغلب نشاط السكان .

وكان على البعثة أن تتتبع هذا البحث من نواح ثلاث :

١ ـ اخذ القياسات وجمع الاحصائيات العلمية الدقيقة عن حالة المناخ ، وذلك بقراءة الآلات المتيورولوجية ، وتسجيل درجات الحرارة ، والضغط والرطوبة ، وكميات المطر الساقطة ، واتجاهات الرياح وقوتها ، إلى غير ذلك من ظاهرات الطقس ثلاث مرات في كل يوم ، إلا في أيام الارتحال ، أو فى حالة التعذر الشديد ، حيث يكتفى بأخذ القياسات وقراءة الآلات وتسجيلاتها مرة واحدة أو مرتين فى اليوم . وهذه الآلات جميعها تكرمت مصلحة الطبيعيات المصرية بأعارتها للبعثة مدة عملها .

٢ ـ جمع المعلومات من الأهالى عن حالة الطقس والمناخ وتقلباتها ، وعن مواسم الحرارة والبرودة النسبية ، والمطر والجفاف ، والرياح وشدتها ، والضباب وانتشاره وغير ذلك ، ثم عن الذبذبات المناخية والكوارث الجوية التى قد تحدث من عام إلى آخر.

٣ ـ إجراء بعض الدراسات التاريخية والمباحث الأثرية الخاصة بتطور المناخ فى عصور التاريخ ، خصوصًا أثناء الحضارات المعينية والسبئية والحميرية باليمن فى الالف السابقة للميلاد والقرون الخمسة التالية له .

وقد عادت البعثة من الناحيتين الأوليين بسجلات علمية دقيقة ، تشتمل على تسجيلاتها وقراءاتها للآلات العلمية بقدر ما سمحت به ظروف السفر والارتحال ، وكذلك بملاحظات وافية جمعتها على طول الطريق . وكنا نعرف أن دراسة هذه السجلات والملاحظات ، ومقارنتها بقياسات الطقس والمناخ فى البلاد المجاورة ، خصوصًا افريقية الشرقية ، تستلزم مجهودًا كبيرًا ، ولكن المأمول أن تلقى تلك الدراسة المقارنة غير قليل من الضوء على احوال المناخ وتقلباته فى هذه المناطق جميعًا ، وان يساعد ذلك على اتمام الدراسات الخاصة بمنابع النيل (ومواسم الفيضان) فى إفريقية الشرقية . أما من الناحية الثالثة من البحث (وهى الناحية التاريخية) فقد

امكن الـوصول إلى نتائج علميـة طريفة ، إذ أثبتت البعثـة وجود دور ممطر أثنـاء قيام الحضارات اليمنيـة والحضرمية القديمة . ومـع أن زيادة المطر إذ ذاك عنها فى الـوقت الحاضر لم تكن كبيرة من حيث كميتها ، فإنها كانـت عظيمة من حيث تأثيرها الفعلى فى أزدياد المراعى وانتشـار الزراعة في أراض شديدة الجفاف في الـوقت الحاضر . ولقد كان تدهور الحضارات القديمة وتشتـت القبائل وانبعاث الهجرات من تلك الجهات فى العهد السابق للإسلام مباشرة مرتبطًا ، على ما يظهر ، ارتباطًا وثيقًا بتغييرات المناخ وذبذباته وعودته إلى الجفاف النسبى بعد الحالة الممطرة . وهذه النتائج ستساعدنا على اجراء المقارنـة بين ذبذبات المناخ فى جنـوب بلاد العرب وشمالها أثناء هـذا الدور الهام من تاريخ المشرق العربى .

الآثار والنقوش القديمة :

وكانت مهمة البعثة فى اجراء الأبحاث الأثرية تقع فى شطرين :

(أ) البحث عـن آثار عصر ما قبل التـاريخ ، وهي عبـارة عن آلات حجرية تـوجد عادة فى التكـوينات والـرواسب أو على السطـح ، وأوانى فخـارية بين الأكـوام الأثرية وما إليها من مخلفات ذلك العهد القديم . وقد كان البحث عن مثل هذه الآثار ، وتحقيق بعض النقاط الخاصة بعصر ما قبل التاريخ من الأغراض الاولى التـي فكـرت البعثـة مـن أجلهـا فى القيـام بهذه الـرحلـة ، إذ أن رئيـس البعثـة (س . أ . ح .) كـان قد قـام ببحث لـرسالـة الدكتـوراه خاص بـأصل الحضـارة المصرية ، واتصالاتها الأولى بالبلاد المجاورة لها فى عصر مـا قبل التاريخ ، وثبت من هذا البحـث أن الحضارة المصرية في أسسها الأولى منـذ نهاية العصر الحجرى القديم (وأثنـاء العصر الحجرى الحديث وعصر ما قبـل الأسرات فى مصر) هي حضارة مصرية ، نشأت وترعرعت في حوض النيل نفسه ، كما ثبت أن اتصالاتها مـع العالم المجـاور فى شمال الشرق العربـى مـن ناحيـة ، وفى داخلية الصحـراء الكبرى وشمال إفريقية من ناحية ثانية ، ثم فى النـوبة والسودان من ناحية ثالثة ، قد اتـت كلها متأخرة نسبيـًا ، أي بعد أن تم تكـوين الحضارة المصرية وتطـورها الأول محليًا ، ولـذلك فإن العنـاصر الأجنبية لم تطغ على العنـاصر الأصلية ، ولم

تطمس مسحتها المصرية الصميمة ، وإن كانت قد زادت من تنوع المظاهر المادية للحضارة المصرية . و كان هذا الرأى مخالفًا للرأى السائد فى ذلك العهد ، على أنه لم يكن بـالامكان الجزم به بصفة نهائيـة حتى تستكشف الجهات الجنـوبية من المشرق العربى (التـى اشتهرت بحضاراتها القديمة) ، لعلنا نعثـر فيها على آثار يمكن أن تعتبر أصلاً للآثار المصرية أو لبعض مظاهرها .

وقد بذلت البعثة جانبًا من مجهـودها ووقتها فى البحث عن مثل تلك الآثار ، بأجراء الحفائر فى التكـوينات والرواسب القـديمة وفي الأكوام الأثريـة والكهوف والغيران التى يحتمـل فإن يكون الإنسـان الأول قد قطنهـا . و مع أننا عثـرنا على كميات ضئيلة مـن آثار العصر الحجرى القديم بالهضبـة اليمنية وبحضرموت ، فإن الصلة بينهـا وبين الآثار المصرية لم تكن واضحة . كما أننا عثـرنا بحضرموت وولايـة لحج (خلـف عـدن) على كميـات كبيرة مـن الآثـار والآلات الحجـريـة الأحـدث عهدًا ، ولكننـا استطعنـا باستقصـاء البحـث أن نثبت أنها تختلـف فى صناعتها عن الآثار المصرية ، وإنها أقرب ما تكون إلى ما عرف من الآثار فى شرق إفريقيـة ، وعلى الأخص مستعمرة كينيا والحبشـة الشرقية . ولم تقف البعثـة عند هذا الحد ، وإنما واصلـت بحثها بين آثار حضرمـوت (خصوصًا خـرائب ريبون قـرب المشهد بـوادى دوعان) ، حتـى استطـاعت أن تثبـت أن هذه المخلفـات متأخرة فى تاريخها كثيرًا عن مثيلاتها من الآثار فى مصر . وعلى ذلك فلم يبق شك فى أن هذه الأخيرة قـد سبقت بفترة طـويلة جنوب بـلاد العرب وشرق إفـريقية . ويسرنا بهذه المنـاسبة أن نـذكر أن بعثة بـريطانية تـوجهت إلى حضرمـوت فى عام ١٩٣٨ ، وقد بلغنـا من رئيستهـا أن نتائج بحوثهـا وحفائرها تتفـق تمامًا مـع ما توصلـت إليه بعثتنـا من قبل (وقـد نشرت خلاصـة لبحوثنـا فى عام (١٩٣٧) بمجلتـى Nature الأنجليزيـة و L' anthropologie الفرنسيـة حفظـًا للأسبقية ، (انظر الإشارة إلى ذلك فيما بعد) .

(ب) البحـث عـن الآثـار التـاريخيـة واجـراء الحفـائر فى بعـض خـرائب اليمـن وحضرموت . وقـد كان برنـامجنا يقضى فى أول الأمـر أن نصل إلى مأرب عـاصمة سبأ ، ولكن ذلـك للاسف لم يكن بـالامكان نظرًا لحالة القبـائل فى تلك الجهات

المتطرفة مـن اليمن أثناء إقامتنا هنـاك ، ثم لبعض صعوبات إدارية جعلت من المتعذر على الحكومـة اليمنية ضمان إجرء الحفائر على الوجه المرغـوب فيه هناك ، لذلك استعضنـا عن زيارة اقليم مـأرب باجراء أبحاث مختلفـة فى شمال اليمن ، وعلى الاخـص فى مدينـة ناعـط ، حيث كشفـت البعثـة عن هيكـل من العهـد السبئى ، كما عثرت على أكثر من ستين نقشًا بين الخرائب ، وهي كلها بالطبع من النقوش التـى لم ينشر عنها شيء من قبـل ، وعدد منها وجد محفـورًا على صخور بأسفـل الحفائر . وبالرغـم من ضيق الـوقت ، فقد أجـرى الحفر بعناية تـامة ، بحيث اخذت رسوم وصور كافية للتحقق مـن طبيعة البناء وفن الهندسة . ولعل أهم ظاهرة فى الهيكل المذكور ، وجود عدد من (أو الاعمدة ذات القطاع المربع) التى يظهر أن نظام إقامتها وطريقة نحتها قد تأثرت بفن العمارة مصر (فى العصر البطلمى على الأرجح)

وفي غير ناعـط درست البعثـة عدة مـواقع أثـرية بـاليمن ، كما جمعـت نحو أربعين نقشًا حميريا يـذكر بعضها القبائل وآلهتها ، كما يشير البعـض الآخر إلى الحالة السيـاسية فى العهـد الحميرى . كـذلك صرحـت الحكـومة اليمنيـةللبعثـة بدراسـة المجموعـة الأثرية بمتحف صنعـاء وتصويرها ، وقـد استطعنا من هذه الـدراسة أن نصل إلى نتائج تلقـى بعض الضوء على تطور فن النحـت من زمن المعينيين والسبئيين الأول ، حين كان هذا الفـن رمزيًا فى أساسـه ، إلى زمن الحميريين الذين كـانت لهم صلات وثيقـة بالعـالم الشمالي والفن الأغريقـي ، مما ساعـد على أن يصبح فنهـم فنًا تحقيقيًا إلى حد كبير .

وفي حضرمـوت أجرت البعثـة بعـض الدراسـات والحفـائر السطحيـة خصوصًـا بخرائب ريبون التى أشرت إليها من قبل ، كما جمعت عددًا من النقوش الحميرية بين الخرائب . ولعل أطـرف ما عثـرنا عليـه بعض الحروف والنقـوش المحفورة على قطـع الفخار ، بـدلاً من الحجـر ، مما لم يكتشـف مثلـه من قبـل فى جنوب بـلاد العرب . كذلك عثـرت البعثة على عدد كبير من المخربشـات (أو الجرافيتى) على الصخور ، خصوصًا قرب مـدينة شبام بوادى حضرموت الأوسط ، وهذه المخـربشات من عمل الرعاه والتجار إذ ذاك ، وهى تصور لنا الحياة الشعبية ، والنشاط الرعوى والتجارى ،

خصوصًا وأنها تصطحب بغير قليـل من رسوم الحيوانات والصور الرمـزية ، مما نقلته البعثة وصورت ما أمكن تصويره منه . وقد تبين أن هذه المخربشات تشتمل على أكثر من ١٥٠ نقشـًا حضرميًا قـديمًا ، وأن عددًا كبيرًا منهـا يمثل أسماء أعـلام ، وهذا فى نفسه سيكون مفيدًا ، لأنه يعطينا فكرة عن الأسماء الشعبية الشائعة فى ذلك الوقت . كذلك فى طريق عودتنا من خرائب حضر مـوت الداخلية إلى الشاطئ عثرنا على عدد من النقـوش التى حفرهـا التجار والمسافرون القـدماء على الصخور فى ذات الطـريق الذى تستعمله القوافل الآن بين وادى دوعان (دوعـن) والمكلا ؛ وقد كان هذا دليلاً طـريفـًا على أن الطريـق الحالى هـو بعينـه الذي كـانـت تستعملـه القوافـل فى عهـد الحضارات الحضرمية القديمة .

دراسة السلالات البشرية :

كذلك كـان من المعروف اجمالاً أن العرب الجنوبيين يختلفـون عن العرب الشماليين فى الأصل والسلاله الجنسية . وقد وكل إلى البعثة تحقيق هذه النقطة بواسطة المقاييس الانثروبومتريـه ، وهى عبارة عن مقاييس تـؤخذ بواسطة الآت خاصـة لأعاد الرأس والوجه والقامة والأطراف ، وبعـض الصفات الجنسية العامة كلون البشرة والعينين ، ولـون الشعـر ونوعـه . . . الـخ . وقـد استطـاعـت البعثة أن تـدرس نحـو ١٣٥٠ شخصًا ، بمعدل حوالى ٢٥ مقياسًا (وملاحظـة) للشخص الواحد ؛ وسجلت كل هذا على فيشـات خاصـة ، كما أخذت صـورًا فوتوغـرافية أمـامية وجـانبية لأربعمائة شخصًا من بين هـؤلاء . ومن الأشخاص الذيـن أخذت مقاييسهم ٨٠٠ بـاليمن ، ٥٣٠ بحضرموت ؛ وهم مـوزعون على جميع أجزاء الـركن الجنوبي الغربي للجـزيرة ، بحيث أنهم يمثلون جميع القبائل الهامة هناك تقريبًا ، ويمكن أن يعتبر السجل الذي لدينا الآن من المقـاييس والملاحظات والصور ممثلاً لسكان هذا الإقليـم تمثيلا صادقًا إلى الحد المطلوب . ومع أن دراسة الأرقام التي لدينا ، وحساب المتوسطات اللازمة ، ثم مقارنتها بما هو معروف من الاحصائيات والمقاييس فى شمال بلاد العرب سيستغرق مدة طويلـة ، فقد أمكن الحكم اجمالاً بـأن جنوب غرب بلاد العـرب لا يختلف فقط عن الشمال مـن حيث الجنس والمميزات الجنسيـة ، وإنما هو فوق ذلك يمثـل منطقة

مختلطة ، تسكنهـا عناصر مختلفة ، لابد وأنها وصلـت إلى هذا الجانب مـن الجزيرة فى أكثر من موجة سلالية واحدة ، أثناء الهجرات القديمة .

فشمال اليمن (ووسطه) تقطنه عناصر متوسطة القامة ، متوسطة الرأس ، طويلة الوجه ، متمـوجة الشعر (موجات قصيرة) ، شماء الأنف ، ليس في فمها أى بروز زنجـى ، وهذه العنـاصر تقرب فى مـلامحها وميـزاتها العـامة مـن سكان شمال بـلاد العرب ، فهم يمثلون على الأرجح هجرة (سـامية) قديمة من الشمال ، احتلت شمال اليمن واستطـاعت بعض طلائعهـا أن تتوغل إلى أرض يـافع خلف عدن . كـذلك وجدت البعثـة أن بعض القبـائل اليمنية والشمالـيـة تمتاز نسبـة من بين أفـرادها (٨ ـ ١٢٪) بميل لـون عيونها إلى الزرقة ، وشعـرها إلى الشقرة ، وبشرتها إلى البيـاض ، مما يدعو إلى افتراض أن هـذه العناصر تمثل هجرة أخرى قديمـة من الساميين المختلطين ببعـض العناصر الشقـراء من الهضبـة الطورانيـة أو مـا وراءها (مثـل بعض اليهـود القدماء) . ومن الطريف حقًا أن تكون هـذه العناصر الشقراء متمثلة فى المناطق التى لاحظت البعثـة بها من الآثـار القديمـة ما يؤكـد الاتصال الـدقيق مـع الشمال (مثل منطقة ناعط) .

أما جنـوب اليمن فتقطنه عنـاصر متوسطة القـامة ، مستـديرة الرأس ، عـريضة الوجه نسبيًا ، قصيرة الأنف ، وبينها عدد من الأشخاص ذوى الفم البارز ، وهؤلاء بالطبـع يختلفون عن سكان المنـاطق الشمالية ، ولابـد وأنهم يمثلون موجة مختلفـة من الهجرات القديمة ، أو على الأقل هم يمثلون عنصرًا أكثـر اختلاطًا من سكان اليمن الشماليين ، ويلاحـظ على الخصوص أنهم يشتركون فى بعـض المميزات السلاليـة مع سكان حضرمـوت الداخلية ، الذيـن يمتازون بشدة استدارة الـرأس وقصره (كنتيجة لانبطاح مؤخرة الجمجـة) ، كما تقصر قاماتهم ، وتقصر أنوفهم ، وتزيـد نسبة بروز الفم بينهم ، ويغلـب على الظن أن اليمنيين الجنوبيين هم نتيجة اختلاط المهـاجرين الشماليين بعناصر أخرى أقـدم منها ، أتت من الشرق ، أى من نـاحية حضرموت ، وقد استطـاعت البعثة أن توازن بين محورى الهجـرة الأساسيين (الشرقي ـ الغـربي من نـاحية والشمالي ـ الجنـوبي من نـاحية أخـرى) ، وأن تثبـت بما يقرب مـن اليقين أن

العنصر الشرقي أقدم في بـلاد العرب الجنوبية مـن العنصر الشمالى . كما تتبعت البعثة بنوع خـاص ظاهـرة بروز الفـم ، نظرًا لاحتمال مجيئهـا من إفـريقية الـزنجية أى مـن الغرب ، ولكنها استطاعت أن تثبت أنه ، بصرف النظـر عن تهامة اليمن على شاطئ البحر الأحمر ، المواجه لإفـريقية مباشرة ، فإن نسبة بـروز الفم بين اليمنيين الجنوبيين (من سكـان منطقة الجبـال) والحضارمة تـزداد كلما اتجهنا نحـو الشرق ، على عكس ماكان منتظـرًا لو أنها كانت مكتسبة من إفـريقية ، وهذا نفسه يدعـو إلى الترجيح بأن بروز الفم صفة شرقيـة ظهرت فى جنوب بلاد العرب كنتيجة لهجـرة أتت من الشرق ، ولا يرجع إلى الاختلاط مع أية عناصر زنجية يمكن أن تكون قد هاجرت من إفريقية . بل أن لدينا أدلة أضافية على أن تلك الهجـرة الشرقية القديمة قد حملت إلى حضرموت بعض مميزات جنسيـة أخرى أظهرها انبطاح مـؤخرة الرأس ، على نحو يجعلـه قريب الشبه من الرأس الارمنى ، الذي ينتشر أيضًا بدرجة خفيفة فوق هضبة إيران ويمتد ، على ما يظهر ، إلى الدكن بالهند .

أما الجهـات الشاطئية مـن حضرموت فتقطنها عنـاصر تمتاز على العموم بـالرأس المتوسـط أو المستطيل أحيانًا ، وبـالأنف المتوسط ، والفـم البارز ، والقامة الطـويلة نسبيًا . وهـذه العناصر تقـل تدريجيًـا كلما اتجهنا نحـو الغرب حتـى نصل إلى تهامـة اليمن ، حيـث نشاهـد عناصر مختلطة تمامًـا ، ويظهر بينها الأثـر الإفريقـي كنتيجة للهجرات من ناحية ، ولجلـب العبيد الزنوج من ناحية ثانيـة ، ولكن المهم أن الأثر الإفريقي ، كما ذكرنا ، لا يعدو منطقة تهامـة اليمن الساحلية ، ولا يتوغل إلى منطقة الجبال الخالية تقريبًا من الأثر الـزنجى ؛ وحتى فى بعض جهات حضرموت ، حيث يشاهد أثر الـزنوج ، تميل العناصر الحضرمية إلى عدم الاختـلاط بالعناصر السوداء ، الذين يمثلون مستعمـرات ، ويعيشون فى شبه عزلة عنصرية ، ويعمـل الرجال منهم كجنود فى الغـالب ، اللهـم إلا فى بعض جهات سـاحلية (كالمنطقـة الواقعـة غرب المكلا) حيث استوطن الزنوج ، واشتغلوا بالزراعة ، واختلطوا بالأهالى الأصليين منذ أجيال عديدة ، ويلاحظ أثرهـم فى ظهور عنصر خليط ، تغلب الصفات الزنجية فيه مـن حيـث لـون البشرة ، وفلفلـة الشعر (أو شـدة تجعـده) ، واستعـراض الأنـف وانفطاسه .

وبالاضـافة إلى هذه الحقـائق التى تمس التوزيعـات العامة للسـلالات والمميزات السلاليـة فى جنوب بـلاد العرب ، استطاعـت البعثة أن تدرس أمثلـة محلية خـاصة ببعض الأقليـات ، وأهمها اليهـود الذين لهم مستعمـرات متفرقة بـاليمن (خصـوصًا صنعاء) ، دون حضرمـوت حيث لا أثر لهم بالمرة تقـريبًا . وهم ينقسمـون فريقين : فمنهم مـن كان يمتاز بـالصفات السـامية ، وبشكل الأنـف (اليهودى) الخاص ، وهم العنصر المهاجر ، ومنهم من لا يختلف فى شيء عن السكان اليمنيين فى المناطق المجاورة ، فهـم يمنيون متهودون لا أكثـر ولا أقل (ولعلهم مـن سلالة مـن تهود من الأهالى تحت حكم بعض ملوك حمير الذين اعتنقوا الديانة اليهودية) .

ويمكن أن نخرج من هذه الدراسات الجنسية التفصيلية بما يأتى :

١ ـــ أن التفـرقة بين عـرب الجنـوب والشمال تنبنـى ، ليـس فقط على أسـاس ثقـافي وتـاريخي ، وإنما أيضًـا على أسـاس سـلالى تثبتـه المقـاييـس الانثـروبـومترية ، والملاحظات المتعلقة بها .

٢ ـ أن جنوب بلاد العرب يمثل منطقة اختلاط سلالى ، ولابد وأنها كانت معبرًا لكثير من الهجرات ، التى يرجح أن أهمها جاء من الجانب الأسيوي نحو إفريقية .

انتهت البعثة من دراسة توزيعات العناصر السلالية باليمن وحضرموت ، وبدأت فى عمل المقارنات على المناطق المجاورة وغير المجاورة وأهمها :

(أ) : شمال بلاد العرب وخصوصًـا صحراء سوريا ، بجانبيها العـراقى والشامي ، ويظهر مـن البحوث المبـدئية أن التشـابه الجنسي بين جنـوب بلاد العـرب وبعض قبائل الشمال يرجع إلى سببين : (١) هجرة قديمة لبعض العناصر الساميـة من شمال الجزيرة العربيـة إلى شمال اليمن ، تلتها بعـض هجرات أخرى لليهـود وغيرهم . (٢) هجرة في اتجاه مضـاد من اليمن (خصـوصًا شرقها) نحو شمال بلاد العرب ، ويظهر إنها كانت عن طريق جنوب نجد واقليم الحسا (الأحساء) ، وهي التى يعرف بعضها باسم هجرات قضاعة التى حدثت قبل الإسلام بنحو أربعة قرون .

(ب) : هضبة إيـران والهند . وقد اثبتت بعـض البحوث السابقـة صلة الأولى منهما بسكان جبل عمان فى جنوب شرق الجزيرة . وترمى بحوث بعثتنا إلى اثبات

صلة كل مـن إيران والهند بحضرموت وجنوب اليمـن وسيكون لهذه النقطة أهمية خاصة في دراسة تاريخ الهجرات الآسيوية .

(جـ) : إفريقية الشرقية . وعلاقاتها الزنجية ، كما ذكرنا ، مقصورة (فيما عدا بعض المستعمرات فى داخلية حضرموت) على الجهات السـاحلية ، خصوصًا في تهامة اليمـن والجهات الواقعة غـرب المكلا على الساحـل الجنوبي . على أن من المنتظـر ، في الوقت نفسه ، أن تثبـت الصلة القوية بين سكـان هضبة اليمن وبعـض سكان إقليم المرتفعات فى الحبشـة ، حيث تذكـر الأساطير والتواريخ القديمة هجرات القبائل السامية (أو التي تتصف بأنها كذلك) من بلاد العرب الجنوبية إلى تلك المنطقة .

دراسة الاثنوغرافيا واللهجات :

ولم يكن فى برنامجنـا عمل دراسة تفصيلية لحالة السكان فيما يتصل بـالاثنوغرافيا ، أو علم وصف الشعوب ، ولكننا جمعنا المعلومات الاثنوغرافية العامة فى الجهات التى مررنا بها على قدر الإمكان ، فتعرفنا على بعـض مظاهر الحضارة المادية كنوع السكن ، وادوات المعيشة عند القبائل ، ثـم مظاهر النشاط الزراعي أو الـرعوي ، وأدوات كل منهما ، إلى غير ذلك من الدراسات المتعلقة بنوع التحضر المادي ودرجته .

كذلك درسنا بعض النظم الاجتماعية على الخصوص في حضرموت ، حيث يوجد نظام الطبقـات بشكل أوضح جـدًا منه في اليمـن ، التي يسود بها نظـام القبائل على النحو المعروف ، ولا يكـاد يوجد بها أثر لنظام الطبقات ، فيما عـدا التمييز بين البدو (الرحـل) من أهـل المشرق وبين القبائل المستقرة مـن أهل الجبـال (الزراعيين) ، أو نحو ذلك من ضروب التفرقة على أساس أقليمـي أكثر منه اجتماعي . أما حضرموت فتمتاز بالتفرقة بين الطبقات على أساس اجتماعي ، وعلى نحو يختلف عما هو معروف في بقية الجزيـرة العربيـة ، بل إنـه يشبه نظـام الطبقات في الهنـد من بعـض الوجـوه وبـدرجة مخففـة . وقد أمكـن التمييـز في حضرموت بين الطبقـات الآتية (فيما عـدا أسرات السلاطين السابقين من آل القعيطي وآل الكثيرى) :

١ ـ « السادة الأشراف » . وهم ذرية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ويمثلون أبرز الطبقات ، وأبعدها نفوذًا ، خصوصًا بعض البيوتات الكبيرة التى لم تقصر نفوذها على الجانب الديني وتراثه القديم ، وإنما عملت في التجارة خارج حضرموت فجمعت ثروات طائلة أضافت بها إلى شرف النسب وجاهة الحسب . وعلى رأسهم جميعًا بحضرموت السادة آل الكاف .

٢ـ « المشايخ » . وهم الطبقة المثقفة من غير الأشراف ، ويمثلون في الغالب جماعة التجار وأهل العلم من متوسطي الحال أو المتيسرين ، ولهم فى بعض الأحيان شيء من النفود الإداري .

٣ ـ « العبيد » . وهم عبارة عن مستعمرات من الزنوج الذين جلبوا من إفريقية لاستخدامهم كعبيد أو جنود للحراسة فى أول الأمر ، ولكنهم استأثروا بالسلطة العسكرية ، خصوصًا فى جهات حضرموت الداخلية البعيدة عن نفوذ آل القعيطى ، حيث يرتزق العبيد مما يجبون أو يفرضون من شبه جزية على الأهالي والحكومات المحلية .

٤ ـ « الضعفاء والمساكين » (هكذا يعرفون) . وهم عامة الشعب في المدن والقرى الزراعية وعلى الساحل ؛ وهم ذوو الحرف العادية الدارجة أو الحقيرة ممن تقوم فى الحقيقة على أكتافهم الحياة الانتاجية بالبلاد .

٥ ـ « القبائل » . وهم البدو البعيدون عن السلطة فى قيافى حضرموت ، وبعض جهات الوادى المتطرفة فى الشرق والغرب . وهم يحترفون الرعى وقليلاً جدًا من الزراعة ، كما أن بعضهم يحترف نقل المتاجر واحتكار الطرق ، أو على الأقل جباية ضرائب المرور في الأراضي الواقعة تحت نفوذهم .

وقد عنينا بنوع خاص بتتبع أصل كل من تلك الطبقات ، ودراسة نظمها الاجتماعية ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وعلاقة بعضها ببعض من جهة ، ثم علاقاتها جميعًا بالسلطات المحلية والعالم الخارجي من جهة أخرى .

كذلك عنيت البعثة بناحية جديدة من البحث ، تتعلق بدراسة اللجهات التي تستعملها القبائل والجماعات المختلفة في كل من اليمن وحضرموت . فجمعت قوائم طويلة من الألفاظ والمصطلحات ، خصوصًا الغريبة منها عن العربية ، مما كان

موروثًا عـن اللهجات القديمة قبل الإسـلام ، ومتصلاً باللهجات الحبشيـة القديمة والحديثة ، كما هي الحال باليمـن ، أو دخيلاً من ناحية الهند والملابـار خصوصًا بين أهل حضرموت . كذلك درسنا التراكيـب وطرق النحت والتصريف والإعراب ، وقد القت كلهـا غير قليل مـن الضوء على مشكلـة اللهجات واختـلافها فى جنـوب بلاد العرب عنهـا فى الشمال . كما سجلت البعثـة عددًا قليـلاً من اسطـوانات الشمـع ، لاثبات اللهجة فى النطـق ، ولو أننا نأسـف لأن استعدادنا بالآلات العلميـة الخاصة بالتسجيل وغيره لم يكن بقدر ما كنا نحب(*) .

دراسة الحيوان والحشرات (الانتومولوجيا) :

ولم تكـن دراسـة البعثة مقصـورة على البيئـة الطبيعيـة فيما يختـص بـالجيولـوجيـا والجغرافيا ، ثم دراسة الإنسان في سلالاتـه وجماعاته وآثاره ، وإنما كان علينا أيضًا أن نجمع الحيوانات ، خصوصًا الصغيرة منهـا ، والحشرات بنوع خاص . ذلك أن هذه المنطقة لم تكـن قد درسـت من هـذه الناحيـة قبل الآن . وفعـلاً جمعت البعثـة حوالي ٦٠٠٠ عينة من الحيوانات الصغيرة ، وأهمها أنواع الذباب والفراش والجراد ، وبعض الآفات الزراعية الأخرى . وهذه المجموعـة تمثل الحياة الحيوانية الصغيرة في جميع أنواع البيئة ، من ساحل البحر إلى أعلا قمم الجبـال باليمن ، ومن المناطق المطيرة بجنوب غـرب الهضبة اليمنيـة إلى الشديـدة الجفاف بشرق حضرمـوت وشمالها . وقد جمعـت البعثة إلى جـانب الحيـوانات عينـات من النبـات تمثل البيئـة التي تعيـش عليها كـل مجموعة من الحيوانات ، كما أخذت صورًا عديدة تمثل مناظر تلك البيئة .

وللمجموعات الحيوانيـة والمعلومات التى عدنا بها قيمة مزدوجـة ، فهى تهمنا من الناحية العلميـة البحتة ، لأنها تضيف عددًا غير قليل من الأنـواع الجديدة ، التى لم تكن معروفة للعلـم من قبل ، كما أنها تبين عن بعض النواحـى الجديدة من هجرات الحشرات المختلفة بين إفـريقية وجنوب غرب آسيـا ، ثم إن لها فى الوقت نفسـه قيمة عملية ، فيما يختص بعلاقـة بعض الحشرات والآفات بالنباتات الـزراعية ، خصوصًا

(*) يلاحظ أنه فى ذلك الوقت (عام ١٩٣٧) لم يكن نظام التسجيل على أشرطة الكاسست قد عرف بعد .

في حالـة الجراد ، الذى تتبعت البعثـة أماكن تـوالده ، وطـرق هجراته بجنـوب بلاد العرب، ومواسم انتقـاله ، وغير ذلك مما له صلة بالبحـوث التى تجريها وزارة الزراعة المصريـة الآن بـالســودان الشرقـي والصحـراء الشرقيـة ، والتــى تجريها حكـومـات المستعمرات البريطانية السابقة فى شرق إفريقية .

وعندما تنتهى دراسة مجموعاتنا الحيـوانية ، وترتيبها بمتحف قسم الحشرات بكلية العلوم (جـامعة القاهـرة)، ستكون من غير شـك من أثمـن المجموعات التـى من نوعهـا . بل إن القائمين بـأمر قسم الحشرات بكليـة العلوم ينتظرون أن يـؤدى تحقيق الأنواع الجديدة ، ومراجعـة المعلومات التى عدنا بها ، ومقارنتهـا بما هو معروف عن البيئات والحيوانـات فى المناطق المجاورة ، إلى نتـائج طريفة ، وإضافـات جديدة فى الدراسات الخاصة بحشرات المناطق الحارة والدفيئة .

* * *

ذلك ملخـص النتائج العلميـة العامة ، التـى توصلـت إليها البعثـة فى دراساتها التمهيدية للمجمـوعات والمعلومات التـى عادت بها من رحلة اليمـن وحضرموت . وهذه الدراسات كما ذكـرت لاتزال غير متسوفاة فى كثير من نواحيهـا ، خصوصًا وأن الأعضاء وغيرهـم ممن يساهمون فى هذه الدراسـة لا تسمح لهم ظروفهم بالتفرغ لبحث ما لديهم من المواد ومراجعة المذكرات بأكثر من فترات متقطعة . ومع اعترافنا بضرورة التعجيل بنشر النتائج العلميـة ، حتى لا تضيع على الجامعة أولويـة البحث فى هذه المناطق النـائية وغير المعروفة نسبيًا ، فـإننا نخشى أن تؤدى العجلـة المفتعلة إلى سلق الحقائق سلقًـا ، وإبراز النتـائج العلمية فى صـورة مموهـة ، لا تلبث أن تنكشـف ، فيؤدى ذلك إلى عكس الغرض من الرحلة ، التى إنما قامت بها الجامعة وكلية الآداب لتكون دعاية صالحة ، وعنوانًا دائمًا ، بما تضيف للعلم من نتائج ملموسة قد محصت ونـوقشت وصفيـت على نحو ينقيهـا مـن الشوائب ، ويجردهـا من عنـاصر الايهام ، ويبرزهـا للناس فى صـورة أقرب إلى الحقيقـة ، وأبعـد عن الشـك ، مما يخرج بـه على الناس فى كل يوم عامة الرحالين (*).

(*) تمت بالفعل بعض الـدراسات التفصيلية على مدى سنوات بعد عودة الرحـالة ونشرت (لاسيما باللغة الإنجليزية) خصوصًا فى مجال الحشرات وبعض النواحى الجغرافية والجيولوجية .

لذلك كانت سياسة أعضاء البعثة ألا يستغلوا سفرتهم فى النشر السريع ، أو الدعاية الصحفية الشعبية ، التى أقل ما يقال فيها إنها لا يمكن أن تكون خالصة للعلم دون سواه ، وإنما عمدوا فى هدوء إلى دراسة نتائجهم ، وتمحيصها بقدر ما تسمح به أوقات عملهم . وبالرغم من ضيق ما لديهم من الوقت ، فإنهم ليذكرون بالخير للجامعة ، وكلية الأداب على الخصوص ، ما سمحت لهم به من وقت ، وما هيأت لهم من ظروف البحث حتى الآن . وإن فى النتائج التى عرضتها نيابة عن إخوانى الأعضاء فى هذا التقرير العام لبعض ما يكشف عما بذل كل منا من مجهود بطئ ولكنه متصل ، وهذه النتائج بالطبع ستبقى عرضة لقليل أو كثير من التعديل كنتيجة لاستمرار بحوثنا ، والوصول بها إلى النهاية ، ولكننا مع ذلك نطمع أن يمثل جانب من هذه النتائج على الأقل إضافات متواضعة للعلم فى بعض نواحى الدراسة الخاصة بالاقليم الذى زرناه .

وخوفًا من أن تضيع على الجامعة الأسبقية العلمية كما ذكرت ، فقد نشرت البعثة بعض نتائجها بصورة موجزة ، ولاتزال تعمل على ذلك ، بادئة بالبحوث التى تخشى عليها من تأخير النشر . ويمكن تلخيص عملنا من هذه الناحية على الوجه الآتى :

« أ » بحوث نشرت بالفعل :

١ ـ مقال فى مجلة Nature الإنجلزية (سبتمبر سنة ١٩٣٧) .

٢ ـ خلاصة عن النتائج العلمية بمجلة L' Anthropologie الفرنسية (العدد الأخير سنة ١٩٣٧) .

٣ ـ بحث عن الجراد وأنواعه التى اكتشفتها البعثة بمجلة جمعية الحشرات الملكية المصرية (بالإنجليزية سنة ١٩٣٨) .

٤ ـ بحث عن التاريخ الجيولوجي لتكوينات الحجر الجيرى بحضرموت . نشر بعدد ١٩٣٨ من : Comptes rendus de L'Académie des Sciences, Paris

٥ ـ تقرير مبدئى عن النتائج العلمية للرحلة بالمجلد الرابع مَن مجلة كلية الآداب (بالانجليزية) .

٦ ـ ملاحظات عامة ومقارنات بين أقليم الصحراء الأفريقية وبلاد العرب ،

ضمن مقال عن عصر ما قبل التاريخ (بالإنجليزية) . فى عدد سنة ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ من مجلة المجمع العلمى المصرى . Bull . de L'Inst . d'Egypte.

« ب » بحوث فى سبيل الاعداد للنشر (أو كانت فى سبيل الاعداد عند كتابة هذا التقرير وتم نشرها الآن بالفعل) :

١ ـ تقرير عام مفصل عن الرحلة ، والمناطق التي زرناها ، وطريقة البحث التى أتبعها الأعضاء ، والنتائج العامة بشيء من التفصيل (بالعربية) .

٢ ـ بحوث تفصيلية عن مجموعة الحفريات الجيولوجية التى عدنا بها من اليمن وحضرموت ، وتحديد التاريخ الجيولوجي للتكوينات الرسوبية هناك .

٣ ـ بحوث تفصيلية عن مجموعة الحشرات والحيوانات الصغيرة التى عادت بها البعثة من اليمن وحضرموت (وتجرى هذه الأبحاث تحت أشراف قسم الحشرات بكلية العلوم جامعة القاهرة) .

٤ ـ بحث عن الأعمال والاكتشافات الأثرية للبعثة بحضرموت ، ومقارنتها بآثار إفريقية الشرقية ، مع عناية خاطة بتطور فن الرسم والنقش على الحجر فى ذلك الوقت .

٥ ـــ بحوث ومقارنات عن النقوش السبئية والحميرية التى اكتشفتها البعثة باليمن وقد قام ببحثها أحد أعضاء البعثة (خليل يحيى نامى) بالقاهرة وبرلين لمدة عامين ، ثم تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه (أمام كلية الآداب)، ومنح عنها الدرجة .

٦ ـ بحث خاص بالعناصر السلالية بين سكان جنوب بلاد العرب (وقد ألقى بالفعل فى مؤتمر العلوم الانثروبولوجية الذى انعقد بكوبنهاجن فى صيف سنة ١٩٣٨ ؛ ونشرت خلاصته والمناقشات اللاحقة به فى تقرير المؤتمر) .

٧ ـــ بحث خاص بتطورات المناخ فى الزمن الجيولوجى الرابع ، والأدلة الفزيوغرافية الخاصة به فى اليمن وحضرموت (وقد ألقاه رئيس البعثة بالفعل فى مؤتمر الجغرافيا الدولى الذى انعقد بأمستر دام فى صيف سنة ١٩٣٨ ، ونشرت خلاصته والمناقشات اللاحقة به فى تقرير ذلك المؤتمر) .

وسيبدأ بنشر ما يقتضى الأمر التعجيل بنشره من هذه البحوث ، ويرجأ ما قد يكون من الحكمة زيادة التدقيق فى تمحيصه ، والأناة فى نشره .

* * *

وقبل أن نختتم هذا التقرير ، لابد أن نشير بكلمة موجزة إلى الناحية الثانية من مهمة البعثة ، وهى الناحية الثقافية . فقد كان علينا ، كما ذكرت فى بداية هذا التقرير ، أن نحمل رسالة مصر الحديثة الناهضة إلى هذا الركن من الجزيرة العربية ، وأن نعرف القوم هناك ببعض مظاهر النهضة المصرية الحديثة . ومع أن رحلتنا أنفذت فى وقت عصيب ، إذ كانت الحرب الحبشية (بين إيطاليا والحبشه) مستعرة ، كما كانت الحالة الدولية شديدة الاضطراب فى جنوب البحر الأحمر ، فإن مهمتنا لم تكن من الصعوبة بما كنا نتصور ؛ فلقد استقبلتنا الحكومات والهيئات هناك أجمل استقبال ، كما أظهرت استعدادها فى كل مكان للتعاون معنا ، والعمل المشترك فى سبيل انجاح مهمتنا . وفيما عدا بعض الصعوبات التى صادفتنا باليمن ، نظرًا للظروف الخاصة التى كانت تواجهها حكومة الامام يحى بن حميد الدين فى الداخل والخارج وقت زيارة البعثة ، فإن برنامجنا العلمى والثقافى أنفذ على وجه هو أقرب ما يكون إلى الكمال .

وليس هذا مجال الافاضة والتفصيل فيما قوبلت به وفادتنا من ترحيب ، وما أظهره إخواننا اليمنيون والحضارمة من تقدير خالص لرسالتنا الثقافية ، ولا فيما بذله الأعضاء من مجهود ليكونوا عند حسن ظن الجامعة بهم حين شرفتهم بأن يكونوا رسل هذه الدعوة الثقافية . وإنما يكفى أن نأتى على خلاصة موجزة لأوجه نشاطنا فى تبليغ الرسالة ، على وجه يجمع بين الواجب القومى من ناحية ، والغرض الاسمى من رسالتنا ، التى ترمى إلى إنماء الوحدة الثقافية بين أمم المشرق العربى ، من ناحية ثانية .

ويمكن باختصار أن نلخص أوجه نشاطنا فى النقاط الآتية :

١ ــ بدأت البعثة فى عدن بالاتصال بالهيئات العلمية والثقافية ، والتعرف على القائمين بشئون النوادى العربية المختلفة بتلك المدينة ، التى كانت تعتبر أهم

مركـز للنهضة الثقافيـة الحديثة فى جنوب غرب بـلاد العرب ، إذ هى تمثـل نقطة الاتصال بالعالم الخارجى ، والقاعدة الأولى لكل دعوة ثقافية .

٢ ـ ثـم زارت البعثة المنشئات التعليمية بـاليمن ، وتعرفت إلى القـائمين بشأنها . كما طلب إليها أولـو الشأن هناك إبداء بعض الملاحظـات الخاصة بالتوجيـه القومى وعلاقته بنظم التعليـم الحديثة ، التى بدأت اليمن باقتبـاسها فى عدد صغير من المدارس فى تلك السنوات .

٣ ـ عملت البعثـة على أثبات رغبتها فى التعاون المشترك مـع وزارة المعارف اليمنية (إذ ذاك) . وذلك بـأن اختارت ثلاثة مـن الشبان اليمنيين المتعلمين ، والذيـن ثبت حســن استعدادهـم لـلاستفادة . وقـد انضم هـؤلاء الأعضـاء إلى البعثة بقصـد اعطائهم فكرة ولو مبدئية ، عن البحوث الحديثة وطريقة القيام بها وتمرينهم على بعض نواحى الدراسة التى يستطيعون الاشتراك فيها على قدر مؤهلاتهم ، كجمع الحشرات والآفات الزراعية ، وتعرف أنواع النباتات ، أو نقل النقوش القديمة ، واجراء بعض الدراسات اللغوية بـاللهجات . . . الخ . ولعل هذه أول مرة تتبع فيهـا بعثة علميـة من البعثـات التى زارت اليمـن هذه الخطـة ، التى نعتقـد أنها أثبتـت لاخوانـا اليمنيين أن بعثتنا المصريـة تختلـف تمامًا فى حسـن استعدادهـا للتعاون المشترك عن البعثات الفرنجية ، التـى لا تجد الحكومة وأولو الشأن هناك طريقًا إلى تعرف شـىء عن برامجها وخططها ، ولا عن طبيعـة البحوث التى تقوم بها ، مما يـؤدي فى كثير من الحالات إلى الشك فى أغراضهـا ، والريبة فى مـراميها الحقيقية .

٤ ـ اتصل أعضاء البعثة بكثير من أفراد الطبقـات المثقفة باليمن وعدن وحضرموت ، وأنشأوا معهـم علاقـات شخصية ، لا يمكـن إلا أن تكون لها ثمارهـا فى توطيـد اتصال هؤلاء الأفراد بمصر ، وتيسير الطريق لهم فى مـداومة تتبع أوجه التقدم فى النهضة المصرية الحديثة .

٥ ـ اشتركـت البعثة ـ بقدر مـا سمح به وقتها ـ فى الاحتفالات الحكومية ، والمحـافل الشعبيـة على طـول الطـريق ، وفى المدن الكبرى بـاليمـن وحضرمـوت . وكـان الأعضاء على الـدوام يظهرون على نحـو نرجـو أن تكون قـد تحققت بـه الدعـاية

الطيبة لمصر ، والمثل الصالح لما ينبغى أن تكـون عليه بعثة علمية مصرية فى بلاد عربية إسلامية شقيقة .

٦ ـ لاحظت البعثة أن تفشى بعض مظاهر المدنيـة الحديثة بدون رقابة فى جنوب غرب بـلاد العرب ، فى السنـوات الأخيرة (خصوصًـا بعد إدخـال وسائل المواصـلات الحديثة كالسيارة) قد أدى إلى شيء من القلق فى نفوس بعض قادة الفكر هناك ، خصوصًا بـاليمن (وحتى فى عدن نفسهـا) . وكان من نتيجة ذلـك للأسف أن ظهر شـيء من الريبة فى شـأن النهضة العصرية فى بلد كمصر ، وصـورت تلك النهضـة على غير حقيقتهـا ، فكـان ذلـك مثـارًا لشـيء مـن الشـك فى إمكـان انسجامها والروح الإسـلامى انسجامًا كافيًا ، بـل وداعيًا إلى غير قليل من الحذر من عواقب تفشيها من مصر إلى العالم العربى الإسلامى . ولكن البعثة بذلت كل جهدها فى تبديد هذه الوساوس والمخاوف ، وفى إظهار جانب الحق من النهضة المصرية ، وإزهاق ما يحوم حولها من أراجيـف . ونعتقد أننا ، والحمد لله ، وفقنا من هذه الناحية إلى حد كبير .

٧ ـ وفى حضرموت زارت البعثةالمنشئات التعليمية ، بما فى ذلك جامع الرباط بتريم ، وهو أكبر معهد دينى بحضرموت . كما عنيت بالتعرف إلى عدد كبير من الشباب المثقف هنـاك ، ومن قـادة الفكر ، والـداعين إلى النهضة . ويـلاحظ مـن هذه الناحية ان الحضارمة بحكم اتصالهم بالعالم الخارجى ، وكثرة أسفارهـم للعمل فى التجارة ، قد أصبحـوا أكثر استعدادًا لاقتباس معالم النهضـة الحديثة ، و الأخذ بوسائل التقدم الحديـث . وقد سهل ذلك بالطبع مهمتنا الثقـافية بينهـم إلى حد كبير .

* * *

من كل هذا يتبين إن البعثة قد حاولت آن تجعـل إقامتها باليمن وحضرموت نافعة ومفيدة بقدر الإمكـان ، فهى لم تقصر عملها على ناحية البحـث العلمى فى الأوقات المخصصـة لـذلـك ، وإنما استفـادت أيضًـا مـن أوقـات فـراغهـا ، ومـن ظـروف الاستقبالات الرسمية وغيرهـا مما كان لزامًا عليها أن تساهـم فيـه كبعثة مصرية فى بلاد عـربية تـربطها بمصر صـلات الثقافـة والجوار وصلات التـاريخ منـذ القدم . وقـد

لانبالغ إذا قلنا أن توفيقنا من هذه الناحية الثقافية لم يكن ليقل عن توفيقنا من الناحية العلمية الصرفة . ولقد خرجنا من مناقشاتنا وأحاديثنا مع إخواننا العرب هناك بعدد من الاقتراحات العملية لما ينبغى أن يعمل للمستقبل ، وما يجب أن يبدأ به كخطوة أو خطوات عملية فى سبيل توثيق العلاقات الثقافية وإنمائها بين مصر وهذا الجانب من الجزيرة . ولكننا قبل أن نورد تلك الأقتراحات نحب أن نشير إلى نقطة خاصة نرى لزامًا علينا أن نفصلها بالذات . ذلك أن موضوع الحديث الأول فى مناقشاتنا مع مضيفينا باليمن وحضرموت كان دائمًا يدور حول مكانة مصر الثقافية فى المشرق العربى، ومع أن الجميع كانوا يعترفون بهذه المكانة ، فإن الكثرة منهم لم تكن لترى فيما تقوم به مصر الآن وفاءً كافيًا لما يتبع هذه المكانة من واجبات والتزامات . فمصر حقيقة هى المركز الأول للثقافة العربية فى عهدها الجديد ، وهى أسبق بلدان المشرق فى مضمار التقدم الحديث ؛ ولكن شئونها ونهضتها أصبحت اليوم شديدة التعقيد بما اقتبسته من مظاهر الحياة الأوروبية الحديثة ، وبما قد ترمى إلى إحيائه من مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، كما أن ثقافتها أصبحت فى العهد الأخير شديدة الاتصال بشئونها الوطنية البحتة . وقد أدى ذلك فى نظر محدثينا إلى أمرين هامين : (١) أن النهضة المصرية الحديثة أصبحت من التقدم والتعقيد بحيث يصعب تقليدها واقتباسها فى بعض البلدان العربية الناشئة ، خصوصًا بلدان الجنوب كاليمن وحضرموت ، التى كانت بحكم موقعها الجغرافى أبعد عن العالم الأوروبى وأقل مقدرةعلى إقتباس معالم حضارته الحديثة وهضمها من بلدان الشمال كالعراق وسورية وفلسطين . (٢) أن مصر نفسها أصبحت (أو كانت إلى عهد قريب جدًا) شديدة الانهماك بشئونها الخاصة ، إلى حد لا يكاد يسمح لها بأن تقوم بحقوق الريادة بين أمم المشرق على وجه يحقق الخير للجميع . وفعلاً صارحنا عدد من ذوى الرأى ممن تحدثنا إليهم باليمن وعدن بأنه قد يكون أدنى إليهم ، وأسهل منالاً ، أن يتخذوا مثالهم فى النهضة عن بلد كالعراق الذى كان إذ ذاك يضع الدعاية بين الأمم العربية فى الموضع الأول من سياسته القومية ، فهو قد دعا اليمن إذ ذاك إلى إرسال بعثتين من الطلبة اليمنيين إلى مدارس العراق ، واحدة منهما للتخصص فى الفنون العسكرية ، والأخرى لتلقى العلم المدنى الحديث ، وهو قد تكفل بتعليم عدد من تلاميذ عدن فى

مدارسه وإداء مصاريفهم (أو الجانب الأكبر منها) فى الذهاب والاياب والأقامة بالعراق[1].

ونعود إلى دور مصر فى « الريادة » الثقافية بالشرق العربى ، وقد كانت أسبق أمم الشرق فى احتكاكها بالغرب ، منذ أكثر من قرن من الزمان ، وهى بمواردها الجمة ، وتراثها الثقافى العظيم ، ثم باختباراتها ومقدرتها (التقليدية) على هضم عناصر الثقافة الغربية الحديثة ، وصبغها بصبغة شرقية تستسيغها الأمم الإسلامية الراغبة فى النهوض ، تستطيع أن تتولى « الريادة الثقافية » عن جدارة وحنكة ، وان تضطلع بمهامها ومسئولياتها على نحو فاعل ومفيد . ولقد كانت العراق نفسها فى سنوات لاحقة أولى الأمم العربية استعانة بمصر فى نهضتها الحديثة ، واقتباسًا للنظم المصرية التى إنما قامت على أساس التجربة ـ والتجربة القاسية أحيانا ـ خلال أجيال .

ولعل خير ما نستطيع أن نختتم به هذا التقرير هو أن نتقدم ببعض الاقتراحات العملية ، التى يصح أن تبدأ بها مصر كخطوات مبدئية فى سبيل قيامها بواجب الأمانة نحو أمم المشرق العربى الشقيقات واللائى يتبعنها فى نهضتها الثقافية الحديثة . وهذه الاقتراحات يمكن تلخيصها فى النقاط الآتية :

١ ـ أن تؤلف لجنة مشتركة ، أو مجلس أعلا مشترك ، يكون بين أعضائه من يمثلون مختلف البلدان العربية ، وبينها مصر ، ويوكل إليه رسم السياسة العامة لتوحيد مظاهر الثقافة بقدر الامكان ، وتوجيه النهضة الحديثة فى البلدان العربية المختلفة توجيهًا يضمن التعاون المشترك والفائدة المشتركة . ولا بأس أن تنعقد تلك اللجنة على شكل مؤتمر دولى فى مختلف عواصم المشرق العربى ، ولكننا نقترح أن يكون مكتبها الدائم بمدينةالقاهرة (*).

---

(١) هذه الفقرة من التقرير الحالى كانت قد كتبت قبل أن تبدأ وزارة المعارف (التربية والتعليم) المصرية فى الأخذ بأسباب توثيق علاقاتنا الثقافية بجنوب المشرق العربى ، وذلك بقبولها بعثة مؤلفة من عشرات التلاميذ من أبناء عدن (واليمن) بالمجان بالمدارس المصرية فى العام الدراسى ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ . ثم فى الأعوام التى تلت ذلك .

(*) يلاحظ أن هذا الرأى أبدى قبل أن تبدأ جامعة الدول العربية ومنظماتها الثقافية وغيرها فى عام ١٩٤٥ .

٢ ـ أن تـؤلف لجنة مصريـة قومية ، يكون بين أعضـائها من يمثلـون مصر فى اللجنة المشتركة التى أشرنا إليها ، وتوضـع تحت إشراف وزارة المعارف بصفة مؤقتة (وإلى أن تنشأ وزارة أو مصلحـة للثقافـة فى مصر)(*). ويوكل إلى هـذه اللجنة تحديد نصيب مصر والتزامـاتها حيال ريادتها الثقافيـة للمشرق العربى ، والإشراف على تنفيذ برنامجها العملى فى الدعوة الثقافية .

٣ ـ أن تتابع الجامعة المصرية ، وكلية الآداب على الخصوص ، إيفاد البعثات العلمية والثقافية بشكـل دورى إلى مختلف بلدان المشرق العربى . وهـذه البعثات إما أن تكـون على نمـط بعثة اليمـن وحضرمـوت ، بمعنـى أن تتولى البحـث العلمـى التفصيلى ، إلى جانب القيام بمهمة الدعوة الثقافية ؛ وإما أن يقتصر عملها على هذا الجانـب الأخير دون سواه . ونقترح مؤقتـًا أن يكون نصيـب كل قطر عـربى بعثة مصرية فى كل عامين أو ثلاثة .

٤ ـ أن تقوم مصر بإيفاد بعثات تعليمية دائمة ، قوامها عدد من المعلمين على نحو ما فعلت مع العراق والحجاز (ولكن على أساس أكثر سخاء من الناحية المادية فيما يختص ببعـض البلدان العربية الأخـرى) . ونقترح أن تبدأ وزارة المعارف بـإيفاد البعثات التعليمية الدائمة إلى جنوب بلاد العرب على النحو الآتى : (أ) معلمان لمدارس عدن ، بـالاتفاق مـع إدارة التعليم ومـدرسة الفـلاح الحرة . (ب) ستة مدرسين لليمن (إن أمكـن) ، إثنان بصنعاء ، وإثنان بلواء تعـز ، وإثنان بلواء الحديّدة ، على نحو يتفق عليه مع وزارة المعـارف اليمنية . (جـ) أربعة مدرسين (أو خمسة) لحضرموت ، إثنان بـالمكلا ، على نحو يتفق عليه مع حكـومة عظمة السلطان صالح القعيطى ، وإثنان (أو ثـلاثة) بداخلية حضرموت ، على نحو يتفق عليه مع القائمين برعاية التعليم هناك من السادة آل الكاف ، والمشرفين على معهد الرباط وجمعية التعاون والأخـوة بتريم . ولا شك أنه سيكون لهذه البعثات الـدائمـة بعـدن واليمـن وحضرمـوت أثـر كبير فى نشر الثقـافـة المصريـة

(*) يلاحـظ أيضًا أن هـذه الملاحظة قـد أبديـت قبل أن تقـوم وزارة الثقافـة في مصر عام ١٩٣٨ ثـم وزارة الأعلام بعد ذلك بأعوام .

الحديثة ، خصوصًا إذا أحسن اختيار الأشخاص ، ممن يصلحون لهذه المهمة الخاصة (*).

٥ ـ أن تدعو وزارة المعارف (التربية والتعليم والثقافة والجامعات المصرية) الحكومات والهيئات باليمن وعدن وحضرموت إلى إيفاد بعثاتها الدراسية إلى المدارس المصرية ، على أن تشجع مصر هذه البعثات من الناحية المادية على نحو ما تفعل العراق مع البعثات اليمنية والعدنية التى تدرس بمدارسها الآن . ويلاحظ هنا أن تكاليف الأقامة بمصر من الغلاء النسبى بحيث لا تشجع أولى الشأن بجنوب بلاد العرب على إيفاد بعثاتهم إلى مصر ، إلا إذا قامت هذه الأخيرة بشىء من المساعدة المادية .

٦ ـ أن تعنى المعاهد المصرية العالية ، والجامعة بنوع خاص ، بتشجيع الطلبة العرب الجنوبيين ، ممن يصل تعليهم إلى مرحلة الدراسة الجامعية . وبعضهم الآن (خصوصًا الحضارمة) قد التحق أو تخرج بالفعل فى كلية الآداب بمصر . وهؤلاء بالطبع هم قادة الفكر فى المستقبل ، عندما يعودون إلى بلادهم ، و ليس عسيرًا على الجامعة أن تتدبر وسائل مساعدتهم ، والعناية بهم ، وأن تشجع أمثالهم فى المستقبل على اتمام دراساتهم العالية بمصر ، على نحو ما تفعل الآن مع الطلبة العراقيين والسوريين والفلسطينيين وغيرهم .

٧ ـ أن تنظم الدعوة الثقافية العامة بين مصر وبلدان المشرق العربى الجنوبى ، على شكل يقرب مظاهر الثقافة المصرية إلى إخواننا العرب هناك ، ويحببهم فيها من ناحية ، كما يزيد من معرفة الجمهور المصرى المثقف بهذه البلاد ، من ناحية أخرى . ويكون تنظيم هذه الدعوة عن طريقين : (أ) فيما يختص باليمن وعدن وحضرموت تسعى الجامعة لاقناع أولى الأمر هنا بضرورة الاسراع بتقوية محطة الإذاعة المصرية ، على نحو يجعل من الممكن الاستفادة منها فى إذاعة برنامج

(*)هذا كلام تحقق فيما بعد فى صوره أوسع وأروع كثيرًا . وتحدثًا بنعمة الله فإن المؤلف يذكر أنه قد عهد إليه عدة سنوات ، وابتداءً من عام ١٩٥٠ شرف الإشراف على برامج التعاون المصرى مع المشرق العربى الشقيق (فى كل من آسيا وإفريقية) فى مجال التعليم والثقافة حتى بلغ عدد أفراد البعثات المصرية فى تلك البلاد آلافًا عديدة .

منظم للدعوة الثقافية فى تلك البلاد . ولطالما سمعنا الشكايات ونحن بجنوب بلاد العرب (عام ١٩٣٦)من أن برامج الإذاعة المصرية غير مسموعة ، نظرًا لضعف المحطة ، ولأنها ، حتى فى حالة السماع ، لا تعنى كثيرًا بالشئون العربية وأخبار دول الشرق العربى . ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن مسألة تقوية محطة الإذاعة المصرية (وجعلها ذات موجة قصيرة)، وإصلاح البرامج والعناية بها ، ينبغى أن تلقى من ذوى الشأن هنا العناية السريعة الواجبة ، نظرًا لأهميتها من الوجهتين القومية والثقافية (*). (ب) فيما يختص بالجمهور المصرى ، تنظم الجامعة ، وكلية الآداب على الخصوص ، بعض المحاضرات الدورية عن المشرق العربى الجنوبى ، وسكانه ، وحالتهم الاجتماعية والثقافية الخ ، ويصحب هذه المحاضرات بعض النشرات إن أمكن ، عن الروابط بين مصر وهذه البلاد ، وأهمية توثيق العلاقات الثقافية بها .

تلك بعض الأقتراحات العملية التى رأينا أن نتقدم بها فى ختام هذا التقرير . وهى بالطبع لا تدخل بجملها فى إختصاص كلية الآداب ولا فى اختصاص الجامعة ، ولكننى رأيت أن أتقدم بها للتصرف فيها بما ترى الكلية وما ترى الجامعة ، ولعل هذه الأخيرة تستطيع أن تتقدم بما تقره من هذه الاقتراحات إلى أولى الشأن ، فى الهيئات الحكومية ، التى تستطيع أن تساهم فى إداء رسالة مصر الثقافية .

* * *

والآن وقد انتهينا من عرض هذه الخلاصة عن أعمال البعثة ، وما وفقت إليه من الوجهتين العلمية والثقافية ، نرجو أن نكون فيها ذكرنا بعض ما يحقق الأمل في إنتاج هذه البعثة ، التى حبت الجامعة أعضاءها بكل رعاية ، ومنحتهم كل تشجيع ، سواء أكان ذلك بتقرير إيفادهم وتيسير رحلتهم ، أم بتوفير وسائل البحث والدراسة لهم بعد عودتهم . وإذا كانت بعثتنا المتواضعة قد ساهمت فى أداء رسالة الجامعة على وجهها الصحيح ـ وهى ، كما يتفق الجميع ، رسالة لا تقوم على أساس التعليم ونشر الثقافة العالية وفقط ، وإنما تقوم كذلك على المساهمة بأسم مصر فى البحث العلمى ،

(*) لقد تغير هذا الوضع تغيرًا كاملاً بعد انشاء وزارة الإعلام المصرية .

والاستكشـاف ، والاضافـة إلى المعرفـة البشرية ، ثـم العمل على إشعـاع نور العلـم الحديث إلى المشرق العربى ، وإحيـاء روابط الثقافة بين شعوبه ، وإقـامة « الريادة » المصرية بين هذه الشعوب على أساس العلم والثقافة والمعرفة . . . إذا كانت بعثتنا قد ساهمت بنصيب متواضع فى هذه السبيل ، فإنما الفضل فى ذلك يرجع أولاً وقبل كل شىء إلى ما أسداه نحونا من قبل أساتذتنا بكليتى الآداب والعلوم من الأرشاد وحسن التوجيه ، وما قدمته إدارة الجامعة من رعاية ومساعدة .

« وعلى الله قصد السبيل » .

رقم الإيداع : ١٩٩٢/٩٣١٣
I.S.B.N. 9777- 09-112-1

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

